إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

(٤)

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمـان العـودة

ح مؤسسة الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العودة، سلمان بن فهد عبد الله

إشراقات قرآنية / سلمان بن فهد العودة، الرياض ، ١٤٣٦هـ

حزب المُفَصَّل (ج٤) من «سورة الطارق» إلى «سورة الناس»

٤٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ١ - ٢ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - التفسير، الحديث ٢- القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ٨٩٦٧ / ١٤٣٦هـ

رقم الإيداع: ٨٩٦٧ / ١٤٣٦هـ

ردمك: ١ - ٢ - ٩٠٧٢٦ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٤)

الإسلام اليوم

إصدارات الإسلام اليوم

الطبعة الأولى - جمادى الأولى ١٤٣٧هـ

الرياض:

هاتف: ٠١١٢٠٨١٩٢٠

فاكس: ٠١١٢٠٨١٩٠٢

بريدة:

هاتف: ٠١٦٣٨٢٦٤٦٦

فاكس: ٠١٦٣٨٣٠٠٥٣

جوال: ٠٥٥٥٨٦٦٠٤٤

ص.ب: ٢٨٥٧٧ - الرمز: ١١٤٤٧

info@islamtoday.net

www.islamtoday.net

للتواصل مع المؤلِّف:

@salman_alodah

/SalmanAlodah

salman@islamtoday.net

www.youtube.com/user/DrSalmanTv

www.islamtoday.net/salman/

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـ«**مؤسسة الإسلام اليوم**»، ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنفيذ الكتاب كاملاً أو مجزءًا أو تسجيله بأية وسيلة، إلا بموافقة الناشر خطيًا.

إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الرابع

من «سورة الطارق» إلى «سورة الناس»

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ الطَّارِقِ

❁ **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الطارق**»[١]، وبه سماها البخاري في «صحيحه»، وعامَّة المفسرين والعلماء؛ وذلك لِوَجَازته واختصاره.

وسُمِّيت في بعض التفاسير: «**سورة** ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾»، كما في «تفسير مجاهد»، و«تفسير عبد الرزاق»، و«تفسير الطبري»، وغيرها[٢].

وورد في السنة النبوية- كما في حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسولَ الله ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾. كما تقدم في «سورة البروج»[٣].

❁ **عدد آياتها:** سبع عشرة آية عند جمهور علماء العَدِّ.

وقيل: ست عشرة، وكأن القائل بهذا عدَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ آيةً واحدةً[٤].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٢٠)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٣) ووردت روايات بدون الواو فيهما، كما تقدم تخريجه في أول «سورة البروج».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص٢٠٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢١)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٥)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٦).

* **وهي مكية** باتفاقهم، كما ذكر ابن عطية، والقرطبي، وابن عاشور، وغيرهم[1].

ومما يدل على مكيَّتها: موضوعاتها، كالحديث عن الخلق، والآيات الربانية، والبعث، ووعيد الكافرين، وهي معانٍ تتكرر في القرآن المكي.

وجاء في حديث مشهور رواه أحمد، وابن خزيمة عن عبد الرحمن بن خالد العَدواني، عن أبيه، أنه أبصر رسولَ الله ﷺ في مشرق ثَقِيف وهو قائم على قوس أو عصًا، حين أتاهم يبتغي عندهم النصرَ، قال: «فسمعتُه يقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ...﴾ حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام. قال: فدعتني ثَقِيفٌ، فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم»[2].

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾:

في الآية قَسَمان: الأول بـ«السماء»، والثاني بـ«الطَّارق»:

أما السماء: فهي كل ما علا وارتفع[3]، وتُطلَق على السبع الطِّباق التي ورد ذكرها في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٢].

والغالب في أقسام القرآن أنها متعدِّدة، فمن ذلك: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

وتعدُّد القَسَم به إشارة إلى تعدُّد الخلق ووحدانية الخالق تعالى.

وثَمَّةَ مواضع يكون القَسَم فيها مفردًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٩٥٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٢٧٤، ١٢٧٥)، وابن خزيمة (١٧٧٨)، والبغوي في «معجم الصحابة» (٢/ ٢٣٩) (٥٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٤١٢٦- ٤١٢٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢/ ٩٤٧) (٢٤٤٨).

(٣) ينظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٨٦٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٢٧)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٩٧) «س م ا»، «س م و».

[النجم: ١]، أقسم بالنَّجم وحدَّد حالًا خاصة وهي ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾، فكأنَّ القَسَم هنا إما أن يكون بمتعدِّد يدل على تعدُّد الخلق، أو يكون قَسَمًا بجزء؛ فهو لم يقسم بالنجم كله، وإنما أقسم بالنجم في حالة كونه يهوي، وهذا ليس عامًّا للنجوم كلها، بل هو خاص بالنجم الذي يهوي، وهو الشِّهاب الثاقب المذكور في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[١] [الصافات: ١٠].

وهذا يؤكِّد تعدُّد الخلق وانقسامه، ووحدانية الخالق وكماله وجلاله.

فأقسم بـ«**السماء**»، وثنَّى بـ«**الطَّارق**»، وهذا الطَّارق يهوي من السماء.

وهو مأخوذ من الطَّرْق، وهو الضرب الشديد، ومنه: المِطرقة التي يُضرب بها، وغالبًا ما يُطلَق «الطارق» على الذي يأتي في الليل[٢]، ولذلك جاء في الحديث أن النبيَّ ﷺ نهى أن يَطْرُقَ الرجلُ أهلَه ليلًا؛ يتخوَّنهم، أي: إذا جاء من سفر فإنه يطرق بيته في الليل كأنه يختبر أهله، يخشى الخيانة من زوجته، فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك، وقد علَّل النهي بقوله: «**حتى تمتشطَ الشَّعِثةُ، وتَسْتَحِدَّ المُغِيبةُ**»[٣]. أي: لكي تتجمَّل الزوجة، وتستعد لزوجها، فلا يفاجئها بالمجيء ليلًا.

وربما كان ذلك لأن الآتي في الليل يحتاج إلى طَرْق الباب، في حين أن أبواب النهار مفتوحة، لا تحتاج إلى طَرْق.

* ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[٤].

وهو سؤال تفخيم وتعظيم، ودعوة إلى التطلُّع إلى معرفة الطارق، وحفاوة

---

(١) ينظر ما تقدم في أول «سورة النجم».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٨٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥١٨) «ط ر ق»، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٦٣- ٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٤٧)، ومسلم (٧١٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾.

واهتمام وتضخيم لأمره؛ ليكون الذهن متحفِّزًا لتلقِّي الجواب.

والقرآن يوجِّه المخاطبين إلى العناية بالنجوم ومراقبة حركاتها والانتقال من ذلك إلى الإيمان بخالقها؛ لأنها من مظاهر الخلق والإبداع الرباني.

❁ ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾:

وصفه بأنه يثقب الظلام بضوئه[١]، وهو توصيف لم يكن معروفًا عند العرب، وجاء مرة أخرى في قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠].

وقيل: إن من معنى الثاقب: أنه يَقْصِد الشياطين فيحرقهم ويهلكهم[٢].

واختلفوا في هذا النجم، أهو الثُّرَيَّا، أم زُحَل[٣]؟

والأقرب أن المقصود جنس النجوم، وعليه فإن الله تعالى أقسم بالنجوم كلها.

❁ ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾:

﴿إِن﴾ بسكون النون، وقد يكون معناها النفي، يعني: ما كل نفس إِلَّا عليها حافظ، وقد يكون معناها الإثبات، فتكون مثل «إنَّ»، والمعنى: إنَّ كل نفس لعليها حافظ[٤]، وعلى هذا تكون «ما» في قوله: ﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا﴾، زائدة أو صلة كما يقولون، والآية في الحالين تقرِّر حقيقةً، وهي أن كل نفس عليها حافظ.

قيل: الحافظ هو: الله[٥]، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٠٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٦٠)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٤٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٦).

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥)، و«الدر المنثور» (١٢/ ٣٨٩)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٠)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٤٨- ٣٤٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٧).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٧)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ١٧٦).

ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، فهو حفيظ على العباد، ومن أسمائه: الحفيظ، والحافظ[١].

والأقرب- وهو قول الجمهور- أن المقصود: الملائكة الحَفَظَة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وقوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾[٢] [الانفطار: ١٠- ١٢].

ولهذا خَصَّ كل نفس بأن عليها حافظًا، أي: من الملائكة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ [ق: ١٧]، فكل نفس عليها حافظ يخصُّها وحدها، ومهمَّته أن يحفظ أعمال الإنسان ويراقبه، والله أعطى هؤلاء الملائكة الحافظين القدرة على أن يعلموا كل ما يحتاج إلى علم ومعرفة فيقيِّدوه، حتى ما يُسِرُّه الإنسان في ضميره من الهمِّ والقول والفعل[٣].

وفي الحديث: «**قال الله** عَزَّوَجَلَّ: **إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها، كتبتُها له حسنةً، فإن عملها، كتبتُها عشرَ حسنات إلى سبعمائة ضعف، وإذا هم بسيئة ولم يعملها، لم أكتُبْها عليه، فإن عملها، كتبتُها سيئةً واحدةً**»[٤].

فهم على معرفة بما يَهُمُّ به الإنسان، فضلًا عما فوقه، وقد يتخلَّص المرءُ من الناس ويستتر عنهم؛ لكنه لا يستتر من الكرام الكاتبين، ولو كان عندك اثنان من كرام أصحابك، فلن تجرؤ على فعل ما لا يليق أمامهم، والملائكة أولى، ولو استحضرت حقيقة حضور الملائكة، لاستقامت سريرتك؛ ولهذا جاء في الحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ**»[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٨)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٤٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٠٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥١)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»، و«سورة الانفطار»: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٧٥، ٦٨١٠)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقيل: أنهم يحفظون للإنسان ما كُتِبَ له من رزقه وأجله وعمله، فإذا جاء القدر خلَّوْا بينه وبينه، ولذلك ربما يتعرَّض الإنسان لكرب مفاجئ، ثم ينجو بأعجوبة؛ لأن الله تعالى وَكَّلَ به مَن يحفظه.

وقيل: أنهم يحفظون الإنسان في حياته إلى الموت، وهو قريب مما قبله[1].

وحقيقة الملائكة تُعَدُّ شيئًا جديدًا على أهل الجاهلية، فجاء القَسَم عليها في القرآن؛ لترسيخ الإيمان بها؛ لأن الحفظ له ما بعده، وهو أن المرء راجع إلى ربه، ثم هو محاسِبه ومجازيه على عمله.

وهل ثَمَّ تناسب بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه؟

نعم، وكأن العلم والاطلاع الذي أَقْدَر الله عليه الملائكة، ومن قبله وبعده علم الله الذي يتخلخل ظلمات النفس الإنسانية، يشبه النجم الثاقب الذي يخترق الظلام ليصل إلى مداه وما كُتِبَ له، ويزيل الظلمة من حوله، فهكذا العلم يكشف ظلمات النفس، وصدق الشاعر إذ يقول[2]:

وإذا خَلَوْتَ بريبةٍ في ظلمةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ
فاستحي مِن نَظَرِ الإلهِ وقلْ لها: إنَّ الذي خلقَ الظلامَ يراني

قد يكون في القلب معانٍ خفيَّة غامضة لا يتفطَّن لها صاحبها، والعلم الإلهي يخرق الحجبَ ولا يُكِنُّ منه سترٌ، ثم الملائكة الموكَّلون يطَّلعون ويدوِّنون؛ فخليق بالإنسان أن يكون مراقبًا لنفسه حق المراقبة، عارفًا بها، مدركًا لدوافعها ونوازعها.

* ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾:

والمرء قد يكون غنيًّا بماله أو جاهه أو سلطانه، فبيَّن الله ضعفه الفطري بالنظر إلى أصل خلقته: ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ صيغة أمر، بفعل مضارع مع لام الأمر، أي: انظر مم خُلِقْتَ؟ والأمر يدل على الوجوب، فيجب على الإنسان أن يتفكَّر كيف خُلِقَ، ومم خُلِق؟

ونظر الإنسان للمادة التي خُلِقَ منها، وهي الماء الدَّافق، هو نظر اعتبار وتبصُّر

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ١١٩)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «نونية القحطاني» (ص٢٩- ٣٠).

وتعقُّل؛ لأن الماء الذي يراه يخرج منه، هو من جنس الماء الذي خُلِقَ منه.

وليس المقصود هنا: الكافر، وإن كان سياق النص قد يُوحي بذلك؛ لأن الآية فيها توبيخ وعتاب، لكن الأمر عام لجنس الإنسان أن ينظر ويتدبَّر(١).

* ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ٦﴾:

التنكير للتحقير، فهو دليل على هوان أصل الخِلقة، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩]، أي: من شيء مَهين، وقال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]، فأصل الخِلقة لا يؤهِّل الإنسان للاستكبار والكفران.

وليس في الآية حَطٌّ من قدر الإنسان؛ فالله تعالى خلق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من هذا الماء، **ولهذا اختلف الفقهاء في المنيِّ**، هل هو طاهر أو نجس؟ **والراجح** أنه طاهر؛ لأنه أصل الناس، ويبعد أن يُخلق الإنسان من نجس- لا سيما الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- وقد كان النبي ﷺ يُفرك المني من ثوبه ثم يصلِّي فيه، وكان يغسله ثم يخرج إلى الصلاة وأثر الغسل في ثيابه(٢)، وهذا ليس شأن النجاسة، والأصل في المياه الطهارة.

والإسلام لا يستقذِر الدوافع الجنسية، ولا يكرهها بذاتها، وحتى الاغتسال الذي أُمِرَ به الإنسان بعد المواقعة، ليس لأنه قارف خطيئة، فهو يغتسل ليتطهر منها، كلا، ولكنه إعادةٌ للحيوية والنشاط إلى جسد الإنسان.

ومعنى ﴿مَّهِينٍ﴾: ضئيل أو قليل جدًّا، أو ضعيف، أو رقيق، وغالب كلام المفسرين يدور حول هذا المعنى(٣).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٢).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٢٩- ٢٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٨٨- ٢٩٠)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٦١- ٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٥٤٤)، و«تفسير الطبري» (١٨/ ٦٠٠)، (٢٣/ ٥٩٤)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ١١٨)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ٤٣٨)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٥٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٨٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩٨).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٠٠)، و«التبيان في تفسير غريب القرآن» (ص٢٦٤).

وقد أشار القرآن الكريم إلى قضايا الجنس، والعلاقة بين الرجل والمرأة في مواضع كثيرة، ومنها هذه الآية، فجعلها محلًّا للاعتبار، كما قال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨- ٥٩].

إن مثل هذه المعاني ليست مما ينبغي كتمانه أو التستُّر عليه، بل هي حقائق مهمَّة، لا حرج أن تدركها الفتاة، ويدركها الفتى، وليس فيها استثارة للغرائز، ولا ذِكْرٌ لما ينبغي الأَنَفة منه.

إن حديث القرآن والسنة عن هذه الحقائق والمعاني حديث عفيف محتشم، ليس فيه إثارة ولا تهييج، وفي «سورة يوسف» ذكر تعالى قصته عَلَيْهِ السَّلَامُ مع امرأة العزيز: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ [يوسف: ٢٣- ٢٤]، فهنا خلوة دبَّرتها امرأة العزيز؛ لتوقع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن السياق جاء بها بطريقة متعالية عن الإسفاف والإثارة، مما يؤدِّي إلى الرُّقيِّ بهذه الدوافع والوعظ فيها، وليس إلى التحريض على فعلها.

أما حينما تتحوَّل هذه المعاني إلى وسائل للإثارة والإغراء، كما في بعض الروايات والأفلام التي تعتمد على استثارة الغرائز، بحجة الواقعية في السرد، فهذا توظيف سلبي، كما أن شدة التوقِّي والإفراط هي جاهلية أخرى مستترة، فينبغي أن يُعَالَج الإفراط والتفريط بالرجوع إلى أسلوب القرآن والسنة، ومراعاة قدر التعليم والتثقيف والمصلحة والمفسدة.

والدَّافق هو: المدفوق، وهي لغة الحجاز، كقوله سبحانه: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، أي: مرضيَّة(١).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٥٦٩)، (١٢/ ٤١٨)، (٢٤/ ٢٩٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١١/ ٤٢٩)، (٢٣/ ١٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١١٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥١)، و«روح البيان» (٤/ ١٣٢)، وما تقدم في «سورة الحاقة».
وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٦) «د ف ق»، و«الكليات» للكفوي (ص٤٥٣).

والأقرب ما رجَّحه ابن القيم وغيره، أن ﴿دَافِقٍ﴾ معناه أنه دافق بذاته[1].

ويتقوَّى هذا إذا علمنا أن الماء الدافق يحمل ملايين الحيوانات المنوية، وإنما سُمِّيت حيوانات؛ لأنها حية، والذي يلقِّح البُويضة إنما هو واحد من هذه الملايين.

وهي في سباق محموم إلى هدفها المرسوم!

* ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾:

أجمع أكثر العلماء على أن «**الصُّلب**»: عظام الظهر، والأكثرون على أن «**التَّرائب**»: عظام الصدر، وخصَّها معظم علماء اللغة بعظام الصدر للمرأة[2].

واستشكل بعض المعاصرين هذه الآية، وأحدث لَبْسًا على ضعفاء الإيمان، وحاول بعض المُغْرضين التشكيك في صحة القرآن وقدسيَّته من هذه الشبهة، فقالوا: ما علاقة «**الصُّلب**» الذي هو الظهر، و«**التَّرائب**» التي هي عظام الصدر بهذا الماء الذي يخرج من الخِصْية والبُويضة التي تتخلَّق في عنق الرحم؟

ولو كان في هذا الكلام مأخذ أو مطعن لكان المشركون الأولون أول مَن يستنكر ذلك، واستغلُّوه لتكذيب الرسول ﷺ، ولكنهم وجدوا أنه معنى صحيح جارٍ على قواعد لغتهم، وموافِق ومطابق للمحسوس، فلم يستنكروه.

و﴿ٱلصُّلْبِ﴾ يشمل عظام الظهر حتى عظام العَجُز، فكلها تُسَمَّى صُلبًا، فكل ما كان من العظام خلف ظهر الإنسان فهو صلب، من عظام الكتفين إلى أسفل الظهر، وبهذا يدخل العَجُز في الصلب، وهو ما يسمَّى: العمود الفقري.

---

(١) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص١٠٢)، و«أعلام الموقعين» (١/ ١١٢)، و«بدائع الفوائد» (٣/ ٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢- ٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤- ٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٦٣)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٠٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٢).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٨٩)، و«لسان العرب» (١/ ٢٣٠، ٥٢٦)، و«تاج العروس» (٢/ ٦٦)، (٣/ ٢٠١) «ت ر ب»، «ص ل ب».

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: عظام الصدر وموضع القِلادة، وعظام الأضلاع، وكان الضحاك يقول: «إن الترائب هي عظام الرأس واليدين والرجلين».

والمسألة فيها أقوال، وقد ذكر ابن الجوزي، وابن كثير وغيرهما أربعة أقوال للُّغويِّين في تفسير «الصُّلب» و«الترائب»، **أجودها** أن المقصود بـ«**الصُّلب**»: عظام الظهر، حتى عظام العَجُز، و«**التَّرائب**»: عظام الصدر، حتى عظام الحوض[1].

وهذا يُوحي **أولًا**: بأن الإنسان يتخلَّق من ماء الرجل، وما يسمَّى: ماء المرأة، فهو ﴿أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] منهما، وهو أمر لم تكن الناس تعرفه، وكان من الثقافة العالمية السائدة في تهميش المرأة تهميش دورها في أصل الخَلْق والتكوين، وكأن الرجل مستقل بالخَلْق[2].

إلا أنهم يُثَرِّبون[3] على المرأة ويعيبونها إذا كان نسلها الإناث، ويسمُّونها: (المِئْناث).

وربما أرادت إحداهن التنصُّل من هذه التَّبِعة، فزعمت أن الذُّكورة والأُنوثة تأتي من قبل الأب فحسب!

تقول إحداهن[4]:

مـا لأبـي حـمـزةَ لا يأتينا   يظلُّ في البيت الـذي يلينا
غـضـبـانَ ألَّا نـلـدَ البنينا   تـالله مـا ذلـك فـي أيدينا
وإنـمـا نـأخـذُ مـا أُعطينا   ونحـن كالأرض لزارعينا!

وثانيًا: فـ«الصُّلْب»- وهو: الظهر والعمود الفقري- رمز للقوة والنشاط

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٢- ٢٩٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥- ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٥)، و«روح البيان» (١٠/ ٣٩٨).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان».

(٣) التثريب: التوبيخ واللَّوم.

(٤) ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ١٦٥)، و«العقد الفريد» (٤/ ٧٢)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٣٩٧).

والعمل، وهو مأخوذ من: الصلابة، وهي: الشدة، ففي الانسان خيط من القوة والعزيمة والدَّأْب، وهو في الذكور أظهر.

و«**الترائب**» والاضلاع وما حولها رمز للِّيونة والرِّقة والعاطفة والحنان، وهي في الانسان ضرورة لإنسانيته وحياته وعلاقاته العائلية والاجتماعية.

والانسان يتكوَّن من هذا وهذا، وإذا غلب أحدهما على الحياة اضطربت وفقدت اتزانها.

وذكر «السماء ذات الرَّجْع»، ثم «الأرض ذات الصَّدْع» يشير إلى التكامل والتناسق والتشابه في قوانين الخلق والحياة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

وثالثًا: يقول الشيخ الامام الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»:

«وأصل مادة كلا الماءين مادة دموية، تنفصل عن الدماغ وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنُّخَاع- وهو الصُّلْب- ثم ينتهي إلى عرق يسمى: الحبل المنوي، مؤلَّف من شرايين وأوردة وأعصاب، وينتهي إلى الأنثيين، وهما الغدتان اللتان تفرزان المني، فيتكون هنالك بكيفية دُهنية، وتبقى منتشرة في الأنثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دُهنية شحمية ...

وأما بالنسبة إلى المرأة، فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة- وهو الترائب- لأن فيه موضع الثديين، وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبويضات التي منها النسل...»(١).

* ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾:

أي: قادر على إرجاع الإنسان حيًّا بعد موته، وثَمَّ تناسب قوي بين ما سبق ذكره من بداية الخلق، ومن وجود الحفظة.

والضمير يرجع إلى الله تعالى بلا خلاف، وإن لم يكن لفظ الجلالة مذكورًا في السورة، إِلَّا أنه معلوم في الأذهان.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٤).

ومرجع الضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ إلى الإنسان، على الصحيح، أي: أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان بعدما يموت، وهذا هو الذي سوف يحدث، فكأن الآية تحدَّثت عن قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على البعث، ولكنها لم تقرِّر هذا المعنى، فمجرَّد القدرة لا تعني تحقُّق وقوع الشيء حتى يأتي الإخبار عن حتمية وقوعه من الله.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ فأخبر أن الرجوع سيتحقَّق.

فقيل: إن المقصود بقوله: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي: على رجع الماء الذي يخرج من الإنسان، بحيث لا يخرج، كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]، أو على رجع الشيخ إلى شبابه، وهذه ذكرها غير واحد(١).

وهذه المعاني وإن كان الله قادرًا عليها، لكنها ليست المقصودة في الآية فيما يظهر؛ فالمقصود أن الله تعالى قادر على إعادة الإنسان للحياة بعد موته، **ولذلك قال**: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وهذا صريح في أن المقصود يوم البعث، أي: أن رجوع الإنسان هو في ذلك اليوم الذي تُبلى فيه السرائر.

و﴿تُبْلَى﴾: تُختبَر وتُكشَف وتظهر، وهنا نلاحظ تناسبًا قويًّا بين هذه الآية وبين قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، فقد حُفِظَت الأعمال في الكتب المطوية، كما قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢- ٥٣].

و﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾ جمع: سَرِيرة، **والمقصود بها هنا**: الأفعال التي فعلها الإنسان سرًّا، دون أن يراها الناس، والنيات والمقاصد؛ حيث إن الإنسان قد يعمل عملًا ظاهره خير، ومقصده سيئ، فتظهر السرائر يوم القيامة، وحينئذ تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٧- ٢٩٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨)، وما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾.

* ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ١٠﴾:

أي: الإنسان، فمن أين تأتيه القوة والناصر وقد خُلق من ماء مهين؟!

والفرق بين القوة وبين الناصر: أن **القوة** من النفس، **والناصر** من خارجها، كما قال الله: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف: ٤٣]، أي: فلا ناصر له من غيره، ولا هو من المنتصرين بنفسه(١).

وقد يكون المعنى: أن القوة هي قوة المجموع، كالقبيلة؛ والناصر هو الحليف الذي ينصرها من غيرها(٢).

فقد تفلَّتت يده من جميع أنواع القوة الذاتية والخارجية.

يستشكل بعض الناس ثبوت الشفاعة يوم القيامة التي هي نوع من النُّصرة؟

فيجاب بأن المقصود الإنسان الكافر(٣)، وقد ذكر الله تعالى الكفار فقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وذكر أن الشفاعة لمَن ارتضى، فقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩]، فتكون الشفاعة للمؤمنين كما وردت به السنة النبوية(٤)، أما غيرهم فليس لهم من قوة، وليس لهم من ناصر.

وقد يقال: إن المقصود جنس الإنسان، وأنه ليس له من قوة ولا ناصر، فإنا نقول: إلا بإذن الله! فيُستثنَى من ذلك الشفاعة وغيرها مما ورد في الكتاب والسنة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٢٦٩)، (٢٤/ ٢٩٧- ٢٩٩)، و«تفسير السمرقندي» (٢/ ٣٤٨)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٠)، و«الكشاف» (٢/ ٧٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«تفسير الرازي» (٢١/ ٤٦٦)، (٣١/ ١٢١)، و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٤١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠١)، و«تفسير الرازي» (٣/ ٤٩٤)، (٣١/ ١٢٢)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٨٣، ١٩٣- ١٩٥).

والنفي هنا مصحوب بـ﴿مِن﴾، فهو نفي مؤكَّد مستغرِق، فكأنه يقول: ليس له أدنى قوة ولا أدنى ناصر، فهو أقوى مما لو قيل: «ليس لك قوة ولا ناصر».

* ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢﴾:

قَسَمٌ جديد، وهو قَسَمٌ ثنائي، أقسم تعالى بالسماء وبالأرض، ووصف السماء بأنها ذات الرَّجع.

و﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ يُحتمَل أن يكون المطر الذي ينزل مرة بعد أخرى في كل عام، فهو يرجع للناس ويحيي الله به الأرض بعد موتها(١).

أو أن المطر يخرج من الأرض، ثم يذهب إلى السماء، ثم يعود إلى الأرض، فالمطر من البحر(٢).

وقد كان هذا معروفًا عند العرب في الجاهلية، والهذلي يصف السَّحاب فيقول(٣):

شَـرِبْـنَ بماء البحر ثم تَرَفَّعَتْ مَتَى لُجَجٍ خُضْـرٍ لهنَّ نَئِيجُ(٤)

فماء البحر يرفعه الله تعالى بإذنه، فتنشأ به السُّحب، ثم يرجع، وفيه شبه مع الماء الدافق، فكما أن بالمطر تحيا الأرض، وينبت الزرع، فكذلك بالماء الدافق يتخلَّق الناس.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ تنصدع وتنشق عن النبات، والأرض هنا صبورة موطأة ذلول، وهي أخلاق الأنثى في أجمل حالاتها(٥).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٢- ٣٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤١٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٦).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «ديوان الهذليين» (١/ ٥١- ٥٢)، و«شرح أشعار الهذليين» (١/ ١٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١٢٦) منسوبًا إلى أبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي.

(٤) «متى» في لغة هُذيل: «من»، **والمعنى**: أن السحابة استقت ماءها من موج البحار، ثم ارتفعت على سحائب أخرى سود، تمر مرًّا سريعًا في السماء محدثة صوتًا.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٤- ٣٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٣).

وفيه شبه مع دور المرأة التي تتصدَّع بخلق الإنسان، وهذه كرامة للمرأة؛ فالأنبياء خُلقوا في أرحام النساء.

وثَمَّ تناسب بين ظلام يُشَقُّ بالنجم الثاقب، وبين الأرض التي يشقُّها المطر ثم يخرج منها النبات، وبين المرأة التي هي موضع النسل، وبين الأرض التي هي موضع الحرث والزرع.

وهنا يتبيَّن فضل الإنسان على السماء والأرض، فما هي إلَّا جمادات مسيَّرة، لكن الذكر والأنثى مخلوقان لهما إرادة واختيار: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فجعل للمرأة دورًا مثل الرجل، وليست مثل الأرض تُوضَع فيها البذرة ثم تنمو، دون أن يكون لها إرادة، وإنما هي مجرد محضن لها، بل هو أمر يختاره الرجل والمرأة.

* ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾:

أي: القرآن، وهذا أحسن ما قيل، وعليه جمهور المفسرين، وبعضهم يقول: الضمير يعود إلى الكلام السابق(١)، والكلام السابق من القرآن، والأَوْلى حمل الضمير على القرآن كله.

والفصل: الفاصل، كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ٢٠].

فهو يفصل بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، وهذا القَسَم الرَّباني على القرآن دليل على أنه محتوٍ على لباب المعاني والأحكام، والأصول والقواعد التي يحتاجها الناس(٢).

والعجب من هذه النصوص القرآنية القطعية، التي يقرؤها الصغار والكبار، ثم إذا نظرت إلى عموم الناس وجدت منهم الإعراض عن قراءة القرآن وتدبُّره، حتى

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٤٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٣).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٦- ٧٣٧)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٦٢٨)، و«تفسير أبي السعود» (٩/ ١٤٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١١)، والمصادر السابقة.

إنك تجد عند المتعلِّمين وطلبة العلم ولعًا شديدًا بحفظ السنة ومتابعتها، واهتمامًا بالأحاديث والروايات، والرجال، والجرح والتعديل، وما أشبه ذلك، وربما قضى الإنسان وقتًا طويلًا في تخريج حديث، ووصل في النهاية إلى تضعيفه، في حين تسود الغفلة عن المعاني المبذولة في آيات القرآن الكريم من حِكَمٍ وأحكام وعبر وآيات، وتجد أن الدروس في شروح الأحاديث والقراءة فيها والاعتناء بها أكثر من الدروس المعتنية بكتاب الله تدبُّرًا وتفسيرًا، وحتى الدروس القرآنية غالبًا ما تنصرف إلى جوانب لغوية أو فقهية أو خلافية دون ملامسة لمقاصد القرآن وهداياته ومعانيه ودلالاته!

وأحسب أن هذا من أعظم أسباب التخلف الذي يعانيه المسلمون اليوم؛ حيث تجد العقلية الإسلامية مستغرقة في جزئيات وتفاصيل، مع أن الوقت يجب أن يُصرَف للبحث في القضايا الكبار، والأمور العظام؛ ولذا فإن الإفادة من دلالات القرآن ومعانيه، تجعل الإنسان كبيرًا في عقله، كبيرًا في فهمه، كبيرًا في اهتماماته، ولا تقل: أنا أهتم بهذا وهذا معًا.

وهو قول من حيث المبدأ سليم، لكنك لن تستطيع له تحقيقًا؛ لأنه إذا استغرق الإنسان في شيء قَصَّر في غيره.

ولهذا فإن مما أغفل المسلمين عن تدبُّر القرآن، والتخلُّق بأخلاقه، والعمل بشريعته؛ ما وقعوا فيه من تعصُّب مذهبي؛ لأنهم أُولعوا بكتب الفقهاء، ثم انفتح كثير من طلبة العلم في رِدَّة فعل لذلك التعصُّب على رفض التقليد؛ والأخذ مباشرة من أحاديث السنة، لكن ترتَّب على الإفراط في هذا الأمر؛ أن غلوا في الكثير من التفاصيل والفروع، وغفلوا عن اللباب والأصل الذي هو القرآن الكريم.

والقرآن ﴿فَصۡلٞ﴾ فيما يختلف المؤمنون فيه، وما أكثر الخلافات والصراعات التي توجد حلولها في القرآن، في حين أن كثيرًا من الناس لا يرجعون إلى القرآن.

هذه ليست دعوة إلى إهمال الحديث، ولا إهمال الفقه، ولا الجور على شيء من علوم اللغة أو الأصول أو سواها، لكن إلى وضع الأمر في نصابه ولجم الاندفاع

بأكثر مما ينبغي مما يحدث ارتباكًا وخللًا في «فقه المقادير»، و﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق: ٣].

* ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾:

أثبت سبحانه أنه «قول فصل»، ثم نفى عنه الهَزْل، وبيَّن أن ما أخبر به من الحفظة أو الوعد أو الوعيد أو غيرها؛ ليس مجالًا للهَزْل.

وفيه لوم لمَن يجعل من الجِدِّ هَزْلًا، فإذا ذُكر لهم البعث الذي ذكره الله تعالى هنا، قال قائلهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦] أو أخذ عظمًا باليًا ففتَّه ونفخه، وقال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، فهؤلاء اتخذوا القرآن هزوًا وهزلًا.

* ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾:

يعني الكافرين(١)، وهذا يرجِّح أنهم المقصودون فيما قبله.

والكيد هو: المكر الخفي(٢)، والله تعالى أكَّد كيدهم بقوله: ﴿كَيۡدٗا﴾، ولم يقل: «كيدًا عظيمًا»، ولا: «كيدًا سهلًا»، وهذا من الإعجاز؛ فهو كيد عظيم وسهل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وقد قيل: إن المقصود الإشارة إلى عظمة كيدهم، **وقيل**: الإشارة إلى هوانه(٣).

فكيد الكفار عظيم بالقياس إلى قدرة الناس وطاقتهم، وهيِّن؛ لأن الله يبطله؛ فهو لا يُصلِح عمل المفسدين.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ جعله كيدًا مطلقًا؛ ليدل على أنه كيد يليق بعظمته سبحانه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٣٤٣)، (١١/ ٢٩٧).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٢).

والمعنى: كيدهم يليق بهم، والكيد من الله تعالى يليق به، فكيدهم يتصف بصفات البشرية من الضعف والعجز، والكيد من الله يتصف بمطلق القوة والشدة على ما يليق بجلاله.

وجاء ذكره هنا على سبيل المقابلة والمشاكلة؛ لأن فعل الله تعالى لا يُوصَف بالكيد إِلَّا على سبيل مقابلة فعلهم، كما قال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النمل: ٥٠].. ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤]، أي: أن الله تعالى يكيد لِمَن يكيدون له، ولرسله[١].

* ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾:

أي: انتظر لهم، وأعطهم فرصة[٢].

وهذا أمر مُوَجَّه للنبي ﷺ، وقد تفهَّم هذا الأمر، وتأدَّب به، حتى إنه لما جاءه مَلَك الجبال وعرض عليه أن يُطبِق عليهم الأَخْشَبين[٣]، قال: «**بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم مَنْ يعبدُ اللهَ وحدَه لا يشركُ به شيئًا**»[٤]. فهذا من أثر تعلُّمه ﷺ في مدرسة القرآن.

أما الفرق بين «مَهِّل» و«أَمْهِل» فهو مثل الفرق بين: نزَّل وأَنْزَل، أو: علَّم وأَعْلَم، فـ«علَّم، ونزَّل» فيها تدريج وبطء، أما «أَعْلَم، وأَنْزَل» ففيها مباشرة، فكأنه

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ٢٢٢)، (٣١/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٨/ ١٤٦)، و«الإتقان» (٣/ ١٤٠، ٣٢٢)، و«روح البيان» (١٠/ ٤٠١)، و«فتح القدير» (١/ ٣٩٥)، (٢/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٢/ ١٧١)، (٥/ ١٨٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨)، و«أضواء البيان» (٨/ ٤٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٥)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٣/ ٢٦٨- ٢٦٩)، والمصادر السابقة.

(٣) أي: جبلي مكة: أبي قُبيس وقُعَيْقِعان، سُمِّيا بذلك؛ لصلابتهما وغلظ حجارتهما.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٣١، ٧٣٨٩)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر ما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾، وما سيأتي في «سورة الشرح»: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾.

قال: مَهِّلْهم، أي: ببطء وتدرج.

أما الثانية: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ فهي سريعة؛ لأنها مقيَّدة بقوله: ﴿رُوَيْدًا﴾ أي: وقتًا يسيرًا، فكأن قوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ دليل على قرب العقاب الذي ينتظرهم(١).

وقيل: إن الجمع بين «مَهِّل»، و«أَمْهِلْهم» تكرير للتأكيد؛ لقصد زيادة التسكين، وخولف بين الفعلين في التعدية مرة بالتضعيف، وأخرى بالهمز؛ لتحسين التكرير(٢).

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بآية السيف: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥].

والراجح أنها غير منسوخة، ولكنها مُنـزَّلة على حال، وتلك الآية مخصوصة بحال(٣)، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١٢).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٦٨)، والمصادر السابقة والآتية.

(٣) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» للمقري (ص١٩٦)، و«الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص٦٥)، و«نواسخ القرآن» لابن الجوزي (٢/ ٦٢٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (ص٤٩٦)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٤٩)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» للشنقيطي (ص٢٥٦).

سُورَةُ الأَعْلَى

❁ تسمية السورة:

أشهر أسمائها عند جمهور أهل التفسير، وعليه غالب المصاحف: «**سورة الأعلى**»[(١)]؛ أخذًا من هذا الاسم المتميِّز الذي خُصَّت به السورة.

وتسمَّى: «**سورة** ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾»[(٢)]، بالآية الأولى منها، وورد هذا في قصة معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أطال بقومه الصلاة، وشكاه رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ: «**فلولا صليت بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾...**»[(٣)].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «ما قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ حتى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُور من المُفَصَّل»[(٤)].

وعن النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كان رسولُ الله ﷺ يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾»[(٥)].

وتسمَّى: «**سورة** ﴿سَبِّحِ﴾»[(٦)]، ومنه قول الفقهاء: يقرأ في الجمعة بـ﴿سَبِّحِ﴾،

---

(١) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤١٨)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٧٠٥)، ومسلم (٤٦٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٣٩٢٥، ٤٩٤١).

(٥) أخرجه مسلم (٨٧٨).

(٦) وسُمِّيت في «تفسير مجاهد» (ص٧٢٢): «سورة سبح الأعلى».

و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[١].

* **عدد آياتها:** تسع عشرة آية باتفاق العلماء[٢].

* **توقيت نزولها:**

الجمهور على أنها مكية.

والدليل على ذلك: حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم، وقد ذكر أكثر العلماء أنها السورة الثامنة من حيث النزول.

ومما يؤكِّد مكيَّتها: الموضوعات التي تناولتها؛ فإن فيها الحديث عن تسبيح الله، والإيمان به، والوعظ الذي يَكثُر في السور المكية.

وذهب بعضهم إلى أنها مدنية، أو فيها آيات مدنية، ويُنْسَب هذا لأبي سعيد الخُدْري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وغيره.

وحملوا قوله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾ على زكاة الفطر وصلاة العيد، وهاتان الشعيرتان لم تشرعا إِلَّا بعد الهجرة.

والصحيح أن السورة مكية كلها[٣]، وعلى فرض أن المقصود بالآيتين: صلاة العيد وصدقة الفطر، فلا يلزم منه أن تكون السورة مدنية؛ لأن هذا قد يكون مما تضمَّنته الآيات من المعاني، لا أنها نزلت في مشروعيتها[٤].

---

(١) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ١٩٨)، و«زاد المعاد» (١/ ٢٠٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٧)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص٦١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣).

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٣٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧١- ٢٧٢)، وما سيأتي في أول «سورة البينة».

(٤) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٧- ٢١)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾، و«سورة المعارج»: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ٢٤﴾.

* ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾:

أمرٌ للنبي ﷺ، والتسبيح لفظ معروف متداوَل في القرآن الكريم، وغالبًا ما يُطلَق على مجمل التعبُّد، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣- ١٤٤]؛ أي: فلولا أنه كان من الذاكرين الله والمستغفرين ونحو ذلك.

وهو لفظ عربي معروف المعنى، **وقيل**: إنه من اللسان العبراني، ولكنه عُرِّب، ولا بأس بهذا، **وهو هنا يشمل أربعة معانٍ**(١):

١- تنزيه الله سبحانه عما لا يليق به، مما نَسَبَهُ إليه المشركون أو الجاهلون، عن الصاحبة والولد، والعجز واللغوب والجهل، وكل معاني النقص، ونفي النقص لا يلزم منه إثبات الكمال.

٢- إثبات صفات الكمال له عَزَّوَجَلَّ، وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وكماله المطلق، وجلاله وجماله، وعظمته ومجده وسلطانه، وعلمه وقدرته، وحكمته ورحمته، وكل ما ورد في مُحْكَمَات النصوص من معاني الكمال.

٣- تنزيه اسم الألوهية عن أن يُطلَق على الأوثان، كما كانت العرب تُطلق على اللَّات والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى ألفاظ الألوهية، وتمنحها شيئًا من ذلك؛ أي: نزِّه ربَّك أن تطلق اسمه الشريف العظيم المقدَّس على غيره من الأوثان.

وهذا الذي ذكره الطبري وابن حزم والرازي وكثير من أهل العلم(٢)، وأخذوه من قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، فقالوا بأن ذكر الاسم معناه: لا تطلق هذا الاسم على غير الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٠٩- ٣١٠)، و«مشارق الأنوار» (٢/ ٢٠٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٥)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٣)، وما تقدم في «سورة التغابن»: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

(٢) ينظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٥/ ١٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٠٥)، والمصادر السابقة.

٤- أن تنزِّه الله تعالى عن أن تتسبَّب في سبِّه سبحانه، وهذا معنى لطيف، وإن لم يكن ظاهرًا في الآية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، نهى تعالى المؤمنين أن يسبُّوا آلهة المشركين؛ لئلا يتجرَّأ المشركون فيسبُّوا الله عَدْوًا بغير علم.

فعلى المؤمن أَلَّا يأتي بابًا من أبواب الخير، إذا كان سيترتب عليه مفسدة أعظم، ولعل هذا مرتبط بقوله تعالى في آخر السورة: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾، وسنزيد الأمر إيضاحًا عند تلك الآية الكريمة.

وذكر بعضهم أن لفظة ﴿ٱسْمَ﴾ في الآية تُعَدُّ صلة زائدة، كما نُقل عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره، وأن معنى قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾: سبِّح ربَّك[١]، ويستدلون بقول لَبِيد الشاعر[٢]:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ... ومَن يَبْكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ

وقصده: ثم السلام عليكما، وبعضهم يقول: لفظ زائد، لكنهم يكرهون أن يطلقوا الزيادة على شيء من القرآن الكريم؛ تأدبًا مع قدسيته.

وفي آية أخرى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] بزيادة الباء، وعدل عن أن يقول: «سبح اسم الله»، لأن «الربَّ» مختصٌّ بالتربية والعناية والرعاية والعطف واللُّطف، وهذه من أعظم الإفضالات والإنعامات التي يجود بها على العباد عامة، ففضله عامٌّ للخلق، وخاصٌّ للبشر، وهو للمؤمنين أخصُّ، أما الأنبياء فلهم من مقامات الصفاء والتكريم والعناية واللطف ما لا يقدر قدره إِلَّا هو سبحانه.

وناسب أن يذكر اسم الرب هنا؛ لأن المقام مقام ثناء على عطائه ونعمه

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٦)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٥٦)، (٢/ ٤٢٠)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣).

(٢) ينظر: «ديوان لبيد» (ص ٥١).

وإكرامه، فلفظ الربوبية أليق؛ لأن الرب يُطلق على الخالق، وعلى المالك المتصرِّف، وعلى المُنْعِم.

و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ تفضيل من العلو، ولا يختص بالله، ولذا قال: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٨].

فالأسماء التي تختصُّ بالله تعالى، ولا تُطْلَق على غيره: «الله»، و«الرحمن»[١].

والله هو ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾، و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ في معناه، وتدل على كمال العلوِّ، ونحن نؤمن لله تعالى بالعلو من جميع وجوهه، فله العلوُّ في ذاته، حيث استوى على العرش، وهو فوق السماوات: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]، وهو معنى قررته الشريعة، ودَلَّت عليه الفطرة، ودلَّ عليه العقل، وله علوُّ القهر والغلبة والسلطان، وله علوُّ القَدْرِ والمكانة[٢].

و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ صفة للرب، وليس صفة لـ﴿ٱسۡمَ﴾؛ لأنه قال بعدها: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾، فالذي خلق وسوَّى هو ﴿رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾.

ولا بأس أن يكون المقصود الاثنين معًا، فيكون وصفًا للاسم، ووصفًا للرب؛ لأن الاسم مَردُّه إلى الله، فالمقصود أسماء ربك العليا، أي: سبِّح ربك بأسمائه العليا؛ لأن العبد إذا أُمِر بتسبيح خالقه، فلن يسبِّحه إِلَّا بذكر أسمائه الحسنى، فإن الأصل أن يُثني العبد على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله التي وردت في القرآن والسنة وما في معناها، ولا يخترع أشياء من عنده.

ولو أن الإنسان وصف الله تعالى بأمور من عنده، فإن كانت مما ورد معناه في القرآن والسنة، فلا بأس بها، من غير أن تكون أسماء؛ لأن الأسماء توقيفية، كقولك: «يا وجدان المحرومين، ونصير المظلومين، وأمان الخائفين، ودليل التائهين». فهذه معان صحيحة، وكان من دعاء الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا دليل

---

(١) كما تقدم في «سورة الفاتحة».

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٤٨)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٠٨)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٦٣- ١٦٤).

الحائرين، دُلَّني على طريق الصادقين»[1].

فلا حرج أن تُقال على سبيل الخبر، أو على سبيل الوصف، دون التسمية.

أما إن دلَّت على معنى غير مناسب أو مشتبه، فيجب الإعراض عنها؛ صونًا لمقام الألوهية، والتزامًا للأدب مع الرب سبحانه[2].

والذكر الذي يملأ القلوب بالإيمان والسكينة والطُّمأنينة، ويقرِّب إلى الله، ويحقِّق ما أمر به سبحانه؛ هو الانهماك في التسبيح، والثناء على الله والتقرُّب إليه، وليس أن ننخرط في جدال: هل الاسم هو عين المُسمَّى، أو هو غيره؟ وهذا مما طرحه بعض المفسِّرين، في هذه الآية، وخاضوا في مجادلات تَحْرِمهم لذة الاستمتاع بالنصِّ وتأمُّل معانيه الجميلة، وتلطيف وهج النفس وصخب الحياة بدلالاته وآياته.

إن لله تعالى الأسماء الحسنى، كما قال ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخلَ الجنةَ**»[3].

والحديث لا يعني حَصْر الأسماء الحسنى، وإنما المقصود أن من أسمائه تسعة وتسعين اسمًا مَن أحصاها دخل الجنة، وإلَّا فإنه لا يحصي أسماءه إلَّا هو سبحانه، حتى رسول الله ﷺ، كما في حديث الشفاعة أن النبيَّ ﷺ يأتي فيخرُّ ساجدًا تحت العرش، قال: «**ثم يفتحُ اللهُ عليَّ، ويُلْهِمُني من محامِدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئًا لم يفتحْهُ لأحدٍ قبلي**»[4].

ولله تعالى من المحامد ما لم يعلمه النبي ﷺ، حتى في ذلك المقام، على جلالة قَدْره ﷺ! فإن الله تعالى له الكمال المطلَق الذي لا يحيط به إلَّا هو.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٣٨٦)، (٢٢/ ٤٨٣).

(٢) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي (ص١٥٩)، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» لابن عثيمين (ص١٣)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر ما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

وفي الحديث: أنه لما نزلت هذه الآية ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، قال ﷺ: «اجعلوها في سجودِكم»[١]. وهذا مناسب؛ لأن السجود هو المقصود الأعظم في الصلاة، وما قبله كالتهيئة له، فالقيام ثم الركوع كالتحية، ثم السجود هو نهاية المطاف وذروة التعبُّد لله سبحانه، فاختار النبيُّ ﷺ هذا اللفظ للسجود، إشارة إلى أن الإنسان في هذا المقام يقرُّ لله بالعظمة والمجد، والكمال والفضل، ويقرُّ لنفسه بالعبودية والضعف، فكلما زاد الإنسان ذلًّا، زاد تعظيمًا لله، وقربًا منه.

وكَمْ لله مِن لُطْفٍ خَفيٍّ ... يَدِقُّ خفَاهُ عن فَهمِ الذَّكيِّ
وكم يُسْرٍ أتى من بعد عُسْر ... ففرَّج كُربةَ القلبِ الشَّجيِّ
وكَمْ أَمْرٍ تُساءُ به صباحًا ... وتأتيك المَسَرَّةُ بالعشيِّ
إذا ضَاقتْ بك الأحوالُ يومًا ... فثِقْ بالواحدِ الصَّمد العليِّ[٢]

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾:

كرَّر الاسم الموصول؛ لأن المقصود التعريف بالله سبحانه، فيناسب ذكر ما يدل عليه في مطلع كل آية؛ ليرجع إليه الفعل والخلق والقدرة وإخراج المرعى.

وبدأ بالخلق؛ لأنه أول أدلة الألوهية، فعند ما تتأمَّل الفرق بين الحي والميت، وبين الإنسان والجماد؛ تجد معنى الألوهية العظيم.

ولذلك كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يستدلُّون على الله تعالى بالخلق، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وقال: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١]. والنبيُّ ﷺ أول ما نزل عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[٣] [العلق: ١].

---

(١) أخرجه الطيالسي، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وغيرهم، من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتقدم تخريجه في «سورة الواقعة»: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾.

(٢) ينظر: «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (١/ ٣٨٩)، و«ديوان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» (ص٢١٧).

(٣) كما في حديث بدء الوحي، ينظر ما تقدم في «سورة المدثر»، وما سيأتي في «سورة العلق».

فالإبداع والخلق وإيجاد الحياة في الأرض، أو في الإنسان، من أعظم دلالات العظمة الربانية والإبداع والفضل، ولم يقل: «وسوَّى»، بل جاء بالفاء التي تدلُّ على الاتصال القوي بين الخلق والتسوية.

والمقصود بالتسوية: أن يكون خلقه حسنًا، كما قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ولذلك قال بعض المفسرين: خلق الإنسان. وقال بعضهم: خلق آدم. وقال بعضهم: خلق الأحياء(١).

والصواب أن نقول: خلق كلَّ شيء فسوَّاه، حتى السماوات، والأرض، والجمادات، وغيرها، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، فخلقه وتسويته شاملة لا تقتصر على خلق آدم، أو الإنسان، أو الحيوان.

فالتسوية آية أخرى، وهي الجمال في الخلق والإبداع، والحسن والنظام الذي يجده الإنسان في مخلوقات الله.

والفاء تشير إلى أن الأمر الثاني مقصود مثل الأول، أو أشد؛ أي أن التسوية مقصودة مثل الخلق؛ ولو وُجِد خلق بغير تسوية لم تكتمل به الحكمة ولا النعمة.

فالانتظام والدقة والكمال في الخَلْق في الأجهزة والأعضاء والغرائز في الشيء الواحد، ثم بين المخلوقات المتعدِّدة في تكاملها وتسخير بعضها ببعض، وقيام بعضها ببعض.. هو من كمال القدرة والحكمة والرحمة والإرادة

* ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾:

الجمهور يقرؤون ﴿قَدَّرَ﴾ بالتشديد، وقرأها الكِسائي بالتخفيف: ﴿قَدَرَ﴾(٢).

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«الوجيز» للواحدي (ص١١٩٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١١١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٥١٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٨٠)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٥/ ٤٨)، و«حجة القراءات» (ص٧٥٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٣٨٦).

جانب آخر من الإعجاز، والذي عليه أكثر المفسرين أن معنى ﴿قَدَّرَ﴾: جعل لكل شيء ما يناسبه، وخلق كل شيء، من الطير، والحيوان، والسباع، والهوام، والنجوم، والسماء، والأرض وفق سنن تحكمه في ذاته، وله نظام في الحياة والنماء والتكاثر والزوال، وله تناسب مع غيره، كما قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1] [الفرقان: ٢].

ثم هداه لما خلقه له، هدايةً فطريةً غريزيةً، وخلق كل شيء لغاية، ثم هدى المخلوق لما خلقه من أجله[2].

والطفل منذ ولادته إذا جاع عبَّر عن ذلك بالبكاء، وإلَّا لمات جوعًا دون أن يُفطن له، ثم قدَّر له أن يمتصَّ اللَّبَن من ثدي أمه، وهو لا يعرف ولا يدري ما هذا الذي يلتقمه، لكن الله ألهمه أن في ذلك غذاءه!

حتى الحيوان يسقط من بطن أمه ثم يركض إلى ثديها.. مَن الذي ألهمه وعلَّمه؟ ومَن الذي علَّم أمه أن هذا ولدها، فترومه وترضعه، وترفض ما سواه؟

حتى الولادة نفسها هي نتيجة هداية، فالله هو الذي هدى الذكر والأنثى إلى الاتصال ببعضهما، فهَدَى آدم وحواء، وجعل بينهما من الانسجام والعلاقة ما يمهِّد للتواصل الجسدي، وعلَّمهما ما يكون به الإنجاب، وهدى الرحم إلى وضعية مناسبة ودرجة حرارة ملائمة واستعداد ليكون بيئة للطفل، ثم ليدفعه إلى الحياة وييسِّر له السبيل.

وهكذا الطيور والحيوانات والوحوش والدواب، وعند الحيوانات من الغرائز المدهشة ما تتَّقي به المخاطر وتتعرَّف به على الأعداء، وتحصل به على أقواتها وتحمي به صغارها، سمِّها: الغريزة، أو: الفطرة، فهي الهداية، والله تعالى هو الذي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٧١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٨- ١٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥- ١٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩).

ألهمها وغرزها وفطرها.

أما الإنسان فتميَّز بالعقل والنفس وإمكانيَّات هائلة؛ من اللغة والفهم والحوار، والشِّعْر، والنثر، والبيان والإعراب، وهذا تقدير من الله وهداية.

وبها استطاع الوصول إلى الحقائق وحلِّ المشكلات، والتعرُّف على سنن الله في الكون، والاختراع والاكتشاف.

ولذا كان من أسوأ ما يفعله الإنسان لنفسه أن يضيِّع ما قدَّر الله تعالى له، فيترك توظيف عقله، بسبب التقليد والتعصب والهوى، كالذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أو يترك طلب الرزق؛ اتكالًا على أُعطيات الناس، أو يترك العمل الصالح؛ اعتمادًا على حسبه ونسبه، وإنما ينجو الإنسان أو يهلك بعمله.

* ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾:

إخراج المرعى نموذج لما سبق، فهذا ربك الذي خلق، ومِن خلقه المرعى، وهو الذي قدَّر فهدى، ومِن تقديره وهدايته أنه هدى الحيوانات إلى المرعى الجيد فترعاه وتأكله، وإلَّا لهلكت.

و﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ يُطلَق على النبات، أي: أخرج النبات، كما يقول الشاعر[١]:

وقد يَنْبُتُ المرعى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتبقى حَزازاتُ النُّفوس كما هِيا[٢]

ويُطلَق أيضًا على المكان الذي فيه النبات؛ لأن الغنم ترعاه[٣]، فتراه أخضر جميلًا يُؤكل، ثم ينتهي ليصبح ﴿غُثَآءً﴾.

والغُثاء: التافه اليابس الذي تذروه الرياح[٤].

---

(١) ينظر: «ديوان زفر بن الحارث» (ص٢٥٩).

(٢) **الدِّمن**: ما تلبَّده الإبل والغنم بأبوالها وأبعارها، **والمراد**: نظهر الصلح وقلوبنا تخفي غيره، كما ينبت النبات النضر ويخفي تحته ما تخلفه الإبل.

(٣) ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ٣٢٦- ٣٢٧)، و«تاج العروس» (٣٨/ ١٦٣) «ر ع ي».

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٢) «غ ث ا»، و«لسان العرب» (١٥/ ١١٥- ١١٦)، و«تاج العروس» (٣٩/ ١٤١) «غ ث و».

و﴿أَحْوَىٰ﴾: يميل إلى السَّواد، ويُسمَّى: آدم، من الأُدمة، وهي السمرة، والحُوَّة قريب منها[1]، و﴿أَحْوَىٰ﴾ مذكر، مؤنثه: حواء، أي: تميل إلى السواد أو الخضرة الشديدة[2].

* ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾:

انتقل السياق إلى موضوع مختلف، كأن ذلك إشارة إلى الفرق الهائل بين الإنسان والحيوان، فلذلك أخرج المرعى للحيوان؛ لأنه إنما يهمه أن يأكل ويشرب ويتمتع، أما الإنسان اصطفاه الله، فيعبد، ويسبِّح، ويقرأ، ويتعلَّم، ويؤمن ويتذكَّر، فهي إشادة بإنسانية المؤمن الذي لا يستغرقه الأكل والشرب، والجمال في الصورة، والغنى والشهرة والسلطان، عن التسبيح لله والاقتباس من نوره.

وفيه المقارنة بين الدنيا والآخرة؛ لأنه هنا قال: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾، والفاء تدل على التعقيب؛ إشارة إلى سرعة زوال الدنيا، كما قال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[3] [الكهف: ٤٥].

وضرب المثل للدنيا بالمرعى الذي صار غُثاءً أَحْوى، بخلاف الآخرة التي فيها الخلود الأبدي بلا زوال، كما قال في آخر السورة: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾.

فبين أول السورة وآخرها ترابط واضح!

إن ذكر المرعى، وإن كان على سبيل الإشادة بنعمة، وكان العرب يرونها وهم يتنقَّلون بين المراعي، ويعرفون الفرق بين المرعى الوَفِير الذي فيه خير وخضرة

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٢٧١)، و«تاج العروس» (٣٧/ ٤٩٥) «ح و و».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٢- ٣١٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦- ١٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٩).

وخصوبة، وبين بقايا المرعى التي هي غُثاء أَحْوى؛ إلا أن المقصود أبعد من ذلك، وهو المعنى اللَّطيف في التفريق بين الإنسان والحيوان؛ وكلهم ممن خلق الله فسوَّى، وقدَّر فهدى.

والناس متفاوتون في هدايتهم؛ للتفاوت في عقولهم، ومن الناس مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا فقط، فهذا حصل على نوع من الهداية، ومنهم مَن هُدِيَ إلى طريق الدنيا والآخرة، وهذا هو الكمال.

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾: وعد وبشارة للنبي ﷺ، وهذه السورة متقدِّمة، فهي ثامن سورة في النزول(١)، وقد وعد الله سبحانه النبيَّ ﷺ بأن يُقْرِئه حتى لا ينسى، فكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقْرِئه ويردِّد عليه السور؛ حتى يحفظها ﷺ، وكان يستعجل، فيقرأ مع جبريل؛ خشية النسيان، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾(٢).

وقد تحقَّق هذا الوعد، على رغم تشابه بعض الآيات، ومع أن النبي ﷺ كان أميًّا، لا يقرأ ولا يكتب، إلَّا أنه حفظ القرآن، وأتقنه، وأقرأه أصحابه.

وقد تكفَّل الله تعالى بحفظ القرآن، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فضُبِطَ برواية الثقات العدول الذين يروي بعضهم عن بعض إلى النبي ﷺ، إلى جبريل، إلى ربِّ العزة جل وعلا، فتوافر في هذا الكتاب- على رغم عدم وجود إمكانيَّات في ذلك الوقت- من الضبط والحفظ ما هو من آيات الله المعجزة في حفظ هذا الدين، وتحقيق موعود الله تبارك وتعالى إلى اليوم المعلوم.

وذكر الإقراء، وأنه فعل الله سبحانه؛ إشادة إضافية بالقراءة، وتأكيد على أهميتها، وأنها من أعظم ما ينفع الإنسان، ويحقِّق له زكاة العقل والنفس، أن يطَّلع ويتعلَّم ما ينفعه، واليوم تجد كثيرين يقرؤون ما لا ينفعهم، فإذا نُشِرَت خصومة بين شخصين في صحيفة، أو مناظرة في قناة، وجدتَ الناس يتابعونها، كما يتجمهرون

---

(١) ينظر ما تقدم أول السورة: «**توقيت النزول**».

(٢) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عند ما يحصل صدام في الشارع بين سيارتين أو يصفِّقون في مباراة رياضية، دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء السؤال عما ينتفعون به من ذلك.

إن الذي ينتفعون به هو ما يقوِّي إيمانهم، أو يصحِّح عقولهم، أو ينفعهم في دينهم، أو يعرِّفهم بربهم، أو يعرِّفهم بمصالحهم الدنيوية؛ وربما لا يعيره بعضهم اهتمامًا كاهتمامهم بفضول المعرفة والعلم والاطلاع.

ونَسَبَ الإقراء إلى الله، ونَسَبَ عدم النسيان إلى النبي ﷺ؛ إشارة إلى أن الصفات الموجودة فيه هي من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن ثَمَّ فأثرها ينبغي أن يكون في طاعته، فقوة الذاكرة نعمة ينبغي أن تُوَظَّف في الخير للإنسان أو لبني جنسه.

وكتب التفسير تُرجِّح أن المقصود بالقراءة هنا: قراءة القرآن(١)، والقرآن مقصود يقينًا، لكن لا مانع من أن يكون المراد بالقراءة أوسع من ذلك، فإن علم النبي ﷺ ليس مقصورًا على قراءة القرآن، بل جاء في الحديث: «**أَلَا إني أُوتيت القرآنَ ومثلَه معه**»(٢). فالنبيُّ ﷺ أُوتي من العلوم العظيمة الكثيرة ما جاء بعضه في السنة النبوية، وتلقَّته عنه أصحابه(٣).

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾: هذا خبر وليس نهيًا، أي: سنقرئك حتى لا تنسى، فلا تخف أن تنسى شيئًا من القرآن، وهذا قول جمهور المفسرين.

وقال بعضهم: إن قوله ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نهي، أي: نحن سنقرئك، وعليك أَلَّا تنسى، فهو نهي للنبي ﷺ عن أن ينسى، وبقيت الألف هنا مع الجزم من أجل الإطلاق في آخر الآية. **والمعنى الأول هو المختار**(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٧٤)، وأبو داود (٤٦٠٤)، والمروزي في «السنة» (٢٤٤)، والآجري في «الشريعة» (٩٧) من حديث المقدام بن معد يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٧٩)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٤-٣١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨١)، والمصادر السابقة.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: هذا استثناء، **يحتمل أمورًا:**

منها: أن يكون المقصود أن ينسى النبيُّ ﷺ ما نُسِخَ من القرآن، فإن الله يَنْسَخ ما شاء، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦]، أي: فتنسى ما شاء الله أن تنساه مما أذن الله تعالى أن يُنسخ، وهذا ذكره جمهور المفسرين، وهو صحيح(١).

ومما استثناه الله تعالى: النسيان الطارئ المؤقَّت؛ فإن النبي ﷺ قد ينسى في وقت معين آيةً، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد، فقال: «**رحمَهُ اللهُ، لقد أذْكَرَني آيةً كنتُ أُنْسِيتُها**»(٢).

ولكن ليس المقصود أنه ﷺ نسيها مطلقًا، وإنما نسيها وهو يقرأ، ولو قرأ من الغد لأتى بهذه الآية.

ويمكن أن يكون مما استُثني: ما هو وراء القرآن، وهو أن ينسى بعض العلم من غير القرآن الكريم، فهذا أيضًا جائز وممكن، وليس مستحيلًا، وقد نسي النبي ﷺ في صلاته، وسلَّم من ركعتين، كما في قصة ذي اليدين(٣)، وورد عند مالك حديث ضعيف: «**إني لأَنْسَى - أو: أُنَسَّى - لِأَسُنَّ**»(٤). أي: لأشرِّع للناس وأعلِّمهم، ومثله نسيان تعيين ليلة القدر(٥).

أو يكون قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ على سبيل التبرُّك بذكر المشيئة، والإشارة إلى طلاقتها، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ [هود: ١٠٨]، وأهل الجنة لا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥- ٣١٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٧٨٨).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٨٢)، و«صحيح مسلم» (٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «الموطأ» (١/ ١٠٠)، و«الاستذكار» (٢/ ٥)، و«التمهيد» (٢٤/ ٣٧٥)، و«السلسلة الضعيفة» (١٠١).

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠١٦)، و«صحيح مسلم» (١١٦٧).

يخرجون منها، وليس المقصود أن منهم مَن يخرج، فهكذا هنا[1].

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: يعلم ما تجهر به من قراءةٍ، وما تخافت، ويعلم ما هو معلوم لديك ومحفوظ، وما أُنْسِيتَه من هذا العلم، وإن لم يكن قد زال بالمرة، فإنه قد يكون موجودًا، لكنه خافٍ غير ظاهر[2].

وفي ذلك إشارة إلى حكمة الله تعالى، وأن إثبات شيء أو نسخ شيء هو وفق حكمته وعلمه، فالله تعالى يعلم كل شيء، فإذا أمر بشيء، أو نهى عن شيء، أو نسخ، أو أحكم؛ فذلك لعلمه وحكمته.

* والمفعول المتعلِّق بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ هو القرآن والإسلام والشريعة، وفيها إشارة إلى أن الله تعالى علَّم نبيَّه ﷺ ذلك كله، ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾: وقد وقع في أذهان بعض الناس أن الشريعة صبغتها الزجر والمنع والنهي والتشديد والتعسير، حتى صاروا يظنون أن فقه العالِم هو في تشديده، وكثرة التحريم في فتواه، ويعدونه دليل الورع والتقوى، في حين أن هذه الآية الكريمة تدل على غير هذا.

والدين، وإن جاء لينقل الناس عن حكم الهوى والذوق والعادة إلى حكم الله سبحانه، لكن حكمه سبحانه السماحة والتيسير، ومراعاة ظروف الناس وأحوالهم، وتَرْك ما يشقُّ عليهم ويعنتهم ويحرجهم، ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ولهذا يقول سفيانُ الثَّوْريُّ ومَعْمَرُ بنُ راشد الصنعانيُّ رحمهما الله: «إنما العلمُ عندنا: الرخصةُ من ثقة، فأما التشديدُ: فيحسنه كلُّ أحد»[3].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٥- ٣١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٧٩- ٣٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٠).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣٨)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «حلية الأولياء» (٦/ ٣٦٧)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١٤٦٧، ١٤٦٨)، و«الاستذكار» (٨/ ٢٧٥)، و«التمهيد» (٨/ ١٤٧)، و«الأربعين المرتبة على طبقات الأربعين» لعلي بن المفضَّل المقدسي (ص٥٢٥).

ومع ورود التيسير في مواضع، كهذه الآية، وفي حديث: «**بُعثتُ بالحنِيفيَّة السَّمْحَة**»[١]، و«**يَسِّرُوا، ولا تُعَسِّرُوا**»[٢]، و«**إن هذا الدِّينَ يُسْرٌ**»[٣]؛ إِلَّا أنه لم يرد مطلقًا وصف الشريعة بالشدة أو العسر أو بمشتقيهما، أو وجود شيء من ذلك فيها، وهذا عجيب، والغفلة عنه أعجب!

وهل التيسير هو مجرد اتباع الدليل؟

اتباع الدليل حسب رأي المجتهد حق، ولكن لو كان هو التيسير لتساوت النصوص الآمرة باتباع الدليل في معناها مع نصوص التيسير، والنصوص تؤسِّس لمعنى جديد، هو أن من شأن الشريعة التيسير، وهذا يحفِّز المجتهد إلى اختيار اليُسر والترجيح به في المضايق ومراعاة أحوال الناس في الفتوى وتغير الظروف.. إلى غير ذلك.

وبعض القراء والمتفقِّهين كلما أَشْكَل عليه شيء أخذ بالأحوط، وشقَّ على الناس!

وأن تأخذ بالأحوط لنفسك، فهذا لا بأس به؛ لكن أن تحمل الناس عليه، فهذا يوقعهم في الحرج، وتكون قد احتطت لنفسك بالتضييق على الناس، وتحليل الحرام كتحريم الحلال! وقد كان بعض الحكماء يقول: مَن قَلَّ فقهُهُ كَثُرَ وَرَعُه. يعني: يكثر احتياطه بسبب عدم معرفته.

وإذا اختلف العلماء في مسألة؛ فمِن الناس مَن يدعو إلى تَرْك الشيء؛ خروجًا من الخلاف، مع أن بعض اختلاف العلماء مما لا يمكن التورُّع فيه؛ لأنك إن وافقت هذا خالفت ذاك، وإن خالفت ذاك وافقت هذا، فأحدهم يقول: هذا واجب. وآخر يقول عن الشيء نفسه: إنه محرم. فلا تستطيع أن تجتنب الخلاف والحالة هذه؛ لأنك إن وافقت أحدهما خالفت الآخر، فينبغي أن نراعي الدليل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه البخاري (٣٠٣٨، ٤٣٤١، ٦١٢٤)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩)، والنسائي (٨/ ١٢١)، وابن حبان (٣٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حسب قدرتنا، ونستحضر أنها شريعة اليُسر.

وبعض طلبة العلم يتحدَّثون عن يُسر الشريعة باعتباره مبدأ عامًّا وقاعدة كلية، لكن المعنى يغيب في تطبيقاتهم؛ لأنه يغلبهم حينئذ ما في نفوسهم من الميل إلى الحظر والحجر، فيترتَّب على ذلك أن كل أمر جديد غير مألوف تميل النفس إلى إدخاله في دائرة المنع، ويغلب على الظن أن ذلك الممنوع المحظور، هو باب شر وفتنة، ويسرع خياله إلى تصوّر الناس كيف سيستخدمونه وكيف سيكونون معه، فلا يرى إلا النتائج الوخيمة المردية في ظنه.

وثَمَّ محرمات ظاهرة التحريم بالدليل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، ومنها الكبائر، وما هو مجمع على تحريمه.

وثَمَّ أشياء يقع تحريمها بالاجتهاد، والنظر الذي يتأثَّر بظروف الإنسان ونفسيَّته وثقافته الشخصية وما تربَّى عليه؛ فيترتب على ذلك مشكلات عويصة تتطلَّب من طالب العلم أن يكون متيقِّظًا لمزاجه الخاص وتأثيره.

وليس الحلُّ هنا هو الانطلاق من غير زمام ولا معرفة، وإنما التوازن والاعتدال والهدوء في النظر، وألَّا يكون الحكم مبنيًّا على عدم الإلف، أو عدم استحسان الذوق، بل يُفرَّق بين الأشياء المحرَّمة الصريحة، والأشياء المتردِّدة، والأشياء التي فيها مصالح للناس أو مفاسد، والأشياء التي يشقُّ الاحتراز عنها؛ لعموم البلوى بها، كما يقول الأصوليون، مما يصعب على الناس الخلوص منها، والأشياء التي يسهل تجنُّبها، إلى قواعد يعرفها مَن عنده فقه في نفسه ومعرفته، بحيث يكون في دائرة الاعتدال؛ فلا ينساق مع التيسير المطلق، ولا مع التشديد المطلق، ولا يتوقف عند حال معين؛ لأن أحوال الناس تتغير بحسب الأزمنة، وقد يكون بمقدورهم ترك شيء في وقت ما، ثم يشيع حتى لا يستطيعون الاستغناء عنه ومن ذلك ما نراه من التسهيلات والخدمات والأجهزة والكهرباء والطرقات

ووسائل النقل ووسائل الاتصال والتعليم والإعلام وغيرها[1].

* ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩﴾:

أمر نبيَّه ﷺ بالتذكير، وعلَّق الأمر بقوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ﴾، فظاهره: إن كانت الذكرى تنفع فذكِّر، وقد جعله بعضهم أمرًا بالتذكير مطلقًا، دون اعتبار للشرط؛ لأنه لا مفهوم له، وعلى هذا جمهور المفسرين، وعليه فإيراد الشرط هو لتهدئة نفس المذكِّر والناصح والواعظ، حتى لا يستغرب إعراض الناس وإحجامهم.

وذهب ابن كثير والشنقيطي والسعدي وجماعة إلى أن الآية على بابها، وأن التذكير واجب إن كان ينفع، وإذا لم ينفع فليس واجبًا، وهذا جيد[2].

وعليه يكون الأمر بالتذكير مبنيًّا على تقدير حصول المصلحة والمنفعة.

والمصلحة قد تكون للشخص نفسه، بأن يكون قابلًا للتوجيه والتذكير فينتفع، كما في أول «سورة عبس»: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩﴾، وكما قال هنا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠﴾.

وقد تكون للناصح نفسه، ونفع الناصح هو براءة الذمة، ولهذا قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وهذا حاصل مع الإخلاص والتزام الأدب والخُلق الكريم، ولكن المراد أنه إذا تساوى جانب المصلحة والمفسدة، فقد يترجَّح الفعل؛ لأنه فعل، والفعل أولى من الترك، ولأن فيه براءة ذمة، والله أعلم.

وفي الآية معنى إقامة الحجة، ولذلك قال اليهود للرسول ﷺ لما دعاهم إلى الله: قد بلَّغتَ- أو: قد أبلغتَ- يا أبا القاسم. فكان ﷺ يقول: «**ذلك أريدُ**»[3]. أي:

(١) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٢- ١٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠)، و«أضواء البيان» (٨/ ٣٠٥)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤٤)، ومسلم (١٧٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذا ما أريد الوصول إليه وبيانه، وكان النبي ﷺ قد قال في حَجَّة الوداع: «**وأنتم تُسْأَلون عني، فما أنتم قائلون؟**». قالوا: نشهدُ أنك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُتُها إلى الناس: «**اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ، اللهمَّ اشهدْ**»[(١)].

أما إنْ كانت مضرَّة التذكرة ترجح على مصلحتها، فالواجب تركها، ولو اعتذر بعض الدعاة بالرغبة في إبراء الذمة، فإن إبراء الذمة لا تكون إلَّا باتباع الشريعة، فإذا كانت قواعد الشريعة تقتضي ترك الموعظة في موضع ما، فبراءة الذمة بأَلَّا يفعلها، ولهذا ذكر ابن تيمية وغيره أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجري فيه الأحكام الخمسة، فقد يكون واجبًا، أو مستحبًّا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو حرامًا[(٢)].

وهكذا الدعوة، تجري فيها الأحكام الخمسة.

وقد يعلم الإنسان في حالات أن الذكرى لا تنفع، كما قال الله سبحانه لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]؛ لأنهم قد حقَّت عليهم كلمة ربك، فلا يؤمنون، وهكذا أبو لهب بعد نزول قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

قد يُعلم هذا بطريق النص أو العقل، وإن كان أمرًا ظنيًّا اجتهاديًّا، لكن الشريعة جاءت بإعمال غلبة الظن، فقد يغلب على ظنك أن الكلام في هذا المكان علاج مناسب، ويغلب على ظنك أنه في ذاك المكان علاج غير مناسب.

وإذا كانت أمراض الناس الجسدية لا بدَّ لها من وصفات علاجية تحفظ الصحة، وتُترك إذا كان المريض مصابًا بمرض آخر قد يزيده هذا الدواء، فكذلك العلاجات المعنوية والروحية تحتاج إلى مراعاة ظروف الزمان والمكان والإنسان.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال (ص١٤، ١٦، ٣٧، ٥٣)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لابن تيمية (ص١٢- ١٣).

وقد يُدرك ذلك باليقين والمعرفة التامة بالمشاهدة، أو التجربة، أو الاعتبار بتجارب الآخرين.

وقد يستجمع الإنسان عزيمته لنصح أحد، ويحرج نفسه حرجًا كبيرًا في ذلك، وهو يعلم في قرارة نفسه أن مجال قبول النصح هنا غير وارد، وأنه لن يثمر؛ لأنه دواء في غير محله، والظروف تدل على أن المصلحة في ترك ذلك؛ فتركه أحسن.

* ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾:

أي: سينتفع بالموعظة والذِّكرى مَن يخشى الله تعالى.

يحتمل أن المقصود: المؤمنون، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وهذا ظاهر؛ فإن المؤمن يخشى الله، والفقيه- كما قال الحسن البصري وغيره- هو الذي يخشى الله[1].

ويحتمل أن يكون المعنى: أنه سيقبل التذكير مَن كان عنده قابلية وصفاء في قلبه واستعداد للخشية؛ لأن من الكفار مَن ذُكِّر فأسلم، وحينئذ تكون الذِّكرى قد نفعته فأدخلته الإسلام، فبالتذكير ترتفع عنه الجهالة، وتشرق أنوار الحق في قلبه[2].

فالنص يشمل المؤمن الذي يخشى الله تعالى، كعبدِ الله ابنِ أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي نزل فيه: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾[3] [عبس: ٨- ٩]، ويشمل مَن لديه استعداد فطري للقبول، كما قال سبحانه في بعض أهل الكتاب: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

---

(١) ينظر: «الزهد» لأحمد (٢٢١٧)، و«شرح مشكل الآثار» (٤٠١٧)، و«الجليس الصالح» (ص٥١٦)، و«فوائد تمام» (٧٦٤)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٣٤١)، و«تعظيم الفتيا» لابن الجوزي (٤٨)، و«تلبيس إبليس» (ص١١٠).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٥)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة عبس».

* ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ١١﴾:

الضمير عائد إلى الذكرى، ومعنى ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾: يترك جانبها، أي: يعرض عنها، والتجنب والاجتناب في القرآن ليس أن تترك الشيء فحسب، بل أن تتركه وما حوله، كما قال تعالى في الخمر وغيرها: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، فمعناه: أَلَّا تشرب الخمر، وأَلَّا تجلس مع قوم يشربون الخمر؛ لأن الراعي الذي يرعى حول الحِمى يوشك أن يرتع فيه(١)، فكذلك هنا، فالأشقى لا يحب الموعظة ولا يأنس بها، ولا يجالس أصحابها، وينفر قلبه منها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩].

فمَن لديه صفاء فطري إذا سمع الذكر والخير لم ينفر منه، ولو لم يكن عنده معرفة وإيمان، وقد لا يقبله من أول وهلة، بل يسأل ويبحث حتى يصل إلى الحق، أما المتشبع بالهوى فإنه ينفر من الذكر والعلم، ولا يزيده استماعه إلا بُعدًا.

وقد ورد في آيات أخرى وصف ﴿شَقِيٌّ﴾، كما في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فسماه شقيًّا، لكن اختار هنا لفظ: ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ أي: الأكثر شقاوة؛ لأنه يتكلَّم عمَّن يتجنب الذكرى فلا يستمع.

وقد تكون الإشارة هنا إلى شخص معين، والعادة عند علماء التفسير أنهم ينزلون هذه الآيات على رجال من كفار قريش، كأمية بن خلف أو أبي جهل أو أبي لهب أو غيرهم؛ لكن الآية مطلقة، والمعنى أنه يتجنب التذكرة مَن غلبت عليه الشقاوة، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وفي قراءة: ﴿شَقَٰوَتُنَا﴾(٢)، فمَن غلبت عليه الشقاوة صار هو

(١) كما في حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**إن الحلالَ بيِّنٌ، وإن الحرامَ بَيِّنٌ، وبينهما مشتبهاتٌ، لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من الناس، فمَنِ اتَّقى الشبهات استبرأَ لدينه وعرضه، ومَن وقعَ في الشبهات وقعَ في الحرام، كالرَّاعي يرعى حولَ الحِمى، يُوشِك أن يرتَعَ فيه...**». أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩). **والحِمى**: المحمِي، وهو المحظور على غير مالكه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ١١٧)، و«السبعة في القراءات» (ص٤٤٨)، و«الحجة للقراء السبعة» (٥/ ٣٠٢)، و«حجة القراءات» (ص٤٩١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٣٢٩)، و«معجم القراءات» (٦/ ٢٠٨- ٢٠٩).

الأشقى[1].

* ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢﴾:

قال: ﴿يَصۡلَى﴾؛ لأنها أبلغ وأقوى من «يدخل»؛ لأن الصَّلْيَ دليل على معاناة العذاب من كل مكان[2].

و﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ صفة للنار، إما بالقياس على عذاب الدنيا، كما قاله جماعة من المفسرين، أي أنه في الدنيا وجد عذابًا ونارًا؛ كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[3] [السجدة: ٢١].

أو يكون المقصود أن ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾، وهو الأكثر شقاوة ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، فيكون هناك تناسب بين ﴿ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ وبين وصفه بـ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾[4].

والنار دَرَكات، كما أن الجنة درجات، فبين مراتب الجنة تفاضل، وبين دَرَكات النار تفاوت، فكلما نزلت كانت أشد عذابًا، والمنافقون ﴿فِى ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

وليسوا في مقام واحد، وكلما كان المرء أشد كفرًا كان أشد عذابًا، كما قال عن فرعون: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وقد جاء عن النبي ﷺ في حال عمه أبي طالب أنه قال: «**هو في ضَحْضَاح من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرْك الأسفل من النار**»[5]. وفي الحديث الآخر: «**إن أهونَ أهل النار عذابًا يوم القيامة، لرجلٌ تُوضع في أَخْمَصِ قدميه[6] جمرتان، يغلي**

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٧، ٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٥- ٢٨٦).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٤٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٨)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٨٣)، ومسلم (٢٠٩) من حديث العباس بن عبد المطَّلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) هو خصر باطن القدم الذي لا يصيب الأرض عند المشي.

منهما دماغُه»[(١)]، فذكر النبيُّ ﷺ تفاوت أهل النار في دركاتها ومقاساة حرها.

* ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

ورد هذا المعنى - وهو عدم الموت وعدم الحياة - هنا، وفي «سورة طه» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾، فذكر أن المجرمين لا يموتون ولا يحيون في جهنم.

فمن أهل التفسير مَن قال: المعنى أنه لا يحيا حياة ينعم فيها كما يحيا أهل الجنة، أو لا يحيا كما كان يحيا في الدنيا متنعِّمًا فيها ببعض النَّعيم، ولا يموت فيستريح[(٢)].

ومما يعزِّز هذا المعنى ويقوِّيه: قوله سبحانه في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

وثَمَّ معنى آخر ذكره الطبري، وجماعة من المفسِّرين، وهو أن الآية على ظاهرها، وأن أهل النار هم بالصفة التي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فلا هم أموات ولا هم أحياء، ولذلك قال الطبري: «إن نَفْسَ أحدهم تصير في حلقه، فلا تخرج فتفارقه فيموت، ولا ترجع إلى موضعها من الجسم فيحيا»[(٣)]. وذلك من شدة العذاب الذي يعانونه ويقاسونه. وهذا القول وجيه.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ أن الكافر من أهل النار لا يموت فيها ولا يحيا، فقال: «**أما أهلُ النارِ الذين هم أهلُها، فإنهم لا يموتونَ فيها ولا يَحْيَوْنَ**..»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٣٤)، (٤/ ٦٧٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣١٢، ٥٠٦)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٤١٥)، (٦/ ٢٥٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٨٤)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٢/ ٤٧٥)، (٤/ ٥٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٨)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٥) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما المؤمنون فقال: «**فيخرجون من النار وقد امْتَحَشُوا، فيُصبُّ عليهم ماء الحياة، فينبُتُون منه كما تنبتُ الحِبَّةُ في حَمِيل السَّيْل**»[1]. أي: يظهرون شيئًا فشيئًا حتى يحيوا ويدخلوا الجنة، وهم الذين يقال لهم: «الجَهَنَّميون».

وعلى كلٍّ، فلا بأس أن تُؤخذ الآية على ظاهرها، فيقال: إن نَفْس أحدهم تكون في حلقه، لا تصل إلى بدنه فيحيا ولا تخرج فيموت ويرتاح؛ وذلك لأن أمور الآخرة لا يصح قياسها على أمور الدنيا.

فإذا قال قائل: كيف لا يموت ولا يحيا؟

فنقول: هذا إلى الله تعالى، وهذه حال لا يمكن قياسها على أمر الحياة الدنيا، وهي حال ذكرها الله تعالى في كتابه، ومعنى صحيح جاء في السنة النبوية، وربما لا يعرف الناس في هذه الدار إلا صنفين؛ حياة أو موت، أما في الآخرة فلا يمكن إجراء نواميس الحياة الدنيا عليها؛ فهي دار مختلفة، ليس لدينا شيء في الدنيا نقيسها عليه!

* وبينما أنت تتأمَّل حال الأشقى تتخيَّله مَصْليًّا بالنار الكبرى، وهو لا يموت فيها ولا يحيا، يفجؤك السياق نقلة إلى مشهد آخر، وهو في غاية المفارقة والمضادة للمشهد الأول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾:

﴿قَدْ﴾ يعرِّفها أهل اللغة بأنها حرف تحقيق، وفيها معنى التوكيد على الفلاح، ثم عبَّر بالفعل الماضي؛ لأن الفلاح متحقِّق لمَن تزكَّى.

والتزكِّي والزَّكاة والزَّكاء معناها: الزيادة والفضل والتطهُّر؛ لأن الزكاة تُبارك المال وتطهِّر القلب من الضغائن[2].

ولم يقل: «زكَّى»، أو: «زكَّى نفسه»؛ لأن زيادة التاء في الغالب تدل على شيء من المعاناة والمعالجة، فالتزكِّي عملية تحتاج إلى صبر ودوام مجاهدة، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. **وامْتَحَشُوا:** احترقوا.

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٠) «ز ك ا»، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» للمؤلِّف (ص١٥).

يأتي العون من الله تعالى لمَن يريد ذلك ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وكم من إنسان تنازعه الرغبة في الخير والاستقامة والتوبة، وسرعان ما تفتر همته وتسقط عزيمته وتخور قواه وينقطع، وتلوح له الجواذب والنوازع، فيميل إليها ويترك الخير، أو تقف عقبات الطريق أمامه فيتوقف.

والتزكِّي درجات، كما أن الشر دركات، وعلى المؤمن أن يستمسك بالحبل الذي يوصله إلى الجنة، وهو حبل الشهادة والإيمان بالله.

حتى لو أنه زل أو عثر، فهذا لا يدل على أنه ترك التزكِّي؛ لأن أصل التزكِّي ولبَّه هو زكاة القلب بالتوحيد، وألَّا يكون مشركًا بالله، وهذا حاصل لكل مؤمن، ومع ذلك فقد لا يحصل له كمال التزكِّي، فلديه عيوب وأخطاء وشهوات تغلبه، فتغلبه عينه بنظرة، ويغلبه لسانه بكلمة، وتغلبه محبة المال، ويغلبه قعود أو رغبة في مأكل أو مشرب أو نوم أو أهل أو ولد، فيقع التقصير.

والتزكِّي والتزكية من أعظم مقاصد البعثة النبوية وبعثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وهو يكون بصفاء القلب؛ لأن القلب إذا صفا أشرقت عليه المعاني الطيبة، فلا يصدر عنه إلَّا الطيب من القول والفعل، فيجب أن يكون من مقاصد التعليم والدعوة تزكية الناس، والعلوم يُفرح بها لأنها تزكِّي، فكلما كان الإنسان أكثر علمًا، وجب أن يكون أكثر تزكية.

أما إذا كانت مجرد معلومات مختزنة في الذهن، وليس لها تأثير في الحياة والسلوك؛ فقد تتحوَّل إلى المفاخرة والمباهاة.

وقول النبي ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»(١). يتطابق مع الآية الكريمة؛ لأن المقصود من مكارم الأخلاق أخلاق الظاهر بالابتسام والكرم وحسن العلاقة مع الناس، وأخلاق الباطن بأن يكون القلب مشتملًا على الإيمان

---

(١) وفي رواية: «**صالحَ الأخلاق**». أخرجه أحمد، والبخاري في «الأدب المفرد»، والحاكم، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد تقدم تخريجه في «سورة القلم»: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

والسماحة والصدق والصفا والطيبة، متخليًا عن أضدادها.

ولذلك قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾: «مَن تطهَّر من الشرك»(١).

وذكر أبو سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مَن أخرج زكاة الفطر، و﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾: صلاة العيد، ونُقل هذا أيضًا عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٢).

وهو معنًى صحيحٌ، ولكن لا ينبغي قصر الآية عليه، لا سيما أنها نزلت في مكة قبل أن تفرضَ زكاةُ الفطر، وقبل أن تفرضَ صلاةُ العيد، فهو داخل في عموم الآية، وليستِ الآيةُ خاصَّةً به.

وقيل: ﴿تَزَكَّىٰ﴾: اتَّقى(٣). وهو قريب من الأول.

* ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾:

عطف الآية على ما قبلها بالواو، ثم عطف الصلاة على الذكر بحرف الفاء، فقال: ﴿فَصَلَّىٰ﴾، ولم يقل: «وصلَّى». وفي هذا إشعار بقوة اتصال الصلاة بالذكر، كما يُشعر بذلك قولُه تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وفي الحديث: «**مَن نسي صلاةً، فَلْيُصلِّها إذا ذكَرَها، لا كفارةَ لها إلَّا ذلك**»(٤).

فالذكر متلبِّس بالصلاة؛ والصلاة ذكر، بل هي أعظم الذكر.

وأيُّهما أفضل: الذكرُ أم الصلاةُ؟

الصلاة أفضل؛ لأنها مشتملةٌ على الذكر، والقرآن، والتسبيح، والاستغفار.

والمقصود: الذكر بالقلب؛ لأن أكثر الناس يظنون أن حقيقة الذكر لا تجاوزُ ذكرَ اللِّسانِ، وهذا خلاف دِلالة الآية.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣١٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٥)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٤٧١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٦٨).

(٢) ينظر ما تقدم أول السورة: «**توقيت النزول**».

(٣) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٩٢)، والمصادر السابقة.

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد بحث العلماء مسألة الأجر على ذكر اللِّسان دون حضور القلب؛ هل يثبُتُ أم لا؟

فذهب البعض إلى أنه يُؤجر، لكن دون أجر الذاكر المستحضر؛ وذلك لأن مَن ذكرَ اللهَ تعالى بقلبه ولسانه حصل له أثر الذكر وثمرته، ومَن ذكر اللهَ بقلبه دون أن يتحرك لسانُه، فهو أفضل ممن يَذكرُ باللسان دون القلب(١).

والذكر بالقلب إذا لم يصحبه ذكر باللسان، قد يفضي إلى نوع من التيه والتشتت، كما حدث لبعض المتصوفة الذين اقتصروا على الذكر بالقلب ولم يَصحب ذلك ذكرُ اللسان، فلم تنضبط لهم معاني الذكر والحضور، ووقعوا في بعض الشَّطَحِ، كما وقعوا فيما يسمى بالفناء والغَيْبة وما أشبه ذلك.

وإذا ذَكرَ ربَّه بقلبه، وواطأ هذا الذكرَ باللسان، حصل الانضباط بمعرفة الأسماء الحسنى، ومعرفة عظمة الله وتنزيهه عما لا يليق به، وأن يحفظ مقامات الشرع.

* ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ للإضراب، **والإضراب** يكون أحيانًا لإنكار المعنى الأول، كقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وأحيانًا يكون للانتقال إلى معنى آخر جديد، كما في هذه الآية(٢).

وكأن ذلك بيان للسبب الذي جعل الناس يعرضون عن تزكية نفوسهم وذِكْرِ الله سبحانه، وعن الصلاة والتسبيح، إلى ما يضرُّهم ولا ينفعُهم.

---

(١) ينظر: «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٠١)، و«الأذكار» (ص٤٩)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٧/ ١٥)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، و«تخريج أحاديث المصابيح» لصدر الدين المناوي (٢/ ٢٦٦)، و«فتح الباري» (١١/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٢٩٨)، و«الكشاف» (٤/ ٣٣٨، ٣٨٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٩٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٣/ ١٥٧)، و«البرهان في علوم القرآن» (٤/ ٢٥٨)، و«الإتقان» (٢/ ٢١٩)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٨٩)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾، و«سورة القيامة»: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾، و«سورة الإنشقاق»: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

وإيثار العاجلة من أعظم أسباب الانحراف في حياة الناس؛ لأن حقيقة إيثار الدنيا هو الزهد في الآخرة وما فيها من نعيم مقيم.

وإيثارُ الدنيا على الآخرة من أسباب الضلال المبين، وقد وصف الله المشركين بأنهم: ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]، **والمقصود**: الإيثار التام المطلق، وإلا فإنه قد يقع للمؤمن أن يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة في موقف خاص، ويكون ذلك ذنبًا لا كفرًا! وذلك كما لو قَصَّر في إخراج الزكاة المفروضة، فهذا إيثارٌ للدنيا على الآخرة، ولا نقول: إنه كافرٌ بعدم إخراج الزكاة؛ لما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يُؤَدِّي منها حقَّها، إِلَّا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحَتْ له صفائحُ من نار، فَأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيُكْوَى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُهُ، كلَّما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ له في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العباد، فَيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنة، وإما إلى النار**»(١). فدلَّ على أنَّه لا يَكْفُرُ بهذا.

وكذلك الذي يقع في المعصية، وهو يدري أنها معصية، فإنه يكون قد آثر الحياة الدنيا وشهوتها على ما عند الله في الآخرة، ولكنه لم يُؤْثِرْها مطلقًا، فهو يصلِّي، ويذكر الله ويستغفر؛ ففرق بين المؤمن الذي آثر الحياة الدنيا في بعض الأحوال، وبين الكافر الذي آثر الحياة الدنيا على الآخرة إيثارًا مطلقًا(٢).

* ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٧﴾:

أخبر عن الآخرة بوصفين:

أنها خير، أي: أحسن، وأحسن بما لا يُقاس؛ لأن الجنة ليس فيها مما في الدنيا إلا الأسماءُ(٣)؛ ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٢)، ومسلم (٩٨٧).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة النازعات»: ﴿وَءَاثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ٣٨﴾.

(٣) كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتقدم تخريجه في «سورة الملك»: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨﴾.

بشر، وفيها من النَّعيم المقيم ما لا يقدِّر قدره إلا الله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، لكن هذا مما طُوي عن العباد.

وأنها أبقى، أي: أطول منه، والتفضيل للإيضاح، وإلا فلا مقارنة بينهما؛ لأن الدنيا محدودة، والآخرة غير محدودة(١).

فالجنة خير من الدنيا، وحتى لو فَرضنا استواءَهما في المدة، بأن تعيش في الدنيا مائة سنة في طاعة الله، وتعيش في الآخرة مائة سنة فقط؛ لكانت الآخرة في هذه الحالة خيرًا، فكيف إذا انضاف صفةٌ أخرى وهي أنها أبقى؟! ويدخل في ذلك ما أريد به الآخرة فإنه أعظم أجرًا، وأبلغ في تحقيق الرضا النفسي والسعادة في الدنيا، والأجر والمثوبة في الآخرة.

* ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾:

المُشار إليه ما سبق ذكره في السورة الكريمة من المعاني المذكورة(٢).

وقال بعضُهم: المقصود قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾، فهو المذكور في الصحف الأولى(٣).

والأقرب أن المذكور السورة كلها، وأنها مما تضمنته ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾:

وهي من الدِّين العام الجامع، أي: من محكمات الشريعة وأصولها التي اتفق عليها الأنبياء؛ لأن الدين الجامع هو ما اتفق عليه الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ.

فيشمل ذلك أصولَ الاعتقاد، وأصولَ الأوامر والنواهي العامة التي أطبق

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٤٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٣٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (٢/ ٧٥٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢- ٣٨٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٧٦- ٣٧٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٢- ٣٨٣).

عليها الأنبياء، فهذه المعاني: من ذكر الجنة والنار، والتزكي، وأسماء الله تعالى، وعبادته موجودة في صحف إبراهيم وموسى.

وإنما ذكر صحفَ إبراهيم وموسى خاصة؛ لأنهما من أولي العزم من الرسل، ولأن آثار نبوتهم باقية عند اليهود، وعند العرب في مكة.

سُورَةُ الغَاشِيَةِ

❊ **تسمية السورة:**

اسمها في المصاحف، وكتب التفسير والحديث: «**سورة الغاشية**»(١).

وفي «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير: «**سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾**»، و«**سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾**»(٢).

وفي «صحيح مسلم» من حديث النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾»(٣).

وسماها بعضهم: «**سورة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾**»(٤)، وذلك على سبيل الاختصار.

❊ **عدد آياتها:** ست وعشرون آية باتفاقهم(٥).

❊ **وهي مكية** بالاتفاق، ذكر ذلك: السمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وغيرهم(٦).

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٢٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٠)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٣٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٣٦٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٣) ينظر: «صحيح مسلم» (٨٧٨)، وما تقدم في «سورة الأعلى».

(٤) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٢).

(٦) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٨٩)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٨٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٢٠).

* ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ①﴾:

الأقرب أن ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، والسؤال تقرير، أي: قد أتاك حديث الغاشية[1].

و﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ صفة لموصوف لم يُذكر، **وقد اختلف المفسرون في معناها على ثلاثة أقوال**، أشهرها وأصحها: أنها القيامة، **وقيل**: النار؛ لأنها تغشى وجوه أصحابها، **وقيل**: صيحة البعث، **والراجح** أنها القيامة؛ لأنه ذكر بعد الغاشية ما يقع فيها، وذكر أحوال أهل الجنة وأهل النار، فهي تغشى الناس جميعًا، ولا مخلص لأحد منها[2].

إن تفاصيل يوم القيامة مما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي، والإنسان قد يدرك بالعقل والفطرة حقيقة البعث والنشور، لينالَ المحسن جزاءه، ويُقتص للمظلوم من الظالم، وتتجلَّى الحكمة الربانية من الخلق.

وجاءت الرسالات لتحدِّد وتوضح وتفصِّل ما تؤمن به الفِطَرُ السليمة والعقول المستقيمة، من حقائق البعث والنشور والجنة والنار، فجاء «حديث الغاشية» و«حديث القيامة» في القرآن والسنة مفصَّلًا.

والحديث يطلق على الكلام أو الخبر أو القصة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ [يوسف: ١١١].

* ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ②﴾:

في السياق مناسبة بين قوله: ﴿وُجُوهٌ﴾، وبين: ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾؛ لأن الغاشية غالبًا ما يَبِينُ أثرُها على الوجه، وما في القلب من الخوف أو الحياء أو الارتباك يظهر أثرُه على الوجه، ولهذا ناسب أن يعبِّر بـ﴿وُجُوهٌ﴾، وإن كان المقصود أصحابها.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٧٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٠٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، وما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ㉔﴾، و«سورة النازعات»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ⑮﴾، و«سورة البروج»: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ⑰﴾.

(٢) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٢٦- ٣٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٨٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٤).

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ يعني: يوم الغاشية، يوم القيامة، فهذه الأوصاف لهم في الآخرة.

وفي ذلك ثلاثة أقوال:

١- أن هذه أوصافهم في الآخرة، فوجوههم خاشعة ذليلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ﴾ [الشورى: ٤٥].

* وعليه؛ فقوله: ﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣﴾ يعني: في الآخرة أيضًا، فهم في الموقف من ركضهم وذهابهم وإيابهم وقلقهم وحركتهم يعملون وينصبون ويعذَّبون، ويكلفون أحمالًا(١).

٢- أنها أوصاف لهم في الدنيا، وبناءً عليه قال: ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ من الخشوع، وهذا يعني أنهم كانوا يعبدون الله على غير هدًى، كعبادة الرهبان، أو عبادة الخوارج الذين عندهم خشوع في ظاهر الأمر من العبادة، ولكنه على غير هدى.

وهكذا هم يعملون أعمالًا في الدنيا، لا تنفعُهم في الدار الآخرة، وينصبون: من النصب، وهو التعب(٢).

٣- أن تكون صفات مشتركة، بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة، فالخشوع في الدنيا، والعمل والنصب في الآخرة، أو العكس(٣).

والمختار الأول أن هذه الصفات لهم في الدار الآخرة، وليست في الدنيا، فوجوههم خاشعة ذليلة من هول ما ترى، عاملة ناصبة في الموقف بما يقع لها من الحيرة والذهاب والإياب، كما ورد في مجيئهم إلى الأنبياء وتردُّدهم عليهم(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٦٥)، (٢٠/ ٢٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٨٢).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٨)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٣٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير القشيري» (٨/ ٧١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٤)، والمصادر السابقة.

(٤) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشفاعة. ينظر: «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

وحينما يصيرون إلى النار؛ فإنهم ينصبون ويتعبون تعبًا مرهقًا، كما قال تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

* ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝٤﴾:

أي: هذه الوجوه وأصحابها، وأشد ما تَصْلَى النار من الإنسان وجهه، وكونهم يتقون النار بوجوههم هو من أشد ما يكون عليهم؛ لأن الحرق لو كان في رِجل الإنسان أو في يده، لكان أهون بكثير من وجهه، فإنه يجد في وجهه من أثر الحر وألمه الشيء العظيم.

ولم يقل: «تُكوى»، وإنما ﴿تَصۡلَىٰ﴾، فالنار هي مسكنهم، والعرب يعبِّرون بالصَّلْوِ، إذا قالوا مثلًا: شاة مَصلِية، فإنهم يحفرون حفرة، ويضعون فيها جمرًا شديدًا، ثم يضعون فيه الشاة أو اللحم الذي يريدون شَيَّه أو إنضاجه، وهذا أشد ما يكون، والكي يكون عابرًا ويزول، بخلاف الصَّلْي[1].

وتنكير «النار» إشارة إلى عظمتها وهولها، وأنها وإن كانت تشبه نار الدنيا من حيث الأصل، إلا أنها شيء آخرُ مما يعلمه الله ولا يتصوره البشر، وكل صورة تخطر في بالك عن نار الآخرة فالأمر أشد من ذلك.

ووصفها بأنها ﴿حَامِيَةٗ﴾ مع أن هذه الصفة لازمة، فما من نار إلا وهي حامية.

وهذا إما أن يكون لأنها لا تَفتُر ولا تبرد، فليست كنار الدنيا، التي تستعر ثم تخبو، وإنما تَتوقَّد وتتلهب أبدًا.

أو لأنها زيادة على حرها وسعيرها، تتغيَّظ على الكافرين.

وهذا المعنى صحيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٨]، يعني: تتقطع من شدة غضبها وحَنَقِهَا[2] على الكافرين.

وقال بعضهم: إنها سبب في الحماية، فالوعيد بها يحمي الإنسان من الوقوع

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦﴾.

(٢) أي: شدة الغيظ.

في المعاصي؛ لأنه إذا تذكَّر النار امتنع عن الذنوب، وهذا بعيد(1).

* ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾:

كأن السامع تصوَّر هذا المعذَّب وهو يُصلَى بالنار، فتذكَّر الماء الذي يطفئ النار، ويروي الظمأ؛ ليخطئ هذا الوهم؛ فشأن الآخرة ليس كشأن الدنيا، فذكر ما يشربون، وهي عين من الماء ﴿ءَانِيَةٍ﴾ شديدة الحرارة، كما في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٣- ٤٤]، **والحَمِيم**: الماء الحار، **والآن**: البالغ في الحرارة منتهاه(2)، وليست كحرارة مياه الدنيا، فهذا شرابهم إذا استسقوا، ولهذا قال تعالى في «سورة الكهف»: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فمن شدة حرارته يشوي وجوههم قبل أن يشربوه، فكيف إذا شربوه؟! ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، والإنسان إذا تقطعت أمعاؤه في الدنيا يموت، أما في الآخرة، فهم بين الموت والحياة؛ لأنه لو كان في الآخرة موت، لماتوا بمجرد دخول النار، ولكن أمر الآخرة لا يقاس بنواميس الحياة المعروفة.

* ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾:

انتقل من ذكر الشراب إلى ذكر الطعام، **والضَّريع**- على قول جمهور أهل اللغة والتفسير-: نوع من نبات الصحراء سَامٌّ شوكِيٌّ، تأكله الإبل، وتسمِّيه العرب: الشِّبْرِق(3)، فإذا يبس سمِّي: ضَرِيعًا، وقد تأكله الإبل فلا ينفعها ولا يسمنها(4).

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٥٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٣٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٨/ ٢٨٣)، و«الكشاف» (٤/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٧٥).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٩٦، ٢٥٤) «أ ن ا»، «ح م».

(٣) وقيل: بفتح الراء. ينظر: «البارع في اللغة» لأبي علي القالي (ص٥٣٠)، و«توضيح المشتبه» لابن ناصر الدين (٥/ ٢٧٨).

(٤) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٥٢)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٠٦) «ض ر ع»، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٦٠١)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٥٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٩٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٨).

* ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾:

وفي هذا مزيد عذاب لأصحاب النار، فيعذَّبون بالجوع والعطش، ويشربون الماء الحميم، ويأكلون الضَّريع.

وقد ذكر تعالى طعام أهل النار، فسماه مرةً: الزَّقُّوم، فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦]، وسماه: الغِسلين، فقال: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۝٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٥- ٣٧].

فإما أن هذه أسماء لمسمى واحد، وهي أنواع داخلة تحته، أو أنها حسب مقام الإنسان في النار، فلكل دَرْكةٍ نوع من الطعام، أو يقال: إن هذا في أحوال مختلفة، والله تعالى أعلم، والمقصود الوعيد(١).

* ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨﴾:

أي: يوم الغاشية التي هي القيامة، وقوله: ﴿نَّاعِمَةٞ﴾ من النَّعيم، كما قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

* ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ ۝٩﴾:

رضيت سعيها في الدنيا، فلما رأوا المصير حمدوا سعيهم واجتهادهم وصبرهم، وكما قيل: عند الصباح يحمدُ القومُ السُّرَى(٢).

أو يكون المعنى: راضية لنتيجة سعيها وثوابه وجزائه في الدار الآخرة، فحصل منهم كمال الرضا، والرضا معنى قلبي، فلما كان النعيم والنعومة في الوجه، كان الرضا في القلب(٣).

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٦٣)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (٢/ ٧٠٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٦٢)، وما تقدم في «سورة الحاقة».

(٢) ينظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص١٧٠)، و«المجالسة» للدينوري (١/ ١٤٤) (١٣١)، و«جمهرة الأمثال» (٢/ ٣٢). **والسُّرَى**: سير الليل.

(٣) ينظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٢٠٧- ٢٧١)

* ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾:

والعلو هنا علو حسي، بارتفاعها وعظمتها وسعتها، فإن الجنة في السماء، والنبي ﷺ قال: «**إن أهلَ الجنة ليترَاءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما يَترَاءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم**». قالوا: يا رسولَ الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**لا والذي نفسي بيده، بل رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ**»(١). وقال: «**إن في الجنة مائةَ درجة، أعدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»(٢).

فتلك نار حامية، وجمرٌ وكَيٌّ، وعقوبة وصَلْي، وهذه جنة عالية، وهو سبحانه يتحبَّب إلى عباده ويصبر عليهم ويحلُم، ولا يعاجلهم، بل يقيم عليهم الحجج، ويظهر لهم آياته، وربما عصى العبد فأمهله، وربما سلَّط عليه بعض مصائب الدنيا وأعراضها، من مرض أو فقر أو جوع أو دَيْن أو همٍّ أو غمٍّ أو عدو متسلط؛ حتى يتطهر من ذنوبه قبل أن يلقى ربه.

وعلو الجنة علوٌّ معنويٌّ كذلك بارتفاع رتبتها، وكونهم في جِوار ربهم تبارك وتعالى، وما فيها من رفعة المنزلة، ورفعة الشأن.

* ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾:

وهذا من العلو المعنوي؛ فلا يُسمع في الجنة لغو، **وأصل اللغو**: الكلام الذي ليس له معنى، كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُوٓاْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾ [القصص: ٥٥]، وقال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾(٣) [الطور: ٢٣].

فمن باب أولى أنه ليس فيها الكلام الفاحش أو البذيء أو المحزن، وإنما كلام أهلها خير وَبِرٌّ، حتى صح أنهم «**يُلْهَمُونَ التسبيحَ والتحميدَ، كما تُلْهَمُونَ**

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٧٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٩٩).

النَّفَسَ»[1]. فكلامهم ذكر وبر وشكر وحمد وثناء، فقد قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، يعني: من غير تكلف؛ لأن الجنة ليس فيها تكليف أصلًا، بل هي تجري منهم كما يجري النَّفَسُ، وهو جزء من النعيم الذي يتلذَّذون به.

* ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢﴾:

بدأ السياق يتحدَّث عن مشاربهم، و﴿عَيْنٌ﴾ اسم جنس بمعنى: عيون[2].

وعيون الجنة تجري على أرضها، وعلى ظاهرها، من غير أن يكون لها أخاديد تمشي فيها أو سَوَاقٍ، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، فهذه الأشياء تجري على الأرض، ويجريها المؤمن كيف شاء، ومن غير حاجة إلى أن يكون للنهر دفتان؛ لأن هذه قوانين المادة في الدنيا، في حين أن الجنة شيء آخر، فهذه العين جارية مُطَّرِدة ساعية[3].

* ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ١٣﴾:

السرير معروف، ووصفه بأنه مرفوع، ومَن تعوَّد على سرير في الدنيا، توقع أن السُّرر المرفوعة بحجم ما يعرف من القياسات، لكن الشيء الذي في الآخرة لا تستطيع أن تتخيله، فرفعته ربما أرفع من قدر الأرض، وأرفع من قدر السماء، وأرفع مما يعلم الناس؛ ويكفي أن الله تعالى وصفها بذلك.

وفي الآية إلماح إلى رِفعتها المعنوية؛ لأنها أُعدَّت للأطهار الأبرار الذي نقَّوا فروجهم عما لا يحِل، وطهروها احتسابًا لذلك اليوم.

ومن معاني ذلك: أن مَن على السُّرُر هن النساء الطاهرات المطهَّرات المكتملات في الهيئة والشكل والظاهر والباطن والخَلْق والخُلُق[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٥) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير القشيري» (٨/ ٧٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٥٨)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢١).

(٣) ينظر: «صفة الجنة» لابن أبي الدنيا، ولأبي نعيم الأصبهاني، وللضياء المقدسي.

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٦).

* ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾:

الكوب: الإناء أو الكوز الذي ليس له مِقْبَضٌ أو عُرى، ولا يكون له أيضًا مَصبٌّ يصب منه الماء.

وذكر الرافعي أن لفظ «الكوب» استُعمل في القرآن مجموعًا، ولم يأت مفردًا؛ لأنه لا يتهيَّأ فيه ما يجعله في النطق من الظهور والرقة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «أكواب» الذي هو الجمع(١).

ووصفها بأنها موضوعة في مقابل ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ أي: قريبة منهم وفي متناولهم(٢).

ومن صفاتها: أنها مقدَّرة، مصنوعة بمقدار يناسب كل حال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦]، فهي مقدَّرة ومناسبة، وفيها من أسباب النعيم والسرور والبهجة والترف ما لا يخطر على بال.

* ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾﴾:

جمع نُمْرُقَة- بضم النون والراء، وفتحهما، وكسرهما(٣)- وهي: الوسائد، فهي مصفوفة بعضها إلى جنب بعض، لقعودهم ومُتَّكَئِهم(٤).

* ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾:

زَرابي جمع: زربيَّة- مثلث الزاي- وهي: البُسط(٥).

ويقول بعض المحققين: إن أصل كلمة «زَرابي» مأخوذة من: أذربي، يعني: أذربيجان، اختصارًا، ومؤنثها: أذربية، فصاروا يقولون: زَرْبِيَّة؛ فقد قيل: إن الذال

---

(١) ينظر: «إعجاز القرآن» للرافعي (ص١٦٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٤١)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ١٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦)، و«روح المعاني» (٢٥/ ٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٥/ ٢٥٥).

(٣) ينظر: «تاج العروس» (٢٦/ ٤٣٨) «ن م ر ق».

(٤) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٧١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٦٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢٨).

(٥) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٠٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٢٣٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٢)، والمصادر السابقة.

ليست في لغة الفرس[١]، لكن الله تعالى عند ما يقول عن الجنة أن فيها هذا اللون، فإن هذا فقط من باب تقريب المعنى لعقل السامع بذكر ما يعرف نعومته وجمال شكله.

* ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾:

والإبل مدعاة للتعجب والاعتبار في خِلقته وقوته، وصبره واحتماله للجوع والعطش، وقدرته على حمل الأثقال، وسهولة انقياده؛ ولذلك اختار الله الإبل هنا، مع أنه يوجد في الحيوانات ما هو أقوى منه أو أشد، كالفيل أو الأسد أو التمساح أو النمر، لكن الله تعالى ذكر الإبل، لعَجبِ خلقها أولًا، ولأُنسيَتِها، وكونها قريبة من الإنسان، مألوفة لناظريْهِ يخالطها ويستخدمها.

وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يكتشف العلماء من دقائق المعاني في خلق الإبل ما لم يكن يعرفه الناس.

* ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨﴾:

أي: إلى هذه القبة الزرقاء.

* ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾:

فيرى الجبال وما فيها من القوة والرسوخ، إضافة إلى ما فيها من حفظ الأرض؛ فإن الله تعالى جعل الجبال أوتادًا تحفظ الأرض ويستقر بها توازنها.

* ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾:

فالأرض هُيِّئَتْ لاستخدامات الخَلْق، من مشي ونوم وعمران وعمل وزراعة، ولا ينفي ذلك كُرَوِيَّة الأرض، كما ظن بعض مَن أخطأ الفهم، ونسبوه إلى القرآن، فكُرَويَّتها قطعية عند علماء الإسلام وعند علماء الفلك، حتى قبل أن يشاهدها العلم، وهي كرة تدور في الفضاء العظيم[٢].

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٠٣).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ..﴾ [ق: ٧]، و«سورة النازعات»: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾، وما سيأتي في «سورة الشمس»: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

* ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: لست بمتغلِّب أو متسلِّط(١)، وهذا معنى عظيم؛ فإن الله سبحانه يقول لمحمد ﷺ: ذكِّر هؤلاء بالقرآن: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

و﴿إِنَّمَآ﴾ للحصر، فحصر رسالته في التذكير، فأنت مذكِّر فحسب، فلست ذا سلطانٍ فتَقْهَرَهم، ولا حاكمًا متغلِّبًا فتأخذَهم بالقوة، وإنما أنت نبي مبلِّغ، وهذا معنى عظيم، فالدعوة إلى الله ليست قهرًا وإلزامًا، وإنما أصلها قائم على الحرية في اختيار الناس: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

وقد غفل كثيرون عن هذا المعنى، فتجد الأَبَ يربِّي أولاده على الخوف منه أكثر مما يربيهم على الخوف من الله، وبعض الدعاة يربُّون الناس على الخوف من المجتمع وعين الرقيب، ويعوِّلون في إصلاحهم وتربيتهم على السلطة التي تقهر الناس على الخير وتمنعهم من الشر، ويغفلون عن مخاطبة قلوب الناس بالخير والتذكير والتخويف بالقرآن حتى يحيا وازع الحب ثم الخوف من الله ومراقبته في قلب العبد، واليوم بعد أن غلبت العولمة وتقدمت وسائل الاتصال ضعفت السلطة وصار من المهم التربية على الرقابة الذاتية التي تعني مخافة الله وتعظيم حرماته.

ولا يعني هذا إلغاء جانب المسؤولية للأب أو الزوج أو المعلِّم أو الحاكم، وإنما المقصود أن يكون الاعتماد على الإيمان الذي في القلوب، وإلَّا فمَن لم يكن عنده إيمان لو منعته من الشر فلن يفعل الخير، وبمقدوره أن يصل إلى ما يريد دون علمك، ويظن بعضهم أن الرسل ما بُعثوا إلا للجهاد، فصار الجهاد في نفسه غاية ومقصدًا لا بد من إقامته وتحقيقه مهما كانت الظروف! وهذا خطأ، والجهاد

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٤٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٤٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٨).

وسيلة وليس غاية، والرسل بُعِثوا للهداية، وأكثرهم لم يُبعث بقتال أصلًا، والقتال إنما يُشرع في ظروف خاصة، لا لأجل التوسع ولا جِباية الأموال، وإنما لإزالة الظلم ونصرة الحق ومقاومة الباغين والمعتدين وحماية الحق.

* ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾:

استثناء منقطع، بمعنى «لكن»، أي: لكن مَن تولى وكفر فشأنه إلى الله تعالى.

وقال بعضُهم: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾: الاستثناء على بابه، والمقصود أن الله يسلِّطك عليهم بأن تعذِّبهم بالجهاد، كما في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

وهذا معنى ضعيف؛ لأن المستثنَى هو المستثنَى منه، والله سبحانه لما قال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ يعني: لست على الكفار بمسيطر، فكيف يستثني ويقول: إلا الكفار. هذا لا يستقيم في الكلام الفصيح، وإنما المقصود من السياق معنى جديد مستأنف.

* ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾:

يعني: أمره إلى الله، ليس إليك، وإنما أنت مذكِّر، فالداعية يجب أن يستحضر معنى كونه مذكِّرًا، وليس بمتسلِّط على الناس ولا متفوق عليهم، ولا يقهرهم ولا يأخذهم، وإنما يدعوهم إلى الله تعالى.

وسمَّى عذابه في الآخرة: ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾؛ لأنهم عُذِّبوا عذابًا أدنى في الدنيا، بالمصائب والأمراض والشرور والفتن وغيرها مما يقع عليهم[(١)].

* ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾:

فلا تعجل عليهم ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، فأمر الدنيا يسير ومهما طال فهو قصير، وإلى الله تعالى المصير.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٣٢)، و«تفسير الثعلبي» (٧/ ٣٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٨/ ١٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٣٦٣)، و«زاد المسير» (٣/ ٤٤٢)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٠٧)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٦٩).

* ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾:

فيحاسبهم بما عملوا، والمعنى: ليس عليك من حسابهم من شيء[1]، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وهذه دعوة إلى المؤمنين أن يكفُّوا عن محاسبة الناس، ويتورَّعوا عن الحكم بالكفر والنار، وترك ذلك لأهله، والاشتغال بإصلاح النفس والقلب والعقل، والسعي في هداية الآخرين، والإحسان إليهم، وكف الشر عنهم.

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٤٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٧)، والمصادر السابقة.

سُورَةُ الفَجْرِ

*** تسمية السورة:**

اسمها في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث: «**سورة الفجر**»(١).

وسمَّاها البخاري في «صحيحه»: «**سورة ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾**». وهو أيضًا في طائفة من كتب التفسير، والحديث(٢)، وهما متقاربان.

*** عدد آياتها: قيل**: اثنان وثلاثون آية، **وقيل**: ثلاثون، **وقيل**: تسع وعشرون(٣).

*** وهي مكية**، وأكثر المفسرين على ذلك.

ونُقل عن علي بن أبي طلحة أنها نزلت بالمدينة، ونقل ابن عطية عن أبي عمرو الدَّاني أنها مدنية، والقول الأول هو الصحيح(٤).

*** ولا يعرف لها سبب نزول**، والذي يظهر أنها نزلت في وقت شدة على النبي ﷺ، وكان فيه محتاجًا إلى أن يُذَكَّر بمعنيين:

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٢٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٩٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠/ ٣٣٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٤٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٩)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٢٦)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٢)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢١٠).

(٣) وقد اختلفوا في أربع آيات: ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦]، ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

(٤) ينظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (٦٦٢)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٧)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٥٨٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١١).

١- نعمة الله تعالى عليه بالنبوة وخلافة الأنبياء، وأن وعد الله تعالى له بالنصر والتمكين آت لا محالة.

٢- عقاب الله تعالى للمعاندين والمكذِّبين والظالمين، وأنه مهما أبطأ فسوف يأتي، فالنصر لك ولدينك وأهل ملتك، والعقوبة على الظالمين المكذِّبين.

* ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾:

هذا قَسَم، والمفسرون وأهل اللغة يقولون: إن القَسَم توكيد حقيقة عظيمة، فإذا كان المقسَم به هو الله تعالى، كان الأمر أكثر توكيدًا وإلحاحًا(١).

والأشياء المقسَم بها على أي وجه فُهمت فهي من آيات الله، ولذلك ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المقسَم عليه هو المقسَم به(٢).

وهذا كلام بديع، لم أجده لغيره، يعني: أننا لا نحتاج إلى أن نبحث: على ماذا أقسم الله تعالى؟ بل يكفي أن نقول: إن الله أقسم بهذه الأشياء؛ لتوجيه النظر إليها، والإشارة إلى بديع صنعه فيها، وإلى عظيم نعمته على عباده.

وثَمَّ قدر مختلف فيه، وهو ماهية المقسم به، وحين تستعرض الأقوال تجد كثيرًا منها صحيحة المعنى وجيهة، فالأمر فيها واسع؛ لأنه لا يتعلق بها حكم عملي، وإنما هي ألوان من اللطائف والمعاني والأسرار التي يتميز الناس بها بحسب قوة فهمهم، ودقة إدراكهم.

أقسم بالفجر، وهو: الفجر الصادق، أي: حينما يبزُغ النهار وتزول ظُلْمة الليل، وهو وقت صلاة الفجر على ما هو متفق عليه عند العلماء(٣).

وأقسم في موضع آخر بالصبح، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، وهو هنا عبَّر بالفجر؛ لانفجار النهار، كما تقول: انفجر الماء. والمقصود: وقت الصبح؛ إشارة إلى ما يكون في وقت الفجر من الفضيلة، فهو وقت زوال

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٤٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٢٣).

(٣) ينظر: «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٤٣٧).

النوم، وخروج الناس من الموتة الصغرى إلى حالة اليقظة والانطلاق في طلب المعاش والعبادة ومصالح الحياة.

والله تعالى يُقسم بالشيء وبنقيضه، وفي هذا إشارة إلى أن كلًّا منهما نعمة؛ فالنوم بقَدْر نعمة، واليقظة بقَدْر نعمة، وإذا زاد أحدهما عن القَدْر المطلوب يصبح حالة تحتاج علاجًا واستشفاءً.

فأقسم بـ«الفجر»، ثم أقسم بضده، وفي هذا بيان الحكمة والرحمة في خلق الأضداد؛ فإنه سبحانه خلق الليل والنهار، والنوم واليقظة، والذكر والأنثى، وجعل الزوجية في سائر مخلوقاته.

وعرَّف «الفجر» بـ(ال)؛ لأن المقصود الفجر المعروف، والوقت الفاضل، الذي جعله تعالى ظرفًا لإحدى الصلوات الخمس، كما قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وكان النبي ﷺ يطيل صلاة الفجر[١].

وفيه إلماحة- والله أعلم- وتنبيه للنبي ﷺ إلى منة الله عليه بمناجاته ربه، وقربه منه، وخاصة في الأوقات الفاضلة، كوقت السَّحر الذي هو وقت النزول الإلهي[٢]، وأنسام الرحمة، فيصلِّي، ويتلو كتاب الله في هذا الوقت المشهود.

❊ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾:

انتقل من التعريف إلى التنكير، فلم يقل: «والليالي العشر»، والتنكير قد يكون للتعظيم.

وأقوى ما قيل: أنها ليالي عشر ذي الحِجَّة، ونُقل هذا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٤١)، و«صحيح مسلم» (٤٦١).

(٢) كما في «صحيح البخاري» (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدُّنيا، حين يبقى ثلثُ اللَّيلِ الآخر، فيقولُ: مَن يدعُوني فأستَجِيبَ له، ومَن يسألُني فأُعطِيَه، ومَن يستغفرُني فأغفرَ له**». وينظر ما سيأتي في «سورة القدر»: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

وعكرمة وغيرهما، وذهب إليه أكثر المفسرين[1].

وقيل: العشر الأواخر من رمضان؛ لأن فيها ليلة القدر[2].

وقيل: العشر الأُوَل من رمضان[3]، **والقول الأول أرجح.**

وعشر ذي الحجة ورد فيها فضل عظيم، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا: «**ما من أيام العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام**». يعني: أيام العشر. قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «**ولا الجهادُ في سبيل الله، إِلَّا رجلٌ خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء**»[4].

وشرع الله فيها التسبيح والتهليل والتكبير والحج والهَدي والأضحية والأعمال الصالحة، وهذه المناسك مأثورة عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهذا فيه توجيه للنبي ﷺ إلى حفظ الله تعالى له ورعايته، وإلى وراثته لما كان عليه الأنبياء من قبل، وأن دين الله تعالى منصور، فكما نصر دين الأنبياء على الوثنية والشرك، فسوف ينصر دينَك، ويقيِّض له مَن يقوم به.

وفيه: تطييب لخاطر النبي ﷺ أن الله شرع له في أماكن إقامة العبادة والنسك والذكر والقرآن وأزمنتها ما يَقْوَى به قلبُه.

ولعل من مقاصد التنكير في الليالي العشر: الإشارة إلى تغيير الجاهلية للشهور، وتبديلهم لها؛ فيما عرف بـ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، وهو أنهم كانوا إذا احتاجوا إلى انتهاك حرمة أحد من الأشهر الحرم جعلوا مكانه غيره، فترتب على ذلك أن

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٦، ٣٩٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٣٩٩- ٤٠٠).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٩)، و«تفسير البيضاوي» (١/ ٤٨٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٤٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٢)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٣).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤١٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩١)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (١٩٦٨)، والبخاري (٩٦٩)، وأبو داود (٢٤٣٨).

اختلطت الشهور، ولم يكن وقت الحج في الجاهلية هو وقته في الشرع.

حتى كان العام الذي حجَّ فيه النبي ﷺ حجة الوداع، فصادف أن استدار الزمان، وانطبق التاريخ على ما هو على الحقيقة، فكان العام الذي حجَّ فيه النبي ﷺ حَجَّة الوداع هو العام الذي تطابقت فيه أزمنة الحج ومناسكه، مع ما يعلم الله تعالى أنه هو الحق من يوم خلق السماوات والأرض.

وأما قبل ذلك فكان الناس يحُجُّون ويقفون ويَبِيْتُون في غير الوقت المحدَّد؛ بسبب اضطراب التاريخ عندهم الناتج عن النَّسيء الذي كان يعمله أهل الجاهلية.

فالليالي العشر زمن الجاهلية غير مضبوطة، وهكذا في أول الإسلام قبل الهجرة، حتى وقت نزول السورة؛ فلذا نكَّرَها إشارة إلى أنه سيأتي تعريفها من الله تعالى بالفعل، وذلك عند ما حجَّ النبي ﷺ، ولهذا قال في حجَّة الوداع: «**إن الزمانَ قد استدارَ كهيئته يوم خَلَقَ اللهُ السماوات والأرض...**»[1].

* ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾:

«الشفع» ضد «الوتر»، و«الوتر» هو: المفرد، و«الشفع» هو المثنى أو الزوج، وأصلها الأعداد[2]، يعني: أن «الشفع» اثنان و«الوتر» واحد. وقد جاء في الشفع والوتر أكثر من عشرين قولًا، ذكرها الرازي وابن الجوزي والقرطبي وغيرهم[3]، **قيل**: الشفع هو المخلوق، والوتر هو الله الخالق، كما في الحديث: «**إن الله وِتْرٌ يحبُّ الوترَ**»[4]. **والأقرب** أن الشفع والوتر هو كل شفع ووتر متعلق بالسياق.

وما دام الحديث عن العبادات والمناسك والليالي العشر من ذي الحجة؛ فإن من معاني الشفع: يوم النحر؛ لأنه هو اليوم العاشر، والوتر: يوم عرفة؛ لأنه هو اليوم التاسع، وهذا معنًى صحيح.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٢)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٣)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٧- ٤٠٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٤٧، ١٤٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٨- ٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٨- ٤٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٤) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن معاني الشفع: اليومان اللذان يأتيان بعد العيد؛ لأنه مَن تعجَّل بعد يوم العيد في يومين فلا إثم عليه، فهذا هو الشفع، ومَن تأخر إلى اليوم الثالث فلا إثم عليه لمَن اتقى، وهكذا كل ما يصلح أن يكون شفعًا أو وترًا مما له تعلُّق بالمناسك وأيام العيد.

وقوله: ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو وكسرها، قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان صحيحتان، كما ذكر الطبري وغيره، وقراءة الأكثرين بالفتح، ولغة كثير من قبائل العرب، وبالكسر لغة تَمِيم، والمعنى واحد(١).

* ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾:

﴿يَسْرِ﴾ أصلها: «يسري»، حُذفت الياء للتخفيف، ولرعاية فواصل السورة، وهي قراءة صحيحة أيضًا(٢).

والسُّرى هو: السير في الليل، وجمهور المفسرين يقولون: إن «يسري» هنا فعل الليل نفسه، أي: إذا يُقبل، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] على أحد التفسيرين(٣).

وقد أقسم الله بالليل بوجوه مختلفة: فمرة أقسم بـ«الليل» فحسب، ومرة أقسم بـ«الليل إذا يَغْشَى»، ومرة بـ«الليل إذ أَدْبَر»، يعني: آخر الليل، وهنا أقسم بـ«الليل إذا يَسْر»، وفي إقسام الله تعالى بالليل على صور عديدة إشارة إلى تنوع أحواله؛ فأول الليل: سهرة، وأوسطه: سكرة (نوم)، وآخره: عَبرة، ولكل وقت من الليل ميزة ليست لغيره.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥٦)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٨٣)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٦٩)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤١٤- ٤١٥).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٠٦)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٨٣)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٦١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ١١١، ١٦٢)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤١٦- ٤١٧).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠).

ولا مانع أن يكون من معاني «الليل إذا يَسْر» ليلة خاصة، مثل ليلة مزدلفة[١]؛ لتعلق الأمر بالمناسك.

* ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾:

هذا تقرير، و﴿هَلۡ﴾ بمعنى: قد، ففي هذا القَسَم قَسَم ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾، يعني: لذي عقل؛ لأن الحِجْرَ هو الذي يحجُرُ على صاحبه ويمنعه، أو يعقله، وكما يقال: أولوا النُّهى؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يجوز وما لا يليق.

وهذا ليس تحديدًا لمهمة العقل أنه يحجر ويمنع فحسب، بل لعله إشارة إلى أن العقل مسلَّط على كل شيء، إلا ما استثني وحُجر مما لا جدوى منه، أو ما دل العقل على أنه فاسد، وأن هذا الحمى ما لم يجتنب يكون سببًا في ضياع العقل وذهاب منفعته، وإلا فالعقل يكتشف ويرتاد ويبدع ويخترع وينجز، ودوره ليس مقصورًا على المنع والحجر والنهي.

والخطاب هو لذوي العقول، وهذا تأكيد على أن الإسلام دين يخاطب العقل البشري، ويحترمه ويبني مهمة التكليف على وجوده.

والعقول السليمة والفطر المستقيمة تدلَّان على أصول ما جاءت به الشريعة.

فمعنى الآية: في ذلك قَسَم لذي عقل يتأمل ويعقل، ويلاحظ ويفهم الخطاب[٢].

* ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾:

خطاب للرسول ﷺ، وهو وإن كان حديثًا عن العقوبات، إلا أنه موجَّه للنبي ﷺ، وهو لم ير هذا الفعل بعينه، ولذلك نقول: إن الرؤية هنا علمية، والمراد: «ألم تعلم»، عبَّر بالرؤية عن العلم؛ لأنه من الأمور اليقينية القطعية المعلومة بالضرورة،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤١٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٣٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٢)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٤١).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٢٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١٧).

فكان العلم بها كرؤيتها(١).

كما نلحظ أن القَصص الثلاث التي ذكرها عن عاد وثمود وفرعون لها آثار مادية محسوسة، ويمكن رؤية آثار العذاب الذي حاق بهم.

وقوله: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أضاف لفظ الربوبية إلى ضمير المخاطب، وهو النبي ﷺ؛ إشعارًا بحمايته له وخذلانه لأعدائه.

وعاد: اسم شخص، تحول إلى اسم قبيلة- كما نقول: تميم، أو: بنو تميم- وعاد كانوا في جنوب جزيرة العرب، في حضرموت، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، **والأحقاف**: جبال من رمل أو تراب، الواحد منها: حِقْفٌ، فهي مناطق رملية(٢).

* ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ⑦﴾:

الأقرب أن ﴿إِرَمَ﴾ اسم جَدِّ عاد، فهو اسم قبيلة من عاد نفسها، وهو هنا بدل، وهو المقصود بعاد الأولى المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]، وثَمَّ قبيلة أخرى من عاد كانت موجودة في وسط الجزيرة العربية ولم يصبهم الهلاك، وهم من عاد، لكنهم ليسوا من عاد الأولى ولا من إرم(٣).

وقال بعضهم: إن ﴿إِرَمَ﴾: اسم مدينة، وهذا قول مشهور(٤).

وقوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: أنها مدينة لها أعمدة، وقد يكون المقصود: الأبنية التي يُجعل لها أعمدة، وعليه؛ فهي مدينة مطمورة بالرمل، ويحاول الكثير من

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٤٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٦١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١٨).

(٢) ينظر: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (٢/ ١٨٨)، و«غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٥٥١)، و«مختار الصحاح» (ص١٦٧).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٦٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٠٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣١٨).

(٤) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٤)، (٨/ ٣٩٥).

المنقبين البحث عن آثار لتلك المدينة التاريخية، وينشرون أحيانًا صورًا يزعم بعضهم أنها التُقطت لها من تحت الأنقاض.

أو يكون المقصود: أنها ذات القوة[1]، كما قال الله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، فكانوا أقوياء وأشداء في طولهم، وفي بعض كتب التفسير مبالغة في ذكر أطوالهم بما لا يدل عليه دليل، وهذا مما ينبغي رده، ولكن لا شك أنهم كانوا أقوياء، قد استكبروا في الأرض، وبلغ بهم الاستكبار أن قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فقد يُراد بالعماد: قوة البدن، أو قوة البناء[2].

* ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾:

وفي قراءة: **(لَمْ نَخْلُقْ مِثْلَهَا)**[3]، وهذا يحتمل الرجوع إلى عاد بخلقهم وشدتهم، أو إلى بنائهم وأعمدتهم[4].

وقد أرسل الله إلى عاد هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهود أخوهم في النسب، ولذا سماه الله تعالى أخًا لهم.

* ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾:

أما ثَمُود، فقد أُرسل إليهم أخوهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانوا يسكنون في شمال جزيرة العرب، فيما يسمى: مدائن صالح، أو: وادي القُرى، أو: الحِجْر، وهي منطقة فيها زرع وجبال؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: قطعوا الصخر[5]، وهذا هو المعنى الصحيح، كما يقال: جاب الشيء، يعني: قطعه،

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٦١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ١٥٤)، (٨/ ٣٩٥).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢١٩)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٤٠)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٨)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٠- ٤٢١).

(٤) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٠)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٦٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٢٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٤٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٢٠).

وسمي الجيب؛ لأنه مشقوق، وهكذا الجوبة، كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صارت المدينة مثل الجوبة»(١). حين وصف السحاب.

والواد هو: وادي القُرى، وهو في الأصل: المنحدر بين الجبلين، ثم أصبح يطلق على منطقة ثمود ووادي القُرى، ولا يزال إلى اليوم يسمى بهذا.

والمعنى: نحتوا من الصخر بيوتًا، كما قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وكان العرب يعرفون قصتهم، وتكذيبهم، وعقرهم للناقة وما نزل عليهم من العذاب، كما يعرفون قصة قوم لوط، ويمرّون بها: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، فهم كانوا بطريق العرب في أسفارهم، وكانوا يرون الآثار عند مرورهم عليها، ويسمعون أخبارها.

والنبي ﷺ رأى هو وأصحابه آثارهم حين مروا بمدائن الحِجْر، وقد غطَّى ﷺ وجهه وأسرع المشي، وقال لأصحابه: «**لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم، إِلَّا أن تكونوا باكينَ؛ أن يصيبكم ما أصابَهُم**»(٢).

كما أمر بالماء الذي استقوه من البئر أن يُراق، وأمر بالعجين أن يعلف للدواب(٣).

فيكره الذهاب إلى هذه الأماكن، إلا أن يكون معتبرًا؛ لقوله ﷺ: «**إِلَّا أن تكونوا باكينَ**». يعني: معتبرين، وأطلق بعضهم التحريم(٤).

❁ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾:

فرعون هو الذي بُعث إليه موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهو حاكم مصر، وقد ذكر الله قصته كثيرًا في القرآن، وجاءت هاهنا مختصرة(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٣)، ومسلم (٨٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٨٠)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٧٩).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (١/ ٥٣٠- ٥٣١)، و«مرقاة المفاتيح» (٨/ ٣٢٠٠)، و«شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٤/ ٥٧٨).

(٥) ينظر ما تقدم في «سورة النازعات»: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

واختلف المفسرون في ﴿ٱلۡأَوۡتَادِ﴾[1]:

فقيل: هي الأوتاد التي كان فرعون يعذب بها مَن لا يستجيبون لسلطته وطغيانه، وقد عذَّب امرأته نفسها، كما جاء في بعض الروايات: «أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها»[2].

وقيل: هي الجيوش والجنود التي كانت تحمي قوته ودولته وسلطانه.

وقيل: هي أعمدة كان فرعون يضعها من أجل اللعب في المناسبات والأعياد أيام الحفل وغيره.

ولعل من المقصود هنا: الأهرامات الموجودة إلى اليوم في مصر، والتي بناها الفراعنة، وورثها فرعون صاحب موسى عمن قبله[3]، وقد يكون أقام شيئًا منها، **وهذا المعنى قريب؛ لعدة اعتبارات:**

١- لأن الله تعالى سمى الجبال في القرآن: ﴿أَوۡتَادٗا﴾ [النبأ: ٧]، فليس غريبًا أن تسمى كذلك، والأهرامات تشبه الجبال.

٢- لضخامتها وشدة بنائها وقوتها.

٣- لبقائها عبرة يراها الناس.

ولقد ذكر الله تعالى ثلاث قصص لثلاث أمم كلها لها آثار مشهودة:

فهناك «عاد» وما بنوه من المدن والأبنية الهائلة، التي هي من مقتضى قوتهم وشدتهم وبنائهم؛ فقد ذكر الله تعالى عن عاد في القرآن هذا المعنى في قوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

أما ثمود؛ فقد كانوا ينحتون الصخور، ويبنون منها بيوتًا ما زالت قائمة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٧- ١٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: «جامع معمر» (٢٠٤٤٥)، و«مصنف عبد الرزاق» (٣٦٠٤)، و«مسند أبي يعلى» (٦٤٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٢)، و«شعب الإيمان» (١٥٢١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٠٦).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٧١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ١٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٦٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤١٤).

وأما الفراعنة، فمن أعظم آثارهم الأهرامات.

وضرب تعالى الأمثلة بثلاث حضارات لثلاث أمم كان لها قوة في البناء والسلطان والجيش والاقتصاد، ثم انظر: كيف فعل بهم؟!

لم يكن توبيخه وعتابه لهم لأنهم بنوا، ولا لأنهم جابوا الصخر(١)، ولا لأنهم وضعوا الأوتاد، فهذا الفعل بمجرده ليس هو المذموم، وإنما طغيانهم وغرورهم.

ولذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، فليست المشكلة في امتلاك القوة والجيوش والاقتصاد، وامتلاك العلم والحضارة، فهذا بحد ذاته عنصر إيجابي، بل المذموم: الطغيان والاستخفاف بالناس.

والطغيان حالة نفسية يكبر معها الإنسان في عين نفسه، ويرى ذاته، ويزدري غيره، ويكفُر بربه، ويغتر بقوته.

* ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢﴾:

فالطغيان سبب في كثرة الفساد.

وهذا الفساد، منه: الفساد الأخلاقي، بالفجور والخمر والفواحش والموبقات.

ومنه: الظلم الذي يقع على العباد بالبغي ومصادرة الحقوق، وهو أشد من الأول؛ لأن الأول الجناية فيه على صاحبه في الغالب، أما الفساد الأعظم الذي يكون به هلاك الدول والأمم فهو الظلم وانتهاك الحقوق وبَخْس الناس واستعبادهم؛ ولهذا جعل الله تعالى العقاب مقرونًا بالظلم، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: ٥٩]. **والقُرى** هي: البلاد، والنبي ﷺ يقول: «**إن الله لَيُملي للظَّالم، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ**»(٢).

* ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾:

الصَّبُّ يستخدم غالبًا للماء والسوائل، وهذا مقصود هنا؛ إشارة إلى شدة

(١) أي: نحتوا الصخر، كما تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

المباغتة والسرعة، فلا ينجو منه أحد، وهو مع سرعته سيَّال يتخلل كل مكان، ولا يُكِنُّ منه شيء مهما كان ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

وهذا ملاحظ في عقوباته عليهم، فقوم عاد كانت عقوبتهم: الريح، وثمود: الصيحة، وفرعون: الغرق، وكانت عقوبات مفاجئة، أتتهم بغتة فأهلكتهم.

وربك الذي تعبده، وتدعو إليه، هو الذي عذَّبهم، فهو إذن حاميك وناصرك.

و﴿سَوۡطَ﴾ نكرة؛ لأنه قليل مما عند الله، ومع ذلك فهو بالنسبة لهم ساحق ماحق.

ولذلك قال الحسن البصري: «إن عند الله أسواطًا كثيرة، فأخذهم بسوط منها»(١).

* ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾:

والمرصاد من الرصْد، فإذا كان الناس في ساحة يلعبون ويركُضون، ولها طريق واحد للخروج؛ وعلى هذا الطريق حُرَّاس وجنود ينتظرونهم، فهم الرصد، وهذا هو المرصاد(٢).

والآية تفيد أن الله تعالى بالمرصاد لكل طاغية وظالم، فدعهم يعبثوا ويتمتعوا، فسواء طال الزمن أم قصر، فلن يفلتوا من عقابه.

وكثيرون يستغرقون في اللحظة الحاضرة من مشاهدة العدوان والقوة، ويظنون التاريخ انتهى، والأمر توقف، ولو تذكروا هذه الآية لعرفوا أنها سنة الله؛ يلعبون لعبتهم في الميدان، لكن إذا أرادوا الخروج فالله بالمرصاد، فهي فترة إملاء وإمهال، وإذا أخذهم لم يفلتهم.

أقسم تعالى في أول السورة بالفجر والليالي العشر، ولم يذكر الشيء الذي أقسم عليه، وإنما انتقل إلى قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، وهذا ليس من الأمور

---

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٢٥١)، و«زاد المسير» (٤/ ٣٨٩، ٤٤٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٥).

التي يكثر استخدامها عند العرب، ولعلها من مبتكرات القرآن العظيم التي تهزُّ الوجدان هزًّا، ولو أن أحدهم أقسم لك بالله العظيم القوي العزيز، ثم سكت وانتقل إلى موضوع آخر، لتساءلت: هذا القسم على ماذا؟

وهنا يبدأ البحث عن المقسَم عليه، وهذا أبدع وأبلغ مما أعطاك جواب القَسَم مباشرة.

والظاهر أن القَسَم هو على ما تضمَّنه السياق، أي: لنهلكنَّ الظالمين.

* ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾:

كان السياق عن الأمم السابقة، وأن الله أعطاهم السلطان والعلم والقوة والمال، فكفروا، فأهلكهم، فدل هذا على أن العبرة ليست بملكية الأشياء؛ فقد يملك البشر الأشياء ظاهرًا، وفي الحقيقة أنها هي التي تملكهم، وإنما العبرة بحسن الاستخدام وحسن التصور وحسن الشكر وحسن الصبر.

والمقصود بالإنسان: الكافر أو العاصي، إذا ابتلاه ربه بالعطاء والمال والصحة والقوة وملذات الدنيا، قال: ما أعطاني هذه النعم التي حُرِمها كثيرون إلا لرضاه عني ولكرامتي عنده(١).

وفي هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج: ١١]، وهذا صنف من الناس، إذا أُعطي الدنيا ظنها كرامة عند الله يستحقها؛ لأنه جدير بها!

وفي قوله: ﴿أَكْرَمَنِ﴾، و﴿أَهَٰنَنِ﴾ ثلاث قراءات: بحذف الياء، وبإثباتها مطلقًا، وبإثباتها عند الوصل وحذفها عند الوقف، وكلها قراءات متواترة(٢).

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٣٨)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٨٤- ٦٨٥)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ١٦٤)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٣).

* ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾:

﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيَّق[1]، كما قال سبحانه: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: ٧]، أي: أعطاه بقدْر أو بقدَر، يعني: شيئًا قليلًا.

وفي قراءة بالتشديد: ﴿فَقَدَّرَ﴾، وهي بالمعنى ذاته[2].

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: لم ينزلني المنزلة التي أستحقها[3]، فجعل معيار الإكرام والإهانة عنده هو العطاء الدنيوي.

وفي الآيات إبطال المعيار الذي اعتبروه؛ فـ«**إن اللهَ تعالى يُعطي الدنيا مَن يحبُّ، ومَن لا يحبُّ، ولا يُعطي الدينَ إلا لمَن أحبَّ**»[4].

وعطاء الله تعالى إنما هو لحِكَم وأسرار يعلم العباد بعضها، ويجهلون الكثير منها، ومَن حاول أن يستقصي، ربما آل به الأمر إلى الجحود والكفر، وبمثل هذا ضل ابن الرَّاوَنْدي، فكان يقول[5]:

كم عالمٍ عالمٍ ضاقتْ مذاهبُـــه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مـرزوقـا
هذا الذي جعَلَ الأذهانَ حائرةً وصيَّـر العالِـمَ النِّحريـرَ زِنْديـقـا

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٧/ ٣٧٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٠٩)، و«زاد المسير» (٣/ ٢١٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٦١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٦١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٢٣)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص٦١٢)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٧٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٢٥١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٥١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٧٤).

(٤) تقدم تخريجه في «سورة الانشقاق»: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾.

(٥) ينظر: «الآمل والمأمول» (ص٤)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٧٠)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (٤/ ٢٣٢)، و«معاهد التنصيص» (١/ ١٤٧)، وفيها اختلاف في الرواية، وفي النسبة بين أبي العلاء المعري، وابن الراوندي، وغيرهما.

إن المسلم مأمور بالرضا والإيمان والتسليم، على الحال الذي وصفه النبيُّ ﷺ في قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمرَهُ كلَّهُ له خيرٌ؛ إن أصابتْهُ سراءُ شكرَ؛ فكان خيرًا له، وإن أصابتْهُ ضراءُ صبرَ؛ فكان خيرًا له**»(١). وقال ﷺ: «**وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**»(٢).

* ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾:

﴿كَلَّا﴾: ليس الأمر كما زعم هؤلاء، و﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر ونفي لما ادَّعوه.

نفيٌ لما ظنوه وتوهموه، من أن الحال التي هم عليها ثابتة مستقرة، لا تتغير ولا تتبدل(٣).

من الناس مَن إذا كان في حالة الفقر ظن أنه لن يغتني، وإن كان في حالة الغِنى ظن أنه لن يفتقر، وإن كان مريضًا ظن أنه لن يتعافى، وإن كان معافىً ظن أنه لن يمرض!

ومن هنا ندرك معنى قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾؛ لأن الإنسان الذي يكرم اليتيم هو المؤمن الذي لا يقول: «أكرمني.. أهانني»؛ لأنه يعرف أن العطاء والمنع من الله، وأنه إن أعطاك اليوم فقد يمنعك غدًا، وإن منعك اليوم فقد يعطيك غدًا، ولذلك يعرف أن للناس حقًّا في عقله وفي لسانه وفي سمعه وبصره وقواه وماله.

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾: فيه معنى الاستنكار، أي: لماذا لا تكرمون اليتيم، مع أنكم أغنياء ولديكم أموال؟

واليتيم: مَن فقد أباه قبل البلوغ، **وقيل**: يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) من حديث صُهيب الرُّومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٥٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٧)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٧٠)، و«الجدول في إعراب القرآن» (٣٠/ ٣٢٥)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٤٧٥).

الناس، خاصة مع ضعف حديث: «**لا يُتْمَ بعد احتلام**»(١). وهذا قول جيد(٢).

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾، وفي قراءة سبعية: ﴿تَحُضُّونَ﴾ بغير مدٍّ(٣)، أي: لا يحض بعضكم بعضًا؛ ووصف المسكين إذا أطلق يعم المسكين والفقير.

و﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يحتمل أن يكون معناه: إطعام المسكين، فيكون مصدرًا، ويحتمل أن يكون المقصود الطعام الذي هو المطعوم، يعني: لا تحاضُّون على بذل الطعام للمسكين من غداء أو عشاء أو سواه.

فثبت لهم في مجمل الصفات:

- أنهم لا يكرمون اليتيم.
- ولا يتحاضُّون على إكرام اليتيم.
- ولا يطعمون المسكين.
- ولا يتحاضُّون على طعام المسكين.

والخلاصة أنهم لا يفعلون هذه الأشياء بأنفسهم، ولا يحرِّضون ويحثون الآخرين على فعلها، فنفى عنهم القول والفعل.

والأصل في المجتمع التراحم، بأن تكون الأعمال الإغاثية والتطوعية أعمالًا جماعية، يتحاض الناس عليها ويتنافسون فيها، وفي هذه الآيات لفتة إلى أن

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٦٥٨)، والبيهقي (٦/ ٥٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الطيالسي (١٨٧٦)، والبيهقي (٧/ ٣١٩) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورُوي عن غيرهما، وفي أسانيدها ضعف. ينظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/ ٤٢٨)، و«علل الدارقطني» (٤/ ١٤١- ١٤٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (١/ ٢٧٥- ٢٧٨)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢١٧- ٢١٨)، و«إرواء الغليل» (١٢٤٤)، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٨٠).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الإنسان»: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾، وما سيأتي في «سورة البلد»: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾، و«سورة الماعون»: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾.

(٣) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٨٥)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٠)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٤١٠)، و«حجة القراءات» (ص٧٦٢- ٧٦٣)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٥- ٤٢٦).

مراعاة حقوق الناس وحاجاتهم وإصلاح حالهم من القضايا الكبيرة التي جاءت بها رسالة الإسلام، وأن الأمر بذلك والحض عليه جاء في الآيات المكية وفي أوائل ما نزل من القرآن، وأنه ليس لقصد التأثير والدعوة بين الضعفاء فحسب، بل هو مبدأ وفضيلة بذاته.

* ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ١٩﴾:

التُّراث هو: المال الموروث من الموتى، وأكل التُّراث هو: الاستيلاء عليه بغير وجه حق، وحرمان الوارث منه، لا سيما إذا كان ضعيفًا أو يتيمًا(١).

وقد يكون المقصود به: أكل الطعام، وهذا احتمال؛ لأنه من مقاصد التملك.

والأقرب- وهو الأكثر في استعمال القرآن- أن المقصود: الاستحواذ والانتهاب من غير وجه حق، فهو من أكل أموال الناس بالباطل، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

* ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠﴾:

والحُب معنًى قلبيٌّ، وهذا يعني: أن قلوبهم معلَّقة بالمال وتملكه بكل سبيل، وأحسن ما قيل في الزهد: أن يكون المال في يدك، وليس في قلبك(٢).

وقد يملك الإنسان المال، ولكن ليس عنده الحب الشديد له، ولذلك لا يبخل به، بل ينفقه ويتصدَّق منه.

والجمُّ: الكثير، كما يقال: جمَّ الماء يجمُّ، إذا كَثُر في عين أو بئر، وبدأ الماء يتجمع شيئًا فشيئًا في أسفلها(٣)، **والمعنى**: تحبونه حبًّا كثيرًا ينمو ويزيد.

* ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١﴾:

﴿كَلَّآ﴾ الأولى إشارة إلى واقعهم في الدنيا، أي: أن ادعاءهم أن ربهم أكرمهم،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٠).

(٢) ينظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٤).

أو أهانهم، بناءً على ما أعطاهم في الدنيا ليس صحيحًا.

ثم جاءت ﴿كَلَّآ﴾ الثانية لتنقلَهم إلى عالم الآخرة، أي: أن الدنيا ليست نهاية المطاف، وهب أنك بَقِيْتَ في الدنيا سالمًا غانمًا معافًى إلى وقت الموت، فماذا ينفعك هذا عند الحساب؟

و«الدَّك» ورد في مواضع أخرى؛ كما في «سورة الحاقة»: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾، وهنا قال: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾، وليس المقصود التعدد أو التثنية، بل التوكيد أو التفصيل[١]، كما أقول: إنني أخذت الكتاب فقرأته حرفًا حرفًا. وهذا معناه: أنني استوعبته تمامًا، وليس معناه أنني قرأته مرتين، وكما أقول: عرضت الحساب على فلان رقمًا رقمًا وبابًا بابًا، وهذا معناه: أنني انتقلت معه بالتدريج إلى المسائل كلها، والله أعلم[٢].

وكثير من النصوص تبين دكَّ هذه الأرض التي فيها الجبال والعمران والمنخفضات، والتي أقمنا عليها العماد، وتحركنا فيها، والتي يمشي الإنسان فيها متبخترًا متكبرًا بخُيَلاءَ وفخرٍ، وهو يظن أنه لا يموت ولا يزول، ولا ينطوي ملكُه، وينسى مَن قبله، وينسى ما بعده، فهذه الأرض كلها سوف تُدَكُّ وتكسَّر وتفتَّت، فكيف بما عليها؟

❊ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾:

مشهد مهيب، ومن المتكلمين مَن يقول: إن هذا محمول على المجاز؛ لأن المجيء في حقيقته انتقال، والانتقال لا يكون إلا للأجساد؛ والله تعالى منزَّه عن التجسيم[٣].

والأولى باللَّبيب أن يتدبَّر الآية، ويتذكر ذلك الموقف المهيب، ولا يشغل نفسه في تأويلها، وكيف يصرفها عما تدل عليه؟!

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٣٦).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة».

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٥٤).

ولو أننا أبقينا القرآن على جماله ورونقه، ووضوحه وظاهره، لكان هذا الأجدر بالهداية الربانية، ولذلك كان من طريقة السلف: «أمِرُّوا النصوص كما جاءت».

ومن مذهبهم أن كل ما يخطر في الذهن عند قراءة هذه الآية ونحوها خيال بعيد عن الواقع؛ والله منزه عنه، فكل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك.

فإذا قرأت: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، وتخيلت كرسيًّا يُنْصَب، ومَلِكًا يقعد عليه، فإن هذا الخيال الذي في ذهنك مخلوق وجدير بالمخلوقين، ويجب أن يُنـزَّهَ الله عنه.

ولذلك نقول: مَن قال: إن الظاهر غير مراد. فإن قصد بالظاهر هذه الصورة الخيالية التمثيلية التي ارتسمت في أذهاننا ونحن نقرأ السورة، فهو صحيح، ولكننا نقول ببقاء النص على ظاهره، والله سبحانه يجيء من غير تكييف؛ لأننا لا نعلم كيف هو، فلا نعلم كيف أفعاله، ولا كيف صفاته، ولا يعلم ذلك إلا هو سبحانه، والموقف مهيب؛ لأنه إذا كان مجيء ملوك الدنيا من المواقف المهابة، فكيف بمجيء الرب العظيم الكامل في أسمائه وصفاته، وعظمته ومجده، وقدرته وسلطانه(١)؟!!

والمقصود أن الله يجيء لفصل القضاء بينهم، ونصر المظلوم من الظالم، وإعادة الحق إلى أصحابه، وثواب المطيعين المؤمنين الصابرين، وعقاب الكافرين المعاندين(٢)!!

فهذا المشهد مشهد عظيم مَهِيب تَوْجَلُ له القلوب، وجلال النص أن يبقى على طلاقته، مع نفي أي صورة متخيَّلة يقترحها الذهن البشري الكليل العاجز.

ثم الملائكة يُصَفُّون صفوفًا بعضهم خلف بعض، وورد أنهم يُصَفُّون سبعة صفوف، وهم محيطون بالبشر(٣)، ولهذا: ﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠- ١٢]، وهذا من معاني المِرصاد!

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة البروج»: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥﴾.

(٢) ينظر ما سيأتي في «سورة الإخلاص».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢١٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٥).

* ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣﴾:

جهنَّم: من أسماء النار، وقد جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يُؤْتَى بجهنَّم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمام، مع كل زمام سبعونَ ألفَ مَلَك يجرُّونها**»(١).

والحديث ورد موقوفًا ومرفوعًا، وكأن الموقوف أشبه، فقد رجَّحه غير واحد، واستدرك الدارقطني على مسلم رفعه(٢).

ويُؤتى بالجنة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣]، يعني: قُرِّبت من أهلها(٣)، وإنما ذكر جهنَّم فقط؛ لأن المقام مقام تهديد ووعيد.

﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: هذا الإنسان الذي كان يقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ إن مُنع المال والدنيا، ويقول: ﴿رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ﴾ إن أُعطي المال والدنيا، في ذلك الموقف يستعيد ذكرياته، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: لفظ استفهام، معناه الإنكار أو الاستبعاد، **يعني**: أَنَّى له أن ينتفع بالذكرى(٤)؟! وإلا فهو قد تذكَّر فعلًا، ولكنه لا يستفيد من الذِّكْرى؛ لأن وقت العمل قد ذهب، وجاء وقت الحساب.

* ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾:

يقولها بلسانه أو يقولها بقلبه، وهما سِيان، يعني أن الذي مُتِّع في الدنيا، وأُعطي ونُعِّم حتى أسرف على نفسه، واشتغل بملذاتها عن فعل الفرائض والقيام

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٥٧٣)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١٤٢)، والبزار (١٧٥٤، ١٧٥٥)، والحاكم (٤/ ٥٩٥)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٨٩).

(٢) ينظر: «جامع الترمذي» (٤/ ٢٨٢) (٢٥٧٣)، و«مسند البزار» (٥/ ١٦٢) (١٧٥٤- ١٧٥٦)، و«علل أحاديث صحيح مسلم» لابن عمار الشهيد (ص١٥٠- ١٥٢)، و«الضعفاء» للعقيلي (٣/ ٣٤٤)، و«علل الدارقطني» (٥/ ٨٦)، و«الإلزامات والتتبع» (٩٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٩).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة التكوير».

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٢٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٥٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٧٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٣٩).

بحق الله، وشك في اليوم الآخر، يأتي يوم القيامة متحسِّرًا على التفريط في جنب الله قائلاً بلسانه أو بقلبه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ موقنًا أن الحياة الحقة هي الآخرة، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

* ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾:

﴿يُعَذِّبُ﴾ بكسر الذال، و﴿يُوثِقُ﴾ بكسر الثاء، وفي قراءة بفتحهما[1]، أي: أن عذاب الله في الدار الآخرة لا يشبهه عذاب أحد من الناس، وكل ما تعرفونه من ألوان العذاب فهو مختلف.

والوَثاق هو: القيد[2]، كما في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]، ولا أحد يوثِق مثل وثاق القيد الذي يجعله الله تعالى للكافرين، كما قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٢]، ومَن قرأ هذه الآيات يتخيل سلاسل الحديد الموجودة في الدنيا، ودوائرها الضيقة، ومن ثَمَّ يقع عند الإنسان شيء من التشبيه، ولهذا قال هنا: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾، فما عند الله من العذاب ومن النعيم لا يخطر على بال، ولا يلحقه خيال.

أو المعنى: لا يعذِّب اللهُ تعالى عذابَ هذا الكافر أحدًا غيره، أي: لا يتحمل أحد عن أحد عذابه ولا وثاقه، فعذاب كل إنسان يتحمله هو، ولا يعذَّبه أحد غيره.

وقد ذكر تعالى في هذه السورة القوة والشدة والوعيد والتهديد والعقوبات الدنيوية للأمم الكافرة، وأما العذاب الحقيقي فهو في الآخرة، ولا يقارن عذاب الآخرة ونكالها بما وقع لهم في الدنيا.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩١)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٨٥)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧١)، و«الحجة للقراء السبعة» (٦/ ٤١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٦)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٢٩- ٤٣٠).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٥٣)، و«لسان العرب» (١٠/ ٣٧١) «و ث ق»، و«تاج العروس» (٨/ ٢٨٩) «ص ف د».

وذِكْر العذاب والوَثاق مناسب مع ما يذكر عن فرعون وغيره من أنهم كانوا يوثِقون ويقيِّدون، ويعذبون مَن لا يوافقهم.

* ثم ختم تعالى السورة بهذا الختام اللَّطيف الدال على رحمته وفضله وكرمه وعطائه ولطفه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾:

والسورة فيها مقامان:

١- مقام التنبيه للنبي ﷺ على فضل الله عليه ومنَّتِه.

٢- مقام الإشارة إلى أعدائه وما سيصنع الله بهم.

فالختام خطاب للنبي ﷺ ونفسه المطمئنة، وهو خطاب لكل الصالحين، فالنفس هنا هي كلُّ النفوس المطمئنة(١).

المطمئنة بذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن ذكر الله طُمأنينة للقلب، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

المطمئنة بالنظر وإعمال العقل والفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي آيات الله الكونية المخلوقة، وفي آيات الله الشرعية المنزَّلة، كما قال إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، يعني: أنه كان يريد مزيدًا من الطُّمأنينة، وهي تكون برؤية الملكوت، وتكون برؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة، وتكون بمحض الفضل من الله، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهذه النفس المطمئنة تنال الأمن والبشارة.

ومن معاني المطمئنة: المنخفضة، كقولنا: هذه أرض مطمئنة، يعني: غير مرتفعة؛ فمن معانيها: التواضع، فهي متواضعة لعظمة ربها تبارك وتعالى.

ومن معاني المطمئنة: استواء المشاعر من حيث التسليم والرضا بالمقدور

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٨٢)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٤٣٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٨).

في كل حال[1].

وسبق أن ذكر مَن كانوا إذا أصابهم المال والغنى قالوا: ربُّنا أكرَمَنا. وإذا أصابهم الفقر والجوع والمرض قالوا: ربُّنا أهانَنا. وهذا يدل على أن نفوسهم لم تكن مطمئنة.

وهنا نلحظ التوافق والتناسب بين أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾، وبين الخاتمة هنا في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، وهذا استثناء للنفوس المؤمنة بربها المطمئنة إلى وعده تعالى، فهي مطمئنة بمواقفها ومشاعرها في حال الخوف والأمن، والشدة والرَّخاء، والسَّعة والضيق، والغنى والفقر، والمرض والعافية، والكثرة والقلة، والعزة والذلة، وهي راضية بقضاء الله، ذاكرة له، ممتلئة من الإيمان والتدبر والتأمل في كتابه المشهود «الكون»، وفي كتابه المنزَّل «القرآن».

وقد قسَّم بعض العلماء النفوس إلى ثلاثة أقسام:

١- النفس المطمئنة.

٢- النفس اللَّوَّامة.

٣- النفس الأمَّارة بالسوء.

وهذه الأقسام يشبه أن تكون أحوالًا للنفس؛ فإن الإنسان يكون في حال مطمئنًّا، وفي حال أخرى لائمًا لنفسه، وفي حال أخرى تكون نفسه أمَّارة بالسوء، ثم قد تستقر النفس في نهاية أمرها على واحدة من الحالات[2].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٩٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٢٤٢).

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ٤٠٦)، و«إحياء علوم الدين» (٣/ ٤)، و«تفسير الرازي» (٢٩/ ٤٧٠)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٢٦٥)، و«مجموع الفتاوى» (٩/ ٢٩٤)، (٢٨/ ١٤٨)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٣٢)، و«تفسير الخازن» (٣/ ٢٩٠)، و«الروح» (ص٢٦٧)، و«التعريفات» للجرجاني (ص٢٤٣)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (٢/ ٢٧٠)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧١٨).

❁ ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾:

المعنى فيه على قولين:

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: ارجعي إلى الله تعالى، وهذا هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو الصحيح[(١)].

وعن بعض السلف أنه سُئل: كيف القدوم على الله؟ فقال: «أما المحسن، فكالغائب يقدم على أهله مسرورًا، وأما المسيء، فكالآبق يقدم على مولاه محزونًا»[(٢)].

والرجوع هنا كأنه اختياري لها وبطوعها، وقد جاء في «الصحيحين»: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كره لقاءَ الله كره اللهُ لقاءَهُ**»[(٣)].

فالكافر يُساق سوقًا، كما ورد في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الطويل في قصة النَّزْع والاحتضار، أن نفسَ الكافرِ وروحَه تتفرَّق في جسده، فتنتزعها الملائكة كما تنتزع السَّفُّود من الصوف المبلول، وأما المؤمن؛ فتخرج روحه كما تخرج القطرة من فيِّ السِّقاء[(٤)]، يعني: بسهولة ولين، وكما في الحديث الآخر: «**المؤمنُ يموتُ بعَرَق الجَبين**»[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٨٩- ٣٩٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٠)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٤).

(٢) ينظر: «مسند الدارمي» (٦٧٣)، و«المجالسة» (٨/ ١٤٩) (٣٤٥٦)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٤)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٦٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ١٦٧)، و«إحياء علوم الدين» (٢/ ١٤٧)، و«تاريخ دمشق» (٢٢/ ٣٠)، و«المنتظم» (٨/ ٣٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٠٧، ٦٥٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٣- ٢٦٨٦).

(٤) أخرجه الطيالسي (٧٨٩)، وأحمد (١٨٦١٤)، وأبو داود (٤٧٥٣، ٤٧٥٤)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٢٨).

(٥) أخرجه الطيالسي (٨٤٦)، وأحمد (٢٢٩٦٤، ٢٣٠٢٢، ٢٣٠٤٧)، والترمذي (٩٨٢)، وابن ماجه (١٤٥٢)، والبزار (٤٣٨٤)، والنسائي (٤/ ٥، ٦)، وابن حبان (٣٠١١)، والحاكم (١/ ٣٦١) من حديث بُريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أو أن المقصود بقوله: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: صاحبك؛ أي: إلى الجسد الذي كنت تعمرينه في الدنيا، وهذا ضعيف[١].

* ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾:

أي: فادخلي في عبادي الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، أي: ضمن عباد الله الصالحين[٢].

﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾، فانظر إلى هذا الفضل العظيم، وإلى هذا العطاء الجزيل، وهذا الختام الجميل؛ الذي لن يناله مَن داخله في الدنيا غرور بمال أو سلطان أو جاه، بل مَن اطمأنت نفسه إلى الله، وتواضع لعظمته، واختاره ورضي به.

❍ ❍ ❍

---

(١) ينظر مصادر القول الأول.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٣/ ٥٢٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٣).

سُورَةُ البَلَدِ

❊ **تسمية السورة:**

اسمها المشهور في كتب التفسير والمصاحف: «**سورة البلد**»(١).

وفي بعض التفاسير: «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾»(٢).

وسماها البخاري في «صحيحه»: «**سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾**»(٣)، وهذا يشتبه مع «سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾».

وذكر الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» من أسمائها: «**سورة العقبة**»(٤)؛ لقوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١﴾، وهو مناسب؛ لأن هذا الاسم يميِّزها عما سواها.

❊ **عدد آياتها:** عشرون آية باتفاقهم(٥).

❊ **وقد نزلت بمكة**، ولم يذكر أكثر المفسرين- كالقرطبي، وابن الجوزي، وغيرهما- إلا هذا.

ولكن ذكر ابن عطية والرازي أنها مدنية، **وقيل**: أولها مكي. وهذا ضعيف.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٠٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٢٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٧)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٣٣).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٦٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٨)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٢٣٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٤) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٢٠).

(٥) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٦).

والراجح أنها مكية، وحُكي إجماعًا[1].

* ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾:

يعتبر هذا جمع من المفسرين نفيًا للقَسَم، أي: أن الله لم يقسم.

والراجح أنه قَسَم، وهو كثير التكرار في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة: ١]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾ [التكوير: ١٥].

وهو جارٍ على لغة العرب، بل يظهر أن القَسَم بلفظ الفعل بصيغة المتكلِّم لم يرد في القرآن إلا مقرونًا بـ﴿لَآ﴾، فلا تجد في القرآن «أُقسم»، وإنما تجد: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾؛ و﴿لَآ﴾ ليست نافية، وإنما هي حرف صلة، وبعضهم قد يقول: زائدة، ولا يقصدون زيادتها في المعنى، وإنما يقصدون زيادتها في الإعراب[2].

ويبدو أن ﴿لَآ﴾ هنا يصلح أن تكون حرف استفتاح، مثل: «ألا»، وتأتي للأهمية أو التوكيد أو التطويل في القَسَم لما يقتضي زيادة القَسَم[3]؛ فتكون أقوى من «أُقسم»؛ لأن فيها القسم، وفيها زيادة الاستفتاح.

والله تعالى أقسم بهذا البلد، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣﴾ [التين: ١- ٣]، فكيف يقسم الله به ثم ينفي القسم؟ هذا بعيد.

و«**هذا**» اسم إشارة يعود إلى مكة، كقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، فالإشارة فيها تقوية وتعزيز وإشهار وإظهار.

وفي هذا تحديد للمقصود؛ حتى لا يلتبس، فليس المقصود أي بلد، وإنما هذا

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٠/ ١٨٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٩)، و«تفسير ابن جزي» (١/ ٢٥١٠، ٢٦١٠)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢١٤).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ١٠١)، و«تفسير السعدي» (ص٨٩٨).

البلد خاصة، وهو مكة، وفيه تعظيم لهذه البقعة المباركة التي اختارها واصطفاها، وجعل من أرضها وتربتها المكان المقدَّس يوم خلق السماوات والأرض، والكعبة التي حجَّها الرسل والأنبياء وطافوا بها، وأمَّها المسلمون في صلاتهم، ولا زالوا يَؤُمُّونها إلى يوم الدين.

وفي هذا القَسَم إشارة إلى مرحلة جديدة من القوة والظهور لهذا البلد، بحيث يكون مركزًا للعلم والدعوة والإيمان والنصر والفتح، وهذا ما لم يكن موجودًا آنذاك.

وفي ذلك إعجاز رباني، وإلماح إلى مرحلة تاريخية مختلفة في حياة البشر، تكون مكة فيها مركزًا عالميًّا ورقمًا مؤثِّرًا، ومشرقًا نورانيًّا للهداية والإيمان.

* ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢﴾:

خطاب للرسول ﷺ، أي: وأنت يا محمد مقيم بها، وهذه الآية يمكن أن تكون جملة معترضة، ليست تبعًا للقَسَم، ويمكن أن تكون حالية بمعنى: أقسم بهذا البلد حين تكون- يا محمد- حلًّا به.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿حِلٌّ﴾ على معانٍ[1]:

١- أن هذا البلد الذي حرَّمه الله، وأصبحت فيه الطيور تأمن، والوحوش والهوام والدواب والحمام[2]، إلا أن قريشًا قد استحلت عرضك ودمك في هذا البلد الأمين.

٢- أو قد أحللنا لك هذا البلد، كما قال ﷺ: «**وإنما أُحلَّت لي ساعةً من نهار**»[3]. يعني: في فتح مكة[4].

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٨٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٣٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (١٣٤٩، ١٥٨٧، ١٨٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٣٥٣، ١٣٥٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٠٢)، والمصادر السابقة.

وهذا يشكل عليه أن الإحلال كان متأخرًا، والسورة مكية، وليس له وجه ظاهر في السياق.

٣- وهو مشهور، ذكره ابن كثير وابن القيم وجماعة(١)، وهو أن المعنى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ يعني: وأنت حالٌّ مقيم بهذا البلد، أي: ساكن.

وهذا المعنى هو الأجود والأجمل، وإن كان ثمة مَن اعترض عليه، كالشيخ الطاهر ابن عاشور في «التحرير والتنوير»، حيث ذكر أنه لا يعرف في لغة العرب أنهم يقولون: فلان حلّ، بمعنى: مقيم أو ساكن(٢).

ولغة العرب واسعة، والاستعمال معروف عندهم، وإن كان نادرًا؛ كما في «بصائر ذوي التمييز»، وذكره غير واحد، فإنهم يقولون: حلَّ بهذا المقام، يعني: أقام به، فهو حال وحل، وكما يقال: محرم، إذا دخل في الحرم، كذلك يقال: حل إذا دخل في الحل زمانًا أو مكانًا، ومنه حل به، أي: أقام به، أو كان ظرفًا له(٣).

فالمعنى أنك مقيم بهذا البلد، فهذا تشريف وافٍ، حيث يقسم تعالى بهذا البلد الذي هو شريف، وزاده شرفًا مقامُك فيه يا محمد! ولاحظ كيف أن الله تعالى كرَّر كلمة «هذا البلد» مرتين في آيتين، ومع ذلك تجدها من أجمل وأفضل ما يقع في أذن السامع.

* ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣﴾:

هذا القَسَم الثاني، والوالد هو: آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأولاده. **وقيل**: إبراهيم وذريته. **وقيل**: كل والد وما ولد(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٢)، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٤)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٤٨).

(٣) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٢٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٤)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٩٠).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦- ٤٤٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦١- ٦٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٧٠)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٣٧- ٤٣٨).

وإن نظرنا إلى مناسبة البيت والبلد، فربما يكون اختيار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنسب؛ لعلاقة إبراهيم بالبيت العتيق؛ ولأن محمدًا ﷺ من ولد إبراهيم، وهو الذي عمَّر هذا البيت بالإيمان، وجدَّد ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإن نظرنا إلى السياق العام في السورة، فلا مانع أن يكون المقصود كل والد وما ولد، ويدخل في ذلك آدم وولده، وإبراهيم وذريته.

ولم يقل: «ومَن ولد»، مع أن «مَن» تستخدم للعاقل، وإنما قال: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ نزوعًا إلى معنًى خاص، وهو نوع من الوصف لما ولد، إما لكثرة مَن ولد، وتنوعه وامتداده، أو إشارة إلى الفضل والتعظيم، وكأنه يقول: انظر إلى صفات مَن ولد، كإبراهيم ومحمد ﷺ وغيرهما(١).

* ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾:

هذا جواب القَسَم، **والأقرب** أن المقصود كل إنسان، فيشمل المسلم والكافر، والذكر والأنثى.

و﴿فِي﴾ ظرفية، **واختلف العلماء في تفسير: «الكبد» على أقوال، أهمها:**

١- في مشقة وتعب وعناء، وهذا الأقرب والأشهر، حتى إنه يتوارد إلى الذهن لأول وهلة.

٢- في استقامة وانتصاب، قائمًا على قدميه، قوي البنية، كما في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(٢) [التين: ٤].

والأول أقوى؛ فقد جعل «الكبد» وعاء للإنسان، وأصل كلمة ﴿كَبَدٍ﴾ مأخوذة من الكبد؛ فالإنسان إذا أصابه وجع في كَبِدِه يقال: كَبَد فلان، وإذا واجهه ما يؤلمه، قال: هذا فَتَّ كبدي وفراه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٢٨)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٥)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٢٤١).

(٢) ينظر: «تفسير التستري» (ص١٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/٤٠٨- ٤١١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٣).

وعادة يعبَّر بالكبد عما يواجهه المرء ويعانيه، ومن هنا أخذ الكبد والمكابدة، وهو قريب من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1] [الانشقاق: ٦].

ومع ذلك جعل الله في الحياة ما يشبه النقيضين، فمع الكبد السرور والرضا والنعيم وقرة العين.

ومن العجائب أن بالكبد تُستلذ المتع والراحة وملذات الدنيا، فالذي يحس الجوع يستلذ الشبع غاية الاستلذاذ، والذي يحِس التعب يستلِذُّ الراحة غاية الاستلذاذ، وربما تطاولت النِّعَمُ بالمرء فأنساه ذلك لذَّتها وذهب بذلك طعمُها الذي وجده أول استطعامِه لها.

زرتُ جارًا لي أصيب بالسرطان في القولون، وعنده تورم في بطنه، وكان يعاني من آلام مبرحة، ويُعطَى جرعات من المسكِّن، ومع ذلك يظل يعاني الألم ويتلوَّى منه، فكان يقول لي: سبحان الله! إذا هدأ الألم عني أشعر بلذة لم أعرِفْها طول حياتي، لمجرد إحساسي بالراحة من الألم!

والمرأة تجد كبدًا في الحمل والولادة؛ ولعل هذا من معاني الربط في قوله تعالى: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣﴾؛ لأن في الولادة مكابدة، وفي الولد مكابدة، يُبتلى الوالد بولده، ويُبتلى الولد بأبيه؛ وكثير من الآباء يشتكي من ولده، وكثير من الأبناء يشتكي من أبيه، وتجد الأب يتلذَّذ بولده، من النظر إليه، وشمه، وذكره، والابن مثل ذلك يعتز بأبيه، فالحياة ليست لونًا واحدًا، وهي لا تستقيم للإنسان إلا بقدر من المكابدة والتحمُّل.

وتجد هنا في العبادة، كما كان بعض السلف يقول: «كابدتُ قيام الليل عشرين سنة، وتنعمتُ به عشرين سنة أخرى»[2].

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٩٥) «ك ب د»، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٣٢٢)، وما تقدم في «سورة الانشقاق».

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ٧١)، و«حلية الأولياء» (٢/ ٣٢٠)، (١٠/ ١٠)، و«سير السلف الصالحين» لِقِوام السُّنَّة (ص٧١٧)، و«تاريخ الإسلام» (٨/ ٥٦)، (١٠/ ٣٤٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٤، ٣٥٥)، و«لطائف المعارف» (ص٤٣).

وقد قال الله تعالى لمحمد ﷺ في الحديث القدسي: «**إنما بعثتُكَ لأبتليَكَ وأبتليَ بك**»[١].

فقد ابتُلِي النبيُّ ﷺ بالكفار والمشركين والمنافقين والمؤذين وضعفاء الإيمان، وابتُلي به الناس؛ ليَعْلَم مَن يؤمن ومَن يكفر، وابتُلي به الأعداء أيضًا في النِّكاية بهم.

وهذا يعطي الإنسان العبرة ويربِّيه على معايشة الحياة بأسباب، منها:

الطُّمأنينة والرضا والتسليم بقدر الله وقضائه.

ومنها التدرب على استخراج السَّعادة من براثن الشقاء؛ فالإنسان يستطيع أن يسعَدَ، ويهنأَ، إذا ملك التكيف مع المتغيرات وتقبل الأمور كما هي.

وفي الحياة ألوان من المتعة: المتعة بالعبادة.. المتعة بالحياة.. المتعة بالمال.. المتعة بالزوجة.. المتعة بالولد.. المتعة باكتشاف المعلومات.. المتعة بالإنجاز، لكن تحتاج كلها إلى شيء من مكابدة الشَّقاء، واستجلاب السرور والأمل.

والقناعة الذاتية عامل مؤثِّر في مسألة استشعار السعادة، فالذي يقتنع أنه سعيد، ويجب أن يكون سعيدًا، سيجد السعادة، حتى لو كان في جو شقاء، والذي يستشعر الشقاء ويقوله ويكثر من التذمُّر، ولو كان عنده المال والصحة والفراغ والعافية والشباب والقوة، سوف يشعر بالتعاسة والحسرة.

* ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾:

أي: هل يظن الإنسان أنه لن يُبعث ولن يقدِرَ الله عليه؛ فإن الله خلقه، وحين أصبح إنسانًا قائمًا قويًّا نسي خلقه، وصار يدَّعي أنه لن يُبعث؟!

عتاب للإنسان الجاحد الذي ظن أنه تعالى لن يقدر عليه![٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤١٢)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٤).

* ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ٦﴾:

اللُّبَد هو: الكثير، بعضه فوق بعض[1]، وقد وردت الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وهي بضم اللام وبكسرها، فهذا الإنسان يتكلم ويدَّعي ويفتخر ويقول: أنا أهلكت مالًا كثيرًا في الإنفاق والبر والجود والإطعام والعطاء، وعبَّر بكلمة: ﴿أَهْلَكْتُ﴾ إشارة إلى أنه مال ضائع هالك.

* ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧﴾:

بلى، فإن الله سبحانه يراه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، فيعلم صدق دعواه بالإنفاق من كذبها، ويعلم قصده من الإنفاق، وأنه أراد به الفخر والادعاء، ولذا صار يتبجَّح في المجالس ويقول: إنه أنفق وأنفق، أو يعبِّر بالإهلاك؛ لأنه لا يرجو ثواب ذلك العمل.

* ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾:

هذا المخلوق الذي جعل الله له حرية واختيارًا، فلا هو مثل الشيطان الرَّجيم، ولا هو مثل المَلَك الكريم، وإنما هو قابل لهذا وهذا، وهذا جزء من كَبَدِه في البحث والمجاهدة، والوصول إلى الحق ولزومه.

والاستفهام هنا استفهام تقرير، **يعني**: قد جعلنا[2].

ومن معانيه: الإشارة إلى ما يعتقده الإنسان من أنه لن يُبعثَ قط، وكيف لا يبعث والله تعالى زوَّده بالسمع والبصر واللغة، وهداه طريق الخير أو طريق الشر. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٢٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٥٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٥٥).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٣٤)، و«لسان العرب» (٣/ ٣٨٧)، و«تاج العروس» (٩/ ١٣٠) «ل ب د».

(٢) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٤٤)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٢٤٢)، و«أضواء البيان» (٤/ ٢٠٦)، والمصادر السابقة.

﴿٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٦- ٣٩]، فخِلقة الإنسان وجبلَّته تدل على أنه سيبعث، **هذا معنى**.

المعنى الآخر: أن الله تعالى يمتن عليه بأن خلق له الوسائل التي تعينه على معرفة الحق واتباعه، ومن ذلك العين واللسان والعقل والفهم الذي به يعرف النجدين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الآية معنى ثالث: أنه إذا كان قد جَعل الله له عينين ينظر بهما، ولسانًا ينطق به، وعقلًا يميِّزه، أفيظن بربه الذي خلقه أنه لا يرى ولا يعلم؟! فالله أولى بالكمال؛ ولهذا كان من قواعد الصفات: أن كل كمال في حق الناس فالله أولى به، وكل نقص فالله تعالى أولى بالتنزه عنه.

والنَّجْدان مثنى: نَجْد، وهو الطريق المرتفع[1].

والنَّجْد مناسب للكبَد، فهو طريق لا يخلو من المشاق، كِلا طريقي الخير والشر لا ينفك عن الصعوبة والكبَد.

وبعضهم يظن أن طريق الشر سهل ممتع، وهذا ليس دقيقًا، صحيح أن فيه لذَّات وشهوات ومغريات، لكن فيه صعوبات، حتى الشهوة والمعصية التي يريدها الإنسان أحيانًا يتعب ولا يظفر بها، وبعد حصوله يجد الأمر محفوفًا بكثير من المزعجات والمنغِّصات المادية والمعنوية، والمخاوف الصحية والاجتماعية، والآلام النفسية، واحتقار المتعة بعد الحصول عليها، وقد يشعر أنه تورَّط، ويتمنَّى الخلاص، ثم يتملَّك قلبه الهمُّ والغمُّ والقلق، والذكريات المؤلمة والتأنيب، فهذا كله عناء وكبد ومشقة، لكن كبد الطاعة ومشقتها محفوف بلُطف الله، وكل عمل يعمله الإنسان فله ثمن، فثمن الطاعة قبلها من الجهد والمكابدة، ثم يعقبها الرضا والرَّوح والسرور، وثمن المعصية بعدها من الهم والغم والقلق والمعاناة النفسية والحسية.

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٧٩١) «ن ج د».

* ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾:

أي: لم يقتحم العقبة، وثَمَّ تناسق بين اقتحام العقبة وبين الكَبَد، فالاقتحام أمر صعب وفيه مخاطرة ويتطلَّب قوةَ قلبٍ وصبرًا، وهو مناسب للنجدين.

والعقبة: الطريق الوَعْر في الجبل(١)، ولذا قال الحسن البصري وغيره في تفسير الآية: إنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس(٢).

وفي الآية إلماح إلى أن أغلب الناس لا يَقْتَحِمون العقبة، فهم يؤثِرون الرخاوة ويفشلون في الاختبار.

* ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر(٣).

وهو سؤالُ تفخيم وتهويل، أي: ما هي؟! وقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: تعريف للعقبة واقتحامها.

والرقبة معروفة، تُطلق على العبد الرَّقيق، وكان الإسلام- حتى وهو في الفترة المكية- يتشوَّف إلى عتق الأرِقَّاء وتحريرِهم، وإعادتهم إلى ما كانوا عليه في أصل خِلقتهم، فإن الله خلقهم أحرارًا، ولم ينزل مع آدم عبد من السماء، بل كلُّهم بنوه، وإنما طرأ الرِّقُّ عليهم، وجعل الله تعالى العتق في كثير من الكفَّارات، وجاء من النصوص في فضل عتق الرَّقيق الشيءُ الكثيرُ(٤)، حتى قال بعض أهل العلم: إن أفضل أنواع الصدقة: أن يعتق الإنسان رقبةَ رَقيق.

---

(١) ينظر: «مجمل اللغة» لابن فارس (ص٦٢٠)، و«شمس العلوم» لنشوان بن سعيد الحميري (٧/ ٤٦٤٨).

(٢) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٢٩)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٦٧)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٤٧)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٤٣).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٥١٧، ٦٧١٥)، و«صحيح مسلم» (١٥٠٩).

* ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾:

المسغبة: الجوع الشديد؛ والمقام مقام اقتحام وعقبة وكَبَد؛ فناسب أن يذكر الإنفاق في أشد حالاته، وأشقِّها على النفس، وهو اليوم الشديد المسغبة، كما قال: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾(1) [الإنسان: ٨].

* ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾:

يعني: إطعام الطعام ليتيم، و﴿يَتِيمٗا﴾ هنا مفعول به منصوب معمول المصدر ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾.

واليتيم: الصغير الذي فقد أباه قبل بلوغه، وقد يستمر اليتم بعد البلوغ بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية(2).

والمقربة: القرابة، والأقربون أولى بالمعروف.

* ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾:

أي: إطعام مسكين محتاج لا شيء عنده، فهو لَصِيق بالأرض من شِدَّة المسكنة(3)، ولهذا يقال عن الفقير: يداه في التراب، والعرب كانت إذا دعت على إنسان قالت: تربت يداك، أو تربت يمينك، وهذا دعاء عليه، وأحيانًا لا يُقصد حقيقته، وإنما هو دعاء جارٍ على الألسنة(4).

فالأمر الأول- الذي ذكره الله تعالى في اقتحام العقبة- هو ما يتعلق بالتحرر من سطوة المال والتعلُّق به، وإنفاقه في سبيل الله، بخلاف الذين لا ينفقون، ويقول أحدُهم: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾، أو ينفقون القليل، ويدَّعون أنهم ينفقون الكثير.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٢٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٦٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٥٨).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٧٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٢- ٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٠).

(٤) ينظر: «الاستذكار» (١/ ٢٩٥)، و«التمهيد» (٨/ ٣٤٠)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» للحميدي (ص٣٢١)، و«شرح السنة» للبغوي (٧/ ٢٣٥).

لم يعتمد الإسلام على جانب واحد في حماية حقوق الفقراء والمساكين والأرِقَّاءِ، بل وضع نظامًا تكامليًّا من أربعة محاور:

١- الوعظ والترغيب الأخلاقي بكافة أشكاله، والوعد الدنيوي بالعوض والخلف، والأخروي بالمثوبة والأجر والرضوان؛ مما يحفِّز المؤمنين إلى البذل وإيثار ما عند الله، والتغلب على شح النفس.

٢- تشريع الأحكام الملزمة لكل المؤمنين بأنواع الكفارات والزكاة والنذور وسواها، مما يترتب عليه الإلزام الشرعي بإخراج المال للفقير والمسكين.

٣- الإلزام العام للمجتمع بكفالة فقرائه ومحاويجه وأيتامه، وإيجاب الإنفاق على الموسرين بما يحقِّق ذلك، والدعوة إلى بناء المؤسسات والفرق الطوعية التي تحقِّق ذلك، فلا تترك حقوق الناس لمجرد التقوى أو الإيمان؛ لأنه يوجد من الناس مَن لا إيمان عنده ولا تقوى، فيفترض أن توجد جهات ومؤسسات ولجان وجمعيات وأجهزة تَحفَظُ حقوقَ الأطفال والنساء والأيتام والفقراء والغرباء وعامة الناس.

وفي العالَم الغربي أصبحت هذه ثقافة وأعرافًا سارية، وقوانين محكمة، ولها أصول وقواعد وتنافس، أما في العالَم الإسلامي، فإهدار وإطاحة بالحقوق على مستوى الحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة، والأستاذ والطالب، والداعي والمدعو، والعالِم والمتعلِّم، وإلى الله المشتكى.

٤- حثُّ المساكين والفقراء والأيتام على العمل والكَدْح والسعي؛ للاستغناء عن الناس، كما في «الصحيح»: «**لأن يأخذَ أحدُكم حَبْلَهُ، فيأتي بحُزْمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيَكُفَّ اللهُ بها وجهَه، خيرٌ له من أن يسألَ الناسَ، أَعْطَوْهُ أو منعُوه**»(١).

ولذلك جاءت قصة صاحب الفأس الذي علَّمه النبيُّ ﷺ جمع الحطب

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧١) من حديث الزُّبير بن العوَّام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأشرف عليه حتى حقَّق النجاح(١)، وجاءت أحاديث الوعيد في المسألة من غير حاجة، خاصة من القوي القادر، كما في قول النبي ﷺ: «**لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»(٢).

* ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في الأصل للعطف والترتيب، والإيمان يكون قبل الإطعام؟

وأخَّر الله تعالى الإيمان هنا لأسباب:

١- الإشارة إلى علو الرتبة، فرتبة الإيمان أعلى وأقدم مما قبلها، وما قبلها فرع عنها.

٢- أن صاحب الفطرة السليمة الكريمة الباذل المعطاء قد يمن عليه بالإيمان والعمل الصالح، كما في قصة حَكِيم بن حِزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: أي رسول الله، أرأيتَ أمورًا كنتُ أتحنثُ بها في الجاهلية من صدقة أو عَتاقة أو صلة رحم، أفيها أجر؟ فقال ﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير**»(٣).

أي: لمَّا آمنتَ كُتبت لك أعمالك الصالحة(٤).

فمن معاني الآية: أن أناسًا قبل الإسلام كان عندهم أخلاق طيبة، ولم يكن عندهم إيمان، ثم جاء النبي ﷺ فأصبحوا من: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، فكُتبت لهم أجورهم، وكان إيمانهم بسبب ما أسلفوا من الخير،

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٢١٣٤)، و«سنن أبي داود» (١٦٤١)، و«جامع الترمذي» (١٢١٨)، و«سنن ابن ماجه» (٢١٩٨)، و«سنن النسائي» (٧/ ٢٥٩)، و«الحث على التجارة» للخلال (١١٧)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٢٥)، و«الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣٥)، (٢/ ٣٣٣)، و«نصب الراية» (٤/ ٢٢).

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٢٧١)، وأحمد (٦٥٣٠، ٨٩٠٨)، وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وابن ماجه (١٨٣٩)، وابن خزيمة (٢٣٨٧)، وابن حبان (٣٢٩٠)، والحاكم (١/ ٤٠٧)، والبيهقي (٧/ ١٣) من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر: «إرواء الغليل» (٨٧٧).

والمقصود بقوله: «**ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ**»: القوي على الكسب والعمل.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).

(٤) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ١٤٠- ١٤١)، و«فتح الباري» لابن رجب (١/ ١٥٩).

والإنسان إذا أسلم وحسن إسلامه يكتب له ما كان يعمله قبل الإسلام من الأعمال الصالحة.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ متناسب مع قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾، والكبد يهوِّنه على الإنسان الصبرُ؛ ولهذا قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[1]. فبالصبر تطيب الحياة، ويتحول الكبد إلى لذة.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ وهذا متناسب مع ما قبله؛ لأن الفقراء والجياع يكابدون شَظَفَ العيش، ويحتاجون إلى مَن يُشفق عليهم؛ وهناك مَن يدَّعي أنه بذل وأنفق وأهلك مالًا لُبدًا، وهناك مَن ينفقون المال في فك الرقاب، والإطعام في المساغب، بل ومَن لا يكتفون بمجرد العطاء والبذل، حتى يُوصوا به غيرهم، وهنا نجد طريقين: مَن يهلك المال لُبدًا، وهو يحسب أن لم يره أحد، ومَن ينفق المال في فكِّ رقبة، وإطعام في مَسْغبة.

* ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾:

أي: أصحاب اليمين الذين تجري أمورهم على اليسر والتوفيق، وهذا من معاني اليمين واليُمن، فهم يُعطون كتبهم باليمين، وهم أصحاب الجنة.

* ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾:

جعل تعالى الكفر عنوانًا لكل شر، كما قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فالكافر يجحد البعث والنشور، ولذا يبخل بالمال، وهو يكفر نعمة الله عليه، ولا يصبر إذا أصابته مصيبة، ولا يرحم اليتيم والمسكين، قريبًا كان أو بعيدًا.

و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ من الشؤم، والمقصود بها: الشمال، يعني: هم ممن يُؤتى كتابه

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٦٣٠)، ووكيع في «الزهد» (١٩٨)، وأحمد في «الزهد» (٦١٢)، والبخاري (٨/ ٩٩) معلقًا، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٥٠)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ١٧٢).

بشماله، وهم أصحاب الشمال[1].

وقد جرت أعراف الناس ولغاتهم وعاداتهم على أن اليمين مما يُتفاءل به، وأن الشمال مما يُتشاءم به، حتى اليَمَن سُمِّيت يمنًا تفاؤلًا، والشَّام سُمِّيت شامًا عندهم تشاؤمًا، فجاء الإسلام لينفي هذا المعنى، فقال ﷺ: «**اللهمَّ بارك لنا في شامنا**»[2]؛ ليبيِّن أن هذا الأمر لا يُعبأ به.

فالمشأمة تعني: الشؤم على أنفسهم، بأعمالهم الفاسدة.

* ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾:

ختم السورة بالإطباق والإغلاق عليهم، وقُضي الأمر، والوصيد هو: الباب[3]، لا تُفتح لهم أبدًا، وهم الذين كفروا، فلا يخرجون من النار، بخلاف عصاة الموحدين، فإن الله يعذِّب مَن أراد عذابه، ثم يخرجون منها برحمة الله، والله تعالى أعلم.

○○○

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٢/ ٢٨٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٩١)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٠١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٦)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٩٨)، (٢٠/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٧) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «العين» للخليل (٧/ ١٤٥)، و«الجيم» لأبي عمرو الشيباني (٣/ ٣١٣).

سُورَةُ الشَّمْسِ

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الشمس**»، أو: «**سورة ﴿وَالشَّمْسِ﴾**»، كما في معظم كتب التفسير، والحديث[1].

وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «**سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾**»[2]، بالآية الأولى منها، وهكذا هي في بعض كتب التفسير، وهذا جيد للتفريق بينها وبين سور مبدوءة بالشمس، مثل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

*** عدد آياتها:** خمس عشرة آية، أو ست عشرة، بحسب اختلافهم[3].

*** وهي مكية** بإجماع المفسرين[4].

وفي هذه السورة خَصِيصة ليست لغيرها، وهي: افتتاحها بأحد عشر قَسَمًا متتاليًا[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٠٩)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣١)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٦٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١٠)، والمصادر السابقة.

(٣) وذلك أنهم اختلفوا في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٤) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٥).

(٥) ينظر: «التفسير القرآني للقرآن» (١٦/ ١٥٨٢).

وأنت إذا تأملت القرآن، وجدت جمهور معانيه ودلالاته التي يُحتاج إليها في تقرير الإيمان ورسم مسيرة الإنسان في الدنيا والآخرة، مما يسهل فهمه على الشاب في مقتبل عمره، والأعرابي في الصحراء، وغير المتخصِّص، والعامي في متجره وحقله، دون حاجة إلى مراجعة كتب التفسير؛ لأنه خطاب لهم، وهم متعبَّدون بتلاوته والإيمان به.

وفي الوقت نفسه تجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إلا الخواص؛ لأنه من العلم الذي يخاطب الخاصة دون غيرهم، أيًّا كان اختصاصهم.

وفي القرآن الكريم أنواع عظيمة من الإعجاز المبهر، على أنه لم يحشد من المعاني التي لم يكن الناس يعرفونها بما يكون ابتلاء لهم، وقد يكون سببًا في كفرهم، فلو قال الله لهم: إن حجم الشمس كذا؛ وبُعدها عن الأرض كذا، مما لم يكن العلم قد وصل إليه ولا ألمَّ به، لكان في ذلك محنة لهم.

ولو قال الله لهم: سوف تأتي طائرات في الفضاء، وسيارات، وأجهزة اتصال، وأجهزة بث فضائي وكمبيوترات دقيقة ومتطورة؛ قبل مشاهدتهم لها؛ لربما كانوا يستبعدونها بالحسِّ، ولا يعرفون كيف ستقع؛ ولهذا جعل الله تعالى الإشارة إلى مثل هذه المعاني إشارات عامة، يؤمن بها كل أحد، دون الدخول في التفاصيل، فأشار إلى النجوم ومواقعها وعظمتها، وترك التفاصيل لأهل الاختصاص الذين يطلعهم الله في كل وقت على ما لم يكن معروفًا عند أهل العلم من قبلهم.

وقد منح الله الناس العقول وسلَّطهم على الكون باكتشافه وتسخيره، ولم تأت الكتب السماوية لتلقِّن الناس تفصيلات العلوم، بل لتحفِّز عقولهم ومداركهم على البحث عنها واستقصائها وتجريبها.

* ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾:

القَسَم يدل على عظم خلق الشمس وأهميتها في الحياة؛ ولذا أقسم الله تعالى بها أولًا، وأقسم بضحاها ثانيًا[1].

---

(١) ينظر: «الواضح في علوم القرآن» (ص٣٠٩- ٣١٠).

أقسم بالشمس، سواءً أكانت طالعة أم غائبة، مرئية أم غير مرئية؛ لأنها جِرْم هائل، وهي كتلة من اللَّهب جعل الله من شأنها أن تَفِيض على هذا الوجود طاقةً عجيبة.

والشمس كتلة من اللَّهب بحجم كتلة الأرض مليون وثلاثمائة ألف مرة، ويا للحكمة والقدرة الربانية أن تبقى هذه الكتلة معلَّقة في الفضاء، ثم يجعل الله سبحانه بينها وبين الأرض بُعدًا كبيرًا، بحيث لا تصل أشعتها إلى الأرض إلا وقد بردت، وأمكن أن يستفاد منها، ولذلك يذكر العلماء أن متوسط حجم المسافة بين الشمس والأرض مائة وخمسون مليون كيلو مترًا.

والشمس ليست إلا كوكبًا من الكواكب التي نثرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في السماوات، إلى جوار مجرَّات وأفلاك وعوالم، لو أن الإنسان قرأ وتأمل فيها لاستشعر معنى جدية الخلق، وجدية الكون، وجدية الإيمان، لكن كثيرًا من الناس لا يمنحون عقولهم وقلوبهم الإيمان والانتفاع والاعتبار.

وهذا ليس من الكلام الذي يجب على الناس الإيمان به، ولم يُمتَحنوا به، لكنَّ أهل الاختصاص وأهل الذكر في هذا الجانب بنوا ذلك على حقائق ومعلومات واستنتاجات علمية صحيحة.

ويقول العلماء: إن حرارة الشمس تتفاوت كثيرًا ما بين حرارتها عند سطحها وما بين حرارتها في مركزها، فحرارتها عند السطح تصل إلى خمسة آلاف وخمسمائة درجة مئوية، لكن حرارتها عند المركز تصل إلى عشرة ملايين درجة مئوية، وانظر الفارق الهائل(١)!

والإنسان يرى الشمس قرصًا مدوَّرًا، فلا يفرِّق بينها وهي تجري من بعيد في الأفق، وبين المصابيح الكاشفة التي صنعها البشر!!

فالله تعالى يكشف عن الإنسان الغفلة والإِلف حينما يطرق سمعك بالقَسَم بالشمس، والقَسَم بضحاها.

---

(١) ينظر: «القرآن وإعجازه العلمي»، و«القرآن وعلوم الأرض».

والضُّحى يشمل نور الشمس الذي يضيء هذه الأكوان، فتشرق بعد ظلام، ويشمل الحرارة[1]، ولا يصل إلى الأرض من حرارة الشمس إلا اثنين من بليون، أما البقية فتضيع في الفضاء الهائل الذي خلقه الله وأبدعه، وهذا القدر اليسير كم فيه من البركة والخير والنماء والحياة!!

وكم فيه من الحرارة التي تصهر الإنسان حين يكون في وهج الظهيرة وفي قلب الصحراء وليس ثَمَّ ما يُكِنُّه من الهجير.

فهذا القَسَم من شأنه لفْتُ نظر الإنسان إلى بديع مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن ثَمَّ يستَدِلُّ بالمخلوق على الخالق.

* ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾:

القمر بالنسبة للأرض مولود صغير؛ فهو أقل من جزء من خمسين جزءًا من حجم الأرض، وهو ذرة صغيرة بالنسبة للشمس.

وهو تابع من توابع الأرض يدور حولها، وكذلك هو تالٍ للشمس، وفي الكون أقمار كثيرة، لكنه تعالى ذَكَرَ القمر لنفعه في الأرض، وإذا كانت الشمس آية النهار، فالقمر آية الليل، والله سبحانه يقول: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

ومعنى محو القمر: أنه ليس فيه ضوء بذاته، وإنما نوره انعكاس الشمس عليه[2].

فهذا من معاني قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ كما ذكر الفرَّاء وغيره، أن المعنى: تبعها[3]، فالقمر ضوؤه من ضوء الشمس، ونوره من نورها.

والمشهور عند أكثر المفسرين- ونُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغيره- أن

---

(١) ينظر ما سيأتي في «سورة الضحى».

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٥٢٤)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥١٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٣٠/ ٩٨)، و«زاد المسير» (٣/ ١٣).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢١٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٣٦).

المعنى: أن القمر يجيء بعد الشمس[1]. وذلك أنه إذا أظلمت الدنيا وذهبت الشمس حل القمر محلها، وبخاصة في أول الشهر وفي أيام البِيض حينما يكون القمر بدرًا، فكأنه يخلف الشمس في إنارة الأرض وإشراقها.

ولهذا كان القَسَم بالشمس أقوى؛ لأنه أقسم بجِرمها، ثم بضحاها، أما بالنسبة للقمر فأقسم بالقمر وحده، وذكر حالة خاصة له، وهي: ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: الشمس، وفي ذكر القمر أشار إلى نسبته إلى الشمس!

* ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣﴾:

النهار يتناسب مع الشمس؛ لأنه أثر من ضوئها، ومعنى ﴿جَلَّىٰهَا﴾: كشفها وأظهرها[2].

ويحتمل أن يكون مرجع الضمير إلى الشمس، يعني: أنها تتجلَّى وتُرى في النهار.

ويحتمل أن يكون المعنى: جلَّى البسيطة، أي: الأرض، وإن لم تكن في السياق، ولكن هذا معروف، وهو أسلوب من أساليب القرآن البديعة في الأشياء الواضحة التي يفهمها كل أحد، ولا يحتاج الأمر فيها إلى عود الضمير على مذكور، لأن كل سامع يدري أن النهار هو الذي يكشف ويجلِّي الأرض[3].

* ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾ أي: يغطِّي الأرض فتظلم.

ويحتمل أن يكون المعنى: يغشى الليل الشمس، فيذهب بضوئها عند

---

(١) ينظر: «فضائل القرآن» لأبي عبيد (١٢٨)، و«الزهد» لأبي داود (٤٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢/ ٩٥)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٠٣)، (٨/ ٤١٠)، و«الدر المنثور» (١/ ٥٧٧)، (١٥/ ٤٥٥).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٤٥)، و«إعراب القرآن وبيانه» (١٠/ ٤٩٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٧٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٨).

غيابها[1].

أقسم تعالى بالشمس وبالنهار، وأقسم بالقمر وبالليل، وكل ذلك فيه الإشارة إلى النور؛ فالشمس نور، وضحاها نور، والقمر نور، والنهار نور، وحتى الليل، وإن كان ظلامًا يَغْشَى، إلا أن الله جعل فيه نور القمر، وفي ذلك إشارة إلى غلبة النور وكثرته وأصالته وعمقه، ومن هذا المعنى أخذ بعض المفسرين أن هذه الآية فيها إيماء وإشارة إلى قوة الدين وغلبته وظهوره وعزته.

* ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾﴾:

استكمل تعالى بهاتين الآيتين كل ما حول الإنسان، بحيث إذا نظرت يمينًا أو شمالًا أو إلى فوق أو تحت أو أمام أو وراء؛ فلا مخرج لك من هذه الأقسام التي أقسم الله بها.

وهنا ذكر بناء السماء، فقوله: ﴿وَمَا﴾ يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، يعني: والذي بناها، وهو الله سبحانه[2]، وهذا مثل قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢].

ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: والسماء وبنائها، فيكون إشارة إلى صفة بناء السماء[3]، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وحينما تتأمل ملكوت السماوات والأرض، أو تشاهد صورها في المواقع المتخصِّصة أو البرامج العلمية والأفلام، تجد أمرًا عجبًا، فمن أسباب قوة الإيمان رؤية السماء والنجوم والمجرَّات والكواكب الهائلة المذهلة، وكذا رؤية البحر

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٧)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٤)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٣١٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٨٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٥٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٤٦).

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٣٧)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٣٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٧)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٣٢)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤١١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٥٩).

والأرض، وما خلق الله.

ويدخل في بناء السماء المجرات والأفلاك والنجوم؛ لأنها في السماء؛ فكثيرون يفهمون أنها السماء التي فيها الملائكة فحسب، في حين أن الصحيح في الشرع واللغة: أن كل ما علا وارتفع فهو سماء[1]، فيدخل في ذلك الأفلاك والمجرات والكواكب والنجوم والسماوات السبع التي ذكرها الله.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾: لما ذكر السماء أعقبها بذكر الأرض التي جعلها مهادًا وبساطًا، وقرَّبها للناس وسهَّلها لهم، و«الطحو» جاء بلفظ «الدحو»: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، والدال والطاء متقاربان في المخرج، **وله عدة معانٍ**:

منها: كون الأرض كرة، كما هو معروف، وهذا أمر بدهي، وقد ذكره المتقدمون من أهل الإسلام وغيرهم، وممن ذكر هذا ابن تيمية، ونقله عن أبي الحسين ابن المنادي من الحنابلة، ونقل إجماع العلماء عليه[2].

ومن معاني: ﴿طَحَىٰهَا﴾: بسطها[3]، فمع أن الأرض كُرِويَّة، إلا أنها مبسوطة للناس؛ يمشون عليها، ويستفيدون منها، وينتفعون بها.

وإذا أراد الإنسان أن يبني عليها أو يزرع أو يقيم بناءً، يجد الأرض مذلَّلة لكل ما يحتاج.

ومن معاني الطَّحو: أن جعل في باطنها من الخيرات والمعادن والبركات ما يكفي لحاجة البشر ويزيد عليها[4]، كما قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، و«سورة النازعات»: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾.

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٦٦)، (٢٥/ ١٩٥)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٣/ ٢٨٨)، وما تقدم في «سورة نوح»: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾، و«سورة النازعات»: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٤)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ١٦٨).

ﭐلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ٩- ١٠].

* ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾:

هذه خلاصة القَسَم، ومدار الأمر وواسطة عقد النظام في الأقسام، أقسم تعالى بالنفس، فالمخلوقات خُلِقتْ وذُلِّلَتْ من أجل الإنسان، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

وهذا يثمر عند الإنسان حالة من الإيمان والاعتبار، ولا يمكن أن يحصل عليها بسهولة إلا إذا فكَّر وتأمَّل.

والصحيح أن القَسَم ليس بنفس خاصة، كنفس آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو نفس شخص بعينه، وإنما أقسم بكل نفس(١).

والنفس تُطلق على الروح، وتطلق على الإنسان من حيث هو بدن وروح(٢)، والمدار هنا على الإنسان بعدما اكتمل، وإن كان في ذلك إشارة إلى النفس وشرفها؛ لأنه لما أقسم بالنفس لم يقسم بالجسد المجرَّد، وإنما أقسم بالنفس التي يصير بها هذا الجسد الجامد كائنًا حيًّا مكلَّفًا مُكرَّمًا عزيزًا، ويتلقى الإلهام، ومنهم الأنبياء والرسل، ومنهم مَن يدخل الجنة ويتشرَّف بجوار الله عَزَّ وَجَلَّ، ومنهم مَن يكون له من المقامات في العلم والعمل القدر الكبير.

فالقَسَم هنا بالنفس، وإن كان قَسَمًا بالإنسان من حيث هو جسد وروح، إلا أن فيه إشارة إلى شرف النفس، وما أحسن ما قيل(٣):

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٥)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٨٨)، و«تفسير ابن عرفة» (٤/ ٧٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٤٧).

(٢) ينظر: «تفسير الشافعي» (٢/ ٧٥٥)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢/ ١٤١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٢)، و«تفسير المراغي» (٤/ ١٧٦).

(٣) ينظر: «ديوان أبي الفتح البُستي» (ص١٨٣).

يا خادمَ الجسمِ كم تَشْقَى بخدمتِه   لتطلبَ الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبِلْ على النفسِ فاستكملْ فضائلَها   فأنت بالنَّفسِ، لا بالجسم إنسانُ

وقد خلق تعالى جسم الإنسان جميلًا، إلا أن النفس أجمل؛ فبها ترقَّى الإنسان عن رتبة الحيوان.

فإقبال الإنسان على نفسه بتزكيتها بالإيمان وبالعبادة وبالعلم، هو الذي يصبح به الإنسان أشرف وأكرم، في حين أن غالب الناس يعتنون بأجسادهم وصحتها ما لا يعتنون بأرواحهم، وهذا من تقديم المفضول على الفاضل.

* ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾:

كلمة «الإلهام» ليست كثيرة الاستعمال في اللغة العربية، ومن العرب مَن لا يعرف معنى الإلهام، إلا «اللَّهْم»، فإذا صار عند الإنسان شيء يَلْهَمُه دفعة واحدة، أي: يضعه في فمه ويبتلعه، كما قال رُؤْبة(١):

كالحوتِ لا يُرْوِيه شيءٌ يَلْهَمُهْ   يصبحُ ظمآنَ وفي البحر فمُهْ

فهو تعبير عن الرغبة الشديدة فيه.

الإلهام معنًى نفسي عزيز راقٍ، وهو العلم الضروري عند الإنسان الذي لا يحتاج إلى استدلال، أي: أن الله تعالى يوصل إلى الإنسان معلومات وحقائق دون مقدمات؛ لأن كثيرًا من العلوم تحتاج إلى مقدمات وأدلة، بخلاف الإلهام.

وهنا ذكر الإلهام للتقوى والفجور، فيحمل على معنى المشاكلة والاتباع.

أو يكون المعنى أنه يسَّرها لذلك، ويسَّره لها، وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له، والله أعلم(٢).

وفي التقوى خاصة يُلْهَمُ بعض المؤمنين من اللطائف والأسرار والمعاني ما يأتي دون بحث أو تنقيب، ويكون حلًّا لمشكل، أو بيانًا لغامض، أو كلامًا عذبًا يهز

---

(١) ينظر: «ديوان رُؤْبة بن العجَّاج» (ص١٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٤٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٩).

الوجدان، أو توقعًا لمستقبل لا تقوم عليه أدلة.

وأصول الأشياء تُعرف بالإلهام والفطرة، كأصل الإيمان بالله؛ فإنه فطرة، يعرفها الخاص والعام، لكن جاءت الرسالات بأسماء الله وبصفاته، وأصول الأخلاق تُعرف بالفطرة، وكل الناس يدرون أن الكذب مذموم، وأن الصدق فضيلة، وأن الظلم شؤم، وأن العدل محمدة.

والله سبحانه خلق لنا السمع والأبصار والأفئدة، والسماوات والأرض، وما فيهما من الشمس والقمر والنهار والليل، ثم سلَّط قدراتِنا ومَلَكاتِنا وجوارحَنا وأعضاءنا عليها، فنرى ونسمع ونفكِّر ونحلِّل، حتى يصل الإنسان إلى الحق؛ فهذا من الإلهام؛ ولذلك كان مناسبًا أن يذكر الله تعالى هذه الآية بعد أقسام شملت كل ما خلقه الله تعالى مما يراه الإنسان أو يحسه.

والسمع والأبصار والأفئدة منافذ لرؤية الأشياء المحسوسة من حولنا، واكتشاف الإيمان والوصول إليه، **فتجد أن الحجة قامت على الخلق من وجوه:**

١- الخلق المحسوس الذي نراه ونسمعه ونلمسه ونشاهده.

٢- القوى البشرية من السمع والبصر والفؤاد، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

٣- الإلهام، بمعنى: المَلَكة والمقدرة العقلية والنفسية على الاستفادة من هذه الأشياء، وأن تتحول إلى فَهْمٍ وإدراك وإيمان ومشاعر؛ ولذلك لا أحد يستطيع أن يعرِّفَ الحبَّ والبغض، والفرح والحزن، والرضا والسخط، والسرور والهم والغم؛ لأن هذه المعاني والواردات النفسية عبارة عن عالم هائل يصعب حصره، لكن كلُّنا يحس به.

فقد جعل الله به كمال الحجة على الإنسان؛ ولهذا قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ يعني: أن الله تعالى أَلْهم الإنسان معرفة الفجور ومعرفة التقوى، وبيَّن له الخير والشر، والهدى والضلال، ثم أقدره على أن يسلك أي النجدين وأي

السَّبيلين؛ لأنه لو جعله بالاضطرار تقيًّا مؤمنًا لم يكن ثَمَّ مجال للتفوق والامتحان.

* ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾:

الفلاح: نيل المطلوب من خير الدنيا والآخرة[١].

و﴿زَكَّىٰهَا﴾: نمَّاها[٢]؛ ولهذا سُمِّيت: الزكاة؛ لأنها تُنَمِّي المال[٣]، **والمعنى**: أن يكون الإنسان طيبًا، وأن يكون طاهرًا[٤].

وهل النفس تنمو أو تكبر؟

الجواب: النفس لا تكبر كبرًا حسيًّا، وإذا شعر بالكبر سُمِّي متكبرًا؛ لأنه كبَّر نفسه، والواقع أنها صغيرة، لكن بالزكاة تكبر النفس كبرًا معنويًّا، في حين أن صاحبها يراها صغيرة، وليس عن تكبر، ولكن عن نمو صحيح وطهارة وزكاة.

ولذا قال عُتبة بن غَزْوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإني أعوذُ بالله أن أكونَ في نفسي عظيمًا، وعند الله صغيرًا»[٥].

فالنفس واحدة، لكنها تكبر بالإيمان، كما تكبر بالعلم، فالإنسان الذي عنده عشرة آلاف معلومة أحسن من الذي عنده ألف معلومة، وأوسع نطاقًا منه الذي عنده مليار معلومة، مع أنهم يقولون: إن الإنسان لا يستفيد من عقله إلا بأقل من عشرة في المائة في كل الأعمال التي يجريها، هذا في مجال العلم فقط، وهكذا مجال تزكية النفس وطهارتها.

---

(١) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٣٧)، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح» لابن الملقن (٣/ ٢٤١)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٩٠٨)، و«تاج العروس» (٧/ ٢٦) «ف ل ح».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٤٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٧)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٧٨)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٤٨٢).

(٣) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٥).

(٤) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ١٨٤)، و«النهاية» (٢/ ٧٦٥)، و«لسان العرب» (١٤/ ٣٥٨)، و«المصباح المنير» (١/ ٢٥٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

* ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾:

الدَّس والتدسية: الإخفاء، أي: ضيَّقها وضيَّعها وصغَّرها وقلَّلها، ودائمًا تجد الخير واضحًا، والشرَّ في الغالب يقصد فيه الاستخفاء والإخفاء(١).

* ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾:

ولا أعلم سبب تخصيص ذكر قصة ثمود في هذه السورة، إلا أن يكون هذا لأن قصتهم معروفة عند العرب، وديارهم ليست بعيدة عن ديارهم(٢)، فكان من المناسب أن يذكِّرهم الله تعالى بما يعرفون، وأن يذكر لهم مثلًا مما سبق في تاريخهم، وكثير من الناس إذا ذكرت له مثالًا من تاريخه الذي يعرفه تأثر به أكثر من تأثره بما لا يعرف؛ ولذلك تجد الفلَّاح إذا عرضت له قصة النبات، وكيف تخرج الزَّهْرة والوردة والشجرة يتأثر بها أكثر مما لو حدَّثته عن الفلك.

وقد يكون هذا أنموذجًا واضحًا لإلهام الفجور والتقوى، كما قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

والطغوى: الطغيان، وهي صيغة مبالغة(٣)، **والمعنى**: أنهم بطغيانهم كذَّبوا، وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن الله تعالى عاقبهم بجنس عملهم، كما في «سورة الحاقة»: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾، يعني: بالصيحة الطاغية التي

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٨٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧١).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٠٠، ٣١٤)، و«الكليات» للكفوي (ص٤٥٣).

(٢) **ديار ثمود** تقع في الحِجْر، شمال الجزيرة العربية، وما زالت آثارهم موجودة على الطريق بين الحجاز والشام، وكانت قريش يمرون عليها وهم ذاهبون إلى الشام، ومر بها النبيُّ ﷺ في طريقه إلى تبوك، كما في «صحيح البخاري» (٣٣٧٨، ٣٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٠)، وينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾.

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٦٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٦٠)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٤٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٤٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٢)، وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٥٢٠) «ط غ ى».

تتناسب مع طغيانهم[1].

* ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾:

أشقى ثمود هو: قُدار بن سالف، وكان سيدًا زعيمًا كبيرًا، كما في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**انْبَعَثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ مَنِيعٌ في رهطه، مِثْلُ أبي زَمْعَةَ**»[2]. ولم ينبعث للناقة إلَّا بعدما بايعوه كلهم وأقروه؛ ولذلك كان الراضي المقر للفعل مثل الفاعل.

وهو أشأم رجل على قومه، وكان قد أظهر نيته في قتل الناقة، وكأنهم حرَّكوه وأغروه، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، أي: فعقر الناقة[3].

* ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣﴾:

﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هو: صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ يعني: احذروا، ولفظ: ﴿نَاقَةَ﴾ منصوب على التحذير[4]، أي: احذروا ناقة الله وسقياها، ولا تتعرَّضوا لها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وذلك أنه كان لها شِرب ولهم شِرب يوم معلوم، ففي يوم كان الماء لبهائمهم ودوابِّهم، وفي يوم آخر تشرب الناقة، ثم تدر لهم ما يحتاجونه من اللَّبَن[5].

* ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤﴾:

كذَّبوه بما جاء به، وكفروا بالدين والتوحيد، وخالفوا أمره، فعقروا الناقة،

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٠٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٧٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٢/ ١٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٢)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زمعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ١٨٢)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٤٣)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٧٩).

(٤) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٤١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٧٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٨).

(٥) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٨٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٤).

والعقْر هو: قطع رجلَيِّ الدابة أو يَدَيْها فتسقط، ثم صار يستعار للقتل[1].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾: والعلماء مختلفون في معنى ﴿فَدَمْدَمَ﴾[2]، لكنك حين تسمع الكلمة تجد في أذنك صوت الصيحة التي ألمَّت بهم، حتى إنك لا تجد كلمة أخرى أجل وأوضح من كلمة ﴿فَدَمْدَمَ﴾؛ لتعريفها وبيانها، وهو صوت الصيحة تخرق آذانهم، ثم تفضي إلى قلوبهم، فيتساقطون ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: تساووا جميعًا في العقوبة؛ لأنهم تساووا في الجريمة.

وقد يكون المعنى: أن الله سوَّى الأرض بهم، وهذا قريب أيضًا[3].

والعامة تعبِّر بهذا الفعل فتقول: سوَّاها فلان، يعني: عملها.

* ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾:

فالله لا يخاف شيئًا، والإنسان إذا همَّ أن يعاقب أحدًا قد لا يبالغ في العقاب، ويقول: أَبْقِ للصلح موضعًا. وربما تعاقب فتبالغ فيكون عند الطرف الآخر ردة فعل قوية، وقد ينتقم منك ويجد فرصة الرد ولو بعد حين؛ ولذلك لا يكون عقابهم بليغًا، أما الله تعالى فممَّا يَخاف؟ وممَّن يَخاف؟!!

فكان أخذه كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، والله تعالى أعلم.

○○○

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٩/ ٢١٢)، و«زاد المسير» (٢/ ١٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ٢٤٠)، و«فتح القدير» (٢/ ٢٥١)، و«تاج العروس» (١٣/ ١٠٢) «ع ق ر».

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٣٣٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٦)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٨٥٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٥)، والمصادر السابقة.

سُورَةُ اللَّيْلِ

❋ **تسمية السورة:**

الذي في كتب التفسير عامة: «**سورة الليل**»، أو: «**سورة** ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾»(1).

وسماها البخاري في «صحيحه»، والترمذي في «جامعه»: «**سورة** ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾»(2).

❋ **عدد آياتها:** إحدى وعشرون آية(3).

❋ **وهي مكية** عند الجمهور، وبعض المفسرين لم يذكروا إلا هذا، لكن نُقل عن بعضهم أنها مدنية.

وقيل: فيها المكي والمدني، ففي آخر السورة: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾، جاء في بعض الروايات أنها نزلت في أبي الدَّحْداح الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حيث أنه كان لرجل من الأنصار نخلة، يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**تبيعها بنخلة في**

---

(1) ينظر: «جامع الترمذي» (5/ 41)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 336)، و«تفسير الطبري» (24/ 455)، و«معاني القراءات» (3/ 151)، و«تفسير السمعاني» (6/ 236)، و«تفسير البغوي» (5/ 261)، و«المحرر الوجيز» (5/ 490)، و«زاد المسير» (4/ 453)، و«تفسير القرطبي» (20/ 80)، و«التحرير والتنوير» (30/ 377).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص734)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 433)، و«صحيح البخاري» (6/ 170)، و«جامع الترمذي» (5/ 298)، و«مستخرج أبي عوانة» (2/ 492)، والمصادر السابقة.

(3) وقيل: عشرون آية. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص276)، و«المحرر الوجيز» (5/ 490)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص323)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 557)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 523)، و«روح المعاني» (15/ 365)، والمصادر السابقة.

الجنة؟». فأَبَى، فاشتراها أبو الدَّحْداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فنزلت هذه الآية[1].

هكذا ذكر بعضُ المفسرين، واستدلوا بذلك على أن السورة مدنية، أو أن يكون فيها المكي والمدني.

والسبب المذكور- على القول بثبوته- لا يلزم القطع بكونه سبب نزول الآيات؛ ولذا نرجِّح ما ذهب إليه الجمهور من أن السورة نزلت بمكة، بل هي من أوائل السور نزولًا بها، والموضوعات التي تُعالَج في القرآن المكي واضحة فيها[2].

* ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣﴾:

أقسم سبحانه بالليل حين يغطِّي الكون بظلامه، وقرنه بفعل مضارع ﴿يَغۡشَىٰ﴾.

وبالنهار، وجعل مع النهار الفعل: ﴿تَجَلَّىٰ﴾، وهو ماضٍ.

وبدأ تعالى بالليل قبل النهار؛ لأنه خُلق أولًا، والله أعلم[3]؛ فإن الكون كان ظُلْمة حتى خَلَق الله الشمس والقمر، وخَلْقُ السماوات والأرض كان قبل خلق الشمس والنور، والله أعلم.

فالأصل أن الظلام كان موجودًا، فأشرق بنور ما خلق الله سبحانه.

فالبدء بالليل إشارة إلى أنه هو الأول السابق؛ ولذلك يبدأ التاريخ من الليل، والليلة تسبق يومها، فنقول مثلًا: ليلة الاثنين، والاثنين بعدها، فالليل قبل النهار، وهذا في الشريعة معتبر، إلا في حالة واحدة، وهي ليلة عرفة؛ فإنها تكون بعد نهار عرفة.

و﴿يَغۡشَىٰ﴾ فعل مضارع، و﴿تَجَلَّىٰ﴾ فعل ماضٍ، ذكر ابن القيم أن السبب في

---

(١) سيأتي قريبًا.

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«الإتقان» (١/ ٥٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٨٤)، و«تفسير الطبري» (١٦/ ٢٥٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (٨/ ٢٧١٧)، و«تفسير البغوي» (١/ ١١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٣٩).

ذلك أن الليل يأتي متدرِّجًا، فهو يغشى شيئًا فشيئًا، بخلاف النهار فهو يخرج دفعة واحدة سريعًا[1]؛ حيث تشرق الشمس، فإذا الكون كلُّه نور، **فهذا سرٌّ من أسرار التعبير**.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾: «ما» يحتمل أن تكون اسمًا موصولًا، يعني: والذي خلق الذكر والأنثى، فيكون القَسَم بالله سبحانه، ويحتمل أن تكون مصدرية، يعني: وخَلْقِ الله الذكر والأنثى[2]، وهذا أقرب وأجود؛ ليكون القَسَم بالخلق، أي: خلَق الليل، وخلَق النهار، وخلَق الذكر والأنثى.

والله خَلَق الليل والنهار، وخَلَق الذكر والأنثى، فلماذا قال هنا: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ ولم يقل في الليل والنهار: «وما خلق الليل والنهار»؟

لعله لأن الليل والنهار مخلوقات ليس عليها تكليف، وليست مطالبة بالمعرفة، وإنما جاء ذكرها هكذا كآيات، أما الذكر والأنثى فجاءت مقرونة بخلقها، إشارة إلى أنها متعبّدة بمعرفة خالقها، مكلَّفة بطاعته والإيمان به؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، وهذا خطاب للذكر والأنثى، ولفت النظر إلى ما في خلقها من العبرة والإبداع، خاصة وهي المخاطبة بالكلام.

وهنا نلاحظ التنويع والتشابه، فالذكر والأنثى مثل الليل والنهار؛ الذكر يشبه النهار من جهة الفعل والعمل والحركة والسعي والظهور، والأنثى تشبه الليل من جهة الهدوء والاستقرار والسكون والروحانية والخفاء، والحياة البشرية لا تقوم إلا بهذين الركنين، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ

---

(١) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٨)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٤٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٧٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٦١- ٧٦٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٧٩).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١- ٧٣]، فالكون يصلح بالليل والنهار، والحياة تصلح بالذكر والأنثى.

وجاء في «الصحيحين» رواية عن أبي الدرداء وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قراءة: **(وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى)**[١].

وهذه ليست من القراءات المتواترة السَّبْعية، ولا يصح القراءة بها[٢].

وحملها بعضهم على أن هذا كان في أول القرآن لما أُذن للناس بشيء من الاجتهاد في القراءة ولو لم يكن بحرفيتها، ثم جمع الله تعالى الناس على القراءة الأخيرة التي قرأها جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على النبي ﷺ، وقرأها النبيُّ ﷺ على جبريل في رمضان في آخر سنة مرتين[٣]، وصارت هي القرآن الذي تعبَّد الله الناس به، والله أعلم.

* ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾:

هذا هو المُقْسَم عليه، ولم يقل: «عملكم»، **فهل السعي هو العمل؟**

هو قريب منه، لكن السعي أقوى؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاةُ، فلا تَأْتُوها وأنتم تَسْعَونَ**- يعني: تركضون- **وَأْتُوهَا تمشونَ، وعليكم السَّكينةُ**»[٤].

فالسعي يدل على السرعة والشدة، وفيه إشارة إلى أن طبيعة الحياة الشدة والمكابدة، والنجاح فيها يتطلب جهدًا عقليًّا وبدنيًّا؛ حتى يستطيع الساعي أن يحصل على المطلوب، وأن يتغلب على العقبات[٥].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (٨٢٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٧٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٠)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٦١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦٢٣، ٣٦٢٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ١١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٤٦٥)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٤٨٢)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٤/ ١٣٨).

ومعنى «شتَّى»: مختلف[1]، وهذا قد يكون جمع: شَتِيت، كما يقال: مَرِيض ومَرْضى، وقَتِيل وقَتْلى، وجَرِيح وجَرْحى.

والآية تؤكِّد أن الحساب والجزاء ليس بمتقضى الجنس؛ ذكورةً وأنوثة، بل بمقتضى العمل والسعي؛ إيمانًا أو كفرًا، عطاءً أو منعًا.

فهذه الآيات الأربع اشتملت على عناصر النجاح للأمم، وتحقيق الرُّقي والتقدُّم والحضارة:

١- الزمان، وهو الليل والنهار.

٢- الإنسان، وهو الذكر والأنثى معًا، ولكل منهما دوره وحضوره، فإن الإنسان هو العنصر الأساسي؛ وهو أهم استثمار، فإذا صلح حقَّق الانتصارات الكبيرة.

٣- العمل، وهو السعي.

وقَـلَّ مَـنْ جَدَّ في أَمـرٍ يُحَاوِلُـهُ   واسْتَصْحَبَ العزمَ إِلَّا فازَ بِالظَّفَرِ[2]

٤- المال، وهو عصب الحياة.

* ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾:

«أمَّا» للتقسيم، ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أفعال بها يفوز الإنسان وينجو: «أعطى»، و«اتَّقى»، و«صدَّق بالحُسنى».

يقول العلماء: إن في الإنسان ثلاث قوى:

١- قوة الفعل.

٢- قوة الترك والامتناع.

٣- قوة العلم والعقل.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٢).

(٢) ينظر: «الآمل والمأمول» (ص٦)، و«الشعر والشعراء» (١/ ١٩٤)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص١٩٣)، و«ربيع الأبرار» (ص٣٢٥)، و«حماسة القرشي» (ص٢٨).

فهذه الآيات اشتملت على القوى الثلاث، فمَن أعطى فقد وظَّف قوة الفعل، بما في ذلك قوة البدن في العطاء والإحسان، حتى أصبحت جزءًا من شخصيته وسَجِيَّةً وطبعًا، والمال أول مذكور، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

ثم الكلمة الطيبة صدقة، والابتسامة، والشفاعة في الجاه، والمشورة، وبذل العلم، وهذا يعني تنمية القوة العملية عند الإنسان بالعطاء.

ومَن اتَّقى فقد نجح في توظيف القوة التَّرْكية أو الامتناعية؛ لأن التقوى ترك المعاصي والمخالفات، فتقوى الله هي: ترك معاصيه، بأن يمتنع من الشهوة الحرام، والمال الحرام، والنكاح الحرام، وكل ما لا يرضي الله.

وجماهير المفسرين على أنها نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)].

وقد أخرج الحاكم، وغيره، أن أبا قُحافة قال لابنه أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا بُني، إني أراك تعتقُ رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلتَ أعتقتَ رجالًا جلداء يمنعونك ويقُومون دونك. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أبت، إني إنما أريدُ ما أريدُ. فنزلت هذه الآيات فيه، إلى آخر السورة[(٢)].

وذكر الواحدي، والثعلبي، والقرطبي، وغيرهم أنه كان لرجل من الأنصار نخلة يسقط من بلحها في دار جار له، فيتناوله صبيانه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «**تبيعها بنخلة في الجنة؟**». فأَبَى، فخرج، فلقيه أبو الدَّحْداح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: هل لك أن تبيعنيها بـ«حُسْنَى»؛ حائطٍ له؟ فقال: هي لك. فأتى

(١) ونقل الإجماع على ذلك: البغوي وابن عطية والرازي وغيرهم. ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٠)، و«أسباب النزول» للواحدي (١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٤٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٣)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٨٠، ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٢).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٦٦)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (٤١٥)، وعبد الله بن أحمد في زوائده على «فضائل الصحابة» (٢٩١)، والحاكم (٢/ ٥٢٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (١)، وابن عساكر (٣٠/ ٦٩).

أبو الدَّحْداح إلى النبي ﷺ وقال: يا رسولَ الله، اشترها مني بنخلة في الجنة. قال: «**نعم، والذي نفسي بيده**». فقال: هي لك يا رسولَ الله. فدعا النبيُّ ﷺ جارَ الأنصاري فقال: «**خذها**». فنزلت: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ...﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدَّحْداح وصاحب النخلة، وفي سنده ضعف شديد(١).

﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: هذه الآية تمثِّل القوة العلمية والعقلية وكذا القلبية، بأن يكون عنده تصديق بالحق.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في «الحُسنى»، فقال بعضهم: هي الجنة، **وقيل**: الشريعة، أو كلمة: لا إله إلا الله، أو الصلاة، وكلها معانٍ صحيحة، لكنها أمثلة فحسب، والمقصود: كل حق يجب التصديق به(٢).

والقوة العلمية تؤدِّي بالإنسان أحيانًا إلى حصول شبهات وشكوك.

والقوة العملية تفضي إلى الوقوع في الشهوات، فهذه السورة قرَّرت وجود هذه القوى عند الإنسان، ثم شجَّعت الإنسان على الامتناع من توظيفها فيما لا يحل ولا يحسن، وذلك بتحقيق التقوى.

وذكْرُ الخلق في السورة دعوة إلى التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي خلق الناس لدفع الشبهات وتعزيز الإيمان.

كما أن التحذير من النار الحامية المعدَّة لمتَّبعي الشهوات يحيي في القلب التقوى ومراقبة الله.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: **وأحسن ما قيل في** ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: أن يسهِّل الله أموره في الدنيا والآخرة؛ من السعادة والهناء وقرة العين.

ومن التيسير لليسرى: رضا الله.

---

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٧١٧- ٧١٨- تحقيق ماهر الفحل)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٠)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٤٩٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦١- ٤٦٤)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٧- ٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٢- ٣٨٣).

ومنه: الفرح بلقاء الله عند الموت، ونعيم القبر، ومنه: التيسير في الحساب.

ومنه: تسهيل الله له دخول الجنة، فبقدر ما تكون الأعمال الصالحة سهلة عليه يسهل عليه دخول الجنة، وبقدر ما تشق عليه هذه الأعمال- حتى ولو كان من الصالحين- يكون الأمر عليه أصعب، وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسولَ الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: «**لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه**»(1).

ومنه أن ييسِّر الله له الذكر ويطوِّع له لسانه وقلبه، كما قال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾(2) [القمر: ١٧].

* ﴿**وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠**﴾:

ذكر ثلاثة أعمال: **أولها**: البخل، وليس المقصود البخل بالمال فحسب، وإنما البخل بكل ما يُمدح الإنسان ببذله مما هو مشروع، كالنصيحة والكلمة الطيبة والبشاشة، وهي في مقابل العطاء في الآيات قبلها.

وثانيها: الاستغناء، وهو مقابل التقوى؛ لأن المتَّقِي عبد خاضع لربه، مُقِرٌّ بالعبودية والافتقار، ويقابله المستغني- وليس الغَنِي- وهو مَن رأى نفسه غنيًّا بما لديه، مغترًّا بقوته، ناسبًا الفضل لنفسه، معرضًا عن ربه، متكبِّرًا على عباده.

وثالثها: التكذيب بالحسنى، وهو أساس الانحراف، وسبب البخل، والشعور بالاستغناء.

والأمم التي كفرت بالله تعالى، وإن كان لها إنجازات حضارية، فلديها خَوَاءٌ روحي وخلل إيماني؛ بسبب شعورها بالاستغناء؛ وكأنهم بسبب العلم والحضارة ظنوا أنهم لم يعودوا بحاجة- كما يعبِّرون- إلى وصاية الله عليهم؛ واستغنوا عن الله تعالى، وكذَّبوا بالحُسنى، فييسِّرهم للعُسرى.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٥٦١)، وأحمد (٢٢٠١٦)، والحاكم (٢/ ٤١٣)، وينظر: «علل الدارقطني» (٦/ ٧٣- ٧٩)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٣٤- ١٣٦) (٢٩)، و«إرواء الغليل» (٤١٣).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٧).

ولو أنهم اتقوا الله وأطاعوه مع ما عندهم من الحضارة، لكان ما هم فيه من التيسير أعظم وأتم، وهم قد حُرِموا من النعيم الإيماني، وهو أعظم وأتم نعيم في الدنيا.

وعند هذه الآيات يبحث العلماء موضوع القَدَر، وفي «الصحيحين» أن النبيَّ ﷺ كان في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل يَنْكُتُ به الأرضَ، فقال: «**ما منكم من أحد إلَّا وقد كُتبَ مقعدُهُ من النار، ومقعدُهُ من الجنة**». قالوا: يا رسولَ الله، أفلا نتَّكلُ على كتابنا ونَدَعُ العملَ؟ قال: «**اعملُوا؛ فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، أما مَن كان من أهل السعادة؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل السعادة، وأما مَن كان من أهل الشَّقاء؛ فَيُيَسَّرُ لعمل أهل الشَّقاوة**». ثم قرأ النبيُّ ﷺ هذه الآية: «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾»(١).

وفي الآيتين جعل الله البدء من عند الإنسان نفسه، فالذي يسَّره الله لليسرى هو مَن سبق أن ﴿أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، ولذا جاء حرف السين الدال على المستقبل، والذي ﴿بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ هو الذي سوف ييسِّره الله للعُسرى، وكأن المعنى أن الله مكَّنهم وأقدرهم على سلوك الطريق الذي يختارونه دون قهر أو إلزام.

ثم إن الحساب والعقاب في الآخرة، إنما يكون بموجِب ما جعله الله تعالى في الفطرة من الإدراك الضروري أنه يفعل باختياره، ولا يوجد قوة تفرض عليه ضد إرادته.

وحين يكون لديه خيارات متعدِّدة في المسكن أو الزواج أو القرارات الأخرى، يفكِّر ويبحث ويستشير، ثم يختار بمحض إرادته ويتحمل نتائج خياره.

إن أمور الإنسان الدنيوية؛ من دراسة، وأكل وشرب، ونوم ويقظة، وكلام، وذهاب وإياب وسفر، لا يحتج الإنسان فيها بالقضاء والقدر، ألم يكن لديك -وأنت إنسان- شعور ضروري تحس به حتى ولو كنتَ طفلًا صغيرًا أنك تفعل باختيارك، وتترك باختيارك؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا هو الوُسع: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهو الفطرة، ولو أن الناس كانوا مقهورين على طريق ما؛ لم يكن للحياة معنى، ولا للاختيار حكمة، ولتساوى البر والفاجر، والصالح والطالح.

والله تعالى خلق الخلق وعلم ما هم عاملون، فلا يظن عاقل أن الله يفاجأ بما يعملون.. تعالى الله عن ذلك، بل علم ما هم عاملون، وهو مكتوب عنده: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، لكن عِلْم الله تعالى ليس هو الذي يملي على الإنسان ما يعمل، ويقهره عليه.

وهل يظن عاقلٌ أن إرادة الله اعتباطية، بحيث إن هذا الإنسان يريد الخير والله يريد له الشر؟! وهل يقول أحد بهذا؟! إنما إرادته سبحانه هي فيما يعلم أن هذا الإنسان يريده، بمعنى أن الإنسان هذا لو ترك وشأنه لم يكن ليفعل إلا ما فعله من قبل نفسه من خير أو من شر.

والقَدَر قد أُخْفِي عن العباد، والشرع قد أُظْهِر، وكان القدر ابتلاءً ليؤمن به الإنسان، والشرع ابتلاءً ليعمل به الإنسان، ولا تضاد ولا تناقض(١).

* ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾:

«ما»: نافية، أي: لا يغني عنه ماله، ويحتمل أن تكون استفهامية، أي: ما الذي يغني عنه ماله؟ ولم يَذْكُرْ هنا شخصًا؛ فهي تعم كل مَن ينطبق عليه الوصف(٢).

وإذا كان مدار النهوض على المكان والزمان والإنسان، فهذه الآية تشير إلى شرط المال، والذي يملك المال يملك القوة؛ ولذلك أبرزه الله في هذه السورة مع أنه من العطاء المذكور في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾، وهو واحد من الأشياء التي يبخل بها، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾.

وقد يكون تخصيصه إشارة إلى تعلُّق بعض الغافلين به؛ لأن المقام مقام ذم،

---

(١) ينظر تعليق المؤلِّف على «مختصر صحيح مسلم» للمنذري، كتاب القدر (١٨٣٨- ١٨٤٤).

(٢) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٦٢)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٥)، و«تفسير ابن عرفة» (٤/ ٣٥٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٨٧).

فهو يشير إلى فئة شغلتها أموالها عن التزكِّي والتطهُّر والسُّمو.

معنى ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾: هوى في نار جهنم، أو: تردَّى في قبره، أو تردَّى رداء الكفن الذي يلبسه، **والأقرب أن المعنى**: إذا هلك وسقط، ويدخل في ذلك هلاكه في الدنيا، والآخرة؛ لأن المال يحول أحيانًا بين الناس وبين الهداية والطاعة، ولزوم الطريق المستقيم.

* ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾:

أوجب تعالى على نفسه- كرمًا منه وفضلًا- الهُدى، وهو بيان الحق للناس، وليس معناه: جبرهم على الحق؛ لأن الواقع أن منهم المهتدي والضال، فهي هداية البيان وإقامة الحجة، وليست هداية الإلهام والتوفيق ولزوم الطريق[(١)].

وفي هذا إشارة إلى استطاعة الاهتداء، ومهما يكن، فالثمرة من اهتداء الإنسان هي له، والله لا ينفعه هداية مهتدٍ ولا ضلالة ضال، ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾، فلا ينفع الناسُ ربَّهم إن أطاعوه، ولا يضرونه إن عصوه؛ فله الدنيا وله الآخرة، ومَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومَن ضل فإنما يضل عليها.

وقد قال جلَّ وعلا في الحديث القدسي: «**يا عبادي، لو أن أوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقَى قلب رجل واحد منكم، ما زادَ ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أوَّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقصَ ذلك من مُلكي شيئًا...**»[(٢)].

* ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾:

هذا من الهُدَى الذي وعد الله أن ينذر الناس النار.

ومعنى ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تتوهَّج وتتَّقد[(٣)]، وخطب النبيُّ ﷺ في المسجد، فجعل

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٥٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٣٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٩).

يقول: «**أنذرتُكُم النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُم النارَ**». حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لَسَمِعَه، حتى وقعت خَمِيصة كانت على عاتقه عند رجليه(١).

* ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾:

﴿يَصْلَىٰهَآ﴾ أي: يدخلها، **وقيل**: من الصَّلْي، يقال: صَلَى الشاة، إذا شواها(٢).

و﴿ٱلْأَشْقَى﴾: الأكثر شقاوة، وقد ورد أن الشَّقِي في النار: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، فإما أن يكون معنى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾: الشقي، وهنا لا إشكال، أو يكون المقصود هنا نارًا خاصة، وهي نار الكفار التي لا يخرجون منها، وهي نار الخلود الأبدي السَّرْمدي، كقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠]، فيكون الأشقى هو الكافر، والنار يدخلها الكفار، ويدخلها بعض عصاة المؤمنين ممن شاء الله تعذيبهم فيها، ثم يخرجهم منها بإذنه(٣).

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فالشقاء هنا يتعلق بالتكذيب والتولِّي، والتكذيب هنا باللسان، والتولِّي بالفعل، فهو جمع بين التكذيب بلسانه والتكذيب بفعله.

* ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾:

﴿ٱلْأَتْقَى﴾ أفعل تفضيل من التقوى، وهو: المُيَسَّر لليسرى، وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤)، ولا يعني هذا قصر الآية عليه.

ولأن المقام مقام وعيد وتخويف وإنذار، ناسبَ ألَّا يذكر الجنة تصريحًا هنا، مع أن مَن زُحزح عن النار فسيدخل الجنة.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٨٢٩)، وأحمد (١٨٣٩٨)، والدارمي (٢٨٥٤)، وابن حبان (٦٤٤، ٦٦٧)، والحاكم (١/ ٢٨٧) من حديث النعمان بن بَشِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢١)، وما تقدم في «سورة الطور»: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ ...﴾ [الطور: ١٦]، و«سورة الانفطار»: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٨٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٧).

(٤) كما تقدم عند قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾.

* ﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾:

أي: يعطي ماله طلبًا لزكاة نفسه من البخل والشح، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، وطلبًا للإحسان إلى عباد الله، فهو لم يفعل ذلك رياءً ولا سمعة(١).

* ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾:

ما أعطاهم ليرد لهم جميلًا(٢)، وفيه مشروعية رد الجميل؛ لأن الإنسان السَّوي يحفظ الجميل، ومن اللؤم نسيان الجميل، بل من أسباب انقطاع الناس عن فعل الجميل أن يفعل الإنسانُ المعروفَ لشخص، ثم يتنكَّر له، كما قال عنترة(٣):

نُبِّئت عَمرًا غيرَ شَاكرِ نِعْمَتِي ... والكُفْرُ مَخبَثَةٌ لنَفسِ المُنْعِمِ

* فأبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن عطاؤه مجرد رد يُجازي به، بل ابتداء بالفضل والإحسان، وابتغاء وجه ربه الأعلى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾.

* ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾:

وهذا وعد، وانظر قوله عن الرضا: ﴿وَلَسَوۡفَ﴾ فأحال على المستقبل؛ لأن الرضا يكتمل له في الدار الآخرة بما يُعطاه من الثواب في الجنة، وهو الرضا الذي لا يعقبه سخط، وأعظمه حينما يتلقَّى أهل الجنة رضا الله عنهم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة: ٨]؛ ولذا يسأل تعالى أهل الجنة: «**هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أنا أعطيكم أفضلَ من ذلك. قالوا: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا**»(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٨٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٥)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٨٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «ديوان عنترة بن شداد» (ص٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهنا معنًى لطيف: أيهما نزلت **أولًا**: «سورة الليل»، أو «سورة الضُّحى»؟

الأقرب أن «سورة الضُّحى» نزلت أولًا؛ ففي «سورة الضُّحى» أعطى سبحانه النبيَّ ﷺ، ومهَّد له كثيرًا، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾، وأبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الأمة بعد النبي ﷺ، فناسب أن يكون له نصيب من هذا الرضا؛ ولذا قال هنا: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، وناسب أن تكون السورتان متجاورتين؛ فتلك فيها البشارة والرضا للنبي ﷺ، وهذه فيها البشارة والرضا لأبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على أن الآية ليست خاصة بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإن كان هو سبب نزولها، إلَّا أنها لكل مَن عمل بمثل هذه الأعمال الصالحة الفاضلة، والله تعالى أعلم.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

❁ **تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الضُّحى**»، أو: «**سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾**»، كما في «صحيح البخاري»، و«جامع الترمذي»، وكتب السنة والتفسير، ولم يُذكر اختلاف في التسمية[1].

❁ **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية[2].

❁ وهي السورة الحادية عشرة تقريبًا في ترتيب النزول، **فهي مكية** بإجماع المفسرين، كما ذكر القرطبي وابن الجوزي وابن عطية والقاسمي والطاهر ابن عاشور وغيرهم، فقد اتفقوا على مكيتها وتقدُّم نزولها[3].

ولنزولها سبب مروي في «الصحيحين»، وكتب التفسير، وهو أن النبيَّ ﷺ أصابه مرض، فترك القيامَ ليلتين أو ثلاثًا، فقال له بعض المشركين: ما نرى ربك إلا قد قَلَاك، أو جفاك. فحزن لذلك ﷺ، فنزلت[4].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٣)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٣).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٧).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩١)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٠١)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٩٣).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٢٥، ٤٩٥٠)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٥)، و«أسباب النزول» للواحدي (٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٣)، والمصادر السابقة.

وفيها الثناء البالغ على النبي ﷺ، والبُشرى بالوعد الحق له، مما يظهر منزلته عند ربه، وقد أذن الله أن يكون السبب في ذلك أَذيَّة المشركين، لما قالوا له: إن ربك قد جفاك أو قَلَاك.

والله تعالى قد يستخرج للعبد المؤمن الخير والفضل في الدنيا والآخرة بسبب أعدائه وخصومه، ويأذن له من الثناء الحسن والسمعة الطيبة ورِفعة المنزلة، وثقل الميزان في الدار الآخرة، ما لا يحصل عليه إلا بفضله تعالى، ثم بسبب العدو الذي يريد المضرَّة.

وعليه؛ فالسورة نزلت بعد فترة الوحي، أي: فتوره وتأخره، وهذا قال به كثير من المفسرين وأهل السير.

والذي يظهر- والله أعلم- أن الوحي فَتَر في النزول على النبي ﷺ أكثر من مرة، أولها بعد نزول «سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾»، ثم أنزل تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وبضع سور، ثم حصلت فترة ظلت أيامًا معدودة، فحزن لذلك النبي ﷺ، ثم نزلت «سورة الضُّحَى»[1].

فكأن النبي ﷺ لما تهيَّأ لنزول «سورة الضُّحى»، كانت قد تَروَّضت نفسُه، واستعدت لتلقِّي الوحي، وعادة ما يتم الترويض بعد الثلاث، فكان بداية ذلك أن يمهِّد ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه البشارات العظيمة في هذه السورة.

* ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾:

القَسَم يكون بأمور جليلة عظيمة، **والضُّحى** هو: أول النهار[2]، وقد يكون ذلك قَسَمًا بالنهار كله، **والأقرب** أنه بجزء من النهار، وهو بداية حرارة الشمس،

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٥/ ١٤٢)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٤- ٤٨٧)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٥٧- ٤٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٣)، و«الروض الأنف» (٢/ ٢٨١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٧/ ٤٢٩)، وما تقدم في أول «سورة المدثر».

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ٤٧٥)، و«تاج العروس» (٣٨/ ٤٥٥) «ض ح و».

قبل وقت القَيْلولة[١].

يُقسم تعالى ببداية النهار وما فيه من الحياة والإشراق والعمل، كما يُقسم بالليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: غطَّى، فالليل لباس يُغطِّي الكون، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠]، وتقول: هذا رجل مُسجَّى، أي: مُغَطًّى، **والمعنى**: إذا عمَّ الكونَ وغطَّى بظلامه[٢].

ومن معاني ﴿سَجَىٰ﴾: هدأ[٣]، تقول: البحر الساجي، أي: الذي هدأت عواصفه وأمواجه، وهَدْأَة الليل: آخره[٤]، تقول: ائتني هَدْأة الليل؛ أي: إذا سكن الناس، ولم يعد في الطريق ذاهب ولا آيب.

ومن مقاصد هدوء الليل: قلة الناس، وهو الوقت الذي كان يتعبَّد فيه النبيُّ ﷺ.

وقد ترك ﷺ قيام الليل ليلة أو ليلتين، بسبب مرض أصابه[٥].

ومن معاني: ﴿سَجَىٰ﴾: طال[٦]، فيكون قَسَمًا بالليل وطوله، وطوله ظرف لتلذذ العُبَّاد الذين يفرحون بالليل كلما طال؛ ويناجون ربهم ذا الجلال، ويتلذذون بقراءة كتابه.

وأطول ما يكون الليل على المحب وعلى الحزين وعلى الخائف؛ لأنهم لا ينامون بسبب الاشتياق أو الهم أو الحزن، ولا يدرون عمَّ ينجلي، وكثيرًا ما كان

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٥٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٩٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٢)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٣٩)، والمصادر السابقة

(٤) ينظر: «الصحاح» (١/ ٨٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٣٩٩)، و«تاج العروس» (١/ ٥٠٤- ٥٠٥) «هـ د أ».

(٥) تقدم قريبًا.

(٦) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٠)، والمصادر السابقة

الشعراء يشتكون طول الليل، قال أحدهم[1]:

أَرِقْتُ فَباتَ ليلي لا يَزُولُ ... وليلُ أخي المصيبةِ فيهِ طولُ

وقال الآخر[2]:

لكلِّ ما يُؤذِي وإنْ قَلَّ أَلَمْ ... ما أطولَ الليلَ على مَن لم يَنَمْ

وقد تكون إشارة إلى معاناة النبي ﷺ في انتظار الوحي، أو معاناته من الصعوبات التي تعترض دعوته.

وللقَسَم مناسبة لسبب النزول، وارتباطٌ لصيقٌ بالمقسَم عليه، **وفيه الجمع بين معنيين مهمين:**

١- العمل والنشاط، فالضحى أول النهار الذي هو أول وقت النشاط، وفي الحديث: «**اللهمَّ بارك لأمتي في بُكُورها**»[3]. وإذا سجى الليل فذلك وقت العبادة ووقت العلم والسَّهر على ما فيه من خير، ومصلحة وإنجاز، فهذا يكرِّس الإقبال على الجد والعمل.

٢- الهدوء والاستقرار والطمأنينة، فإن بعض الناس قد يغلبه الجد فيتحول إلى أزمة في نفسه، حتى لا يبتسم ولا يضحك ولا يمزح ولا يستريح ولا يهنأ بعيش.

وآخرون على النقيض، حياتهم عبث ولهو ولعب، فنهارهم وليلهم ضائع في

---

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٤/ ١٦٧٥)، و«الروض الأنف» (٧/ ٥٩٨)، و«الحماسة المغربية» (٢/ ٧٨٦)، و«أسد الغابة» (٦/ ١٤١) منسوبًا إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تاريخ الإسلام» (١٥/ ٤٥٩)، و«معاهد التنصيص» (٢/ ٢٨٣) منسوبًا إلى أبي العتاهية من أرجوزة «ذات الأمثال».

(٣) أخرجه الطيالسي (١٣٤٢)، وأحمد (١٥٤٤٣، ١٩٤٣٠)، والدارمي (٢٤٧٩)، وأبو داود (٢٦٠٦)، والترمذي (١٢١٢)، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وابن حبان (٤٧٥٤) من حديث صخر الغامدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورُوي عن غير واحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، وقال أبو حاتم: «لا أعلم في «**اللهمَّ بارك لأمتي في بكورها**» حديث صحيح». لكن قال العقيلي: «ثابت بإسناد جيد». وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢٣٠٠)، و«الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٢٤، ٢٣٦)، (٣/ ٣١٩)، (٤/ ١٠١، ١١٧)، و«العلل المتناهية» (١/ ٣١٣- ٣٢٦)، و«فتح الباري» (٦/ ١١٤).

غير طائل، ولذلك جاء في الحديث: «**لا سَمَرَ بعد الصلاة** - يعني: العشاء - **إلَّا لأحد رجلين: مُصَلٍّ، أو مسافر**»(١).

وعُدَّ من السهر المحمود: مداعبة الرجل أهله، ومحادثة ضيفه، وقد كان النبي ﷺ يسهر مع أهله بعد صلاة العشاء(٢).

ومن معاني القَسَم: ذكر التنوع في خلق الله سبحانه، وما قدَّره من قوة وضعف، وعز وذُل، وغنى وفقر؛ وهو تنوع عظيم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

فلا يدوم إنسان على حال، ودوام الحال من المحال، وما يعانيه يتغير كما يتغير النهار والليل.

وكما امتنَّ الله تعالى على البشرية بالليل وما فيه من الهدوء والسكون للكائنات حتى النباتات، امتنَّ عليهم بالنهار وما فيه من الحركة والنشاط.

وكذلك كان الناس في الجاهلية في ظلام وجهل يشبه الليل المظلم، فامتن الله عليهم بالوحي الذي هو نور وإشراق وبصيرة.

وعند ما تقرأ كلام المفسرين حول آية من القرآن، تشعر أن الوقوف عند آية واحدة يمكن أن يمتد كثيرًا في توليد لطائف جديدة.

* ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾:

هذا المُقْسَم عليه، وهذه الحقيقة التي أراد الله بشارة النبي ﷺ بها، بعدما قال المشركون: إن ربك تركك وقَلَاكَ.

والفرق بين «وَدَّعَ» و«قَلَى»: أن **الوَدْع** هو: الترك والهجر، **والقِلَى** هو:

(١) أخرجه الطيالسي (٣٦٣)، وأحمد (٣٦٠٣)، وأبو يعلى (٥٣٧٨)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥١٩)، والهيثم بن كُليب في «مسنده» (٨٢٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٠٢، ٣٥٨١، ٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣، ٢٠٥٧١)، و«سنن أبي داود» (١٣٩٣)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٤٥)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٥/ ١٣٦، ١٤٦)، و«فتح الباري» لابن رجب (٥/ ١٧٣- ١٧٥)، و«عمدة القاري» (٥/ ٢٩)، و«إرشاد الساري» (١/ ٥٠٤).

البغض[١]، فيكون المعنى: إن الله لم يترك نبيَّه ولم يبغضه[٢].

وفي قراءة: ﴿مَا وَدَعَكَ﴾ بالتخفيف[٣]، والمعنى واحد.

ولم يقل: «وما قلاك»؛ رعاية لفواصل السورة؛ لأنها ألف مقصورة؛ ولأن المقصود نفي القَلَى، وهو البغض، فمن محبة الله لنبيه ﷺ أن ضميره لا يجتمع مع لفظ القَلَى، مبالغة في تأكيد الرد على ما ادَّعاه الكفار من ذلك.

وهذه الآية وإن جاءت بصيغة النفي، إلا أن المقصود منها إثبات الحب والوصل، وبشارة النبي ﷺ بأن الوحيَ مستَمِرٌّ، وأنه رسول الله ونبيه ومصطفاه، وأن الله يحبه ولن يتخلَّى عنه.

* ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾:

أي: إن الدار الآخرة خير لك من الدار الدنيا، وكلاهما لك خير[٤].

وثَمَّ معنًى أعمُّ وأشملُ وأعظمُ، وهو أن الحال الآخرة خير لك من الحال الأولى، وكنتُ ذكرته مرة لبعض الإخوة فاستغربوه، ثم وجدتُ نص العلماء عليه، وممن نص عليه من المتأخرين الشيخ عبد الرحمن السعدي[٥].

وحاصله أن كل حال لك يا محمد فما بعدها خير منها، وهذا يعني ترقِّي

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ١٩٨)، و«تاج العروس» (٢٧/ ٩١)، (٣٩/ ٣٤٢) «ت ر ك»، «ق ل ي».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٢)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٠٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٥).

(٣) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٤١)، و«الكامل في القراءات» (ص٦٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٤)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٤٧٩).

(٤) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٧)،)، و«مختصر في شواذ القرآن» لابن خالويه (ص١٧٥)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (٢/ ٣٦٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٧٨).

(٥) ينظر: «تفسير السعدي» (ص٩٢٨).

النبي ﷺ في مدارج الفضل ومعارج الكمال والعز والرفعة؛ فكل حال آتية فهي أفضل مما قبلها، حتى إن النبي ﷺ ما مات إلا وهو في أكمل أحواله ﷺ تقوى وإيمانًا، وعلمًا وعملًا، وكذلك الوحي الذي أرسل به.

وفيه دعوة للمؤمن إلى الترقِّي في مراقي مرضاة الله، وألَّا يكتفي بما هو عليه، بل كلما وصل إلى درجة، تطلَّع إلى ما هو خير وأفضل منها.

والوحي مر بثلاث مراحل بالنسبة للفتور والتواصل، فالحالة الثالثة- التي نزلت فيها هذه السورة- أكمل وأفضل من الحال التي قبلها، ويكفي ما في هذه السورة من البشائر والوعود مما لم يكن من قبل.

وحال النبي ﷺ في المدينة كانت أكمل من حاله بمكة؛ لما في ذلك من اكتمال الشريعة ونصرة أصحابه، وقوة الدعوة، ومن هذا المعنى أن حاله في الآخرة خير وأفضل من حاله في الدنيا.

وورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال في تفسير هذه الآية: «**عُرِضَ عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمتي بعدي، فسرَّني، فأنزل اللهُ تعالى:** ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ...﴾»(١). فيكون هذا من معاني الآية.

* ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾:

هذه الآية وما قبلها، كلها في سياق واحد متدرِّج: نفى الله ما زعمه المشركون من تركه أو قَلَاه، وهذا متضمِّن الرضى والمحبة من الله للنبي ﷺ.

ثم انتقل إلى بيان أن كل حالٍ له أكمل من التي قبلها، فما ينتقل إليه خير مما انتقل عنه.

ثم جاء الوعد بالعطاء السمح، وهو وعد أُكِّد باللام، وبـ«سوف»، ولم يذكر ماذا يعطيه، فيعم كل عطاء؛ فيعطيه الرسالة، والذكر الطيب، والأصحاب الأفاضل، والعلم الغزير، والمجد والدولة والسلطان، والشفاعة والكَوثر والجنة،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٧٢)، والضياء في «المختارة» (١٢/ ٣٤٥) (٣٨٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٩٠).

والوسيلة التي هي درجة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وهو محمد ﷺ(١)، ويعطيه ما لا يخطر على بال ولا يعلمه أحد ولا يحيط به عقل، ولا يدركه خيال، ولهذا لم يذكر المفعول الثاني لـ«يُعطِي»، ولم يحدِّد العطاء؛ سيعطيك حتى يرضيك(٢)!

إذًا فهو معنيٌّ بإرضائك، وإن كان ﷺ راضٍ بكل حال، كما قال الشاعر(٣):

رَضِيْتُ فِي حُبِّكَ الأيامَ جائرةً فعلقَمُ الدَّهْرِ إن أرضَاك كالعَذْبِ

فهو ﷺ يرضى عن الله وهو محروم من المال، أو من الأصحاب، أو حين ينزل الموت ببعض أحبابه، أو يؤذيه المشركون، فيحتسب ذلك كله في ذات الله، ويقول: «**إِنْ لم يَكُنْ بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي**»(٤).

وهنا جمع الله له بين الأمرين، بأن يمنحه كمال الرضا وكمال العطاء، وجَعْل العطاء منه، والغاية إليه، فهو سبحانه يحدِّد العطاء ويعلم الرضى، ولا يعني أن للعطاء أمدًا يتوقف عنده؛ لأن ما بعده خير منه؛ كما قضت الآية قبلها!

ويلاحظ أن القَسَم كان بـ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، وهما أمران، فجاء السياق في بقية الآيات مشابهًا له، فقال **أولًا**: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ عدم الترك

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (٣٨٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٧- ٤٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٥).

(٣) للشاعر عصام العطار.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣/ ٧٣) (١٨١)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦)، وابن عدي (٧/ ٢٦٩)، وابن منده في «جزء فيه ذكر ترجمة الطبراني» (ص٣٤٦)، وقِوام السُّنَّة في «الحجة في بيان المحجة» (٤٦٢)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٨٣٩، ١٨٤٠)، وفي «السابق واللاحق» (ص٢١١)، وابن عساكر (٤٩/ ١٥٢)، والضياء (٩/ ١٧٩) (١٦١، ١٦٢). وينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٦٨)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٨٤، ٦٦٧)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢٨٥)، و«زاد المعاد» (١/ ٩٦)، (٣/ ٢٨)، و«عدة الصابرين» (ص٥١)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٢٩٠)، و«مجمع الزوائد» (٦/ ٣٥)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٩٣٣).

وذهاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وما لاقاه هناك ثابت في «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

وعدم البغض.

ثم قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ وهما أيضًا اثنتان: الآخرة والأولى، وكلاهما للنبي ﷺ خير، لكن إحداهما خير من الأخرى.

ثم قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهما اثنتان: العطاء والرضا، وهذا العطاء له ﷺ ولأصحابه ولأمته في الدنيا وفي الآخرة.

* ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾:

انتقل إلى التذكير بالماضي على سبيل البرهنة على تحقُّق الوعد الآتي كما تحقَّق في الماضي؛ فقد مات أبوه ﷺ وهو حَمْل، وكان له إذ ذاك ستة أشهر في بطن أمه، ثم ماتت أمه في صغره، ثم كفَلَهُ جده، ثم مات جده، فكفَلَهُ عمُّه أبو طالب، فهذا من الإيواء، وهو أن يُقيِّض الله تعالى له مَن يعتني به في طفولته.

ومثل ذلك في الرضاعة، لما كانت المراضع يأتين إلى بيوت قريش ويأخذن أولاد الأكابر والأثرياء؛ طمعًا فيما عندهم، وكان ﷺ يتيمًا لا مال له، فتحتسب حَلِيمة السَّعْدية، وتختاره لترضعه، وهذا من إيواء الله عَزَّوَجَلَّ له[(١)].

ومعنى ﴿يَجِدْكَ﴾: يَعْلمك، ومعنى «آواك»: جعل لك مَن تأوي إليه[(٢)].

ثم يقيِّض تعالى للنبي ﷺ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبل الرسالة وفي أول الرسالة، ثم يقيِّض له أتباعه الذين يؤمنون به، ثم يقيِّض له أهل المدينة يؤمنون به وينصرونه، فهذا كله من الإيواء، ولهذا لما قال النبيُّ ﷺ لأهل المدينة: «**ألم أجدْكُم ضُلَّالًا، فهداكم اللهُ بي؟**». عاد فقال: «**أَلَا تقولونَ: أتيتنا طَرِيدًا فآويناك؟**»[(٣)]. فهذا من الإيواء.

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ١٦٠- ١٦٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٣١- ١٣٦)، و«الروض الأنف» (٢/ ١٠١- ١٠٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (١١٥٤٧، ١٣٦٥٥) من حديث أنس وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وبنحوه عند البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يـا يتيمًـا واليُتْـمُ دَمْـعٌ وضَعْـفٌ   كيـف ذَلَّـتْ لِيُتْمِـكَ الأقويـاءُ؟!

فانظر اليتيم الذي عنده من الجَلَد والصبر والقوة والمقاومة، وكمال العلم والعمل، وكمال الشخصية، وكمال العقل والفصاحة، ثم يختاره ربه سبحانه ويصطفيه بالرسالة، فهو ﷺ فخر للأيتام كلهم، كما أنه فخر للعرب أن يكون منهم، وفخر للإنسانية أن يختار الله واحدًا منها للنبوة وينزل عليه الوحي.

* ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾:

هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الذي جاء التعبير فيه بهذا اللفظ عما كان عليه النبي ﷺ، **ولذلك اختلف المفسرون كثيرًا في تفسير هذا الحرف على نحو من ستة أقوال:**

فقال جمهور المفسرين: وجدك ضالًّا عن الوحي وعن الشريعة والإيمان(١)، ومثل قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فليس الضلال هنا اتباع الباطل؛ لأن النبي ﷺ قبل البعثة- وإن لم يكن عنده معرفة بالوحي ولا بالشريعة ولا بالإيمان- كان يتمسك بالفطرة السليمة وما تمنع عنه من الضلالات، فكان يتعبد ويتحنث على الملة الحنيفية، ولم يقع في الشرك الذي وقع فيه من حوله.

ويشبه هذا ما جاء في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال إخوتُه لأبيهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، فهم لا يقصدون الضلال في الدين، وأبوهم كان نبيًّا، وإنما مقصودهم أنك لا زلت في غفلتك القديمة، فهكذا كان النبي ﷺ في غفلة عن الإيمان والكتاب.

حتى في «سورة يوسف» أخبر الله نبيه محمدًا ﷺ أنه كان قبل وحي القرآن من الغافلين، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨١)، والمصادر الآتية.

﴿... كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾!!

فالضلال هنا: الغفلة[1]، والسياق يدل على أن الضلال لم يكن سوى عدم معرفة الطريق إلى إنقاذ الناس ودعوتهم وهدايتهم، ثم هداه الله تعالى إلى ذلك.

وقيل: معناها: ناسيًا[2]، وهو مستعمل في القرآن الكريم، كما في آية الدَّيْن: ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، **وتضل** هنا معناها: تنسى.

وقال بعضهم: تائهًا، وفسروها بالمعنى الحسِّي، وهو أنه لما سافر في تجارة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ضاع في الطريق، وقالوا: إن الشيطان نفخه حتى وقع بعيدًا[3].

وهذه من الروايات التي ينبغي تنزيه كتاب الله عنها، فالشيطان أضعف وأذل من أن يفعل هذا برسول الله ﷺ حتى قبل البعثة، وإنما تسلَّط الشيطان على بني آدم بالوسوسة والكيد وما أشبه ذلك.

وقال بعضهم: إنه ضاع قريبًا من مكة[4]، حتى قلق عليه عمُّه، فكان يمسك بباب الكعبة ويدعو ربه ويقول[5]:

رُدَّ إلـيَّ صَـاحِـبي محمَّدَا ... رُدَّهْ إِلـيَّ واصطنِعْ عِنْدِي يَدَا

حتى جاء به أبو لهب أو أبو جهل على بعيره، وهذا محتمل.

وقال بعضهم: إن المقصود ضلال الناس من حوله، يعني وجدك في قوم

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٠٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٦)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٤)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٩٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٥٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٧)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٦).

(٤) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٦)، و«فهم القرآن» لعابد الجابري.

(٥) ينظر: «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٥٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٦)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٥١)، (٢/ ٢٠)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٥١).

ضالين في مكة، فهداك وهداهم بك(١).

وأول الأقوال أولاها، والله أعلم.

* ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾:

والعائل: الفقير، وقد يكون ذا العيال الكُثُر، والمقصود هنا الأول(٢).

وقد كان النبي ﷺ فقيرًا، فأغناه الله تعالى بمال خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما ذهب مع غلامها ميسرة، وتاجر في الشام وربح(٣)، وكذلك كان ﷺ عائلًا فأغناه الله تعالى بالأموال الطائلة التي سيقت له بالفتح وغيره، ومع ذلك؛ فإنه ﷺ ما اعتبر هذا المال له، وإنما كان ينفقه في سبيل الله ويتصدق به، ولم يكن يدخر منه شيئًا لنفسه، حتى إنه مات ﷺ ولم يورث دينارًا ولا درهمًا.

وهذا دأب الأنبياء والصالحين، فالواحد منهم ولو تيسرت له الدنيا فإنها تكون في يده ولا تكون في قلبه، وإنما يستعملها كما يستعمل الفِراش الذي يجلس عليه والدابة التي يركبها، فيستخدمها ولا يخدمها، ولا يكون عبدًا للدرهم والدينار.

وغناه ﷺ غنى لأصحابه، فإنهم كانوا عالة فأغناهم الله به ﷺ كما قال ذلك للأنصار(٤)، وكذلك المهاجرون كانوا فقراء بعدما أُخِذت بيوتهم في مكة، فلما هاجروا إلى المدينة فتح الله تعالى عليهم خزائن الأرض.

بل غِناه ﷺ غِنًى لأمته، كما في «الصحيح» أن النبيَّ ﷺ قال: «**بينا أنا نائمٌ، أُتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض، فوُضعت في يديَّ**». قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقد

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٩)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٩٢)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٨٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٢٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٥٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٥٩).

(٣) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص٨١)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ١٨٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٦٦)، و«الروض الأنف» (٢/ ١٥١).

(٤) تقدم قريبًا.

ذهب رسولُ الله، وأنتم تنتثِلونها[١].

فإنه، وإن كان الله تعالى يخاطب بها النبي ﷺ، إلا أن الخطاب يعم أمته من بعده، ولو تأملنا ما سبق لوجدنا العطاء للنبي ﷺ عطاء لأمته، والنبي ﷺ لما دعا كان يقول: «**ربِّي، أُمَّتي أُمَّتي**». فكان ربه سبحانه يقول: «**إِنَّا سنُرْضيك في أُمَّتك، ولا نسُوؤُكَ**»[٢]. فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، ورضي وأنعم.

وعند ما يقول: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾؛ تجد هذا منطبقًا على الأمة التي كانت أمية جاهلة، ليس لها تاريخ ولا حضارة.

ولو تأملت معنى اليتم، لوجدت أن اليتيم هو مَن انقطع تسلسلُه مع مَن قبله، فلم يجد مَن يرعاه، وهكذا كانت الأُمة يتيمة، وإنما كانت الحضارة عند اليونان والرومان والهنود والصينيين وغيرهم، وكانت حضارات عريقة وراسخة، ومع ذلك أَبَى الله إلا أن يختار هذه الأمة اليتيمة فيؤويها ويصطفيها كما آوى واصطفى نبيها محمدًا ﷺ.

وهي أُمة أُمِّيَّة، لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها علم، حتى أنزل الله عليها الحكمة والكتاب، فأصبحت أُمة العلم، وصار رجالها سادة الأمم وقادتها حُقبًا طويلة.

تتكلم مصنفات كثيرة عربية وغربية عن أثر الأُمة ومجدها في قيادة البشرية كلها، حتى في علوم الدنيا، فضلًا عن علوم الهُدى والإيمان والسلوك والآخرة.

وهذا، وإن كان حسنًا، إلا أنه من غير المستساغ أن نعيش في تخلفنا ونكتفي بالحديث عن الماضي ومضغ الذكريات الجميلة!

والعرب كانوا فقراء لا يجدون غير المرعى والمطر يرقبونهما ليعيشوا عليهما، يقتل بعضهم بعضًا على المرعى، وتاريخهم معروف في ذلك، فلم يكن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

وتنتثلونها: تخرجون ما فيها وتتمتعون به.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عندهم إلا واحات صغيرة في جزيرة العرب، ورحلة الشتاء والصيف.

وها هي الثروات الهائلة، وأهمها النفط؛ الذي يوجد أكثر مخزونه في بلاد المسلمين، والثروات الأخرى الهائلة التي منحها الله تعالى هذه الأمة وأغناهم بها من عيلة!

وهذا من إعجاز القرآن وديمومة اتساع معانيه ودلالاته.

وليس المقصود غنى المال فقط، بل يتناول غنى النفس، كما قال النبيُّ ﷺ: «**ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكنَّ الغِنى غِنى النفس**»[1]. وقد أعطاه الله تعالى الغنى في نفسه والقناعة باليسير.

فضلًا عما أعطاه من العلم والنبوة والحكمة والبصيرة والخلق الجميل.

* ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾:

﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾: وهذا يتناسب مع قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، وهذه الفاء الفصيحة، و«أما» للتفصيل والتقسيم، **لكن المعنى**: مهما يكن من أمر، فلا تقهر اليتيم، وما بعده متناسب مع ما قبله، ويُسمِّيه علماء البلاغة: «اللَّف والنشر المرتَّب»[2].

ومن الخطاب الجاري في اللغة أن يقال: «لا تقهر اليتيم». ولكن السياق أبلغ؛ فإنه قدَّم لفظ «اليتيم»؛ إشارة إلى الحفاوة والعناية؛ لأن تقديم المعمول يشعر بالتنبيه والاهتمام، كما لو قال: أما البيت، فلا تدخله مطلقًا، وأما المال؛ فلا تأخذ منه شيئًا، وأما الأولاد، فلا تعتدِ عليهم؛ فإن المخاطب يشعر أنها نقاط محدَّدة، وقد استجمع كل ذهنه للاستماع والإنصات.

وفيه التأكيد الرباني على حفظ حقوق الناس؛ لأن اليتيم لا يجد مَن يأخذ حقه ويدافع عنه، وكذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾، فإنه وصية

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «مفتاح العلوم» للسكاكي (ص٤٢٥)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (٧/ ١٢٩)، و«الإيضاح في علوم البلاغة» (٢/ ١٨٥).

خاصة بالضعفاء، كما وصَّى رسول الله ﷺ بحق المرأة وبحق اليتيم(١).

إن مدار الشريعة على حفظ الحقوق، وجماع ذلك: حديث النبي ﷺ: «**إنما بُعثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»(٢).

وكثيرون يظنون أن الدين لم يأت بالحقوق ولم يحافظ عليها، بسبب نقص العلم وسوء التطبيق عند المسلمين، ويتمثل ذلك في الإطاحة بالحقوق بين الأزواج، فمعظم البيوت قائمة على مشكلات وبلايا، حتى الأولاد والآباء.

وفي بعض المجتمعات تعميق الصراع بين الآباء والأولاد، والأزواج والزوجات، والأبناء والبنات، وبين طبقات المجتمع والقبائل والبلدان، وهكذا... في حين أن الأمم الغربية قامت حضارتها اليوم على حفظ الحقوق، ولذلك حصل لهم العز والنصر والتمكين في الدنيا.

ولا يكاد يوجد في مجتمعات المسلمين مدونات واضحة ضابطة لحفظ الحقوق، وإن وُجدت فهي غالبًا حبر على ورق!

والقهر يكون بالقول، كالسَّبِّ والشَّتم، ويكون بالفعل، كأخذ المال، ويكون بالإشارة، مثل الازدراء أو التحقير أو الإعراض أو الإهمال.

﴿**وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠**﴾: وهذا يتناسب مع قوله: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧**﴾، ووجه التناسب أن السائل هنا هو طالب العلم الذي يسأل عن دينه ويريد الجواب، وهذا قول سفيان بن عُيينة وجمع من السلف، واختاره طائفة من المفسرين، وهو قوي(٣).

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**اللهمَّ إني أُحرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيم، والمرأة**»: أخرجه أحمد (٩٦٦٦)، وابن ماجه (٣٦٧٨)، والنسائي في «الكبرى» (٩١٠٤، ٩١٠٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠١٥).

(٢) وفي رواية: «**صالحَ الأخلاق**»، وتقدم تخريجه في «سورة القلم»: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٣٠)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٥٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٦)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٧)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٣٢٨)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٣٠٧).

وقد كان النبي ﷺ يأتيه الناس يسألونه عما لا يُسأل عن مثله الأنبياءُ عادة، فكان ﷺ يجيب بصبر وحلم، وهذا مما أدَّب الله به نبيه ﷺ، حتى لما قال له رجلٌ: يا رسولَ الله، مَن أبي؟ قال: «أبوكَ فلانٌ». ولم يمتنع عن الجواب، وربما سأله رجل عن ناقته إذا ضلَّت[1]، فكان النبي ﷺ في غاية التواضع للناس.

وفي هذا تربية لأصحاب الخطاب الدعوي وحملة العلم والهدى من بعده، أن يكون عندهم من الصبر على الناس وتحمل حماقاتهم وإزعاجهم وعجلتهم وطيشهم، ما لا ينفرهم عنهم.

وكذلك في الخطاب العام: كخطبة الجمعة، وسائر المواعظ، أن لا يكون الدعاة أشداء، بل رحماء.

وإذا خُوطب وأُدِّب بهذا محمد ﷺ، فنحن أولى؛ لأن الناس ينقادون له بالنبوة، أما غيره فلا ينقاد لهم الناس كذلك، وقد يكون لدى الآخرين من العلم أو الخير أو الأخلاق مثلما عند الدعاة أو أقل أو أكثر، أو هكذا يظنون، فلذلك ينبغي الحرص على رعاية هذا الجانب.

ومن معاني ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾: الفقير الذي يطلب المال، وقد امتثل النبيُّ ﷺ فأعطى رجلًا غنمًا بين جبلين، وأعطى آخر مائة من الإبل، ولم يُسأل شيئًا قط فقال: لا[2].

فكان ﷺ أكرم الناس وأجودهم.

* ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾: وهذا متناسب مع قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾، أي: أعطاك فرضيت، فتحدث بنعمة الله تعالى عليك!

ونِعَمُ الله تعالى على الناس لا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وإنك لو أردت أن تحصي الخلايا الموجودة في جسمك، لما استطعت؛ لأنها تفوق العدَّ والحصر، ولو انفجرت خلية منها لسبَّب لك الأمراض المستعصية، فعندك بقدر هذه الخلايا من النعمة

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٦٢٢، ٧٢٩٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣١٥٠، ٦٠٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٦٢، ٢٣١١، ٢٣١٢).

بسلامتك من هذا المرض!

ولو ذهبنا نعدِّد الأمراض التي سلِمت منها لم نحصِها، ولانقضى العمر قبل إحصائها، فكيف لو أردتَ أن تَعُدَّ جميع النعم في البدن؟! فكيف إذا ذهبتَ تعدِّد النعم المعنوية من الإسلام والعقل والفهم والوالدين والمال والولد والزوجة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨]؟! وهنا قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾؛ أي: لا تعدها، ولكن تحدَّث بالنعمة.

فكيف بالنعم في البيئة والكون والطبيعة، والنعم على الناس كلهم سابقهم ولاحقهم؟

وقد يكون من مقاصد النعمة هنا: النبوة، كما قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢]، أي: فادع الناس إلى ربك وإلى الإيمان، وحدِّثهم أن الله تعالى أوحى إليك هذا القرآن، وتحدَّث بما أنعم الله تعالى به عليك.

وهنا مسألة: هل يناسب أن يتكلم الإنسان عن أعماله الصالحة من باب التحدُّث بالنعمة؟

الجواب: لا يناسب في الأغلب؛ لأن إخفاء العمل خير من إظهاره.

لكن جاءت نقولات خاصة عن بعض السلف، كعمرو بن ميمون وغيره، أنه قد يتحدَّث لبطانته ولمَن يحب، إذا كان في ذلك تحفيز على العمل، وأمن من العُجب والرِّياء[(١)].

وكثير من النعم ليست خفية، وإنما إظهارها من باب الاعتراف بها، وشكرِ الله تعالى عليها، وحث النفس على إدراكها، وحسن توظيفها، والله أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «قوت القلوب» (٢/ ١٧٨)، و«إحياء علوم الدين» (١/ ٢٢٧، ٢٢٩)، (٣/ ٣١٨)، و«مقاصد الرعاية» (ص٩٧).

سُورَةُ الشَّرْحِ

❊ تسمية السورة:

غالب كتب التفسير والحديث على تسميتها: «**سورة** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾».

والبعض يختصر: «**سورة** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾»، أو: «**سورة** ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾»[١].

ومن أسمائها: «**سورة الشرح**»، وهو المصدر[٢].

وبعضهم يسميها: «**سورة الانشراح**»[٣].

❊ **عدد آياتها:** ثمان آيات[٤].

❊ **وهي مكية** باتفاق، قاله كثير من المفسرين[٥].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٣٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٣) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٩٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٣)، و«التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٢٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥).

(٥) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٦٠٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٠٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٥٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٧).

وخالف في ذلك بعضهم، كالقاسمي الذي رجَّح أنها مدنية[1].

وقد يحتج بدلالة السورة ومعناها ومضمونها، وهو خلاف قول الجمهور، ومن السلف، كعمر بن عبد العزيز، وبعض الصحابة مَن يَعُدُّ «سورة الشرح»، و«سورة الضُّحى» كالسورة الواحدة، وبعضهم لا يفصل بينهما بالبسملة، ويقرؤهما في الركعة؛ لأن مضمون السورتين متقارب[2].

وربما تكون هذه السورة في ترتيب النـزول الثانية عشرة، ونزلت بعد «سورة الضُّحى»[3].

* ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾:

بدأ تعالى السورة بصيغة السؤال، الذي قصد به الإثبات لا النفي.

والمعنى: قد شرحنا لك صدرك. وجواب السؤال معلوم، ولذا عطف عليه الإثبات بقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾.

يمتن سبحانه على النبي ﷺ بحالة الرضا والسكينة والطُّمأنينة والإيمان التي يجدها في قلبه، فيهون بها كل شيء، وهي من أعظم الأسباب المحققة لنجاح الدعوة، ولذلك لما أنزل الله الوحي على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمره بالبلاغ، كان أول ما دعا به: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥- ٢٦]؛ لأن الداعية يواجه من العنت والأذى الشيء الكثير.

والأنبياء والصالحون هم أطيب الناس عيشًا، وأرضاهم نفسًا، وأكملهم سعادةً؛ لما جعل الله في قلوبهم من الانشراح، بخلاف مَن يعانون فراغًا روحيًّا، وخَوَاءً قلبيًّا لا يقاوم مصاعبَ الحياة ولأْواءها.

---

(١) ينظر: «تفسير القاسمي» (٩/ ٤٩٤)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (٨/ ٣٧٢)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٦٩)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٣٩٩)، و«تفسير النيسابوري» (٧/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٦٥).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص١٣٥)، و«تفسير الخازن» (١/ ١٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥).

وقد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير «الشرح»:

فنُقِلَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «شرح الله صدره للإسلام»(١).

ويشهد له قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

فنزول الوحي على النبي ﷺ هو من شرح الصدر، إضافة إلى ما جعل تعالى في قلبه من الفرح بفضل الله؛ ولهذا قال الحسن: «إن قلب النبي ﷺ مُلِئَ حكمة وإيمانًا»(٢).

ويجوز أن يكون المقصود به ما حدث للنبي ﷺ أكثر من مرة، لما جاء المَلَكَ واستخرج قلبه، ثم غَسَلَه وملأه حِكمةً وعلمًا، ثم ردَّهُ، فقد ثبت أنه حدث للنبي ﷺ في طفولته، وفي يوم المِعراج(٣).

وبهذا نقول: إن العلم من أكثر ما يشرح صدر الإنسان؛ فالإنسان لا ينشرح صدره بكثرة المال، فترقُّب زواله يقلقه.

ولا بكثرة الولد؛ فالخوف عليهم من الموت ومن المصائب يزعجه.

فيبكي إِنْ نَأَوْا خوفًا عليهمْ ... ويبكي إِنْ دَنَوْا خوفَ الفِراقِ(٤)

ولا بالسلطان؛ لأنه يخشى من ذهاب السلطان، لكن العلم سرور وقُرَّةُ عين وسعادةٌ وأُنسٌ، وليس القصد المعلومات التي يتكثَّر بها الإنسان، أو يتصدر بها المجالس، بل العلم النافع الذي يظهر أثرُه على صاحبه بالسرور، وقُرَّةِ العين، كما يظهر في حسن القول، وصدق العمل، والخُلق الفاضل والإحسان.

---

(١) ذكره البخاري (٦/ ١٧٢) تعليقًا، وأخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم- كما في «الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥)- وابن مردويه- كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٢).

(٢) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٤٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٤٩٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٢).

(٤) ينظر: «أمالي الزجاجي» (ص٤٤)، و«ديوان المعاني» (١/ ٢٦٦)، و«اللطائف والظرائف» (ص٢٣٨).

وقال سهل بن عبد الله التُّستَرِي: «شرح الله صدره بنور الرسالة»(١).

ونقل ابن عطية عن الجمهور أن الله تعالى شرح صدر رسول الله ﷺ بالمعرفة، وشرح صدره بالطاعة، وشرح صدره بفعل المعروف والمبادرة إليه(٢).

وبعضهم قد يفسرون ذلك بالأثر الناتج عن انشراح الصدر، وهو أن يكون النبي ﷺ طيِّب الخاطر في كل الأحوال، يمرَض وهو كذلك، يغتني أو يفتقر، ينتصر أو يهزَم، يقيم أو يظْعَن وهو طيب النفس، مثلما قال المتنبي(٣):

وحالاتُ الزَّمانِ عَلَيكَ شَتَّى ... وحالُكَ واحِدٌ في كُلِّ حَالِ

وفي إضافة كلمة ﴿لَكَ﴾ في الآية مزيد بيان، أي: شرحناه من أجل إسعادك وإرضائك.

ولم يقل: نشرح لك «قلبك»، وإنما قال: ﴿صَدْرَكَ﴾؛ رعاية للفواصل، فكلها بالراء والكاف.

وله مقصد آخر، وهو أن شرح الصدر أبلغ من شرح القلب؛ لأن الصدر هو البحر الذي يسبح فيه القلب؛ فإذا انشرح الصدر كان القلب منشرحًا من باب أولى.

وانشراح صدر النبي ﷺ له صور عديدة، منها:

١- **الصبر على المخالفين**، فهذا من انشراح الصدر؛ لأن ضيِّقَ العَطَنِ لا يطيق أحدًا يخالفه، ولا يرد عليه، في حين أن النبي ﷺ كان منشرح الصدر حتى مع المخالفين، مع أنه كان على بينة من ربه، ويعلم أنه على الحق.

ومن ذلك أنهم تآمروا على قتله في مكة(٤)، وأُوذي حتى وضعوا سَلَى الجَزور بين كتفيه وهو يصلِّي(٥)، وشجَّوه حتى أَدْمَوه، وهو يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لقومي؛**

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٠٨).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٦٧).

(٣) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٢٦٦)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٣/ ٢٠).

(٤) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٦٧٤٣)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٢- ٤٨٣)، و«طبقات ابن سعد» (١/ ١٩٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٦٥- ٤٧٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإنهم لا يعلمون»[١].

٢- صبره على الأتباع الذين قد لا يوافقونه في كل حال على ما يحب، مثلما حصل من الأنصار في حُنَين عند ما وجدوا أن رسولَ الله ﷺ أعطى قومه عطاءً ولم يُعطهم، فقال بعضهم: لقد لقي رسولُ الله قومه! فجمعهم وقال: «**ما قالةٌ بلغتني عنكم...؟**» الحديث[٢].

وهكذا في الحُدَيْبِيَة، لمَّا عقد النبي ﷺ الصلح، ولم يكن يريد بذلك مصلحة لنفسه، ولا يريد دنيا، ومع ذلك تألَّم أصحابُه وخالفوا أمره، ولم يسارعوا إلى طاعته بالتحلُّل بالحلق أو التقصير حتى فعل ذلك أمامهم، حتى قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتيتُ النبي ﷺ، فقلتُ: ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟ قال: «**بلى**». قلتُ: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطِلِ؟ قال: «**بلَى**». قلتُ: فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا إذًا؟ قال: «**إني رسولُ الله، ولستُ أعصيه وهو ناصري**». قلتُ: أو ليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنا سنأتي البيتَ فنطوفُ بِهِ؟ قال: «**بلى، فأخبرتُكَ أنا نأتيه العامَ؟**». قلتُ: لا. قال: «**فإنك آتيه ومطَّوِّفٌ به**». قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلتُ: يا أبا بكر، أليس هذا نبيُّ الله حقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألسنَا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: بلى. قلتُ: فلِم نُعطِي الدَّنِيَّةَ في ديننا إذًا؟ قال: أيُّها الرجل، إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصِي ربَّه وهو ناصِرُه، فاستمسِك بغرزه، فوالله إنه على الحق[٣]. أي: الزم طريقه وتمسك بجادته، ولا تخرج ذات اليمين ولا ذات الشمال؛ فإنه رسول الله ﷺ.

٣- صبره على المنافقين الذين يُحسبون ظاهرًا على المسلمين، وكان يقع منهم على الرسول ﷺ كثير من الأذى والمضايقة، كما كان يفعل عبدُ الله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلُولَ وغيره ممن كانوا يتآمرون على النبي ﷺ.

ومن أشد ذلك: إشاعتهم لحادثة الإفك المعروفة، التي فيها طعنٌ في عرض

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة المعارج»: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾.

(٢) أخرجه أحمد (١١٧٣٠) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨٢، ٤٨٤٤)، ومسلم (١٧٧٥) من حديث سهل بن حُنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المِسوَر بن مَخْرَمة ومروان بن الحكم.

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حتى نزلت براءتُها من السماء، وكان النبي صابرًا في تلك الفترة محتسبًا[١].

٤- **ثقة النبي ﷺ بالمستقبل**؛ فقد أنزل الله تعالى هذه السورة بمكة، وكانت عاشر سورة ولم يكن الإسلام قد انتشر آنذاك، وكان ﷺ يتأذى لصُدودِ قومه عنه. وما ارتفع له ذكر في الدنيا عند الناس، فأتباعه قليل، وهو في مكة محاصر لم تظهر بوادر النصر، لكن كان عنده ثقة كبيرة بنصر هذا الدين.

ولهذا روى البخاريُّ حديث خَبَّاب بن الأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقول المستضعفين: يا رسولَ الله، أَلَا تدعو لنا، أَلَا تستنصر لنا؟! فيقول رسولُ الله ﷺ: «**وَالله، لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ، حتى يمشيَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ، لا يخافُ إِلَّا اللهَ، والذئبَ على غنمه**»[٢]. يقول هذا وهو متوسِّد بردة بجانب الكعبة، لا يملك إِلَّا أتباعًا يُعذَّبون!

لقد كان يتعامل بهدوء واتِّزان وثقة بالله؛ لأن الصراخ والانفعال والغضب والتأثر بالحوادث لا يصنع شيئًا، سوى تدمير صاحبه من الداخل.

وهذا تعبير عن الهدوء والسكينة النفسية، التي ينبغي أن يتحلَّى بها العالم والداعية، بل والإنسان الناجح أيًّا كان في كل الظروف.

ولذا لما هاجر ﷺ ولحق به سُراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال له: «**كيف بك يا سُرَاقَةُ إذا لَبِسْتَ سِوارَيْ كِسْرَى؟**». فقال سُراقة: كِسْرَى بنُ هُرْمُزَ؟! قال: «**كِسْرَى ابنُ هُرْمُزَ**»[٣]. وهذا الرجل كان كافرًا، ومع ذلك يخبره أنه سوف يلبس سِواري كِسْرى بن هُرْمُزَ، وهو أعرابي من بني مُدْلِج! وقد تحقَّق ذلك.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٧٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٧٧٠).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

(٣) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٣٦٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٦١٠)، و«مسند أحمد» (٣)، و«صحيح البخاري» (٣٦٥٢)، و«صحيح ابن حبان» (٦٢٨١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٤٨٤)، (٦/ ٣٢٥)، و«الاستيعاب» (١/ ١٧٤)، و«أسد الغابة» (١/ ٤٢٢)، و«الكامل» لابن الأثير (١/ ٢٧٧)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٨٧- ١٨٨)، (٦/ ١٩٤)، و«الإصابة» (٣/ ٤١).

وعند ما تجمَّع الأحزاب حول المدينة، والنبي ﷺ يحفر الخندق مع أصحابه، فضرب صخرةً فلمِعَتْ، فقال النبيُّ ﷺ: «**رُفعت لي مدائنُ كِسْرَى، ومدائنُ قَيْصَرَ**»(١). ففي وقت الضعف والخوف والقلق، وتسلُّطِ الأعداء، ووقوع الحصار يبشرهم.

وكان المنافقون يقولون: محمَّد يعِدُنا بكنوز كِسْرى وقَيْصر، والواحد منا لا يستطيع أن يذهب لقضاء حاجته!(٢).

وهكذا لما قال النبيُّ ﷺ لعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**هل رأيتَ الحِيرَةَ؟**». قال: لم أرَها، وقد أُنبِئْتُ عنها. فقال النبيُّ ﷺ: «**فإن طالت بك الحياةُ؛ لترينَّ الظَّعينةَ ترتحلُ من الحِيرَةِ حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ أحدًا إِلَّا الله**»(٣).

فكانوا يستغربون ويستكثرون ذلك؛ لما يعلمونه من خطورة الطريق من الحِيرَة إلى مكة، ومع أنها من الغيب، إلا أنهم آمنوا بها؛ لأن النبي ﷺ أخبر بها، فوقعت وشهد عديٌّ بعضَها.

٥- مداومته ﷺ على العمل والدعوة والطاعة، دون يأس أو ملل، وكان بمكة، ثم ذهب إلى الطائف، ثم إلى المدينة، وفي قلبه من السرور وقرة العين ما يجعله يتغلَّب على الصعاب.

وأكثرُ الناس تقعد بهم الصعوبات، وقد يبدأ الفرد منهم متحمِّسًا لمشروعه العلمي أو الإعلامي أو التجاري أو التعليمي أو الوظيفي، فإذا واجه العقبات بدأ يتذمَّرُ ودبَّ إليه اليأس، وملَّ وترك ما هو فيه من خير، ولو صبر ليَسَّرَ الله له ما تعسَّر.

٦- عدم استعجال النبي ﷺ للنتائج وقطف الثمار، على طريقة حرق المراحل.

---

(١) ينظر: «سنن النسائي» (٦/ ٤٣)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٣١).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٢٢)، (٢/ ٢٢٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٧٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣٠)، و«سنن البيهقي» (٩/ ٣١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٠٢، ٤٣٥)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٢٨٩)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١١)، (٦/ ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٩٥) من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وما أكثر الذين يستعجلون؛ لأنهم ليسوا أهلًا لتحمل النجاح.

٧- **التزامه ﷺ بالخلق الكريم والتسامح،** فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ، فجذبهُ جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرت به حاشيةُ الرِّداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفتَ إليه رسولُ الله ﷺ فضحك، ثم أمرَ له بعطاء(١). وكان هذا من حسن خلقه ﷺ.

وكذلك موقفه من أهل مكة يوم الفتح بعدما حصل منهم ما حصل، ومع ذلك قال: «**ما ترونَ أني صانعٌ بكم؟**». قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ**»(٢). ثم إنه لم يسترجِع منهم أموال المهاجرين ودُورَهم، ولا انتقم منهم.

وكذلك غَوْرث بن الحارث الذي رفع السيفَ عليه وهو نائم تحت شجرة وقال: مَن يمنعك مني؟ قال ﷺ: «**اللهُ**». فسقط السيفُ من يده، فأخذه رسولُ الله ﷺ فقال: «**من يمنعكَ مني؟**». قال: كُن كخيرِ آخِذٍ. قال ﷺ: «**أتشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي رسولُ الله؟**». قال: لا، ولكن أعاهدك على أن لا أقاتِلَكَ، ولا أكونَ مع قومٍ يُقَاتِلُونَكَ. فخلَّى سبيله ﷺ(٣).

٨- **الهدوء في معايشة الحياة مع أطفاله وأهل بيته،** ومن ذلك أنه سابق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانوا في غزوٍ(٤)، على سبيل المتعة والمؤانسة وأداء الحقوق، وهذا يزيد

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٩، ٥٨٠٩)، ومسلم (١٢٨).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٤١١)، و«أخبار مكة» للأزرقي (٢/ ١٢٢- ١٢٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (١/ ٢١٤)، و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٨)، و«مسند أبي يعلى» (٦٦٤٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٦١)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٣٢٥)، و«سنن البيهقي» (٩/ ١١٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧- ٣٠٩)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٦٧- ٥٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٤٩٢٩)، وابن حبان (٢٨٨٣)، والحاكم (٣/ ٣١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصل القصة في «صحيح البخاري» (٢٩١٠، ٤١٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٤٣).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٥٦٥)، والحميدي (٢٦١)، وأحمد (٢٦٢٧٧)، وأبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)، وابن حبان (٤٦٩١) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وينظر: «إرواء الغليل» (١٥٠٢).

من القدرة على التعليم، ويضمن استمرار العمل والعلاقة.

٩- عدم استغراقه ﷺ في اللحظة الحاضرة؛ فإن تيَّار الحياة متدفِّق، والتاريخ لا ينتهي ولا يتوقف حتى يأذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخراب هذا الكون.

فالإيمان يعطي قدرًا من التفاؤل بالمستقبل، وتأتي الأمور على أفضل مما تظن.

* ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾:

أكثر المفسرين على أنه وُضع عنه ذنوبه ﷺ، وغُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر(١).

والذي يظهر عدم حصر الآية في هذا المعنى، **وأن الأقرب** حمل الوِزر على المعنى اللُّغوي، **والوِزر في اللغة** هو: الحِمْل الذي يثقل الإنسان(٢)، ومن ذلك الحرج، ومنه الشيء الثقيل، **فوضع الوزر عن النبي ﷺ يشمل:**

- **وضع الآصار والأغلال عن هذه الأمة**، وإنزال الشريعة التي فيها اليسر والسماحة، ورفع الحرج والمشقة، فهذه الشريعة هي شريعة اليسر: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨].. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

ولا شك أن ما وُضع عن الأمة، فقد وُضع عنه ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، **فيَعِزُّ عليه ﷺ ما يُعَنِّتُ أمته ويحرجها.**

- **وضع ما كان عليه أهل الجاهلية**، مما كانوا يعملونه؛ كتغييرهم دين إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فعلَّمه الله تعالى ما لم يكن يعلم.**

- **إزالة الحزن والكرب الذي كان يتغشَّاه ﷺ أول الأمر**، ففي «الصحيحين»

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢- ٤٩٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٥، ١٠٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٠)، و«روح المعاني» (١٠/ ٤٦٢).

(٢) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨٦٧)، و«النهاية» (٥/ ١٧٩)، و«لسان العرب» (٥/ ٢٨٢)، و«تاج العروس» (١٤/ ٣٥٨) «و ز ر».

أنه لما نزل الوحي على النبي ﷺ، خاف في أول الأمر، وجاء إلى خديجة رضي الله عنها يقول: «**زَمِّلُوني**»، «**دَثِّرُونِي**». وقال لها: «**لقد خشيتُ على نفسي**»(١).

وكذلك لما انقطع عنه الوحي قلق من الانقطاع، فوضع ربُّه عنه وزرَه، وأزال عنه الـحُزنَ، وأذهب عنه الكربَ.

- **غُفرانُ الذنب**، كما في قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

فإن قيل: وما الذنب؟

فالجواب: إن «سيئاتِ الأبرار حسناتُ المقرَّبين»، فالذنبُ بالنسبة للنبي ﷺ هو ترك الأَوْلَى، وقد يكون فعل ما يدخل في باب المكروه في حقه ﷺ، بخلاف عموم الناس، وقد يفعل شيئًا باجتهاده فيعاتبه ربه، كما قال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ...﴾ [الأنفال: ٦٧].

ومنه غفران الذنب لأُمَّته من بعده ﷺ، وذلك بما جاء في الشريعة من التوسعة والكفارة والتوبة وغيرها.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقل ظهرك(٢)، وذلك أن الحمل إذا كان ثقيلًا؛ فإنه يكون له صوت وأَطِيطٌ من ثقله.

وهذا الذي جعلنا نستبعد أن يكونَ المقصود الذنب فحسب؛ لأن النبي ﷺ ليس له ذنبٌ يُوصف بهذا الوصف.

* ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾:

وذِكْر النبي ﷺ مرفوع باللِّسان أولًا، ومرفوع في قلوب المؤمنين به.

أما ذِكْره باللسان؛ فإن الله سبحانه قد قرن اسمَ محمدٍ ﷺ مع اسمه في الأذان

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣، ٤، ٤٩٢٢، ٤٩٥٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠، ١٦١)، وما سيأتي في «سورة العلق».

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٢)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٦٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٢٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٣).

والإقامة والشهادة.

وفي ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية لم يكن النبي ﷺ يُعرف إلا في حدود مكة، لكن الله تعالى رفع ذكره في الملأ الأعلى، كما أنه ناداه في القرآن بالنبوة والرسالة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ...﴾، بخلاف الأنبياء الآخرين الذين يذكرهم بأسمائهم: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ...﴾، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ...﴾، ﴿يَٰعِيسَىٰ...﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰ...﴾... إلى غير ذلك(١).

* ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥﴾:

هذه الفاء الفصيحة، وسُمِّيت: فصيحة؛ لأنها تختصر كلامًا طويلًا، كأنه يقول: فإذ قد شرحنا لك صدرك، ورفعنا لك ذكرك، ووضعنا عنك وزرك؛ إن مع العسر يسرًا. **والمعنى**: أنه ما دام هذا كله صنيع الله تعالى بك فيما مضى، فكيف تظن بصنيع الله تعالى بك فيما يأتي؟! فلتكن أكثر ثقة وطمأنينة بوعده.

وكثير من المفسرين يفسرون الآية على أنها نوع من الاستعارة؛ لأن العُسر واليُسر نقيضان، فلا يجتمعان معًا.

وما ذهبوا إليه فيه نظر، **والأقرب** أن الآية على ظاهرها؛ لأن الله تعالى هنا لم يقل: «إن العُسرَ يُسرٌ»، وإنما قال: ﴿إِنَّ مَعَ﴾ أي: يقارنه ويصاحبه، وهذا مشاهد معروف(٢).

وقد رُوي: «**لو كان العُسرُ في جُحْر، لدخلَ عليه اليُسرُ؛ حتى يخرجه**»(٣).

---

(١) ينظر ما تقدم في أول «سورة التحريم».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٩٥)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٣٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٢٩٧- ٢٩٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٠٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣١)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٣).

(٣) أخرجه البزار (٧٥٣٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرجه الطبراني (٩٩٧٧) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٣٥)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٢)، و«السلسلة الضعيفة» (١٤٠٣).

و«**لن يغلبَ عُسْرٌ يُسْرين**»[1]. وهذه أحاديث ضعيفة، ولكنها في معنى الآية الصريحة.

والتكرار للتوكيد، فكأنه لما قال في المرة الأولى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كان هذا كالتعقيب على ما يتعلق بحال النبي ﷺ، وأن الصعوبات التي يلاقيها معها يسر، وهي دعوة إلى قراءة الوجه الإيجابي للعسر، وأنه مصحوب في الوقت ذاته بألوان من اليسر والروح والفرح والرحمة، لمن تأمل ونظر، ولم يستغرق في التشاؤم.

* ثم انتقل إلى إنشاء حكم جديد، ومسألة مستأنفة، وسياق آخر، فقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾:

وهذا تأسيس أيضًا، فهو يؤسِّس لقاعدة عظيمة لا تخصُّ النبيَّ ﷺ، بل هي لكل الناس، فالأُولى مربوطة بما قبلها بالفاء، والثانية تأسيس لقاعدة عامة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، **وفيها عدة معان:**

١ - أنه نكَّر كلمة «يُسر»، وعرَّف كلمة «العُسر»، وفي هذا معنى لطيف، وهو: أن «العُسر» غالبًا معروف، فكل إنسان يعرف «العُسر» الذي يعانيه، كالفقر، أو المضايقة، أو الأذى، أو الظلم، أو المرض، لكن «اليُسر» قد يأتيه من حيث لا يحتسب ولا يدري، ولذلك قيل[2]:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، والحاكم (٢/ ٥٢٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٤١) من مرسل الحسن وقتادة.

وأخرجه مالك (٣/ ٦٣٣)، وابن المبارك في «الجهاد» (٢١٧)، وعبد الرزاق (٢/ ٤٢٨)، وابن أبي شيبة (١٩٤٨٦، ٣٣٨٤٠)، وأبو داود في «الزهد» (٧٦)، وابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٣١)، والطبري (٦/ ٣٣٤)، والحاكم (٢/ ٣٠٠)، والبيهقي (٩٥٣٨) عن عمر وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من قولهما.

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٣٥- ٢٣٦)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٢)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٢)، و«المقاصد الحسنة» (١/ ٥٣٨- ٥٤٠)، و«كشف الخفاء» (٢/ ١٧٥- ١٧٧)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٣٤٢).

(٢) ينظر: «خريدة العصر» (١/ ٢٠٨)، و«بهجة المجالس» (١/ ٣٤).

عَسَى فرجٌ يأتِي به اللهُ إنَّهُ لهُ كلَّ يومٍ في خليقتِهِ أَمْرُ

وقيل[1]:

عَسَى الكَربُ الذي أَمسيتَ فيه يكونُ وراءَه فرجٌ قريبُ

وعلى المؤمن أن لا ييأس من رَوْح الله، مهما ادْلَـهَمَّت في وجهه الخطوب والصعاب، ولو ظن أنه لا سبيل إلى فرج، فإن الفرج قريب، والله عند ظن عبده به.

٢- جاء «اليُسْرُ» مكررًا مرتين، وهو نكرة، بخلاف «العسر» فهو واحد؛ لأنه معرفة، فالعُسر الأول هو الثاني، وهو يقابل يُسرين، و«**لن يغلبَ عُسرٌ يُسرين**»، **بل هي ألوان من اليسر:**

اليسر الأول: يسر الصبر والرضا والشكر؛ لأنه إذا كان الإنسان في مصيبة، ثم رزقه الله تعالى سرور القلب، والطمأنينة، والرضا، حتى صار لا يبالي بالحال لِـمَـا عنده من الإيمان، كان هذا يسرًا عظيمًا؛ وبذا تحصل سعادة القلب، وسرور النفس، فهذا اليسر المصاحب للرضا والصبر والشكر.

اليسر الثاني: يسر الفَرَج وزوال الغمِّ، أي: زوال الشيء الذي يعاني منه الإنسان مرضًا كان أو فقرًا، أو سجنًا، أو همًّا، أو غمًّا.

وهذا غير الأول؛ فالأول أن يسلِّم ويرضى بقضاء الله، والثاني أن يهيَّأَ له انكشافُ الأمر من حيث لا يحتسب.

اليسر الثالث: يسر يعمله الإنسان ويحاوله، وهو يسر التسبب والحيلة؛ لأنه مطلوب منه أن يبذل الأسباب الموصلة للمراد، وأن يسعى لزوال الأسباب الموجبة للهمِّ والغمِّ.

اليسر الرابع: يسر العطاء والمنحة والفضل من الله سبحانه من غير سبب، والله تعالى يقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٩]، فقد يعطي الله العبد من غير تسبب.

---

(١) ينظر: «الكتاب» لسيبويه (٣/ ١٥٩)، و«العقد الفريد» (٢/ ٣٥٥)، و«أمالي القالي» (١/ ٧٢) منسوبًا إلى هُدبة بن خَشْرم العذري.

اليسر الخامس والسادس: يُسر الدنيا ويسر الآخرة، وهو ما يعطي الله تعالى العبد في الدنيا من الخير والبرِّ والفضل؛ فإن فاته ذلك ظفر باليسر الأُخروي، ولذلك إذا تخيل المؤمن ما عند الله تعالى من النعيم والفضل والعطاء، سُرَّ بذلك واطمأنَّتْ نفسُه وَقرَّت عينُه.

اليسر السابع والثامن: يسر الحال والمآل: **فيُسر الحال** هو ما يعيشه المرء الآن، والمصيبة قد تكون سببًا في ألوان من الخير والفيض والعطاء، **ويُسر المآل** هو الانتظار والترقب، وانتظار القادم، وتوقع الأفضل.

والعسر مسبوق بيسر ومتبوع بيسر، وقبل الفراق كنت مع مَن تكره فراقَه، وأحببت الاجتماع به زمانًا طويلًا، ثم أنت الآن محروم، وستعود إليه، ويعود إليك، كما يقول القائل[1]:

إذا رأيتَ الوَدَاعَ فاصبِرْ ... ولا يَهُولَنَّك البِعَادُ
وانْتَظِرِ العَوْدَ مِنْ قَريبٍ ... فإنَّ عَكسَ «الوَداعِ»: «عادُو»

فينبغي بالعبد أن يدرك أن العسر محفوف باليسر معه وقبله وبعده.

* ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾:

قال مجاهد وغيره: إذا فرغت من دنياك[2]. فالإنسان يضطرب في دنياه وكسبه، فإذا فرغت منها فأقبل على ربك، بالنَّصَب والعبادة.

وقال الحسن وغيره: إذا فرغت من الجهاد[3].

لكن الآية لم تذكر المفعول للفعل ﴿فَرَغْتَ﴾، ولا للفعل ﴿فَٱنصَبْ﴾، ولذلك تجري مجرى المَثَل، لاشتمالها على أقصر وأخصر الألفاظ وأعظم المعاني،

(١) ينظر: «يتيمة الدهر» (٤/ ٤٩٦) منسوبًا إلى أبي عبد الرحمن النيلي.

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (١١٤٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٩)، و«تغليق التعليق» (٤/ ٣٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٤).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٩)، (٢٤/ ٤٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٣)، و«التفسير المظهري» (١٠/ ٢٩٤).

والمعنى: كلما وجدت فراغًا فاستثمِرْه، وأقبل على ربك، وانصب نفسك له بالعبادة.

وذلك لأن العبادة شكر على العطاء الذي منه شرح الصدر، وهي ينبوع من ينابيع السعادة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال النبيُّ ﷺ: «**العبادةُ في الهَرْج**[١] **كهجرة إِلَـيَّ**»[٢]. وذلك لأن الإنسان ينشغل بأمر نافع، بينما الناس ينشغلون بالقيل والقال.

ولأن العبادة تكسب الإنسان سكينة وطمأنينة، وتخفف من التوتر والاحتقان النفسي الذي يحدث بسبب الضغوط، وتجعل الإنسان أكثر اعتدالًا وهدوءًا وتعقُّلًا في قوله وفعله، وتبعده عن الحالات التي قد يفضي فيها إلى يأس أو قنوط، وقد يقول أو يفعل ما يوبق دنياه وآخرته.

وبعض الناس إذا غضب قد يطلِّق زوجته أو يقتل، أو ينتحر، أو يقول الكفر أو يفعله، بسبب فرط الانفعال والغضب.

وقدَّم قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على الفعل؛ للاختصاص، أي: لا ترغب إلَّا إلى الله في تحصيل ما تريد من أمر الدنيا وأمر الآخرة، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

(١) أي: الفتنة واختلاط أمور الناس.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٨) من حديث معقل بن يسار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

سُورَةُ التِّينِ

*** تسمية السورة:**

تُعرف عند المفسرين، وفي المصاحف بـ«**سورة التِّين**».

وقد يذكرون الواو، فيقولون: «**سورة** ﴿وَٱلتِّينِ﴾»، أو: «**سورة** ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾»[(١)].

*** عدد آياتها:** ثمان آيات[(٢)].

*** وهي مكية**، ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان»، وغيره في السور المختلف في نزولها؛ لأن الأكثرين يرون أنها مكية.

ويرجِّح القول بمكيتها: قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾، فهو إشارة إلى مكة، والإشارة إلى معهود حضوري، وقد رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها مدنية، **والراجح** الأول[(٣)].

وهي من السور المبدوءة بالقَسَم، وأقسم تعالى هنا بأربعة أشياء، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٠)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٢)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٩- ٤٢٠).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٧٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤١٩).

وتوجد علاقة بين ما أَقَسم الله تعالى به، وبين الموضوع المقسَم عليه؛ ولكل شيء في القرآن سر وحكمة.

* ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾:

التِّين والزيتون: شجرتان معروفتان، وثمرتان مأكولتان، **فهل هما المقصود؟**

هذا ما قاله جمع من أهل التفسير، وصحَّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[(١)]، ورجَّحه الطبري، وقالوا: إنه ظاهر السياق[(٢)].

ويرى بعض الباحثين المعاصرين المهتمين بالإعجاز العلمي أن القَسَم بـ«التِّين والزيتون» مرتبط بخواص غذائية لهاتين الشجرتين.

والذي يترجَّح- والله أعلم- أن القَسَم هنا بـ«التين والزيتون» ليس قَسَمًا محضًا بهاتين الشجرتين، وإنما هو قَسَم بمواطن التين والزيتون ومنابتها.

* والتِّين غالبًا ينبُت في بلاد الشام، والزيتون ينبُت في بيت المقدس وأرض فلسطين وما حولها، وهذا يتناسب مع قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

والطُّور: الجبل، وأدق من ذلك أن يقال: إن الطُّور هو الجبل الذي تنبت فيه الأشجار؛ وغالب جبال الجزيرة العربية جرداء، بخلاف جبال الشام وأوروبا وغيرها، فهي مكسوة بالخضرة والأشجار[(٣)].

و﴿سِينِينَ﴾ يعني: جميل، أو حسن، أي: الطُّور الحسن، أو المبارك، أو الجميل[(٤)].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨) بسنده إلى «تفسير مجاهد» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
وهو في «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠١- ٥٠٢) من قول مجاهد.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٠).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٧)، و«تاريخ دمشق» (١/ ٢١٦)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ١٣٥).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٤٩)، والمصادر السابقة والآتية.

وذهب الأكثرون إلى أن «طور سينين» اسم موضع، وهو المذكور في آية أخرى، حيث قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ونُقل عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، ويسمَّى: جبل موسى؛ لأنه الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾(١) [مريم: ٥٢].

فهنا أقسم الله تعالى ببلاد الشام ومهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنابت التين والزيتون، فالمسيح وُلد في بيت لحم في فلسطين، وعاش في بيت المقدس(٢)، فأقسم بجبل بيت المقدس، وأقسم بـ«طور سينين» وهو جبل سيناء، وهو جبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي بيت المقدس جبل يسمَّى: جبل زيتا وجبل سيناء، ففي القسم إشارة إلى الموضع وإشارة إلى الشجرة أو الثمرة لذاتها ولمنافعها، والسياق القرآني يظل مفتوحًا على المعاني الصحيحة المحتملة لغويًّا.

* ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾:

ذِكْرُ البلد الأمين في نهاية القَسَم؛ إشارة إلى ترابط النبوات، وأن الأنبياء إخوة، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأنبياءُ إِخوةٌ من عَلَّاتٍ(٣)، وأمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»(٤).

فيأخذ بعضهم بركاب بعض، ويزكِّي بعضُهم بعضًا، ويصدِّق بعضُهم بعضًا، عقيدتهم واحدة، وإن اختلفوا في الشرائع.

فأقسم الله تعالى بمهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بجبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إشارة إلى الديانات السماوية- أعني: دين المسيح ودين موسى- ولا أريد أن أسميها:

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٤٨٥)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ٣٩٢)، و«تفسير الطبري» (١٩/ ٦٢٢)، (٢٤/ ٥٠٣- ٥٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ١١٤)، (٢٠/ ١١٣)، و«التحرير والتنوير» (١٨/ ٣٤)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٥١)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٢٧٤)، و«المختصر في أخبار البشر» (١/ ٣٥)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ١٧٢)، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص٥٧١).

(٣) أولاد العَلَّات: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٥/ ١١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اليهودية، لأن هذا الاسم لم يرد إشارة إلى دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كانت اسمًا ينتحله الذين يزعمون أنهم أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن لا نقول: إن موسى دينه اليهودية، وإنما دينه المنزَّل من عند الله تعالى.

فهذا القَسَم بالأديان السماوية التي نزلت على الأنبياء، وبخاصة الأديان التي بقي لها أثر وحضور، وامتداد تاريخي، وهو قَسَم يؤكِّد معنى ربانيًّا إيمانيًّا، وهو أن الأنبياء كلهم إخوة، وملَّتهم واحدة، وليس بينهم تعارض ولا تناقض، وكلهم جاؤوا بالتوحيد، **هذا أولًا**.

ثانيًا: تأكيد ختم الرسالات والنبوات بمحمد ﷺ، حيث جاء ذكر البلد الأمين في آخر القَسَم.

ثالثًا: تأكيد معنى وراثة النبي ﷺ للأنبياء كلهم، فقد جاء ليجدِّد شرائعهم، وقد كان ﷺ يقول: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبشارةُ عيسى**»(١). ولدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ علاقة قوية بالبلد الأمين.

فالقَسَم بالبلد الأمين إشارة إلى محمد ﷺ المبعوث في البلد الأمين، وإشارة إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن محمدًا ﷺ هو مجدِّد ملة إبراهيم، ومحيي دينه، ومزيل أوثان الجاهلية عن البيت الحرام.

وفيه معنى وراثة النبي ﷺ لكل معاني القيم الفاضلة والتوحيد الخالص، التي جاء بها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وألتمِسُ في هذا القَسَم **معنًى رابعًا**، وهو: أن دِيْنَ محمد ﷺ لما كان خاتمًا للرسالات وناسخًا للشرائع لا يدخله التبديل ولا التحريف ولا النسخ، وبقي بصفائه ونقائه، فقد جاء القَسَم المتعلِّق بهذه النبوة ومكانها بوضوح بعيدًا عن اللبس وغموض المعنى، ولم يذكر ﴿ٱلْبَلَدِ﴾ مطلقًا بغير قيد ولا تحديد، ولم يقل: ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فحسب، ولكن أشار إليه وسمَّاه ووصفه بما يزيل كل التباس، وإذا

---

(١) أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم، من حديث العِرباض ابن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتقدم تخريجه في «سورة الصف»: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ [الصف: ٦].

كان المفسرون قد اختلفوا في تحديد «التين والزيتون» و«طور سينين»، فإنهم لم يختلفوا قط في أن البلد الأمين هو مكة[١].

وثَمَّ معنًى خامس: فأنت تقرأ هذه السورة، وفي مقدمتها القَسَم، تلحظ أن هذه المواطِن التي أقسم الله بها أو بما ينبُت فيها، تكاد تجتمع فيها أهم الحوادث والصراعات بين الأمم والطوائف الدينية.

ولذلك يتقوَّى أن نربِطَ بين ما أقسم اللهُ به في هذه السورة، وبين مشاهد الحوادث في هذه المنطقة، لا سيِّما إذا استدعينا بعضَ النصوص النبوية التي يذكر فيها النبي ﷺ أرض الشام، وأرض المَحْشر والمَنْشر، وأرض الميعاد، وأرض الطائفة المنصورة، وأرض المجاهدين في سبيل الله إلى قيام الساعة، حتى يقاتل آخرُهم المسيحَ الدجالَ.. إلى غير ذلك، مما يعطي المؤمن شعورًا بأن القَسَم هنا له امتدادات ومعانٍ عميقة، قد يدرك الناس طرفًا منها بالتأمُّل.

* ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾:

هذا جواب القَسَم، ولأهميته احتاج إلى تأكيده بالقَسَم السابق، ثم باللام، ثم بحرف التحقيق وهو «قد».

ليس المقسَم عليه هو مجرد خلق الإنسان؛ لأن خلق الله تعالى للإنسان من المعلوم، حتى للمشركين، فقد كانوا يعترفون بأنه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما.

وقد يقال: إنه نزَّلهم منزلة المنكرين لهذا المعنى؛ لأنه لم يظهر أثره عليهم، فهم يقولون ذلك بألسنتهم، لكنهم لا يعبدونه سبحانه، ولا يطيعون رسله، ولا يلتزمون أوامره، فكأنهم نزلوا منزلة مَن ينكر خلق الله تعالى له، **فهذا وجه!**

والأقوى أن يكون القَسَم غير منصبٍّ على مسألة خلق الإنسان، بل على خلقه في أحسن تقويم، ثم ردَّه أسفل سافلين، وهذا معنى أوسع يشتمل على قضية خلق

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٢).

الإنسان، وعلى أنه خُلِق في أحسن تقويم، وعلى أنه رُدَّ إلى أسفل سافلين، وعلى الاستثناء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]، فهي أربع قضايا إذًا.

وإذا تقرر هذا، **فما هو التقويم الحسن الذي خُلق عليه الإنسان؟**

أكثر المفسرين يميلون إلى الكلام عن الجانب الجسدي المشهود في الإنسان، من حسن صورته واعتدال قامته، واكتمال أعضائه وسمعه وبصره وخلقته، وهذه من مظاهر القدرة العظيمة، والحكمة الباهرة، والعلم المحيط في خلق الإنسان بهذه الصفة[١].

عند ما تنظر إلى الجمال في خلق البشر، صورة وشكلًا تجده ظاهرًا، فلو فقد الإنسان من أعضائه جزءًا صغيرًا لشعر بالنقص والتعيب، كما لو فقد ظفرًا أو أُصيب الظفر بسواد، فإنه يخفيه عن الناس، ولو فقد بعض شعره الظاهر، كشعر حاجبه أو لحيته، أو فقد بعض أصابعه، أو تغيَّرت صورة جلدِه، لشعر بحرج من نقصها، وحاول إخفاءها، على أن حسن التقويم باقٍ حتى مع وجود نقصٍ جانبي.

ومن الخَلْق في أحسن تقويم ما رُكِّب فيه من الأجهزة الباطنة، كالجهاز التنفسي والهضمي والعصبي..

وكذا العقل الذي ميَّز الله به الإنسان، وأقدره على الفَهم والإدراك، ومعرفة المقدِّمات والأسباب والنتائج، والاستفادة من التجارب والخبرات، ولذا جعل تعالى الإنسان إنسانًا بالعقل والروح لا بالجسد فحسب، وإلا فقد تجد من الحيوانات ما هو أجمل منه كالطاووس، وما هو أقوى منه كالفيل أو الأسد، ومن الجبال ما هو أغلى من الإنسان؛ بما تحتويه من معادن الذهب والفضة.

إن إنسانية الإنسان بالعقل والإدراك، وبالمسؤولية والتكليف الشرعي المبني على العقل، وبالنفس التي كُرِّمت بالخطاب والتكليف، فهو إنسان باستقرار نفسه وسعادته وطِيب عيشه وسروره، وفرحه ورضاه واغتباطه.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥١٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٥٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٥).

فخلقه في أحسن تقويم، لا يتمثل بالجمال والكمال في الجسد فقط، بل هي في الجسد والعقل والروح والنفس، وفي المواهب والقدرات والملكات، والأعطيات التي لا تنتهي ولا يحيط بها عد: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨].

والتوازن في خلقة الإنسان بين الروح والجسد، حيث يتقاصر عن درجة المَلَك الكريم، ويتعالى على درجة الشيطان المريد، ويجعل الروح والجسد والعقل تعمل بانسجام، هو من حسن التقويم.

* ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾:

وهذا جزء من المقسَم عليه، أن الإنسان الحسن في شكله وهيئته وتقويمه يُرَدُّ أسفل سافلين، عند ما ترى الشاب في توقُّده وحيويته وقوته وعنفوانه واندفاعه، ترى مظهرًا من مظاهر الجمال والقوة والنشاط، وقد يخيَّل للشاب أنه سيستمر شابًّا، ولا يتصور أنه سيصبح يومًا شيخًا هَرِمًا، تتحول نضارة وجهه إلى غضون وتجاعيد، ويتساقط شعر حاجبيه على عينيه، وتذهب الأسنان، ويُصاب بثقل الكلام وبطء الحركة، ويَحْدَوْدِب الظهر، وتغزوه الأمراض، ويبدأ الارتعاش، وتظهر مقدمات (الزهايمر)! هل في هذا الوجه الضعيف الذابل أثر من ذلك الوجه الصبوح النضير؟!

ومن معاني رده أسفل سافلين: رده في حياته العقلية إلى أرذل العمر، فترى هذا الإنسان العاقل الخبير الذي يتقد ذكاءً وفطنةً، في آخر عمره خَرِفًا هَرِمًا كالطفل، بل الطفل أفضل حالًا منه!

ومن معانيها: ذهاب الشهوة، فترى الذي قضى شبابه بالأمس يَعُبُّ الشهوات عبًّا، دون تقوى أو ازدجار، قد كبر وشاخ وعجز، ولم يبق له إلَّا الذكريات السيئة المؤلمة والحرمان(١).

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٤٠٩- ٤١٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٧)، والمصادر السابقة والآتية.

يأسفُ المرءُ على ما فاتَه   من لُبانات[1] إذا لم يقضِها
وتراهُ فَرِحًا مستبشرًا   للتي أمضَى كأن لم يُمْضِها
إنها عندي كأحلامِ الكَرَى   لقريبٌ بعضُها من بعضِها[2]

وقيل: معنى ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: **السافلون** هم: سفلة الاعتقاد، والإشراك أسفل الاعتقاد، فيكون ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أن يأخذ في تغيير ما فُطر عليه من التقويم والإيمان بإله واحد، وتوجه الفطرة إليه بالعبادة والتعظيم، فيصير مشركًا أو كافرًا.

وهل أسفل ممن يعتقد ألوهية الحجارة أو الأشجار أو الحيوانات، أو ممن يجحد وجود الخالق وهو يشاهد مخلوقاته ويتلقَّى إنعامه؟!

ومن السُّفول الذي يرد له مَن تجاوز تقويم الفطرة: السُّفول في الأخلاق من طمع وجشع وجزع وهلع وجبن وفحش، فهل بعد هذا من تسفل في الأخلاق!![3].

وقيل معناه: أن الصورة القويمة ترد إلى صورة قبيحة مشوَّهة حينما تُلقى في أسفل دركات النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم[4].

* ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وفي هذا الاستثناء أسرار، فإن الله تعالى استثنى المؤمنين، والسؤال: أليس يمر عليهم الهَرَم والكبر والشيخوخة كغيرهم؟

بلى.. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]، والسنن لا تحابي أحدًا، والمؤمن قد يصيبه الخرف في عقله، وبعضهم يقول: إن الذي يحفظ القرآن لا يصيبه الخَرَف. ويُروى مرفوعًا[5]، وهذا لم يثبت في القرآن، ولا في السنة، ولا

---

(١) جمع: لُبانة، وهي الحاجة النفسية.

(٢) تقدم تخريجه في «سورة القيامة»: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾.

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٢٧- ٤٢٨).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٧٣)، و«تفسير السعدي» (ص٩٢٩).

وينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٠٩، ٥١٣)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ٣٢١)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٧٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ١٢)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٢٦٩- ٢٧١).

في التاريخ، ولا يدل عليه الواقع؛ فإننا نجد من الناس مَن يكون عالِـمًا وحافظًا ثم يتغيَّر، والمحدِّثون كانوا يحجرون على الشيخ إذا كبر سنه وتغير حفظه، ويمنعون الناس من الأخذ عنه والتلقِّي منه، ويقولون: فلان اختلط. وقد يُمنع من التحديث؛ لئلا يختلط حديثه الصحيح بغيره فيُرَد، مع أنه كان مُحَدِّثًا قضى عمره كله في: «قال»، «حدَّثنا»، «أنبأنا»، «أخبرنا».

وقد نقول: إن ذلك فيهم أقل منه في غيرهم؛ لأن الإنسان إذا نقص عقله يظل يردِّد الأشياء المألوفة فيما مضى من عمره، فيقرأ القرآن ويسبِّح ويسوق الحديث النبوي.

أو يردِّد ما ألفه واستقر في ذاكرته من أمور رديئة أو فاسدة، فتسمع منها ما يعيبه ويُعَدُّ منقصة فيه.

وثَمَّ وجه آخر: أن الإنسان في كبره يبقى في وجهه نور وإشراق من أثر الطاعة والعبادة، وقد كان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إن للحسنة لنورًا في القلب، وضياءً في الوجه، وسَعةً في الرزق، وقوةً في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق، وإن للسيئة لسوادًا في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبُغضًا في قلوب الخلق»[(١)].

وقد ذكر أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم نظروا إلى وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكأنه ورقة مصحف[(٢)]، وذلك في آخر عمره[(٣)].

وقد استشهدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقول أبي كَبِير الهُذَلي[(٤)]:

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٣٠)، و«منهاج السنة النبوية» (٣/ ٢٧)، و«روضة المحبين» (ص٤٤١)، و«الوابل الصيب» (ص٣٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٢٣).

(٢) إنما شبَّهه بورقة المصحف؛ لذهاب اللحم ورِقَّة الجلد وصفاء الجسم من الدم. ينظر: «كشف المشكل» (٣/ ١٩٥)، و«إرشاد الساري» (٢/ ٤٤).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٤) ينظر: «حلية الأولياء» (٢/ ٤٥)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٤٢٢).

ومُبَرَّأً من كلِّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ وفساد مرضعةٍ وداءٍ مُغْيِلِ
وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وَجْهِه بَرَقَتْ كبَرْقِ العارضِ المُتَهَلِّلِ

ومعنى ثالث: أن الإنسان الذي يحتقب ذكريات اللهو والمعاصي، يتمنى المعصية حين يعجز عنها، وربما يُكتب عليه وزرها، أما المؤمن فإنه يُكتب له الأجر، وفي «الصحيح» مرفوعًا: «**إذا مرضَ العبدُ أو سافرَ، كُتب له ما كان يعملُ مقيمًا صحيحًا**»(١).

فإذا عجز عن صلاة الليل أو الصيام أو الذكر أو التعليم أو الجهاد، لعارض من كبر السن أو المرض؛ فإن أجره يدرُّ عليه، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، حتى وإن كبروا وعجزوا، فالأجر لا يقطع، بل هو مستمر لهم على ما كانوا يعملون، بخلاف أولئك الذين لم يكونوا من الأخيار ولا من الصالحين(٢).

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يَمُنُّ به عليهم، بل يتفضَّل الله به، من غير أن يَمُنَّ عليهم به أحد؛ لأنه من الله تعالى المعطي المتفضِّل، بخلاف عطاء الناس، فإنه قد يلحقه مَنٌّ أو أذى، ولذلك مدح الله الذين ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾(٣) [البقرة: ٢٦٢].

فهناك رابط بين القَسَم الذي أقسم الله به: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾، وبين الأمر المقسَم عليه، وهو خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم إرجاعه إلى أسفل سافلين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وهذا القَسَم إشارة- والله أعلم- إلى القيمة الحقيقية للإنسان، وأنها الإيمان،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٩٦) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢١٣).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٨٦)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٢٥)، و«الكشاف» (٤/ ١٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير الرازي» (٢٧/ ٥٤٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (١٧/ ١٠٣)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ١٤٦).

فهو الذي يصحِّح عقل الإنسان، ويحفظ عمل جسده فلا ينقطع أجره، ويحفظ نفسه وروحه وماله، ودنياه وآخرته(١).

* ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾:

وهذا خطاب للإنسان المكذِّب بالدين، والدين هنا: الجزاء والحساب في الآخرة، حيث يُدان الإنسان بما عمل، أي: يُجزى به(٢).

والمعنى: ما الذي جعلك تكذب بالدار الآخرة، وأنت ترَى الإنسان يُخلَقُ في أحسن تقويم، ثم يُرَدُّ إلى أسفل سافلين؛ في جسده ونفسه وعقله؟

وهل تظن أن الذي خلق الإنسان بهذه الحكمة والعظمة والإبداع، وأرسل إليه الرسالات، وكلَّفه بالتكاليف، يترك الإنسانَ سُدًى، ولا يبعثه، ولا يدينه ويجازيه؟

ما الذي يجعلك تكذِّب بعد هذا كله بالدين؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: ألَا تدري أن الله تعالى هو أحكم الحاكمين، أي: صاحب الحكمة، والحكمة تقتضي أن لا يُخْلَق الإنسان سُدًى.

وفي حكم البشر أنه لو عمل أحد شيئًا بغير جدوى، لقال الناس: هذا ليس من مقتضى الحكمة، حتى النعل يلبسه الإنسان ليتقي الحر والبرد والأشواك، وغيرها مما يكون في طريقه، فكيف يُترك هذا الإنسان بكلِّيته سُدًى؟! ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦- ٣٧].

أفمن الحكمة أن يُخلق الإنسان بهذه القوة والكثرة، والامتداد التاريخي والجغرافي والإبداعي، ثم يُترك ويُهمل، فيذهب الظالم والمظلوم، والمخطئ والمصيب، والمؤمن والكافر، والبر والفاجر، ويأكلهم التراب والدود، فلا يُبعثون ولا يُسألون ولا يُحاسبون ولا يُجازون ولا يُقتص للمظلوم من الظالم؛ هل يتوافق

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥١٧، ٥١٩، ٥٢١)، و«تفسير الماتريدي» (٩/ ٥٧٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٦).

(٢) كما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾.

هذا مع الحكمة؟! كلا؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾؟ بلى، ونحن على ذلك من الشاهدين.

وقد يكون معنى الآيات: يا رسولَ الله، ما الذي يجعلهم يكذِّبونك بعد هذا؟ والمعنى متقارب[١].

وقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثًا عن النبي ﷺ قال فيه: «**مَن قرأَ «سورة ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾»، فقرأ: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين**»[٢]. والحديث فيه ضعف، ورجَّح أبو زرعة الرازي وقفه[٣].

❍❍❍

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٦٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٢٩٧).

(٢) أخرجه الحميدي (١٠٢٥)، وأحمد (٧٣٩١)، وأبو داود (٨٨٧)، والترمذي (٣٣٤٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٣٦)، والبيهقي (٢/ ٣١٠)، وفي «شعب الإيمان» (١٩٢٩).

(٣) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٧٦٣)، و«علل الدارقطني» (١١/ ٢٤٦- ٢٤٨)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٤٣- ٢٤٤)، و«نتائج الأفكار» (٢/ ٤١)، و«تمام المنة» (ص١٨٥- ١٨٦).

سُورَةُ العَلَق

❊ تسمية السورة:

اسمها في معظم المصاحف، وعند جمهور المفسرين: «**سورة العَلَق**»[1].

وتسمَّى: «**سورة** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾»، أو: «**سورة** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»، وبعضهم يختصرها: «**سورة** ﴿ٱقۡرَأۡ﴾»[2].

وسماها بعضهم- كابن العربي، وابن الجوزي، وابن القيم، وغيرهم-: «**سورة القلم**»[3].

و«سورة ﴿نٓ﴾» تسمَّى بـ«القلم»، فالأَوْلَى أن تسمَّى هذه السورة بـ«العلق»، أو ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٥٩)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٧٩)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٣)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٧٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٦)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢١٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٦٢)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٢/ ٣٤٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٨)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠١)، و«ملاك التأويل» (٢/ ٥٠٩)، و«الإكليل في استنباط التنزيل» (ص٢٩٥)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٣٠٧)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (٢/ ٦٤٧)، والمصادر السابقة.

* **عدد آياتها:** تسع عشرة آية، **وقيل**: ثماني عشرة، **وقيل**: عشرون[1].

* **وهي مكية** بالإجماع، وأول ما نزل عند جماهير المفسرين، خصوصًا صدرها، وكان نزولها في رمضان ليلة السابع عشر منه[2].

* **قصة نزول السورة:**

هذه السورة على وجازة ألفاظها، وقصر آياتها، بديعة المعاني، رائعة الألفاظ، دقيقة الإعجاز، تُبهر العقول وتأخذ بالألباب، وهي أول سورة طرقت سمع النبي ﷺ.

نزلت بدايات هذه السورة في غار بعيد يصعب الوصول إليه: (غار حراء)، حيث كان النبي ﷺ يعبد ربه فيه، في ظل جاهلية جَهْلاء غطَّت عقول الناس وحياتهم، ومكة تضج بالأوثان، إذ كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، والناس كما قال الشاعر[3]:

أتيتَ والناسُ فوضى لا تمرُّ بهم ... إلا على صنمٍ، قد هام في صنمِ
والأرضُ مملوءةٌ جَوْرًا، مسخَّرةٌ ... لكلِّ طاغية في الخَلْق محتكمِ
مسيطرُ الفرس يبغى في رعيته ... وقيصرُ الروم من كِبْرٍ أصمُّ عَمِ

كانت الحياة ملأى بالضَّلالات والظُّلمات والجَهَالات في جزيرة العرب خاصة، لا دين ولا دنيا، ولا حضارة ولا علم، وكان النبي ﷺ يتعبَّد كل سنة في غار حراء الشهر الذي يوافق شهر رمضان، فإذا بالمَلَك يأتيه، وكان أول ما يخاطبه به ويقرَع سمعَه هذه الكلمات.

وقد ذُكرت قصة نزول الوحي في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها،

---

(١) فقد اختلفوا في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩﴾، وقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٥]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٧٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٧٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٦٧)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٣).

(٣) ينظر: «الشوقيات» (١/ ١٩٧).

وكيف أن النبيَّ ﷺ في أول الأمر قال: «**ما أنا بقارئٍ.. ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ**». ثم المَلَك يأخذه ويغطُّه ويضغطه، حتى يبلغ منه الجَهد، حتى خشي على نفسه ﷺ، ثم قال له هذه الآيات.

والظاهر- والله أعلم- أن النبيَّ ﷺ قرأها في الموقف، ثم رجع إلى خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترجف بوادره، وهو يقول: «**زمِّلوني زمِّلوني**». فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، ثم قال لخديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أي خَدِيجةُ، ما لي؟**». وأخبرها الخبر، وقال: «**لقد خشيتُ على نفسي**». قالت له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنك لتَصلُ الرحمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِينُ على نوائب الحقِّ. ثم انطلقت به خديجة إلى ورقة بن نَوْفَل بن أسد بن عبد العُزَّى، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتُبُ الكتابَ العربيَّ، ويكتُبُ من الإنجيلِ ما شاء اللهُ أن يكتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خَدِيجةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا ابنَ عمٍّ، اسمعْ من ابنِ أخيكَ. قال ورقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ خبر ما رآه. فقال له ورقةُ: هذا النَّاموسُ الذي أُنزل على موسى ﷺ، يا ليتني فيها جذَعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرِجُكَ قومُكَ. قال رسولُ الله ﷺ: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**». قال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلَّا عُودِيَ، وإن يُدركْنِي يومُك أنصرْكَ نصرًا مؤزَّرًا[(١)].

والحديث يدل على أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، وبها نُبِّئ النبي ﷺ.

وقد جاء في «الصحيحين» ما يدل على أن أول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فروى جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال- وهو يحدِّث عن فترة الوحي-: «**بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرُعِبْتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زمِّلوني زمِّلوني**». فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ...﴾، فحمي الوحي

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

وتتابع[١].

ولكن في هذه الرواية ما يؤكِّد الأمر الأول، وهو أن «سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾» هي أول ما نزل؛ لأن حديث جابر فيه ذكر المَلَك الذي جاءه بحراء، وقد جاءه بـ«سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾»، وفيه أنه قد عرفه، وأنه طلب من خديجة أن تزمِّله، ثم حمي الوحي بعد ذلك.

فعلى هذا يكون معنى أول ما نزل «سورة المدثر»؛ أي: أول ما نزل بعد ما فَتَرَ الوحي، فقد جاء الوحي أول ما جاء إلى الرسول ﷺ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثم فتَرَ- كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ثم عاوده الوحي بـ«سورة المدثر»، فهذا هو الجمع بين الأقوال، وهو الصحيح، كما رجَّحه عامة علماء التفسير والسير[٢].

وهو ما يقتضيه النظر؛ فإنه ﷺ نُبِّئ بـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأُرسل بـ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، فكانت ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ نبوءة له، وكانت ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ رسالة، فقيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾.

كان التعبد الذي يعمله النبي ﷺ في غار حراء على ملة الحنيفية في عبادة الله تعالى، وفي العبادة أُنس للقلب، وراحة للنفس، وقرب من الله، فكان ﷺ يأنس بالمناجاة، وسُمِّيت: عبادة؛ لأنها تذلِّل النفس لطاعة الله تعالى، و«أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، وأفضل ما يكون العبد حينما يقترب من ربه.

ثم أراد تعالى بسابق حكمته وبالغ رحمته أن يواجه الرسول ﷺ أمر الدعوة إلى الله، وتوجيه الناس، وهذا فيه العناء والجهد والمشقة، وفيه الجرح والقتل والطرد والتكذيب والتعذيب؛ ولذلك لما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أول ما فعله مع النبي ﷺ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤، ٤٩٢٥)، و«صحيح مسلم» (١٦١).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٢٧- ٥٣٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٢)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١/ ٧٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠١)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦٠٠)، (٣٢/ ٢١٥)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١١٦)، (٢٠/ ١١٧)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٣)، (٨/ ٤٣٦، ٢٦١)، و«فتح القدير» (٥/ ٣٩٤، ٥٧٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩، ٤٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٥٨)، (٣٠/ ٤٣٣)، و«مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن» (ص١٧٦- ١٨٠)، والمصادر السابقة والآتية، وما تقدم في أول «سورة المدثر».

أن أخذه وغطَّه، يعني: ضمَّه وضغطه وهزَّه، حتى بلغ منه الجَهد، ثم أرسله، وقال له: «**اقرأ**». فقال له النبي ﷺ: «**ما أنا بقارئ**». أي: أنني لا أحسن القراءة؛ فأنا أُمِّيٌّ لا أقرأ ولا أكتب.

وقد جاء في بعض الروايات من المراسيل، أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جاء النبي ﷺ بديباجة فيها هذه السورة، فكان يقول له: «**اقرأ ما هو مكتوبٌ**»[(١)].

ولا يلزم هذا التقدير، بل إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاء إلى النبي ﷺ وقال له: «**اقرأ**». كان المفترض أن يكون مع النبي ﷺ شيء يقرأ منه، أو يكون في صدره ما يقرؤه؛ فإن القراءة تُطلق على ما يُقرأ من الورق، أو ما يقرؤه الإنسان من صدره، فلو قلت لرجل: اقرأ. فقرأ من حفظه، لكان امتثل.

والله تعالى أمر المؤمنين بقراءة القرآن، فقال: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وإنما سُمي قرآنًا؛ لأنه يُقرأ.

فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يريد من النبي ﷺ أن يقرأ، والنبيُّ ﷺ يقول: لا أحسن القراءة؛ كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فهذا معنى قوله: «**ما أنا بقارئ**»، والبعض قد يظنها تأبيًا من النبي ﷺ، وكأنه يقول: لا، لن أقرأ. وليس هذا المعنى، إنما هو: أنا أميٌّ، ولم يسبق لي تعليم.

وفي الغَطِّ والضغط إشارة إلى أن مرحلة التعبد الناعمة التي تخلو بها بربك وتناجيه وتدعوه وتسأله دون تحمل مسؤولية تقلق مضجعك وتثقل ظهرك قد انتهت، وجاءت مرحلة تتحمل فيها ثقل الدعوة، وبلاغ الرسالة، وما يترتب على ذلك؛ ولذلك كانت هذه هي البداية، ثم جاءت بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: ١- ٢]، والأمر بالقيام أمر بالنهوض والإنذار والبيان، ثم جاءت

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٤)، و«أخبار مكة» للفاكهي (٤/ ٥٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٢٩)، و«فتح الباري» (٨/ ٧١٨)، (١٢/ ٣٥٧)، و«إتحاف المهرة» (٣/ ٢٩٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٢٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٠١).

الآية الثالثة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمل: ١- ٢]، **فعرف النبي ﷺ أنه دخل عهدًا فيه المشقة والتعب والعناء، ولكن في ذات الله عَزَّوَجَلَّ.**

وفي قوله ﷺ: «**ما أنا بقارئ**» أنه كان خلوًّا من الترقب والتطلع والانتظار، خلافًا لما كان عليه كثير من الحنفاء وأهل الكتاب، كأُميَّة بن أبي الصَّلت؛ فإنه كان ينتظر الرسالة، فلما كانت إلى النبي ﷺ حسده وكفر، مع أنه مؤمن في قرارة نفسه؛ ولذلك لما قُرئ شعره على النبي ﷺ قال: «**آمنَ شِعْرُه، وكفرَ قلبُه**»(١).

فالنبي ﷺ لم يكن يترقَّب شيئًا من ذلك؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ولم يكن العرب يعرفون أخبار النبوة والوحي، ولذا استغرب النبيُّ ﷺ مجيء المَلَك، بينما لم يفاجأ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بنداء الله له مباشرة؛ لأن الملائكة كانت تغشى بيوتهم، والأنبياء فيهم كثير(٢).

❁ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾:

لم يحدِّد المقروء؛ إما للعلم به، وهو القرآن، أي: اقرأ القرآن، أو اقرأ القدر الذي أعلِّمك إيَّاه الآن.

أو المقصود: اقرأ كل ما يُحتاج إليه من علم نافع(٣)، فيكون أمرًا لأمته من

---

(١) ينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (١٩٧٣)، و«التمهيد» (٤/ ٧)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٢٥٠)، و«تاريخ دمشق» (٩/ ٢٧٢)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٠٣)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٩٢)، و«فتح الباري» (٧/ ١٥٤).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥﴾، و«سورة المزمل»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾.

(٣) ينظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٥٩٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢١٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١١٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٠٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٥).

بعده، ودعوة إلى طلب العلم النافع في أمر الدين أو الدنيا، فتكون الآية دليلًا على إيجاب طلب العلم المحتاج إليه، فمنه ما يجب على الأعيان، ومنه ما يجب على الكفاية، كما في حديث: «**طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم**»(١).

نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو من أمة أمِّية يغلب عليها الجهل، وما كانوا يعرفون القراءة إلا نادرًا، فقد كانت تُعرَف في اليمن والشام والعراق، أما عرب مكة والجزيرة فما كانوا يعرفون الكتابة، وكانوا يرونها من خصائص اليهود والنصارى؛ لأنهم أهلُ كِتاب.

وكانوا على ضلال مبين من عبادة الأوثان، والواحد منهم إذا نزل في مكان بحث عن أربعة أثَافٍ(٢)، وجعل منها ثلاثًا لِقَدْرِه، واتخذ الرابع صنمًا يعبده، وإذا لم يجد أحجارًا يحثو بشيء من التراب يجمعه، ثم يحلب عليه الشاة- كما قال أبو رجاء العُطاردي- ثم يعبده(٣). وأما الكعبة فقد كان فيها ثلاثمائة وستون صنمًا.

أما الطب والصناعة والزراعة، فقد كانوا فيها على الفطرة، والمعلومات البدائية، وأما التجارة فكانت محدودة.

كانت الجزيرة معزولة بصحرائها، ممتنعة عن أن تُفرض عليها سلطة عالمية، مما جعلها معزولة عن الحضارة التي كانت عند غيرها، ولذلك تجد عجبًا أن يكون أول خطاب للرسول ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٤)، والبزار (٩٤، ٦٧٤٦)، وأبو يعلى (٢٨٣٧)، وابن عدي (٣/ ٢٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٤٣- ١٥٤٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ورُوي من غير وجه، وضعفَّه غير واحد. ينظر: «مسائل الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه» (٩/ ٤٦٥٤)، و«الضعفاء» للعقيلي (٢/ ٥٨، ٢٣٠)، (٤/ ٢٤٩)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٢)، و«العلل المتناهية» (١/ ٥٤- ٦٦)، و«مقدمة ابن الصلاح» (ص٢٦٥)، و«المجموع» (١/ ٢٤)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٢٩٥)، و«جزء فيه طرق حديث: طلب العلم فريضة على كل مسلم» للسيوطي، و«جنة المرتاب» (ص٨٣- ١٠٤).

(٢) الأَثَافي: حجارة تُنصب، ويُجعل القِدْر عليها.

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٧٧).

يقول ابن تيمية: «إن أول واجب على المكلَّف هو العلم؛ لهذه الآية، لأنها أول ما خاطب الله بها رسولَه ﷺ»(١).

والناظر إلى أحوال الأمة العربية والإسلامية في عهد النبوة وما بعده يلحظ أنها حصَّلت علومًا كثيرة، واستطاعت أن تهضمها ثم تصلحها إصلاحًا شرعيًّا وتنشرُها بين الناس، ثم حصل التراجع المحزن للأمة، حتى آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن!

والمتأمِّل في القرآن الكريم يجد آيات كثيرة تدعو إلى العلم والتفكير، حتى في مصالح الحياة الدنيا، فقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ**﴾ [الأنعام: ١٤١]، آيات تتحدَّث عن الزراعة والنبات، ومراحل تكوينه وأطواره، تلقتها الأمة من ربها، وليس من شيء يتعاطونه، بل بوحي القرآن الذي يعظمونه، وعلى ضوئه يتوقع أن تكون الأمة خطت خُطوات كبيرة في العلم بحرث الأرض والزرع وألوانه وأنواعه وتكوينه وتنميته، وبناء الأرض واستعمارها، كما قال سبحانه: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١]، مما يثير الاستغراب لهذا التخلف والتأخر العظيم عند المسلمين، وغالب بلادهم زراعية!

ومن السنة: الحديث الصحيح: «**ما أنزلَ اللهُ من داء إِلَّا وأنزلَ له دواءً، علمه مَن علمَهُ، وجهلَه مَن جهلَهُ**»(٢).

وهنا سَمَّى رسولُ الله ﷺ العلمَ بالأدوية علمًا، وسَمَّى عدم المعرفة به جهلًا، كما لقَّنه ﷺ لأمته؛ أنه ليس من داء أو مرض إلا وله دواء، إلا الموت، وهذا مما

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٤)، و«الفتاوى الكبرى» (٢/ ٢٣٤)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٤/ ١١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٩٢٢، ٤٢٦٧)، وابن ماجه (٣٤٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٦٨٣٤)، وابن حبان (٦٠٦٢)، والحاكم (٤/ ١٩٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج البخاري (٥٦٧١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسلم (٢٢٠٤) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٥١، ٥١٧، ١٦٥٠، ٢٨٧٣).

يدفع الأمة للبحث والنظر والتجربة والتعليم، فهو كقول مَن يقول لك: إن ما تطلبه موجود في هذا المكان. ومن ثَمَّ يتوفر دافع البحث؛ ليُصاب دواء الداء، فيبرأ بإذن الله تعالى، ولكن الأمةَ عِيالٌ على أمم الشرق والغرب في الطب منذ قديم، حتى قال الشافعي: «ذاك عِلمٌ غلبنا عليه أهل الكتاب»(١)!

ومع أنه تعالى جعل أصولًا تنطلق الأمة منها إلى المعرفة والتعليم والاشتقاق والوصول، إلا أن الانقطاع عن ميراث النبوة، وعن الالتزام بهدي الله سبحانه، والانشغال بفروع بالَغْنا فيها، وأعطيناها أكثر مما ينبغي أَخَّر المسيرة، وما وُجد سرفٌ إلا ومعه حقٌّ مضيَّعٌ.

إن العبادة بدون علم ضلالٌ، والدعوةَ بدون علم دعوةٌ إلى جهل، والجهاد بدون علم انتهاكٌ للحرمات وتطويحٌ للعدل والإحسان، وهكذا كل الأعمال المشروعة، إذا لم تكن مستنيرة بنور العلم والبصيرة، فإنها لا تعطي نتيجتها وثمرتها، ولذلك يقول الشاعر(٢):

يا طالبي علمَ النبيِّ محمدٍ ... ما أنتمُ وسواكمُ بسواءِ
فمدادُ ما تجري به أقلامُكم ... أزكى وأفضلُ من دمِ الشهداءِ

البداءة بالعلم بداءة منطقية وضرورية؛ لأن كل المطالب: من عبادة ومخالطة ودعوة وجهاد ومصالح دنيوية، كالتجارات والصناعات والزراعات، مفتَقِرة إلى العلم في ثمرتها الأخروية، وفي حصيلتها العاجلة.

تشير الآية إلى الترابط المطلوب بين العلم والدين، وإذا انفصل العلم عن الدين، فإنه يُنذِر بوجود كارثة كبيرة، كما في قضية الاستنساخ والخلايا الجذعية والتعديل الوراثي والجيني للإنسان والحيوان والنبات، والذي يوشك أن ينفلت

---

(١) ينظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ١١٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٧)، و«طبقات الشافعيين» (ص٣٢)، و«توالي التأسيس» (ص١٨)، و«الطب النبوي» لابن طولون (ص١٧).

(٢) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٥١) منسوبًا إلى ابن دُريد، و«الأربعين الطائية» (ص١٢٩)، و«معجم السفر» (ص٢١٣) منسوبًا إلى ابن الأنباري.

دون رقابة أو مسؤولية، فيكون عبثًا بالفطرة الإنسانية.

ومثله سباق الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية والجرثومية، والتي من الممكن أن تدمِّر البشر على وجه الأرض.

إن العلم الذي حضنه الإسلام، وتربَّى في المجتمع الإسلامي، كان له أثره على البشرية في تقدمها ورُقِيِّها وقربها من الله تعالى، وفي المحافظة على القيم والأخلاق والمبادئ، وحتى الذين لم يستنيروا بنور الإسلام استفادوا من هذه العلوم في تسهيل أمور دنياهم.

فربط القراءة باسم الله تأكيد على أن المعرفة منحة من الله للإنسان، وليست ظفرًا إنسانيًّا ينتهبه الناس من الآلهة كما تزعم الأساطير اليونانية، وهو دعوة إلى تكريس المبدأ الأخلاقي للعلم، والذي غايته نفع البشرية وخدمتها وليس تدميرها.

لقد بدئت السورة بالأمر بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾، وخُتمت بالأمر بالسجود: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾، وتوسَّطت بذكر الصلاة: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾؛ وذلك أن أعظم أقوال الصلاة ذكر الله تعالى وقراءة القرآن، وهو ما بُدئت به السورة، وأعظم أفعالها هو السجود، وهو ما خُتمت به.

والعبد يبدأ صلاته قائمًا، ثم يركع، ثم يسجد، ثم يقعد، ثم يسجد، فكان السجود هو آخر ما يُراد في الصلاة، وهو أكمل ما يكون من العبودية لله سبحانه؛ حيث يعفِّر العبدُ جبهته ذلًّا لربه؛ ولذلك قال ﷺ: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»(١).

كرَّر لفظ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ في السورة مرتين: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ١﴾، ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾، والتكرار للتوكيد وترسيخ المعلومة، والأمر الأول بطلب الامتثال، والثاني لتوكيد حصول العلم بالقراءة، وأن هذا فضل من الله الأكرم، فمَن قرأ عرف(٢)!

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «غرائب التفسير وعجائب التأويل» (٢/ ١٣٦١)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٤٩٦)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (٧/ ٣٢٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٧١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٠٢)، و«تفسير جزء عم» لابن عثيمين (ص٢٥٩- ٢٦٠).

وهو دعوة للمداومة وعدم الانقطاع، والمحاولة وعدم اليأس، والقراءة الأولى للتعلم والفقه، والثانية للتعليم والدعوة ونفع الناس.

وتكررت كلمة ﴿رَبِّكَ﴾ ثلاث مرات: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴿١﴾﴾، ثم ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾﴾، ثم ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾. وكلها تأكيد للُّطف والرحمة، وأنها بداية الرسالة، ولذا كان النبي ﷺ رحمة للعالمين.

أما كلمة ﴿خَلَقَ﴾ فهي مكررة مرتين: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾؛ فالخلق الأول خلق مطلق، يشمل خلق السماوات والأرض والملائكة والجن والإنس والدنيا والآخرة، وما نعلم وما لا نعلم، والثاني خاص بخلق الإنسان.

وكلمة ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تكررت ثلاث مرات: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾، ثم ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾، ثم ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾.

فالأولى لذكر الخلق والفطر، والثانية للتعليم وقابلية المعرفة لدى الإنسان، والثالثة للتحذير من الطغيان بالعلم، وبيان أن العلم إذا انفصل عن القيم والأخلاق والفضائل صار طغيانًا.

أما كلمة ﴿عَلَّمَ﴾ فكررت مرتين: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾﴾.

وهذا يسمى عند أهل القراءات بالترديد، وهو وجود كلمة تتكرر في القرآن مرتين متجاورتين بلفظها، وكثير من الناس لجمال القرآن وبلاغته وإعجازه لا يفطنون لهذا إلا إذا نُبِّهوا عليه.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق: ٥- ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الروم: ٦- ٧]، وقوله: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه لفظ الجلالة مرتين متجاورتين.

والتكرار يدخل في باب التثنية أو المثاني؛ فإن الله تعالى وصف القرآن بأنه

مثاني فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾(١) [الحجر: ٨٧].

والتثنية ليس المقصود بها أن يكون العدد اثنين، بل هي بداية العدد مطلقًا، أي: تكرار العدد، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣- ٤]، فليس المقصود مرتين، وإنما المعنى: كرِّر النظر إلى السماء، وتأمَّل النظر في ملكوت الله تعالى مرة بعد مرة حتى تعتبر وتؤمن.

وفي هذا إشارة إلى ثنائية الخلق ووحدانية الخالق تعالى، والله تعالى يأمر وينهى، والإنسان عبد مربوب يُؤمر فيطيع.

والله سبحانه كريم ذو فضل عظيم وعطاء جزيل، وكل خير فمنه وإليه، والإنسان فقير بطبعه، منتظر متطلع إلى عطاء الله وتعليمه.

ويدل على ذلك قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾؛ فإنه اختار من أسماء الله تعالى لفظ «الرب» الدال على الملكية والخلق والتدبير، كما يقال: رب الأسرة، أو رب المنزل، أو رب الإبل، أي: مدبِّرها ومتولِّي شؤونها ومصرِّف أمورها، فالله تعالى هو الرب المدبِّر، **وقد ناسب اختيار هذا المعنى باعتبارين:**

- الإشارة للنبي ﷺ ولكل مخاطب إلى أن الطريق طويل وشاق، وفيه عناء وأشواك، والاستعانة بالله تذلِّل الصعاب.

يقول كثير من العلماء: إن الباء في قوله: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ للاستعانة، يعني: اقرأ مستعينًا بالله، كما أنك حينما تعاني أمرًا تقول: بسم الله. يعني: أستعين بالله على هذا العمل، وقال عَزَّوَجَلَّ في «سورة الفاتحة»: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، وفيه إشارة إلى أن العبد لا يستطيع أن يقوم بالتبعات ومسؤوليات الحياة إلا بالاستعانة بالله؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا به.

- ثم إن كلمة «الرب» تشير إلى القرب والعناية والمعيَّة والرأفة.

و«**الرب**» هو الاسم المناسب للمقام؛ لأن النبي ﷺ كان مرعوبًا من المَلَك

(١) ينظر ما تقدم في أول «سورة الفاتحة».

الذي طَرَقه وهو في الغار، يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ ولذلك فزع ﷺ؛ فلما قال: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ كان هذا مشعرًا باللُّطف، وأنه هو الذي ربَّاك وتعهدك، وحمَاك في الجاهلية مما كان يفعله أهل الجاهلية، وحفِظَك وتولَّاك، وأعانك حتى كنتَ تتعبَّد في مثل هذه الأوقات، فضلًا عن الإشعار بالحفظ في المستقبل.

فهو ربك الذي سيتعاهدك ويحميك في إقامتك وسفرك، وحِلِّك وظعنك، وحربك وسِلْمك، وليلك ونهارك، فهي تذكير بالماضي، وتطمين للمستقبل.

لقد كان ورقة بن نوفل يقول للنبي ﷺ: «لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئتَ به إلَّا عُودي»؛ لأنه يدري بعلمه بالكتاب والنبوات السابقة أن مهمة الرسول ﷺ تغييرية؛ وأنه جاء ليغيِّر عقول الناس وسلوكهم وأخلاقهم وعقائدهم وعباداتهم، وأن هذه المهمة الشاقة لا تتم إلا بالاستعانة بالله.

اقرأ باسم ربك، فهو الذي يمدك بعطاءات ربوبيته، ويمنحك فيوض معرفته كلما ازددت من القراءة طلبًا للعلم النافع، وهو الذي يفتح لك من الأبواب والمسالك لاكتساب المعارف مما يجر إليه تسلسل الفكر، وترابط الذهن ما لا يمكن أن تجده إلا بعونه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ فربك هو الخالق المعبود(١).

وهنا يظهر زيف الأصنام، ويتجلَّى الإقرار المطلق بالوحدانية التامة؛ لأنه ما من أحد ادَّعى الخلق مع الله سبحانه.

* ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾:

فيه إشادة بالإنسان، فبعد أن ذكر المخلوقات كلها كرَّمه وخصَّصه، وأي تكريم أعظم من أن يختار الله تعالى من جنس الإنسان نبيًّا يوحي إليه، كما قال: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وهذا من الاحتفاء والتكريم، نقيض ما كان المشركون يقولون: كيف يكون نبيًّا وهو بشر؟

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٥٩٠).

وثَمَّ معنى آخر، وهو أن كون الإنسان محلًّا للابتلاء، هو في حقيقته تكريم؛ لأن الحيوانات والطيور والجمادات ليست مخاطبة، أما الإنسان فقد كرمه الله واصطفاه، وخاطبه وكلَّفه وميَّزه بالعقل[1].

﴿مِنْ عَلَقٍ﴾: قد يكون «العَلَق» اسم جمع لـ«عَلَقة»[2]، ولم يقل سبحانه: «خلق الإنسان من علقة»؛ لأن المقصود بالإنسان الجنس، وليس الفرد، كما في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١- ٢]، يعني: خلق الناس.

والعَلَقة: مرحلة من تكوين الجنين، والإنسان يُخلَقُ من الحيوان المنوي، وهو من الأحياء الدقيقة التي لا يمكن مشاهدتها إلا بمكبرات ضخمة، وعند ما يُلَقِّح البُويضة يبدأ وجود الإنسان، وقد تكون العَلَقة هي هذا الحيوان المنوي، **والأقرب** أن المقصود مرحلة متقدِّمة؛ لأن الإنسان لم يُخلق من الحيوان المنوي وحده، وإنما مع بُويضة المرأة، فالأنسب أن تكون العَلَقة بعد التلقيح، ولهذا قال: ﴿خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾، والنُّطفة: ماء الرجل، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَـةٍ﴾ [الحج: ٥] وهي تشبه العَلَقة الموجودة في الماء، حيث تعلق في رحم المرأة[3].

وفيه إشارة إلى الفرق بين الإنسان وبين العلق، بين هذه المادة التي تخلق منها وبين كونه بشرًا كرَّمه ربه وسوَّاه وعدَّله، ورزقه العقل، وفرض عليه التكليف، فثَمَّ نقلة بعيدة بين هذا وذاك، وسرعان ما يسرح الخيال مقارنًا بين عَلَقة لا تُرى إلا بالمجهر وبين إنسان سوي قائم عاقل قارئ مكرَّم، ولهذا قال تعالى عن الكفار: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾. ثم رد بقوله: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٨- ٣٩]، فهم يعرفون مِمَّ خُلِقوا؟

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» (٩/ ١٥)، و«التفسير البياني للقرآن الكريم» (٢/ ٢٣).

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٣٨)، و«تفسير جزء عم» لابن عثيمين (ص٢٥٧).

(٣) ينظر: «نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين»، و«علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة».

وكأن المعنى أن المادة التي خُلِقتَ منها لا تؤهِّلُكَ للمطالب العالية بمجردها إذا لم تستخدم الوظائف التي أَقْدرك الله عليها.

✻ ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾:

﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾: التفضيل هنا ليس بقياس الله تعالى لأحد من خلقه، فله من الكرم والجود والفضل ما لا يقاس به أحد؛ لأن كرمَ المخلوقين كلَّه في بعض ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكرَمُه في خلقه للعباد، ومنحهم العقول والأفهام، ووضع الكون الفسيح الممتد المحكم المنضبط، وتمكينهم من قراءة نواميسه وتسخيره لهم، ثم بإنزال الرسالة إليهم، ولم يكِلْهم إلى أنفسهم(١).

✻ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾:

والتعليم من أعظم الكرم الرباني، والكرم يشمل الحياة والصحة والعافية، والجوارح والسمع والبصر، والعقل واللسان، وكل الفضائل والنعم، ولكنه نصَّ هنا على نوع خاص منه، وهو التعليم بالقلم.

وهو المعلِّم سبحانه، ولم يبيِّن مَن هو المعلَّم، فدخل في ذلك الإنسان والملائكة، وكل مَن يصلح للخطاب.

وفي الآية لفتة إلى أن النبي ﷺ لم يكن كاتبًا، وأنه لا يزال أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، فلم تُشر الآية إلى تعليم النبي ﷺ نفسه بالقلم، وفيه إلماح إلى عدم زوال الأمِّيَّة عن النبي ﷺ، فهي بالنسبة له كمال، وهي بالنسبة لغيره نقص، ولهذا يقول عزيز أباظة:

إن أُمِّيَّةَ الرسولِ قضَاها الـ ... ـله عن حكمةٍ لها بينـاتُ
كلُّ أميةٍ سواها يسيحُ الـ ... ـجهلُ فيها وتسبحُ الظلماتُ

ففي أميته الدلالة على مصدر تعليمه، وهو الوحي، ومع أميته فهو سيد العلماء،

---

(١) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص٥٠)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص١٧٦)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص١٧٥).

وإمام الفقهاء ودليل العارفين، وقائد الدعاة، وهو الذي قال: «**نَضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ مقالتي، فوعاها فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حاملِ فقه إلى مَن هو أفقهُ منه**»(١).

وفيها إشادة بالقلم، حتى في عصر ثورة المعلومات والاتصالات، فإن جميع وسائل الحفظ لا تخرج عن مفهوم القلم والكتابة، ويظل القلم سيد الأدوات والآلات، ويظل للكتاب مقامه ومكانته، ولا تجد بيتًا إلا وفيه مكتبة، وثقة الناس بالكتاب لا زالت أكثر من ثقتهم بأي وسيلة إعلامية أخرى(٢).

وقد ذُكر القلم في مواضع، منها هذا الموضع، ومنها قوله تعالى: ﴿**نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ**﴾ [القلم: ١]، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ**﴾ [آل عمران: ٤٤].

وإذا كانت ﴿**ٱقۡرَأۡ**﴾ هي أول الأوامر، فإن القلم هو أول المخلوقات، كما في «سنن أبي داود»: «**إن أولَ ما خلقَ اللهُ القلمُ، فقال له: اكتبْ. فجرى بما هو كائنٌ إلى الأبد**»(٣).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن القلم أول المخلوقات، وذهب آخرون إلى أن العرش قبله.

ومعنى الحديث السابق: أن الله أول ما خلق القلم قال له ذلك، وليس المعنى أن القلم هو أول مخلوق.

والراجح أن العرش متقدِّم على القلم، وأن القلم خُلق بعده، ولهذا معناه

---

(١) تقدم تخريجه في «سورة القيامة»: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢﴾.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الطور»: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣﴾.

(٣) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، وأحمد (٢٢٧٠٥)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٣، ١٠٧)، وفي «الأوائل» (١، ٢) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر: «شرح المشكاة» للطيبي (٢/ ٥٥٤)، و«قوت المغتذي على جامع الترمذي» (١/ ٥١٦)، و«مرقاة المفاتيح» (٢/ ٥٢٢)، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٣).

ودلالته(١).

إن أُميَّةَ الرسول ﷺ أمر خاص به، حتى لا يظن أحد أنه تلقن القرآن من بشر أو تعلَّمه من كتاب، ولذلك ظل ﷺ أميًّا حتى مات، على القول الصحيح، ولم يكن يقرأ ولا يكتب.

وأما ما ورد في صلح الحُدَيْبِيَة من أن النبيَّ ﷺ كتب: «محمد» بدل: «رسول الله»، كما في بعض الألفاظ في «صحيح البخاري»، **فقيل**: المعنى: أنه أمر مَن يكتب، وقال بعضهم: إنه لا مانع أن يكون الرسول ﷺ تعلَّم هذه الكلمة فقط؛ لأنها اسمه الكريم، ومن السهل على كثير من الناس حتى لو كانوا أميين أن يعرف الواحد منهم كيف يرسم اسمه دون أن يكون قادرًا على الخط والكتابة، وهذا ذكره الذهبي وغيره.

وقد تحمَّل الإمام الباجي عناءً كبيرًا حينما تبنَّى القول بأن النبي ﷺ كان يكتب، وقال به، ورد عليه كثير من الناس، وشنَّعوا عليه، وبالغوا في ذلك، كما هي عادة الأقران بعضهم مع بعض(٢).

فالإشارة إلى القراءة بالأمر الإلهي، ثم إلى الكتابة بذكر القلم هي دعوة لهذه الأمة أن يقرؤوا ويتعلَّموا، ويفتحوا كنوز العلم، ويتخلَّصوا من أميتهم، ويبدأوا مسيرتهم العلمية المترقية في مجالات العلوم، فليست الأمية فضيلة لأحد بعد

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٦٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٣٢٩)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٥٤٦)، (٢٣/ ١٤٠- ١٤٧)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢١)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٢٧٥)، (١٨/ ٢١٣)، و«التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم (ص٢٠٦- ٢١٢)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (ص٢٦٥).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢٥١)، و«تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٢٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٥٢)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٢٢٠)، و«تاريخ الإسلام» (٣٢/ ١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٨٦)، و«تاريخ ابن خلدون» (٢/ ٤٤٨)، و«فتح الباري» (٧/ ٥٠٣)، (٨/ ٢٩٠)، و«التلخيص الحبير» (٣/ ٢٧٠)، و«مرقاة المفاتيح» (٦/ ٢٦١٥- ٢٦١٦)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٥٧٤)، (٢١/ ١٠).

الرسول ﷺ، فالأمة مأمورة بالقراءة والكتابة والتعلم والتعقل والتفكير.

وفي ذكر الكرم الإلهي وَعْدٌ لطالب العلم إذا صدق وبدأ عمله باسم الله تعالى، مستعينًا به، صادقًا في نيته، مفوِّضًا إليه، باذلًا للأسباب؛ أن يعينه الله ويساعده، ويذلِّل له العقبات؛ ولهذا قال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، يعني: علم الإنسان الأشياء التي لم يكن يعلمها من قبل، ولذا قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، فهو علَّم نبيه من الوحي ما لم يكن يعلم، وعلم الإنسان- جنس الإنسان- ما لم يكن يعلم(١).

* ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾:

وهذا أول موضع ترد فيه كلمة ﴿كَلَّآ﴾ من حيث النزول، وقد وردت في القرآن الكريم في ثلاثة وثلاثين موضعًا، منها ثلاثة مواضع في هذه السورة، ومواضعها مكية في الغالب؛ لأن فيها معنى الزجر والتوبيخ والتهديد والوعيد، وهو مناسب لعناد الكفار وتكذيبهم وإيذائهم لرسول الله ﷺ.

وإلى هذا المعنى ذهب فقهاء البصرة، وسيبويه والخليل والمُبرِّد والزَّجَّاج وجماعة(٢).

وذهب آخرون إلى أن ﴿كَلَّآ﴾ تأتي بمعنى «حقًّا»، وقد تكون حرف جواب، بمعنى: «إي»، أو «نعم»، وقد تكون حرف استفتاح، بمعنى: «أَلَا»(٣).

وهذه الآيات الكريمة المبدوءة بـ﴿كَلَّآ﴾ متراخية في النزول عن أول السورة؛ فإن الآيات الخمس الأولى هي أول ما نزل في غار حراء، ثم جاءت فترة الوحي، فتأخر الوحي عن النبي ﷺ مدة(٤).

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٤٨٠)، (٢٤/ ٥٣٢)، و«الكشاف» (١/ ٥٦٤)، و«زاد المسير» (١/ ٤٧٠)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٣٨٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٤١).

(٢) ينظر: «مغني اللبيب» (ص٢٤٩)، و«اللامات» للزجاجي (ص٣٦)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «مغني اللبيب» (ص٢٥٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (٤/ ٣٨١)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٤٤٦- ٤٤٧).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (١/ ٢٧).

واستفتح السياق الجديد بـ﴿كَلَّآ﴾؛ لأن الحديث انتقل إلى المكذِّبين المعارضين، فناسب أن يبدأه بالزجر والتعنيف والتهديد.

لقد سبق ذكر خلق الإنسان من عَلَق، وهنا يظهر التناسب اللطيف بين الموضعين، بين إنسان مخلوق من ماء مهين، ثم من نطفة، ثم من علقة، وبين هذا الإنسان المكتمل النمو؛ فهو يزهو بنفسه ويطغى بما أوتي من غنى ومال وولد وقوة وجاه.

و﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هنا يحتمل:

- عموم الناس.

- أو المراد شخص معين، وهو: أبو جهل[1]؛ وقد جاء في الحديث الصحيح أن أبا جهل لما رأى النبيَّ ﷺ يركع ويسجد ويعفِّر وجهه، قال: واللَّات والعُزَّى، لئن رأيتُه يفعل ذلك، لأَطَأَنَّ على رقبته، أو لأُعَفِّرَنَّ وجهَهُ في التراب. قال: فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يصلِّي، زَعَمَ ليَطأ على رقبته. قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو ينكُصُ على عَقِبَيْهِ ويتَّقِي بيديه. فقيل له: مَا لَكَ؟ فقال: إن بيني وبينه لخَنْدَقًا من نار وهَوْلًا وأجنحةً[2]. فتراجع ولم يتعرَّض للنبي ﷺ.

ونلحظ أن الله تعالى لم يذكر اسم أبي جهل في الآية، مع أنه «فرعون هذه الأمة»، وقد سبق في علم الله أنه يموت كافرًا؛ لنتعلَّم من هذا أنه ينبغي الحرص على عفة اللفظ والقول، وألَّا يُسمَّى إلا إذا كان ثمَّة حاجة إلى التسمية؛ لأن أولئك الناس هم محل دعوة، وقد يؤمنون وقد يسلمون، وقد يستقيمون، فأَبْقِ لهم فرصة، وابنِ لهم جسرًا يعبرون به إلى الخير، ولا تحاول أن تحاصرهم بأخطاء أو بأسماء، أو بأغلاط، وكأنك لا تريد أن يخرجوا من أخطائهم، أو كأنك ترى الخير والإسلام خصوصية وملكية شخصية لك، فكلما كثر الناس عليها قلَّ نصيبك

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢١٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٧١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

منها، وكأنك تقول: ماذا بقي لي إذا كان كل الناس أخيارًا وصلحاء ومستقيمين؟! وهل المطلوب أنك تتميَّز؟

يحسن أن نتعلم من القرآن الكريم أن نوصل الرسالة بدون أن نجعل فلانًا وفلانًا وسيلة إيضاح، ومَن سبَّ الناس سبوه، كما قيل[1]:

ومَن هاب الرجالَ تهيَّبُوه ... ومَن حَقَرَ الرجالَ فلن يُهَابا

ولو مت وأنت لم تلعن فرعون ولا أبا جهل، فلن يحاسبك الله على ذلك يوم القيامة، فكيف بأخيك المسلم؟ فلماذا لا تعوِّد لسانك العفة في اللفظ، وتصريف القول في معالي الأمور: في بناء النفس، والعلم، والعمل، والإخلاص، ومصالح الدنيا، وبناء الخير، وصناعة الحياة!

وهنا عبَّر بـ«يطغى»، وفي «سورة طه» كان الحديث عن فرعون، فعبَّر بلفظ: ﴿طَغَىٰ﴾، والتعبير هنا أشد من التعبير عن فرعون؛ والسبب- والله أعلم- أن الآية نزلت وأبو جهل حيٌّ يرزَق، يمارسُ طغيانَه ويفعلُه، فهي تتكلم عن أمر يقع الآن ويقع في المستقبل، وليس عن أمر مضى، وإن كان قوله: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ خطاب لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكنه نزل في القرآن الكريم حكايةً عمَّا كان[2].

ولا يبعد أن يقال: إن طغيان أبي جهل أشدُّ من طغيان فرعون؛ لأنه حتى قبل النبوة لم يُعرف عنه حسن المعاملة مع النبي ﷺ، بخلاف فرعون، فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تربَّى في قصره: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]، ثم لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، بخلاف أبي جهل فرعون هذه الأمة لما ضُرب في معركة بدر وخَرَّ صَرِيعًا كان يقول: لمَن الدائرةُ اليوم؟ ولما رقي ابنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على صدره قال: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا

---

(١) ينظر: «العقد الفريد» (٢/ ١٤٢)، و«البصائر والذخائر» (٢/ ١٤٨)، و«حلية الأولياء» (٩/ ٨٣)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٢٥٢)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ١٠٥٢)، و«شعب الإيمان» (٨٠٥١، ٨٠٩٠).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٠).

يا رُوَيعِيَ الغنم[1]. فكانت بدايته ونهايته الطغيان، ولا يبعد أن يكون في قلب أبي جهل من العتوِّ والتمرُّدِ والطُّغيان أشدَّ مما في قلب فرعون!

* ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾:

يعني: أن رأى نفسه غنيًّا[2]؛ فالغنى في حد ذاته ليس المشكلة، وإنما المشكلة هي رؤية الإنسان ذاته مستغنيًا مغرورًا.

وهنا نلحظ الفرق اللطيف بين قوله: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، وبين قوله في «سورة الليل»: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ٨﴾، لم يقل: «ورآه استغنى»، لأنه هنا يبيِّن سبب الطغيان، وسبب الطغيان ليس هو الغنى، وإنما هو شعور الإنسان بالاستغناء عن الله تعالى.

وفي الآية دلالات نفسية عميقة؛ فالإنسان إذا تُرِك وشأنه كبرت عليه نفسه، وإذا شعر بالاستغناء في العلم حمله ذلك على الطغيان والكِبر والعُجْب، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

وكذلك الاستغناء بالعلم على مستوى الأمم؛ فالغرب لديهم حضارة وعلم دنيوي، ولكن شعورهم بالاستغناء، وافتقادهم للقيم الإيمانية الربانية، أوجد عندهم طغيانًا ونسيانًا لحق الله.

والطغيان يمنع الإنسان من قبول الحق، ولذلك من فضل الله تعالى على العبد أن يرزقه التواضع، وكثرة مراقبة النفس، وبقدر ما تراقب الآخرين راقب نفسَك ولاحظْها، وتعاهدها، وانتبه إلى أنه تعالى قد يسخِّرُ لك حتى من خصومِك وأعدائك مَن يعينك على نفسك؛ حتى لا تكبُر نفسُك وتؤذيك.

---

(١) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٨٩- ٩٠)، و«سيرة ابن هشام» (٣/ ١٤٨)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٥٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥٩٧٠)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص٤٧٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٨٥- ٨٦)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٦٢)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٣٧، ١٥٩).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٨١).

والذي تعوَّد أن لا يسمع إلا المدح، تطرُب أذنُه للمديح، ويستلذُّ به، فإذا سمع صوتًا ينتقد، أو يصحِّح، أو يستدرك، أو يقتصد في الثناء؛ أصبح نشازًا في أذنه، وقد يكره صاحبه أو يظنه متحاملًا.

ولو أن أحدنا سمع النقد والذم والتوجيه والملاحظة لمدة عشر سنوات بلا انقطاع، ثم توقف عنه ذلك أسبوعًا لا يسمع فيه إلا الثناء والمدح، فإن طبعَه يفسد أثناء الأسبوع، حتى لو جاءه في اليوم الثامن مَن ينتقده، لما وجد الأريحِيَّة والتقبل الذي كان يجده من قبل.

فمن رحمة الله وحكمته أن يقع للبشر نوع اختلاف، وعلى المرء أن لا ينظر للأمور نظرة محدودة، فلله سبحانه في خلقه شؤون، وهذا يعوِّد الإنسان أن لا يرى نفسه، ولا يستغني بعلم أو مال أو سلطان، أو خبرة، أو جاه.

ولذلك كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «مَنهومان[1] لا يشبَعان: صاحبُ العلمِ وصاحبُ الدُّنيا، ولا يَستويان، أمَّا صاحِبُ العلمِ، فيزدادُ رضًا للرحمنِ، وأمَّا صاحبُ الدُّنيا، فيتَمادى في الطُّغيانِ»[2].

وفي القرآن الكريم ذم الأَثَرة أو الأنانية؛ كقوله سبحانه إخبارًا عن فرعون: ﴿**فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿**أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقد علَّم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول: «**اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت، فاغفرْ لي مغفرةً من عندك وارحمني، إنك أنت الغفورُ الرحيمُ**»[3].

حدث مرة في بلاد الأندلس أن أُصيبت بقحط وجَدْب، فجاع الناسُ وهلكت المواشي، وتواعد الناسُ للخروج لصلاة الاستسقاء، وأرسل الأميرُ عبدُ الرحمن

---

(١) أي: حريصان على تحصيل أقصى غايات مطلوبيهما، والنَّهْمة: بلوغ الهمة في الشيء.

(٢) أخرجه الدارمي (٣٤٤)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١٠٠٩)، والآجري في «أخلاق العلماء» (١/ ٦٨)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٤٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

الناصر إلى الفقيه المنذر بن سعيد البلُّوطي القاضي يأمره بالخروج، فقال القاضي للرسول: يا ليتَ شعري، ما الذي يصنعه الأميرُ يومنا هذا؟ فقال: ما رأيتُهُ قَطُّ أخشعَ منه الآن، قد لبس خشنَ الثياب، وافترَشَ الترابَ، وجعله على رأسه ولحيته، وبكى، واعترفَ بذنوبه، ويقول: هذه ناصيتي بيديكَ، أَتُرَاكَ تُعَذِّبُ هذا الخلقَ لأجلي؟ فقال القاضي: يا غلامُ، احمل المِمْطَرَ(١) معك؛ فقد أَذِنَ الله بسقْيانا؛ إذا خَشَعَ جَبَّارُ الأرض رَحِمَ جَبَّارُ السماء. فاستسقى، وسُقِي الناس(٢).

* ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾:

﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾: الرجوع، وأول مراحل الرجوع: الموت، ثم الدار الآخرة.

وفي هذا تذكير لذلك الإنسان الذي «طغى» وكبرت عليه نفسه، فقد ذكَّرَه أولًا أنه «خُلق من عَلَق»، ثم ذكَّره آخرًا أن «إلى الله الرُّجْعى»، فكأنها تقول: إن الإنسان محصور بين بدايةٍ من عَلَق، ونهاية إلى تراب، ثم رجوع إلى رب الأرباب، فكيف له أن يتمرَّد أو يتكبَّر أو يطغى(٣)؟

وهي دعوة للإنسان أن يتواضع لربه ويعرف قدره، فالغنى وتملُّكُ المال لا يكون مذمومًا إذا راعى فيه ثلاثة أمور:

١- أن يكون طلبُ المال من حلال، لا عدوان فيه ولا ظلم.

٢- أَلَّا ينفقه فيما حرَّم الله.

٣- أَلَّا يَحجزَه عما أوجبه الله عليه فيه؛ من زكاة وإطعام الفقراء والمساكين والمحاويج، ومَن تجب عليه نفقتهم.

---

(١) هو ما يُلبس في المطر يُتوقَّى به.

(٢) ينظر: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس» (ص٢٥١- ٢٥٢)، و«الكامل» لابن الأثير (٧/ ٣٤٧)، و«تاريخ الإسلام» (٢٥/ ٤٤٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٦٣)، (١٦/ ١٧٧)، و«البداية والنهاية» (١٥/ ٣٨٠)، و«نفح الطيب» (١/ ٥٧٣).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٧٣)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٠٤).

* ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾:

تعجيب من حال هذا الذي لم يكتف بالإعراض عن الصلاة، بل نهى المصلِّين عن صلاتهم، واستعمل الزجر والتهديد والوعيد لمَن فعل، وهو أبو جهل الذي نهى النبي ﷺ عن الصلاة، وكان يؤذيه بقبيح الكلام.

والعبد هنا هو: الرسول ﷺ، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيِّد العابدين، ومع ذلك فإن الله تعالى أتى بهذا اللفظ ﴿عَبْدًا﴾ نكرة، **وفي هذا معان**(١):

١- افترِضْ أن أي إنسان نهى أي عبد، وليكن هذا العبد من ضعفاء الناس أو من أطرافهم، المهم أنه عبدٌ يصلِّي، ويأتي آخر ينهاه عن طاعة الله، فهذا تشنيع لهذه الجريمة، أيًّا كان الشخص الذي وقعت عليه، أو وقعت منه.

٢- وفي ذلك تشريف لمقام النبي ﷺ وثناءٌ عليه بالعبودية، وتعريض بخصمه المتجرِّد من الفضيلة.

وهذا شيء مثير للغرابة؛ فهو ينهاه عن الصلاة التي هي عبودية لله تعالى، والله تعالى وصف محمدًا ﷺ بالعبودية في مواطن كثيرة، كما قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، يقول القاضي عِياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢):

ومما زادني شَرَفًا وتِيهًا ... وكِدْتُ بأَخْمَصي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دخولي تحتَ قولك: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ ... وأنْ صيَّرتَ أحمدَ لي نبيَّا

نسبته ﷺ إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، ولما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٠٨)، والمصادر السابقة، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، و«سورة القمر»: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾، و«سورة الجن»: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

(٢) ونُسب أيضًا إلى الشافعي، وتقدم تخريجه في «سورة الجن»: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا[1]، فمقام العبودية أشرف المقامات التي وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا ﷺ.

٣- وفي ذلك إشارة إلى تناقض ذلك الناهي؛ لأن من شأن العبد أن يصلِّي لمولاه وسيده، فكيف يتجرَّأ على نهيه وتهديده؟ وربما كان من إيحاءاتها أن الناس ليسوا عبيدًا لك يا أبا جهل لتنهاهم كما يفعل السادة مع عبيدهم، بل هم عبيد لله وحده.

٤- وفيها تبشيع الفعل؛ لأن السامع إذا سمع ﴿يَنْهَىٰ﴾ تبادر إلى ذهنه تساؤل: ينهى عن ماذا؟ وقد يتخيَّل قائمة طويلة من المنهيات، ثم يفاجئه السياق بأن النهي ليس عن شيء منها، بل عن الصلاة التي هي سرور النفس وقرة العين ومعراج الروح وسلوة الفؤاد.

وقد كان النبي ﷺ يأتي إلى الكعبة يصلِّي ويعبد ربه، فأتاه أبو جهل فنهاه، وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والاستهانة بقيمة الإنسان، الذي خلقه ربه وعلَّمه ما لم يكن يعلم، واستعبده في الأرض، فتسلط من الطغاة من يمنع هذا الإنسان من أن يؤدِّي شيئًا من العبادة، ولو مجرد الصلاة، وهي سلوك شخصي صرف.

❊ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾:

الراجح أن المقصود هو النبي ﷺ، وليس أبا جهل[2].

وفي الآية تنزُّل للخصم أيًّا كان المقصود بذلك، فهي تقول: هب أنه على الهدى، يأمر بالتقوى احتمالًا، فلماذا تنهاه؟

والمؤمن مطمئِنٌّ قلبه بالإيمان، وعلى بينة من ربه، لكن في مقام المخاطبة والدعوة يأتي مثل هذا الأسلوب الذي يستمِيلُ القلوب، ويحرِّك العقول.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبان (٦٣٦٥)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٠٠٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٨٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٣٨).

فمن أساليب الدعوة التنزّل في الخطاب على أسلوب: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، ثم قال بعدها: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ [سبأ: ٢٤- ٢٥].

ففيما يتعلق بفعلنا أنتم لا تسألون عما تعدونه منا جُرمًا: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]، ولم يقل: «عما تجرمون»، وهذا لم يغير من الحقيقة شيئًا، لكنه جاء بصياغةٍ تستمِيلُ القلوب.

﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾: قوله: ﴿عَلَى﴾ يدل على التمكن، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٥]، يعني: أنهم على هذا الهدى مستقِرُّون متمكِّنون، وقال: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾ أي: أمر غيره، فهذا مقام دعوة وبيان، فلماذا يتم الاعتداء عليه ومصادرة حقه في الدعوة إلى الله، ولهذا قال ﷺ: «**يا ويحَ قريش! قد أكلَتْهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائرِ الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادُوا، وإن أظهرَني اللهُ تعالى دَخلُوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفْعلُوا قاتلوا وبهم قُوَّة، فماذا تظنُّ قريشٌ، فوالله لا أزالُ أجاهدُهم على الذي بعثني اللهُ تعالى به حتى يُظهرَني اللهُ** عَزَّوَجَلَّ، **أو تنفردَ هذه السَّالفةُ**»(١).

* ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣﴾:

أي: أبو جهل، وكل مَن يصلح له الخطاب ممن عمل عمله وكان على شاكلته، والضمائر في الآيات وإن كانت غير مرتبة، إلا أن السِّياق لا لبسَ فيه؛ فإن الذي على الهُدى آمر بالتقوى هو: النبي ﷺ، والذي كذَّب وتولَّى هو أبو جهل.

وقوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: كذَّب في نفسه، وتولَّى في حقِّ غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فهو قد كذَّب في نفسه، وتولَّى للصد عن دين الله؛ ليمنع

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المِسْور بن مَخْرمة ومَرْوان بن الحكم، وينظر ما سيأتي في آخر «سورة الكافرون».

النبي ﷺ من الدعوة، ويحُول بين الناس وبينه(١).

* ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾:

وهنا نلاحظ أن الله لم يبادئه بالتهديد بالعقوبة الأخروية، وإنما ذكَّره باطلاع الله عليه، وفي هذا رادع لمَن كان له قلب.

كما قيل(٢):

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظلمةٍ والنفسُ داعيةٌ إلى الطُّغيانِ
فاستَحْيِ من نظَرِ الإلهِ وقُلْ لها: إنَّ الذي خلَقَ الظَّلامَ يراني

وفيه طُمأنينة كبيرة للمؤمنين، فهذه دعوةُ الله، وهذا دينُه، والله تعالى حافظٌ دينَه، ومظهر دعوته.

* ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥﴾:

﴿كَلَّا﴾ تهديد يناسب ما صدر من أبي جهل، إن لم ينته عما هو عليه من التكذيب والتولِّي والإيذاء، ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: هذه نون التوكيد الخفيفة، وإن كانت تُكْتَب في القرآن ألفًا، **والناصية**: مقدَّمُ الرأس(٣).

ومن معاني السَّفع(٤):

١ - **الأخذ بالناصية**؛ أي: يجر برأسه على وجهه، وهذا إذلال يقابل كبرياءه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، أي: يُؤخذ بناصية هذا الرجل ومَن كان على شاكلته ويُسحب إلى نار جهنم: ﴿يَوْمَ

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٥)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٥٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٧)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ١١٤).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الطارق»: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤﴾.

(٣) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٨١٠) «ن ص ا».

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٠٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٠).

﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣- ١٤].

وهو معنى مرعب مخيف، وتهديد يزلزل قلوب مَن ليسوا مقصودين بهذا التهديد، فكيف بالمخاطِب لو كان له قلب؟!

٢- **الصَّفع**، أي: الضرب على وجهه، والناصية قد تُطلق على مقدم الشعر باعتبار القرب، أي: إذا لم يكف فسوف يضرب على وجهه، وضرب الوجه إهانة وإذلال.

٣- **السَّفع** هو: السواد، يقال: فلان فيه سَفْعة، أي: ضَرْبٌ من السواد، ومنه المِسْفَع، وهو: الغطاء الأسود الذي تلبسه المرأة، والمقصود: الوجه، وأطلق الناصية عليه من باب المجاورة، أو إطلاق الجزء والمراد الكل، فالمقصود: تسويد وجهه.

وهذا يشمل سواد الوجه الحقيقي بالمعصية، والسواد بالهزيمة، كما حصل لهم في بدر؛ فإنهم اسودت وجوههم، وعاينوا سوء المصير، وقد يقال للإنسان الذي نزلت به نازلة أو مصيبة: إنه مسود الوجه.

ومنه تسويد الوجوه يوم القيامة، **والمقصود**: ناصية أبي جهل، أي: الناصيةُ المعروفة المعهودة، التي استقرت في الأذهان، ناصية هذا الطاغية المتمرد.

* ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾:

وَصَف الناصية بأنها كاذبة خاطئة، أي: كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها.

والخاطئ هنا: من فِعل الخطيئة، وليس من الخطأ، والفرق بينهما واضح، كما قال: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٥- ٣٧].

والسياق وإن كان سببُه أبو جهل، إلا أن تقييده بالوصف يدل على أن كلَّ ناصية تفعل مثل ذلك، ويتوفر فيها هذا الوصف، فهي حقيقة بهذا التهديد؛ لأن الله سبحانه ما عرَّض بهذا الرجل إلا لأنه صاحبُ كذبٍ وخطيئةٍ.

وجاء الوعيد مخصَّصًا لأبي جهل من بين سائر المجرمين، بأن يُؤخذ بناصيته

إن لم ينته، فلما كانت معركة بدر، وأُصيب أبو جهل، جاء إليه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فارتقى على صدره، حتى قال له أبو جهل: لقد ارتقيتَ مرتقًى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم. وسأله: لمَن الدائرة؟ قال: لله ولرسوله وللمؤمنين. ثم سُحب أبو جهل بناصيته وأُلقي في القليب(١)!

وكانت معركة بدر في السنة الثانية، فكان بين الوعيد وبين إنفاذه نحو من أربع عشرة سنة!

* ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾:

والنادي هو: المنتدى الذي يجتمع فيه القوم ويتنادون إليه، ومنه: دار الندوة؛ التي كانوا يجتمعون فيها في مكة ويتشاورون في شؤونهم.

و«النادي» غالبًا ما يكون في النهار، وأما المجتمع في الليل فيسمَّى: السامر، كما قال تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، من السمر، وهو: ضوء القمر الذي يأنَسُ به السُّمَّار، فيسهرون إلى غياب القمر(٢).

إن كان يهدِّد بجماعة النادي فليدعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]!

والفعل ﴿سَنَدْعُ﴾ الراجح أن فيه واوًا؛ لأنه فعل مضارع ليس منصوبًا ولا مجزومًا، وإن كانت غير مكتوبة في المصحف لاعتبارات ذكرها أهل الرسم، وبعضهم يقول: إن «ندع» هنا مجزومة، ولكن هذا ليس بقوي؛ لأنه مسبوق بالسين(٣).

والزَّبانية: جمع ليس له مفرد من لفظه، وبعضهم يقول: مفرده: زَباني، أو زَبْنِيَة، أو زابن، **والمقصود:** الأقوياء الأشدَّاء، وإنما سموا: الزَّبانية، من: الزَّبْن،

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٨)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٦/ ٢٤).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٢/ ١٢٥، ٢٥٦)، و«روح المعاني» (٣٠/ ١٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٢).

وهو الدَّفْع[1]، **والمراد بهم**: الملائكة المكلَّفون، من خَزَنة جهنم أو غيرهم ممن يكلفون بعذاب مَن أراد الله تعالى تعذيبه.

والسين للاستقبال، ولكن فيها نوعٌ من التأخير، أو التنفس بعض الشيء، ولذا أمهله الله إلى يوم بدر[2].

* ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ١٩﴾:

خطاب للنبي ﷺ أن لا يطيع أبا جهل، كما قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

والسجود قُرْبٌ إلى الله تعالى، وهو الذي كان ينهى عنه أبو جهل، أمر تعالى نبيَّه ﷺ بالإمعان في ذلك، والإصرار عليه والصبر، وأن يسجد لربه ويقترب منه؛ ولهذا قال ﷺ استنباطًا من هذه الآية: «**أقرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**»[3].

فالقرب والاقتراب من الله تعالى يكون بالسجود؛ لأن أشرفَ ما في الإنسان هي جبهته وأنفه.

فإذا سجدَ لربه، وعفَّر وجهَه بالتراب، تخلَّص من كبرياء الأنانية، وكان في غاية العزة، وفيه دليل على أن صلاة النبي ﷺ التي كان يصلِّيها في أول الإسلام كانت قيامًا وركوعًا وسجودًا، وإنما كانت ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره.

لقد علِم تعالى أنَّ هذا الرجل يموت كافرًا، ولهذا تهدَّده وتوعَّده وبيَّن جرمه وغلظه، وسوء مصيره.

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٤)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٢٥٤)، و«إعراب القرآن» لِقوام السُّنَّة (ص٥٣٥)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٣٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٠)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٤٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٨٢)، و«الكشاف» (٤/ ٧٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذكر تعالى أبا جهل بما لم يذكر به غيره من رؤوس الكفر، وظهر بعد حينٍ أن كثيرًا من شيوخ الضلالة أسلموا وحسن إسلامهم، وكان الرسول ﷺ يستأني بهم، حتى حدثت غزوة بدر وأَسَرَ منهم مَن أَسَرَ، وكان رأي النبي ﷺ ورأي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إطلاق الأسرى مقابل الفِداء، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: يا رسولَ الله، أرى أن تستأني بهم؛ لعل الله تعالى أن يهديهم(١).

إن مسألة وجود أعداء للرسالات وللدعوات وللمصلحين، أمر لا بد منه، والذي يحاول غير ذلك يرجو محالًا، ولكن ينبغي أَلَّا يُفهم من هذا افتعال العداوات أو صناعة الأعداء، أو توسيع العداوات، ولكن الأصل في المعاملة أن مَن لم تستطع أن تتخذه صديقًا، فحاول أن لا تتخذه عدوًّا، ومَن لم تستفد منه فلتحاول السلامة من شرِّهِ، والقرآن جاء بمصانعة العدو بالتي هي أحسن والإعراض عنه، ودفع السيئة بالحسنة حتى يصبح العدو وليًّا حميمًا.

وسيرة النبي ﷺ طافحة بهذا المعنى، كما في قصته مع ثُمامة بن أُثال، ومع غَوْرَث ابن الحارث، ومع أبي سفيان، ومع هند بنت عُتبة، ومع عبدِ الله بنِ أُبيٍّ ابن سَلُولَ، ومع أهل الطائف ومكة ومع المنافقين.. وغير ذلك.

وإذا تأملت «سورة العلق» وجدتها متضمنة معاني الدين: كأمر الربوبية: ﴿رَبِّكَ﴾، وأمر الألوهية: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾، وأمر الأسماء والصفات: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾.

وأمر البعث: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾.

وأمر النبوة في قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأمر الرسالة في قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾، وأمر الكتب في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾.

وأمر القدر؛ فإن الخلق هو أول مراتب القدر، وبعده الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذا في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾.

وفي السورة تضمين لنظرية المعرفة وفلسفتها، أو ما يُسمى: «الأبستمولوجيا»،

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

فهي تأكيد على أهمية المعرفة ونظام تحقيقها، والغيب والشهادة، **وإشارة إلى وسائل المعرفة، وهي**:

١- **الوحي**، وهو طريق معرفة الغيب وما لا يحيط به البشر، ولأنها أول سورة جاء بها الوحي كان مناسبًا أن تكون مؤسسة لنظرية المعرفة الإسلامية.

لقد استطاع العلم أن يكشف الكون ويحيط بنواميسه، ولكن الإنسان وتشريح دماغه ونفسيته لا يزال لغزًا تحيط به الكثير من الحواجز، وكلما اتسعت دائرة العلم تضاءل العقل البشري وتأكدت حاجته لمصدر آخر، هو الوحي.

ولا تزال علوم النفس والاجتماع أقرب إلى الملاحظات والمجملات منها إلى العلم.

٢- **العقل**، وهو وسيلة لاكتشاف الحياة والكون، ولفهم الوحي والشرع، وليس هو ندًّا للوحي ولا ندًّا للكون؛ لأنه أداة، أما هي فموضوع.

والإنسان مخلوق عاقل، ولذا علَّم الله آدم الأسماء كلها: الأرض، والسماء، والجبال، والبحار، والأنهار، والدواب، والحيوانات.. وإذا علم الأسماء فقد علم الصفات، فعرف أن هذا حيوان متميِّز بشيء، علمه مباشرة أو ألهمه ذلك، أو منحه آلة التعقل والاستخراج، وكل ذلك من تعليم الله تعالى.

٣- **الكون الذي أمرنا أن ننظر فيه**، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٤٦]، فهو مصدر معرفة تنجم عن جولة العقل والتجربة لاكتشافه ومعرفة مجاهله وأسراره ونواميسه.

٤- **الحواس**، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فالأفئدة تعي وتستوعب ما تستقبله الحواس من سمع وبصر وغيرها، والله أعلم.

○○○

سُورَةُ القَدْرِ

❁ تسمية السورة:

لها أسماء عدة:

أشهرها: «**سورة القَدْر**»، وهو الغالب في المصاحف، وكتب التفسير(١).

وسُمِّيت: «**سورة** ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾»(٢)، من باب حكاية الآية الأولى على أنها اسم للسورة.

و«**سورة ليلة القَدْر**»(٣).

❁ عدد آياتها: خمس آيات، وعدَّها بعضهم ستًّا؛ باعتبار قوله تعالى: ﴿لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ الثالث آية(٤).

❁ وقد اختلف هل هي مكية أو مدنية؟

وحكى بعضهم- كالثعلبي- عن الجمهور أنها مدنية، وحُكِي عن الجمهور

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٠)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٥)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٠).

(٣) ينظر: «جامع الترمذي» (٥/ ٣٠١)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٥/ ٣٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨١)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٠)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

كذلك أنها مكية.

وقال بعضهم: إنها أول سورة نزلت بالمدينة[1].

وظاهر سياق السورة- والله أعلم- أشبه بالسور المكية، في موضوعها وطبيعتها، وقصر آياتها ووجازتها.

* ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾:

هذا الضمير العظيم ﴿إِنَّآ﴾ يدل على التفخيم والتعظيم لله الواحد الأحد، وعادة ما يستعمل في سياق المنة والنعمة، أو في سياق الأخذ والانتقام، وهو مشعر غالبًا بأنه تعالى يمضي ما أراد بواسطة ملائكته المسخَّرين لذلك، فثَمَّ ملائكة للوحي، وآخرون للعذاب، وغيرهم لتدوين الأعمال..

تبدأ السورة بتحديد مصدر هذا القرآن، وأنه من عند الله تعالى.

ولو قال: «نحن أنزلناه»، لكان هذا خبرًا مجرَّدًا أن الله سبحانه أنزله، لكن لما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ جعل مع الضمير التوكيد بـ«إنَّ»، وفيه تعظيم المُنزِل، وهو الله تعالى، فيدرك القارئ أن الشيء الذي من عند الله لا بد أن يكون في غاية الصدق والقوة والكمال والرحمة والفضل.

وهي مشعرة بالعلو والعظمة والفوقية لله تعالى؛ لأن الإنزال إنما يكون من الأعلى إلى الأسفل، ففيها إثبات العلو له سبحانه، علو الذات وعلو القدر وعلو القهر، فهو العلي الأعلى.

والضمير يعود إلى القرآن، وهو وإن كان غير مذكورٍ في السورة، إلا أن اللَّبْسَ مأمون، فالذي يصدق عليه أنه أُنزِل في ليلة القدر هو القرآن.

وفي ذلك إشادة وتعظيم وتفخيم لشأنه بأنه حاضر في الأذهان، فهذا أفخم وأعظم من أن يُنطق باسمه.

---

(١) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٤٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ١٤٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٩)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٩٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٥٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٥٥).

ويفهم من الإنزال تلقائيًّا وجود وسيط، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. وهو أفضل الملائكة وسيدهم، ولذلك كان له اسم خاص، وهو ﴿ٱلرُّوحُ﴾، وسيأتي ذكره في السورة.

والقارئ عند ما يتلو هذه الآية يتذكر مَن أُنْزِل عليه القرآن وهو محمد ﷺ، وأن الله تعالى اختاره، وجعل في قلبه من العلم والبصيرة والقوة لتلقِّي الوحي والدعوة إليه والعمل به، ما صار به سيد ولد آدم ﷺ.

والآية إشادة بالوقت الذي نزل فيه القرآن، فاجتمعت العظمة في المُنْزِل، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي المُنْزَل، وهو القرآن الكريم، وفي الوسيط، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي المُنْزَل إليه، وهو محمد ﷺ، ثم في الزمان الذي نزل فيه القرآن، وهو ليلة القدر.

وسُمِّيت كذلك لعظم قدرها، وهذا يتناسب مع جو الآية الذي يدل على التفخيم، ويكفي في فضلها أنها خير من ألف شهر.

وسُمِّيت بهذا؛ لأن الأمور تُقدَّر وتُكتب فيها، فآجال السنةِ كلِّها تنقل من اللوح المحفوظ في هذه الليلة(١).

ومما يعزِّز هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣- ٤]، فيكون ﴿ٱلْقَدْرِ﴾ هو: الفَرْق والتقدير(٢).

ولأنها ليلة فاضلة عظيمة القدر سامية المنزلة.

وما معنى إنزال القرآن في ليلة القَدْر، مع أنه نزل مفرَّقًا بحسب الأحوال والوقائع والأسباب خلال ثلاثة وعشرين سنة؟

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٨٧)، و«تفسير ابن جزي» (٢/ ٢٦٦)، و«تفسير الخازن» (٤/ ١١٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ٣٩٧).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ١٩٠)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٤٢٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤١٤)، والمصادر السابقة والآتية.

والجواب:

١- يحتمل أن المقصود إنزاله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، وقد نُقل عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره[١]، وهو مما لا يُقال بالرأي.

٢- أو يكون ابتداء إنزاله في ليلة القدر، وعلى هذا فأول ما نزل من «سورة العلق» نزل في ليلة توافق ليلة القدر من رمضان.

وهذان المعنيان لا تعارض بينهما، وكلاهما صحيح[٢].

٣- ويحتمل ما ذكره بعض المفسرين، كالرازي وغيره، وهو إنزال قرآن يُتلى في فضل ليلة القدر وفي أجرها وما يتعلق بها[٣]، وهذا ضعيف.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾: احتفاء بهذه الليلة، وبما أُنزل فيها وهو القرآن، واحتفاء برسالة النبي ﷺ، والقرآن هو الكتاب الأخير، والنبي هو الخاتم، وقد أذن سبحانه أن لا تتفتح السماء بوحي بعد ذلك الحين، وأن لا يُبْعَثَ إلى البشر رسولٌ بعد محمد ﷺ.

ولذلك جعل ليلة القدر تعويضًا للمؤمنين؛ لأن الأمم السابقة كان يبعث فيهم أنبياء كثيرون، وكانت أعمارهم طويلة.

ولذا يوجد اختيار اصطفائي من عند الله سبحانه، ويوجد تشريف اختياري من عند الإنسان، بأن يجعل العمل الفاضل للوقت الفاضل فيُؤجر على ذلك، وربما يضيِّع المرء ليله في لهو محرم، فيكون وبالًا عليه، وقد يبذل وقته في عمل فاضل فيكون مأجورًا، وهنا سر تلاحظه في فضل ليلة القدر؛ حيث ثبت فضل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠١٩١)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (١١٩)، والنسائي في «الكبرى» (٧٩٩١)، والطبري في «تفسيره» (٣/ ٤٤٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٣١٠)، (٨/ ٢٦٩٠)، والطبراني (١٢٣٨١، ١٢٣٨٢)، والحاكم (٢/ ٢٢٣، ٦١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٣)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٤٧)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٧٨٥٥)، و«الكشاف» (١/ ٢٢٧)، و«زاد المسير» (١/ ١٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٥٠١).

(٣) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨).

إحياء تلك الليلة والدعاء بها، حتى ورد أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: يا رسولَ الله، ما أقول فيها؟ قال: «**قُولي: اللهمَّ إنك عَفُوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي**»[1].

وقال النبيُّ ﷺ: «**مَن قامَ ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»[2].

فأفضل ما يبذل الإنسان من الوقت ما يبذله لحفظ القرآن وتلاوته والعمل به، وهذا سر من أسرار الإشادة بتلك الليلة، وأن أعظم فضيلة تُنسب إليها أن الله تعالى أنزل فيها القرآن.

* ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢**﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ**﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿**وَمَا يُدۡرِيكَ**﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[3].

وهذا التركيب: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ**﴾ يستخدم في الأشياء العظيمة التي لا يحيط بها عقل الإنسان، ولكن الله أطلَعَ نبيه ﷺ على شيء من فضلها، وهنا تُسْتَحْضَرُ شخصية النبي ﷺ؛ لأن الله خاطبه وقال له: ﴿**وَمَآ أَدۡرَىٰكَ**﴾.

ولذلك كثر اختلاف العلماء في ليلة القدر، حتى ذكر ابن حجر في «فتح الباري» قرابة الخمسين قولًا في ليلة القدر، وذكر أن من العلماء مَن قال: إنها كانت عند الأنبياء السابقين، وعند النبي ﷺ، وهذا هو الصحيح.

ومنهم مَن قال: إنها رُفعت بموت النبي ﷺ، ومنهم مَن قال: إنها باقية.

ثم الذين قالوا: إنها باقية، منهم مَن قال: إنها تكون في السنة كلِّها، وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «مَن يقم الحول يُصِبْ ليلة القدر»[4]. ففهم بعضُهم من قول ابن مسعود هذا أنه يرى أن ليلة القدر تكون في أي ليلة في السنة، وهذا ليس

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٣٨٤)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجه (٣٨٥٠)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٦٥، ١٠٦٤٣)، والحاكم (١/ ٥٣٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٣٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٤)، ومسلم (٧٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣﴾.

(٤) أخرجه مسلم (٧٦٢).

بلازم، بل قصد ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذا أن يعمل الناس وأن لا يقصُروا عملَهم على ليلة معينة في السنة، وكأن مَن يقوم الحول يتهيأ لإدراك ليلة القدر، وكان أُبَيُّ ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحلف ولا يستثني أنها في رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، وأن ابن مسعود يعلم ذلك(١).

ومنهم مَن يقول: إنها تكون في رمضان، حتى ورد عن الحسن البصري أنها تكون ليلة السابع عشر التي كانت ليلة بدر، وهو يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

ومنهم مَن يقول: تكون في العشر الأواخر.

ومنهم مَن يقول: تكون ليلة ثلاث وعشرين، أو إحدى وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، وأرجى ما يمكن أن يقال: إنها ليلة سبع وعشرين.

ومنهم مَن يقول: إنها تتنقل، وهذا هو الراجح، فلا يلزم أن تكون ثابتة في كل سنة؛ فقد تكون هذا العام في ليلة إحدى وعشرين، وتكون في عام آخر ليلة سبع وعشرين، ولكنها تكون في الدنيا كلها في ليلة واحدة، وإن لم يعرفها الناس(٢).

وجزء من الاختلاف في ليلة القدر سببه عظمتها، وجزء من الاختلاف فيها هو إخفاء الله تعالى لأسرارها حتى يتطلَّع الناس إليها ويجتهدوا فيها، كما أخفى تعالى عن الناس أشياء كثيرة، منها إخفاء الآجال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ حتى يجتهد الناس في العمل والعبادة.

* ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾:

وفي الآيات الثلاث يذكرها باسمها؛ لأنها المقصودة بالسورة، وليس المقصود الأصلي الكلام عن القرآن، وإن كان قد ذكر إنزاله؛ ولذلك لم يذكر القرآن صريحًا.

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (٧٦٢).

(٢) ينظر: «التمهيد» (٢/ ٣٠٦)، (٢٣/ ٦٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٦٩- ٤٧٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٣٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٤- ١٣٥)، و«فتح الباري» (٤/ ٢٦٢- ٢٦٦)، و«مع الصيام» للمؤلِّف (ص٢٣٣- ٢٤١).

وقد حسب العلماء ألف شهر، فوجدوها ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهذا كعمر رجل من المعمِّرين من أمة محمد ﷺ، لأنه ورد أن أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين[1]. فجعل تعالى هذه الليلة الواحدة تقوم بعمر إنسان، بل هي أفضل من عمر إنسان.

* ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾:

في هذه الليلة تتنزل الملائكة، ويتنزل معهم الرُّوح، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على المشهور عند المفسرين، وهو من باب عطف الخاص على العام.

وقال بعضهم: الرُّوح: صنف من أشراف الملائكة.

وهذا لا يعارض المعنى الأول، ويكون سيِّدهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال بعضهم: الرُّوح: خَلْق آخر غير الملائكة[2]. والله أعلم.

فالملائكة تنزل في هذه الليلة الفاضلة، وتكون أبواب السماوات مفتحة، والأرض ملأى بالملائكة، يجوبون جنباتها يقِفون عند المصلِّين، ينزلون بالبِرِّ وبالرحمة، وينزلون بالأقدار.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ فليس لأحد غير الله قدر ولا أمر ولا نهي، بل الأمر كله لله، فله الخلق والأمر، وهو الذي يفضِّل مَن يشاء، ويقدِّر الأقدار التي تكون في تلك الليلة من حياة أو موت، أو ذل أو عز، أو غنى أو فقر، أو علم أو جهل، أو هدى أو ضلال، أو ما شاء تعالى من الأحوال للأفراد والجماعات والأمم وغيرها.

وقوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: كل ما يأمر الله تبارك وتعالى به مما ذكرناه؛ فإنهم يتنزلون به في تلك الليلة.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦)، وأبو يعلى (٥٩٩٠)، وابن حبان (٢٩٨٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٧٥٧).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٨٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ١٥٧).

* ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾:

فهي ليلة سلام، فيها السلامة للناس، وفيها الرحمة والقبول، ويكفي أن مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه(١).

وأن الله تعالى وصفها بأنها ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

ولو ربطنا هذا بالتحية والشِّعار الذي يتداوله المسلمون: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، لوجدنا أن الله تعالى جعل من الأعمال والشرائع ما يتحقَّق به للمسلم في كل وقت المعنى الموجود بقدر أو بآخر، فالسلام موجود يتبادله المسلمون فيما بينهم، وقد ذكر فيه الرحمة والبركة، والملائكة تنزل بالرحمة، ويفرح الناس بهذه الليلة لما فيها من تنزل الرحمة والدعاء بها وبالمغفرة لأهلها، وكذلك البركة؛ فإنها ليلة مبارَكة، وبركتها تشمل السَّنَة كلَّها.

وليلة القدر تستمر من غروب الشمس، إلى مطلع الفجر، ولذا سمَّاها ليلة، والليل يبدأ بمغيب الشمس، وفيه نوع من التقليل لوقتها، ولذلك قال بعضهم: إن تسميتها بـ«ليلة القدر» مأخوذ من الضيق، فقد يكون من ضيق الأرض لكثرة الملائكة الذين ينزلون، وقد يكون إشارة إلى قصرها.

كما تجد ذلك في ساعة الجمعة؛ فإن النبي ﷺ لما ذكر يوم الجمعة قال: «**فيه ساعةٌ لا يوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلِّي، يسألُ الله تعالى شيئًا إِلَّا أعطاه إيَّاهُ**». وأشار بيده يُقَلِّلُها(٢).

وقد يقول قائل: هذا عطاء من الغني الجَوَاد الكريم المتفضِّل، فلماذا التقليل لوقت الليلة؟

والجواب: إنه- وإن كان الوقت قليلًا- فالفضل عظيم، وفيه حثُّ العبد على أن يستثمرها ويستغلها في الطاعة والعبادة؛ لأن من طبيعة الإنسان أن يمل، فجعل الله تعالى بعض الأيام أفضل من بعض، وبعض الساعات وبعض العبادات وبعض

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الليالي، فشهر رمضان ثم العشر الأواخر ثم الأوتار ثم ليلة سبع وعشرين.

وحتى ليلة القدر بعضها أفضل من بعض؛ فالثلث الأخير منها أفضل، وذلك كما في الأحاديث المتواترة[1]: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدُّنيا، حين يبقى ثلثُ اللَّيلِ الآخر، فيقولُ: مَن يدعُوني فأستَجِيبَ له، ومَن يسألُني فأُعطِيَه، ومَن يستغفرُني فأغفرَ له**»[2].

فالتقليل فيه دعوة إلى استثمار هذه الليلة بالذكر والعبادة، فهي ليلة في السنة، وهي بضع ساعات، ويمكن أن تعوِّض شيئًا لا يُقدَّر بثمن.

وقد تكلم العلماء وصنَّفوا في ليلة القدر، وصفاتها، وعلاماتها، وأسرارها، ومقاصدها[3].

○○○

---

(١) ينظر: «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» (ص١٧٨- ١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وينظر ما تقدم في «سورة الفجر»: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١﴾.

(٣) كـ«شرح الصدر بذكر ليلة القدر» لأبي زرعة ابن العراقي، و«شرف البدر بضياء ليلة القدر» لبدر الدين القرافي، و«إسفار البدر عن ليلة القدر» للمناوي، وغيرها. ينظر: «معجم الكتب» (ص٦٤)، و«كشف الظنون» (٢/ ١٠٤٢، ١٠٤٦، ١٠٨٨)، و«معجم المطبوعات العربية» (٢/ ١٠٣١)، و«إيضاح المكنون» (٣/ ٧٩)، (٤/ ٤٤، ٥٠، ٥٤٦)، و«هدية العارفين» (١/ ٤٢، ١٢٣، ٢٢٣، ٢٨٩، ٣٣٩، ٤٩٣، ٥١٠)، (٢/ ٤٤٩، ٤٩٨).

سُورَةُ البَيِّنَةِ

*** تسمية السورة:**

لها أسماء كثيرة:

منها: «سورة ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾»، كما في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، أن النبيَّ ﷺ قال لأُبيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**إنَّ اللهَ أمَرَني أنْ أقْرأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾**». فقال أُبيٌّ: وسَمَّانِي لَكَ؟ قال: «**نَعَمْ**». فبكى أُبيٌّ[1].

وفي المصاحف، وبعض كتب التفسير، والحديث يختصرونها إلى: «**سورة ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾**»[2].

و«**سورة البينة**»: وهذا موجود في بعض المصاحف، ومعظم كتب التفسير[3]؛ لأن الله سبحانه ذكر فيها «**البينة**» مرتين.

و«**سورة القيِّمة**»[4]؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

و«**سورة أهل الكتاب**»[5]؛ لأن الله تعالى ذكر فيها أهل الكتاب غير مرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٨٧)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٣٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٤).

(٣) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٤)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٢)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٥) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٩١)، (٣٠/ ٤٦٧).

و«**سورة البريَّة**»[1]؛ لقوله فيها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

و«**سورة المنفكِّين**»[2]، أو: «**سورة الانفكاك**»[3]؛ لقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾.

وفي بعض الكتب: «**سورة القيامة**»[4]، والذي يظهر لي أن هذا تصحيف من «**القيِّمة**»؛ لأنه ليس للقيامة ذكر مباشر في السورة.

* **عدد آياتها:** ثمان آيات عند الجمهور، وعدَّها البصريون والشاميون تسعًا[5].

* **وهي مدنية** على قول الجمهور، ذكر ذلك القرطبي وابن الجوزي وغيرهما من المفسرين[6].

ويُنسب القول بأنها مكية إلى يحيى بن سلَّام صاحب «التفسير»، ووهم ابن عطية، فجعل قول الجمهور أنها مكية، ونسب إلى ابن الزُّبير وعطاء بن يسار أنها مدنية[7].

وكثيرًا ما يقع اللَّبْس والوهم في حكاية قول الجمهور، حتى في المسائل

---

(١) ينظر: «إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ٢٩١)، و«الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٣٦٧).

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٠٧)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١٨٧)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ١٢)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«أضواء البيان» (٩/ ٣٩).

(٣) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة (ص٢٨)، و«الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٧).

(٤) ينظر: «الإتقان» (١/ ١٥٥)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٤١٨)، والمصادر السابقة.

(٥) وقد اختلف في قوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٨).

(٦) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٧٣).

(٧) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٨)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٩٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٠).

الفقهية؛ فإن البعض قد يقول: هذا قول الجمهور، وبعد التحقيق يتبين أنه ليس قول الجمهور، وقد يكون مَن يحكي هذا القول يميل إليه، فيبحث عمَّن قال به، فيجدهم كثرة ويخيَّل إليه أنهم الجمهور، ولو بحث في أنصار القول الآخر لوجدهم أكثر.

ومن أقوى الأدلة على مدنيتها: حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذُكر آنفًا: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عليك سورة** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾».

نعم، هذا ليس نصًّا في كونها مدنية؛ لأنه قد يقرأ عليه سورة مكية، ولكن يعزِّز القول بأنها مدنية أن فيها جدلًا مع أهل الكتاب ومحاجة لهم، والغالب أن مخاطبة أهل الكتاب كانت في المدينة بعدما نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جوار اليهود، وخالطهم المسلمون، واحتاجوا إلى مجادلتهم ومُحَاجَّتهم.

وقد ذُكر فيها إيتاء الزكاة، وهي إنما فُرضت في المدينة، وليس هذا بقوي؛ لأن إيتاء الزكاة ذُكر في سور مكية، كـ«سورة فصلت»(١).

* ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾: **والمنفكُّون** جمع: مُنفَكٍّ، من الانفكاك، وهو الانفصال(٢).

والجمهور على أن المعنى: لم يكونوا منفصلين عن الضلال والشرك والكفر الذي هم فيه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، **والبينة هي:** ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

وذكر الفخر الرازي وغيره أن في السورة إشكالًا، غلط فيه بعض أكابر أهل العلم، وهو جدير بالتأمل حتى ننطلق منه إلى فهم السورة:

ذلك أنه في أول آية ذكر تعالى أن أهل الكتاب والمشركين لن ينفكوا عن كفرهم وشركهم إلى وقت معلوم، وهو أن تأتيهم البينة، ثم في الآية التي بعدها قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾؛ فهل البينة سبب

(١) ينظر: «كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص١٧- ٢١)، وما تقدم في أول «سورة الأعلى».
(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٠٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٥).

في أن ينفكوا عن شركهم وكفرهم ويكونوا مؤمنين، أم هي سبب في أن يتفرقوا ويختلفوا؟[1].

وقد ذكر المفسرون- كالقرطبي والآلوسي والطاهر ابن عاشور- أكثر من تسعة عشر قولًا في حل هذا الإشكال[2]، **وترجع إلى جملة أقوال:**

١- أن الآية الأولى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، حكاية عما يدَّعونه من أنه لو جاءهم رسولٌ بالبينة لآمنوا، فكأن الله تعالى حكى هذا عنهم.

٢- أن كلمة ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لا تعني أنهم ينفكُّون عن الضلال ويتركون الشرك، وإنما المقصود أنهم لم يكونوا منفكِّين عن انتظار النبي ومدحه ﷺ، وذكر فضائله إلى أن بُعث إليهم.

فاليهود كانوا يذكرون في كتبهم أن نبيًّا أطلَّ وأقبَلَ زمانه سيُبعث، وأنهم سيتبعونه ويقتلون العرب به قتل عاد وإرَم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وكذا المشركون كانوا في الجاهلية يسمونه: الأمين، فلما بُعث كفروا به وكذَّبوه وخوَّنوه، فانفكُّوا عن مدحه بعدما جاءتهم البينة ببعثته إليهم[3].

٣- أنهم ليسوا منفكِّين حتى ولو جاءتهم البينة، فإنهم سيظلون على ما هم عليه، وعلى هذا يكون معنى الآية أنه لا يزيدهم إلا نفورًا، كقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

٤- أنهم ليسوا بميتين حتى تأتيهم البينة، وتقوم عليهم الحجة قبل موتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧).

(٢) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤١)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٦٩).

(٣) ينظر ما تقدم في «سورة الحديد»: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

٥- وقريب منه ما ذكره ابن عطية من أنهم ليسوا متروكين سُدَى[1]: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

٦- أنهم لن ينفكُّوا حتى يأتيهم مَلَك من السماء، ويكون هذا نوعًا من السخرية منهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا مَلَكًا معه كتاب، كما كان المشركون يقولون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[2] [الإسراء: ٩٠- ٩٢].

والذي يظهر أن الآية لا تحتاج إلى تأويل، وليس فيها إشكال.

وبيان ذلك: أن الله تعالى ذكر أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين ليسوا تاركين كفرهم، حتى تقوم عليهم الحجة، وحتى يبعث فيهم الرسول، وتنزل إليهم الكتب؛ وذلك لأنه لا يستطيع أحد أن يهتدي بغير صراط الله وطريقه.

فالآية تنفي أن يكونوا منفكِّين عن الضلال إلى الهدى إلا ببينة، ولكن الآية لم تقل: إن أهل الكتاب والمشركين إذا جاءتهم البينة سوف ينفكون جميعًا عن الضلال ويهتدون حتمًا، ولكن سيكون منهم مَن يهتدي ومنهم مَن لا يهتدي.

وهذا معنى واضح، ومعه لا يبقى في السورة إشكال؛ لأن الآية الأولى تقرِّر أن أهل الكتاب والمشركين لا يمكن أن يهتدوا من ضلالهم إلا ببينة من عند الله تعالى، ولذلك بعث الله إليهم الرسول وأنزل إليهم الكتاب ليبين لهم الذي يختلفون فيه.

وأما هل نفعتهم هذه البينة وآمنوا بها، أو أنهم استكبروا وأصرُّوا على كفرهم؟ فهذا موضوع آخر لم تتعرض له الآية.

وهذا الكلام وإن لم أجده منصوصًا، إلا أنه يبدو مقصود كثير من المفسرين، وكثير ممن يقرأ القرآن يتبادر إلى ذهنه هذا المعنى، ولا يجد في السورة إشكالًا.

---

(١) أي: هَمَلاً، لا يُؤمر ولا يُنهى.

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٧٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٤٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٤٣٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٧٩).

ثم الذين كفروا قسَّمهم الله تعالى في هذه الآية إلى فئتين: أهل الكتاب، والمشركين.

أما أهل الكتاب، فهم: اليهودُ والنصارى، وفي دخول المجوس فيهم خلاف، والأقرب أنهم لا يدخلون؛ لقول الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦]. وإنما أُلحق المجوس بأهل الكتاب في بعض الأحكام، كالجزية، ولذلك لا تُنْكَح نساؤهم كنساء أهل الكتاب(١).

فالمقصود: اليهود والنصارى، واليهود كانوا موجودين في المدينة، والنصارى كانوا في نَجْران.

وأما المشركون، فهم الوثنيون من أهل مكة وغيرِها.

وقد قدَّم الله تعالى ذكر أهل الكتاب على المشركين؛ لأن أهل الكتاب بُعِث فيهم رسلٌ، وأنزلت كتب، فالعَتَبُ عليهم في الضلال أشد، ولهذا عاتبهم الله تعالى ووبَّخهم لما جاء المشركون إليهم يسألونهم: نحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى. فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

والجاهل ربما وقع في الخطأ بغير قصد، أما العالم فالحجة عليه قائمة، فإذا أخطأ كانت المؤاخذة عليه أكثر؛ ولهذا بدأ الله تعالى بهم في السورة.

وعلى اعتبار أن السورة مدنية، فقد كان الخطاب فيها عتابًا لهم قبل غيرهم، ولذلك ناسب أن يقدِّمهم.

وهنا وصمهم الله تعالى بالكفر؛ لتكذيبهم رسالة النبي ﷺ مع معرفتهم به.

و﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ هي: الحجة الواضحة(٢)، وجمعها: بينات، وقد وصف الله القرآن

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٦١)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٧٧).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٠٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٢)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥١٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٧٤).

بأنه «بينات»، فقال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالقرآن بيِّنة في إعجازه اللُّغوي، والعلمي، والتشريعي، والتاريخي، وفي أخباره وقصصه وآياته.

وكذلك الرسول ﷺ نفسه هو «بينة» في الحجج التي جاء بها، وفي الوحي، وفي أنه رجل أُمِّيٌّ، ومع ذلك ألهمه الله تعالى البلاغة والإعجاز، وهو «بينة» بما جعل الله تعالى على يديه من الآيات التي آمن بها مَن آمن من الناس، سواءً الآيات التي حصلت في عصره ورآها الناس، أو الآيات الباقية والتي منها القرآن وما يخبر به ﷺ من أحوال الزمان.

* فـ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ هنا معنى مشترك، يدخل فيه القرآن، ويدخل فيه النبي ﷺ؛ ولهذا قال في الآية الثانية: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢﴾:

وهذا تفسير ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، فسَّرها بالنبي ﷺ، وما يتلوه من الصحف، **والصُّحف** جمع: صحيفة، **والمقصود بها**: الورق(١)، **وهي مطهَّرة تطهيرًا حسيًّا ومعنويًّا**:

أما التطهير الحسِّي: فلأن لها قداسة وحرمة وأحكامًا، بحيث لا يمس القرآن إلا طاهر: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، ولهذا ذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة إلى أنه لا يجوز أن يمس المصحف إلا متوضئ، وقد جاء في حديث عَمرو بن حَزْم في وصية النبي ﷺ: «**لا يمسُّ القرآنَ إلَّا طَاهِرٌ**»(٢).

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٤٧٦) «ص ح ف»، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٨٨)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (٢/ ١٢٧٢).

(٢) أخرجه الدارمي (١٦٢١، ١٦٢٨، ١٦٣٥)، وأبو داود في «المراسيل» (٢٥٩)، والنسائي (٨/ ٥٧، ٦٠)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والدارقطني (١/ ١٢٢)، والحاكم (١/ ٥٥٢).

واختلف في وصله وإرساله، والصواب المرسل، إلا أنه قد تلقاه العلماء بالقبول، واشتهر شهرة تغني عن إسناده، كما قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٢/ ٤٧١)، و«التمهيد» (١٧/ ٣٩٦)، وينظر: «نصب الراية» (١/ ١٩٦- ١٩٩)، و«البدر المنير» (٢/ ٤٩٩- ٥٠٥)، و«إرواء الغليل» (١٢٢)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٣٩٩- ٤٠١).

وأما الطهارة المعنوية: فلأنها ليس فيها شك ولا ريب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ولا خطأ ولا ظلم، بل هي حق محض.

* ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾:

أي: جعل الله تعالى في تلك الصحف كتبًا قيمة.

والكتب القيمة هي: الآيات والسور، وأحكام الحلال والحرام؛ لأن **الكتب** جمع: كتاب، وهو المكتوب(١).

و﴿قَيِّمَةٞ﴾ قد يُفهم منها أنها ذات قيمة، يقال: هذا شيء قيم، أي: غالي القيمة، **لكن المقصود بـ**﴿قَيِّمَةٞ﴾: مستقيمة، معتدلة، ليس فيها عوج ولا خلل(٢).

وكان يمكن أن يقال في تفسير الآية: إن قوله: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اسم جنس، فيشمل الرُّسلَ كلَّهم، ومنهم محمد ﷺ، ويدخل في ذلك الحجج التي جاء بها الأنبياء السابقون والكتب التي بُعثوا بها.

ولكن القول بأن المقصود: محمد ﷺ أقوى، من جهة ملاحظة سبب النزول.

* ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤﴾:

هذه الآية هي التي وقع فيها مع الآية الأولى إشكالٌ عند بعض المفسرين، فهنا قال سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يذكر المشركين، وقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي: بعد أن قامت عليهم الحجة، وهي رسالة الرسول ﷺ والقرآن الذي معه، **فمعناه** أن المقصود بتفرق أهل الكتاب هنا هو تفرقهم بين الإيمان والكفر؛ فمنهم مَن آمن بالنبي ﷺ ومنهم مَن كفر، فتفرقوا على هذا، **وهذا المعنى يذكره جمهور المفسرين**(٣).

---

(١) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٦٩٩) «ك ت ب».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٢)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٥٩٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢١١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٤٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٦).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٤٠)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٤)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٧٩).

وثَمَّ معنى آخر، وهو أن المقصود بتفرُّقِهم: إعراضهم عن النبي ﷺ، وتفرُّقهم في كيفية الرد، فبعضهم قال: دَعِيٌّ. وقيل: شاعر. وقيل: ساحر. وقيل: مجنون. لكن لا يدخل في ذلك الذين آمنوا منهم؛ لأنهم لا يُوصفون بأنهم من أهل الكتاب بعد أن دخلوا في دين الإسلام، فعلى هذا المعنى الثاني يكون المقصود بتفرُّقِهم: إعراضَهم عن النبي ﷺ، وعدم إيمانِهم به.

وثَمَّ معنى ثالث جيد وغير مشتهر، وهو أن المقصود اختلافهم على أنبيائهم قبل النبي ﷺ؛ كما في حديث: «**إنما هلكَ الذين كانوا من قبلكم بتفرقهم واختلافهم على أنبيائهم**»(١). وكما في قوله سبحانه: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ [مريم: ٣٧].

واختلافهم على أنبيائهم إنما حدث بعد ما جاءتهم البينة، أي: من بعد ما قامت عليهم حجج أنبيائهم، ومن ذلك اختلافُهم بعد بعثة النبي ﷺ.

فيكون الاختلاف المذموم هنا اختلافًا آخر، وهذا يبعد الإشكال الذي نقلناه عن الواحدي والرازي وغيرهما بين الآية الأولى والآية الرابعة، ويبيِّن أن الآية الأولى في معنى والآية الرابعة في معنى آخر؛ فالآية الأولى تتكلم عن الذين آمنوا بالنبي ﷺ، وأن انفكاكَهم وإيمانَهم كان من بعد ما جاءتهم البينة، أما هذه الآية، فهي تتكلم عن الكافرين الباقين على كفرهم أنهم اختلفوا وتفرقوا من بعد ما جاءتهم البينات.

وهذا ينسجم مع آية آل عمران: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وفي هذه السورة تكرار كلمة ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فقد يكون ذلك؛ لأنها موجودة في

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٦٧، ٨١٤٤)، وابن خزيمة (٢٥٠٨)، وابن حبان (٣٧٠٤)، والبيهقي (١/ ٣٨٨)، (٤/ ٢٥٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأصله في «صحيح البخاري» (٧٢٨٨)، و«صحيح مسلم» (١٣٣٧)، بلفظ: «**ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلكَ مَن كان قبلَكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم...**».

كتب أهل الكتاب، فناسب أن تُذكر؛ لأن الجدل والحديث معهم، أو يكون ذلك أن القوم أهل علم واطلاع ومعرفة، فالمقام معهم ليس مقام وعظ مجرد، وإنما هو مقام حجة.

والبينة هي: الحجة التي تُفحِم المخاصمين والمعاندين(١).

وفيه تحذير بالإيماء والإشارة للمؤمنين من الاختلاف والتفرق، وبخاصة الاختلاف والتفرق على الكتاب، وفيه ذمٌّ للعلم الذي يكون سببًا في الاختلاف؛ فإن كثيرًا من العلم الذي ينتظر أن يكون سببًا في سماحة المتعلِّمين ولطفهم مع الخلق وإيثارهم لهم، يكون سببًا في نشوء صراعات وخلافات وتحزُّبات، تفسد معها الأخلاق وتشتد المنافسة وتقسو القلوب.

وغالب طلبة العلم اليوم أكثر وَلَعًا بالخلاف فيما بينهم، وأكثر تحاسدًا وتنافسًا، حتى إنهم إذا كانوا في مؤسسة أو مدرسة أو جامعة وقع بينهم من التعاند والتغاير، ما لا يحسن ولا يحمد.

فسبحان الله! ما أكثر النصوص والآيات والأحاديث التي فيها النهي عن التفرُّق والاختلاف، ولكنها بمَعْزل عن واقعنا، وليس المقصود الاختلاف العلمي، فهذا طبيعي، بل هو محمود في كثير من الحالات، وإنما المقصود اختلاف التناحر والاقتتال والاحتراب، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فأي ثمرة وأي قيمة لعلم لا يكون سببًا في صفاء قلبك، وسلامة نفسك، وعفاف لسانك، وحسن ظنك بالناس، ومحبتك الخير لهم(٢)؟!

وأنا أتعمد أحيانًا أن أثني خيرًا على بعض مَن يستحقون الثناء، وأعرف أنهم ليسوا بحاجة إلى ثنائي؛ لكن أقصد أن أتربَّى على مراعاة الإيجابيات واعتبارها،

(١) ينظر: «تاج العروس» (٣٤/ ٣١٠) «ب ي ن»، و«القاموس الفقهي» (ص٤٧)، و«معجم لغة الفقهاء» (ص١١٥).

(٢) ينظر: «كيف نختلف؟» للمؤلِّف.

وعدم الاعتياد على لحظ الأخطاء والمخالفات، وكأنها أول ما يطرق خيالك أو يخطر ببالك عند ذكر مَن ليس من أصحابك وجلسائك وخاصتك.

ومع وجود النقص والعيب، فإن الثناء على الناس بما هم عليه من خير هو فضل ومروءة، كما قيل[1]:

مَـن ذا الَّـذِي مـا سـاء قطْ ... ومَـن لـه الـحُـسْنَـى فـقـطْ
سـامِـحْ أخـاكَ إذا خَـلَـطْ ... مـنـه الإصـابَـةَ بـالـغـلـطْ
وتَـجـافَ عـن تَـعْنِيـفِـهِ ... إنْ زاغ يَـومًـا أو قَـسَـطْ

وقيل[2]:

ومَنْ ذَا الَّذِي تُرضَى سَجاياهُ كلُّها ... كَفَى المرءَ نُبْلًا أن تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

وقِسْ على نفسك، فإنك إذا عابك أحد بخطأ موجود فيك، تقول: لماذا عابوني بهذا الخطأ الذي يظنونه، وتجاهلوا ما كان لديَّ من صواب كثير؟ فكذلك الآخرون يقع مثل هذا في نفوسهم.

فأَوْلَى النَّاس بمعنى العدل هم مَن جاءتهم البينة.

* ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾:

في هذا مزيد عتبٍ على تفرقهم وضلالهم، مع أنهم لم يؤمروا إلا بما بُعث به الرسل جميعًا، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحِبُّه اللهُ ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[3]، وهو فعل القربات والطاعات المحضة بنية التقرب إلى الله.

---

(١) ينظر: «مقامات الحريري» (ص٢٢٩- ٢٣٠).

(٢) ينظر: «ديوان المعاني» (٢/ ١٩٦)، و«الإعجاز والإيجاز» (ص٢١٤)، و«أدب الدنيا والدين» (ص١٧٣).

(٣) ينظر: «العبودية» (ص٤٤)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩)، و«الفتاوى الكبرى» (٥/ ١٥٥).

وقوله: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حال من فاعل «يعبدوا»، أي: فلا يعبدون مع الله تعالى غيره.

و﴿حُنَفَآءَ﴾: حال ثانية، **والحنيف** هو: المائل عن الشرك إلى التوحيد، وهذا قول أكثر أهل اللغة(١).

والأجود أن نقول: إن الحنيف هو: المعتدل عن الشرك إلى التوحيد، فالحنيفية هي الاعتدال، وأصل الحنف يكون في الرِّجْل، يقال: فلان أحنف، ومنه الأحنف ابن قيس الذي كانت أمه ترقِّصه وهو صغير وتقول(٢):

والله لولا حَنَفٌ في رِجْلِهِ وقلةٌ في ساقه من هُزْلِهِ
وقِلَّةٌ أَخافُهَا من نَسْلِهِ مَا كَان في فِتْيانِكُمْ مِنْ مِثْلِه

ومعنى الحَنْف في الرِّجْل هو: اعوجاجها عن المعهود، لكن إذا كانت مائلة نحو الأخرى كانت مستقيمة، وفي نفس الوقت سُمِّي هذا حَنَفًا.

فالحَنِيف هو: المستقيم على التوحيد.

وقيل: معنى الحنيف: المختون(٣)، **وقيل:** الحاج(٤)، **والمقصود** - والله أعلم -: أنه أَمرَهُم أَوَّلًا بالإخلاص في أعمالهم، ثم أمرهم بأن يكونوا حنفاء، أي: على ملة الأنبياء.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك دين الملة القيِّمة، أو دين الأمة القيِّمة، فالقيِّمة وصف لشيء محذوف تقديره: الأمة، أو الملة، وهذه الأمة هي التي جعلها الله تعالى شاهدة على الناس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٥٦)، و«تاج العروس» (٢٣/ ١٧٠).

(٢) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٩/ ٩٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (١/ ٢١٤)، و«المستدرك» (٣/ ٦١٤)، و«المخصص» لابن سيده (١/ ١٧٧)، و«تاريخ دمشق» (٢٤/ ٣٠٥)، و«فتح القدير» (١/ ١٧٠)، و«تاج العروس» (٣٦/ ٢١٥).

(٣) ينظر: «مقاييس اللغة» (٢/ ١١١).

(٤) ينظر: «الكليات» للكفوي (١/ ٥٥٣)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (١/ ٢٣٢).

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾:

هنا أعاد وصف أهل الكتاب بالكفر، والفرق بين وصفهم بذلك في هذه الآية وبين وصفهم بذلك في الآية الأولى: أن الآية الأولى وصفتهم بذلك قبل أن تأتيهم البينة، أما الآن فانتقل الأمر إلى وصف أولئك الذين أصرُّوا على الكفر من أهل الكتاب والمشركين، ولذلك ناسب أن يتوعدهم لإصرارهم.

وجمع أهل الكتاب مع المشركين هو غاية التأنيب والتوبيخ، فقد كانوا يرون لأنفسهم فضلًا ومكانة ويعيِّرون أهل الشرك ويزدرونهم، فلما حصحص الحق كفروا مثلهم، فأُلحقوا بهم وحُشروا معهم، فلم ينفعهم ما عندهم من العلم بالكتاب.

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي: إنهم موعودون بنار جهنم في الآخرة، وهذا لا يمنع أن يأتيهم شيء من العذاب في قبورهم أو في دنياهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ هم شر البرية على الإطلاق، أو شر البرية في زمانهم، وقد يأتي بعدهم مَن هو شر منهم.

و﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ هي: المبرية، أي: المخلوقة[1]، وهم البشر - ومن ذلك اسم الله: «الباري» - وأصلها البريئة بالهمز، ولكنه خُفِّفَ، أو من البراء وهو التراب، فيكون المقصود شر البشر وشر الناس[2].

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾:

بدأ بذكر الأشرار؛ لأن السورة تتحدَّث عن أهل الكتاب الذين كفر غالبهم بالنبي ﷺ، أما الذين أسلموا فهم قليل، فلما كان السياق من أهل الكتاب والمشركين الكافرين بالله وبرسوله، ناسب أن يبدأ بالوعيد، بخلاف «سورة الزلزلة» مثلًا؛ فإن

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٣/ ٣٤)، والمصادر الآتية.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٠٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢١٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٧).

الوعظ فيها كان عامًّا، فبدأ الله تعالى فيها بالخير، فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾.

وأيضًا: فإن الله تعالى جمع ما يتعلق بالكفار في آية واحدة، في حين أنه ذكر جزاء المؤمنين في آيتين، وهذا فيه ثناء ومدح لهم وترضية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، وهذا العموم يدخل فيه الذين آمنوا من أهل الكتاب، الذين انفكُّوا عن كفرهم بمبعث النبي ﷺ، ويدخل فيه الذين آمنوا من المشركين، ومن غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وقد يحتج بهذه الآية مَن يقول: إن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وذلك إذا اعتبرنا أن ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ هي المبروءة، أي: المخلوقة.

أما إذا قلنا: إن ﴿ٱلْبَرِيَّةِ﴾ هم: البشر، فسيكون المقصود أنهم أفضل الناس(١).

* ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾:

﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: على ما عملوا في الدنيا وما صبروا ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، **والعَدْنُ** هو: الإقامة، يقال: عَدَنَ بالمكان، أي: أقام فيه، فهذه جنات خلود(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٣/ ٤٢٨- ٤٣٠)، و«التفسير البسيط» للواحدي (١٣/ ٤٠٤- ٤٠٥)، و«تفسير الرازي» (٨/ ١٩٩)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٤٢٥)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٥٠)، و«بدائع الفوائد» (١/ ٦٦)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (ص١٥٨)، و«البداية والنهاية» (١/ ١٢٦)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٨٠)، (٨/ ٤٥٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص٣٠١)، و«فتح الباري» (١٣/ ٣٨٦).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٤٧)، و«الفائق» للزمخشري (١/ ٤١٧)، و«مقاييس اللغة» (٤/ ٢٨٤)، و«المخصص» لابن سيده (٢/ ١٧٦)، و«لسان العرب» (١٣/ ٢٧٩) و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٥).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾، وهنا لم يذكر الله تعالى التأبيد للكفار، وذكر التأبيد للمؤمنين؛ وذلك لأن المقام مقام رحمة، ورحمته سبحانه تغلب غضبه.

ومن هذه الآية وأمثالها أخذ بعضُ أهلِ العلم القول بفناء النار، كما في «سورة النبأ»(١).

وقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ غاية ما يبحث عنه المؤمن أن يرضى الله تعالى عنه، ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ أي: بسبب ما أعطاهم من الفضل والنعيم، وهذا دليل على احتِفاء ربِّنا تبارك وتعالى بهم، حتى إنه يرضى عنهم ثم يرضيهم جل وتعالى.

وقد جاء هذا المعنى في الحديث الصحيح لما قال الله تعالى: «**تُريدون شيئًا أزيدكُم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبيِّضْ وُجُوهَنا؟ ألم تُدْخِلْنا الجنة وتُنْجِنَا من النار؟ قال: فيُكشَفُ الحِجابُ فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَر إلى ربهم** عَزَّوَجَلَّ»(٢). فيعطيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النظر إلى وجهه الكريم، فلا يرون شيئًا أمتع ولا ألذَّ ولا أعظمَ من النظر إلى وجهه في جنة عَدْنٍ.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، فجعل مدار القضية على أمر يتعلق بعمل القلب الذي هو أصل عمل الجوارح؛ لأن الخشية من عمل القلب، وهي أثر الإيمان، ونتاجها العمل الصالح ومجانبة السيئات؛ ولذا وصفهم بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات.

○○○

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة النبأ»: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١) من حديث صُهيب الرُّومي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ

❊ **تسمية السورة:**

الذي في مصحف المدينة وغيره، وكثير من كتب التفسير: «**سورة الزَّلْزَلة**»(١)، وهو اسم رُوعِيَ فيه المعنى، دون اللفظ؛ فإن الآية ليس فيها «الزَّلْزَلة»، وإنما فيها «الزِّلزال».

وسُمِّيت في بعض المصاحف وكتب التفسير: «**سورة الزِّلْزَال**»(٢).

ومن أسمائها: «**سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾**»، وهو الوارد عن بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وثبتت تسميتها في «صحيح البخاري»، وغيره: «**سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾**»(٣).

❊ **عدد آياتها:** ثمان آيات، كما في غالب المصاحف، وفي بعضها: تسع؛ وذلك باحتساب قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦﴾ آيتين، وليست آية واحدة(٤).

---

(١) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٢)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (٨/ ٢١٢)، و«تفسير الإيجي» (٤/ ٥١٩)، و«الفواتح الإلهية» (٢/ ٥٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٣) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٨)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٥)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٠٧٩)، و«تهذيب الآثار» (٢٦٤٩)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«البيان في عَدِّ آي القرآن» (ص٢٨٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٠).

* **والسورة مكية** على قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد وجماعة، واختاره كثير من المفسرين؛ كابن كثير، والنيسابوري، وابن عاشور، وغيرهم[(١)].

وقيل: مدنية. وهو مروي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره[(٢)].

والذين قالوا: إنها مدنية. لاحظوا سبب النزول؛ فقد جاء عن مقاتل أنها نزلت في رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يتقالُّ الشيء أن يتصدَّق به، وكان الآخر لا يبالي أن يعمل الذنوب الصغيرة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾، لكن هذا لا يثبت[(٣)].

وموضوع السورة قريب الشبه بموضوع «سورة القارعة»، وهو الحديث عن بعض حوادث الدار الآخرة، وهذا يقوِّي القول بأنها مكية.

وهو موضوع مهم؛ لأن وازع السلطة والرقابة ليس كافيًا ولا ضامنًا، فلا بد من التعويل على وازع الإيمان في النفوس، حتى ينكف الناس عن المعاصي[(٤)]، ويقبلوا على الطاعات؛ رجاء ثواب الله تعالى والدار الآخرة، وهذا من مقاصد الخطاب الإسلامي التي ينبغي أن تؤصل وتنشر.

* **ولم يصح في فضلها شيء**، وأما ما ورد من كونها تعدل نصف القرآن، فلا يثبت[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٦)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٤٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٥٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩)، والمصادر الآتية.

(٢) ونُقل أيضًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ينظر: «الكشاف» (٤/ ٧٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٩٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٧٩)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦٦)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٢)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٣٠٤)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٨١).

(٤) أي: يعدل الناس عن المعاصي.

(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٦٢)، والترمذي (٢٨٩٣، ٢٨٩٤)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (٢٩٨)، والحاكم (١/ ٥٦٦) من حديث أنس وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وينظر: «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٩٣)، و«زاد المعاد» (١/ ٣١٧- ٣١٨)، و«المنار المنيف» (ص١١٤)، و«فتح الباري» (٩/ ٦١- ٦٢)، و«نتائج الأفكار» (٣/ ٢٦٨)، و«السلسلة الضعيفة» (١٣٤٢).

وكذلك ما ورد من أن «**مَن قرأها فله من الأجر مثلُ أجر داود، وكان فى الجنة رَفِيق داودَ، وفُتح له بكل آية قرأها في قبره بابٌ من الجنة**». لا يصح[1].

وورد في «سنن أبي داود»، أن النبيَّ ﷺ قرأها في الركعة الأولى والثانية من صلاة الفجر[2]، وفيه نظر.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة: لرجل أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، وعلى رجل وزرٌ...**». ثم سُئل ﷺ عن الـحُمُر، أي: عن زكاتها، فقال: «**ما أُنزل عليَّ في الحُمُر شيءٌ، إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾**»[3].

* **﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾**:

بدأها تعالى بالشرط المستقبلي: ﴿إِذَا﴾.

والزلزال هو: الحركة الشديدة المعروفة[4]، لكنه هنا زلزال فريد في قوته وشدته ووقته.

ويشهد لهذا قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فهي زلزلة لا تخطر على البال؛ ولهذا قال: ﴿زِلْزَالَهَا﴾. يعني: زلزالها المتفرد، الذي لا يشابهه شيء، ولا يدانيه، ولا يقاس إليه.

واختلف العلماء في ميقات هذا الزلزال:

فقيل: يكون عند النفخة الأولى التي يموت بها كل شيء. وقالوا: إنه قد يكون بسبب النفخ.

---

(١) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٣٦)، وقال: «منكر».

(٢) أخرجه أبو داود (٨١٦)، والبيهقي (٢/ ٥٤٦) من حديث رجل من جهينة رضي الله عنه. وينظر: «المجموع» (٣/ ٣٨٤)، و«فتح الباري» لابن رجب (٧/ ٥٦)، و«نتائج الأفكار» (١/ ٤٣٥)، و«أصل صفة صلاة النبي ﷺ» (٢/ ٤٣٥).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٨٦٠)، و«صحيح مسلم» (٩٨٧).

(٤) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣٨٢).

وقيل: إنه عند النفخة الثانية التي يقوم بها الناس[1].

وعزَّزوا ذلك بأن الله تعالى أتبعه بقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

ولا مانع أن يكون المراد في الآية النفختين معًا؛ فزلزال يكون مع النفخة الأولى حينما يهلك الخلائق جميعًا، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، ثم يكون الزلزال الثاني عند النفخة الثانية، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وبين النفختين أربعون سنة، كما ورد[2]، وذلك شيء يسير بالنسبة ليوم مقداره خمسون ألف سنة، فإن وقع زلزالان بينهما أربعون سنة، يعتبر ما بينهما قليلًا، وكأنهما زلزال واحد.

❋ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾:

وهنا ذكرت ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ مرة أخرى؛ لأن تكرارها يزيد من الحضور الذهني لها، وإخراج أثقالها حدث آخر بعد الزلزلة، أي: أخرجت ما في جوفها كما تضع الحاملُ حملَها.

وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣-٤]، أي: أخرجت ما في جوفها، **فما هذه الأثقال؟**

الأقرب أنها كل ما في جوف الأرض من معادن وكنوز، ويدخل فيه البشر الذين استودعوا باطن الأرض، فيخرجون إلى ظهرها[3].

وفي الحديث: «**تَقِيءُ الأرضُ أفلاذَ كبدِها، أمثالَ الأُسطوان من الذهب والفضة، فيجيءُ القاتِلُ فيقول: في هذا قَتلْتُ. ويجيءُ القاطِع فيقول: في هذا قَطَعْتُ رَحِمي. ويجيءُ السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدي. ثم يدعونَه فلا**

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٨٩)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٦٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٧-١٤٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٢٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٥٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٣٤)، وما تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾.

يأخذونَ منه شيئًا»[1].

* ﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ٣﴾:

والمقصود: كل إنسان، **وقيل**: الكافر[2]؛ لأن المؤمن يكون آمنًا مطمئنًا، **والأول أقرب**؛ لأن المؤمن يصيبه شيء من الفزع، وكلام الرسل والأنبياء في عرصات القيامة: «**اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، «**نفسي نفسي**»[3].

فالأمر فيه هول وفزع، ولهذا عبَّر سبحانه بالإنسان، ولم يقل: «وقال الناس». فكل إنسان مشغول بنفسه ونجاتها؛ لأنه يوم ﴿**تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ**﴾ [الحج: ٢]. وهو ﴿**يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ**﴾ [عبس: ٣٦]، فكل واحد مشغول بنفسه.

ولو قال: «وقال الناس». لربما فهم منه أن الحديث جماعي منهم أو فيما بينهم، في حين أن الأمر ليس كذلك، بل كل إنسان مشغول بفزع نفسه يتساءل: ما للأرض؟ وما الذي يجعلها تميد وتضطرب؟ ما الذي حصل لها؟! في حيرة وانبهار!

* ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤﴾:

في الآيات الثلاث تسلسل؛ فالآية الأولى فيها الزلزلة، وفي الثانية إخراج الأثقال، وهو تابع من توابع الزلزلة، وفي الثالثة كلام الإنسان؛ فبعدما حصلت الزلزلة والرجفة وخرجت الأثقال ومن ضمنها الإنسان، خرج ورُدَّتْ إليه الروح وأصبح ناطقًا عاقلًا، فبدأ يتساءل: ﴿**مَا لَهَا**﴾؛ فحينها يأتيه الجواب: ﴿**يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا**﴾.

قال بعض المفسرين: أي تُخبر بما عمل الناس عليها من خير أو شر، وفي

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٩٠- ٧٩١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٨).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٨٠٦، ٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٢، ١٩٤).

الحديث عنه ﷺ قال: «**أَتَدْرونَ ما أخبارُها؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**فإن أخبارَها: أن تَشهدَ على كلِّ عبدٍ وأَمَةٍ بما عملَ على ظهرها، أن تقول: عَمِلْتَ عليَّ كذا وكذا، يومَ كذا وكذا**». قال: «**فهذه أخبارها**»(١).

والحديث قال عنه الترمذي: «حسن غريب صحيح». وقال مرة: «حسن صحيح غريب». وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وهو حديث ضعيف(٢).

لكن لا مانع أن يكون من أخبارها أن تشهد على الإنسان بما عمل عليها، والله تعالى قال: ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ**﴾ [الدخان: ٢٩].

وقال بعضهم: إن المقصودَ بها ما يحصل من الزلزلة وما يتبعها، فيكون مجازًا، وهذا لا بأس به، فهو من أخبارها، وليس هذا من التأويل المردود، فإنه معروف في اللغة، كما أن العرب يتكلمون ويخاطبون الديار(٣):

عُوجُوا فحيُّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدَّارِ(٤) ... ماذا تُحيُّونَ مِنْ نُـؤْيٍ(٥) وأحجارِ؟
فَاسـتعْجَمتْ دارُ نعـمٍ مـا تُكلِّمُنا ... والـدَّارُ لـو كلَّمَتْنـا ذاتُ أَخْبـارِ

فهم يستنطقون البيوت والديار والآثار، فكأنها تحدِّثهم بما جرى فيها من أخبار وحوادث، وهو جار على لغتهم، فالآية تشمل أن تخبر بما أذن الله أن تخبر به عن الناس، ويجعل الله تعالى فيها هذه القدرة، وتشمل ما يقع للأرض من الأحوال والحوادث التي يراها الناس، وكأن الأرض تتحدَّث أو تخبر عنها، وقد ذكر هذا الطبري وغيره(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٨٨٦٧)، والترمذي (٢٤٢٩، ٣٣٥٣)، وابن حبان (٧٣٦٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٦، ٥٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٨٣٤).

(٣) ينظر: «ديوان النابغة الذُّبياني» (ص١٨).

(٤) **عُوجوا**: قفوا. **والدِّمْنة**: آثار البلاد.

(٥) **النُّؤي**: ما يُحفر حول الخباء لدفع المياه والأمطار.

(٦) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٦٠)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٥٨- ٢٥٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣١٩- ٣٢٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١١)، والمصادر السابقة.

* ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾:

الباء هنا سببية، أي: بسبب أن ربك أوحى لها، **والوحي لغة:** الخبر الخفي غالبًا، وهو وحي أمر كوني قدري[1]. **والوحي على نوعين**[2]:

١- **وحي شرعي**، وهو الذي تنزل به الملائكة على الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ كالقرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥].

٢- **وحي تسخيري إلهامي، تكويني**، يخلق الله به، فهو مثل الأمر؛ **فالأمر أمران: أمر قدري** يخلق الله به ويرزق، **وأمر شرعي**، مثل إيجاب شيء أو تحريم شيء.

فالمعنى: أمرها أمرًا تسخيريًّا تكوينيًّا، لا تملك إلا أن تنفذه، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

فإن قيل: لماذا قال في النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾، في حين قال هنا: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ولم يقل: «أوحى إليها»؟

فالجواب:

١- أن قوله: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ فيه تضمين، والتضمين هو أن يضمن الفعل «أوحى» معنى «أذن»، أي: أن ربك أذن لها، أو قال لها، كما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١١- ١٢].

ولرُؤبة بن العجّاج[3]:

وَحَى لها القَرارَ فاستقرَّتِ   وشدَّها بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ

٢- أن هذا هو المناسب لفواصل الآيات، فهو أنسب مما لو قال: «أوحى

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ١٣٣)، و«تاج العروس» (٤٠/ ١٧١) «و ح ي».

(٢) ينظر: «دراسات في علوم القرآن» (ص١٧٥)، و«المحرر في علوم القرآن» (ص٦٨).

(٣) ينظر: «ديوان رُؤبة بن العجّاج» (٢/ ٤٠٨).

إليها».

* ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾:

صدورهم أشتاتًا يحتمل:

- **صدورهم متفرقين**: بين مؤمن وكافر، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، أصحاب الجنة وأصحاب النار.

وقريب منه أن يُحشر الناس كلٌّ مع نظيره، كما في قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]. أي: حُشر الإنسان مع نظيره؛ فالأخيار مع الأخيار، والفجار مع الفجار، واليهود مع اليهود، والنصارى مع النصارى، والمؤمنون مع المؤمنين، وأهل الضلالة مع أهل الضلالة، وهكذا كل فئة تُحشر مع فئتها، ولعل من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

- **ويحتمل أنهم** يصدُرون مجموعاتٍ على غير انتظام ولا اتفاق ولا انضباط فيما بينهم، فهذا من معاني التشتت[1].

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ بضم الياء، ولم يذكر مَن الذي يريهم؛ للعلم به، فهو ربُّهم تعالى، **ولكن هل سيرون حقيقة هذه الأعمال؟**

المشهور: يرون جزاءها، وقد يرونها في موازينهم، وقد يرونها في صحائف أعمالهم، ولا غرابة أن يرى الناس حقيقة أعمالهم في الدار الآخرة، فنحن نرى اليوم أن الإنسان بوسائله العادية البسيطة يحفظ الصوت والصورة، كما تفعل أجهزة التصوير التي تستخدم للتجسس أو للإثبات أو التوثيق.

في يوم القيامة تشهد على الإنسان جوارحه وحواسه وجلده بما عمل، فلا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٦٢)، و«تفسير الماوردي» (٣/ ٣٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٥٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٤٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٤).

غرابة أن يرى صورة عمله؛ والمتقدمون يقولون: تصور لهم أعمالهم، وتحول إلى أشياء مرئية، والأولى أن تظل الآية على شمولها، ومن ذلك أن يروا أثر العمل، وأن يروا حساب العمل، وأن يروا العمل مكتوبًا في صحائفهم، وأن يروا العمل ذاته موثقًا مشهودًا.

* ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾:

هذا دليل على أن مرد الأمر إلى العمل، وأن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، وأن الأعمال السيئة سبب لدخول النار، وفي الآية تذكير بأهمية العمل وخطره، وأنه معدود على المرء حَقُرَ أم عَظُمَ، فللقلب أعمال وللجوارح أعمال وللسان أعمال؛ ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: «مَن عَدَّ كلامَه مِن عملِه، قلَّ كلامه فيما لا ينفعه»(١).

وقد يقع من عمل الإنسان ما هو داخل في دائرة المباح، الذي لا يُوصف بأنه خير أو شر، إلا بموجب القصد والنية، فإن قصد به خيرًا أُجر عليه، وإن قصد به شرًّا أثم، وما لم يقصد بها هذا ولا ذاك، فهو من العفو الذي لا يحاسب عليه، ولذا لم يذكره في الآية.

وكثير من المسلمين يتساهلون فيها، وبعضهم يترك عمل الفرائض مدَّعيًا أن التقوى في القلب وحَسْب، أو يقصر الأعمال الخيرة في فعل العبادات دون السلوك والأخلاق!!

والله يحب عمل الدنيا النافع، ويثيب عليه، وقد يعاتب على تركه؛ لأنه يترتب عليه فوات مصالحه الخاصة، أو مَن يعول من زوجة أو أهل أو ولد أو نحو ذلك، أو يذل نفسه بالسؤال أو بالسرقة، وبهذا الفكر والإهمال لأهمية العمل تتحول

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٧٩٥)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٨٣)، والدارمي (٣١٣)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٥)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (٦١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ١٥٧).

الأمة في مجموعها إلى أمة متخلِّفة ضعيفة، مستهلِكة غير منتجة.

ومن الخلل البيِّن أن بعض الناس لما يقرؤون مثل هذه الآية ينقدح في أذهانهم أن الأعمال التي تُوزن هنا، هي العبادات المحضة من صلاة أو صدقة أو نُسك، وهذا جهل مفرط بالدين؛ لأن النص ما ترك شيئًا إلا انتظمه؛ مصالح الأفراد أو الأسر أو الجماعات والأمم، والإخلال بشيء من ذلك مظنة المحاسبة والمؤاخذة، والإنسان إذا أخلَّ بأمر يخصه في عبادته كان الحساب عليه فقط، وإذا أخلَّ بأمر يتعلق بمصلحة الأمة، كأن يقصِّر في وظيفته أو أمانته، أو لا يقوم بواجبه؛ كان ضرر ذلك على مَن تحت يده.

فينبغي أن نحرِّر هذا المعنى ونصحِّحه، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

و«**الذرة**» **فيها أقوال خمسة**، ذكرها ابن الجوزي وغيره، **وأشهرها**: أنها واحدة الذَّرِّ، وهو النمل الصغير. أو هي ذرة الهباء التي يراها الإنسان في الهواء تحت ضوء الشمس من كوة أو غيرها(١).

والعلماء المعاصرون يعنون بالذرة شيئًا آخر، وهو ذلك الجزيء المتناهي في الصغر الذي تتكون منه المادة.

والسياق يدل على أن المعنى: مَن يعمل أقل مقدار من الخير يرَهُ، أو أقل مقدار من شرٍّ يرَهُ، وهذا لا يُستثنى فيه شيء، فكل ما يتصور من الصغر فهو مقصود في هذه الآية، والله تعالى أعلم، وقد قال سبحانه: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، فالله تعالى لا يظلم شيئًا، ولا يظلم أحدًا.

والمثقال هنا قدر من الوزن.

---

(١) ينظر: «زاد المسير» (١/ ٤٠٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٣/ ٦٤١)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٣٧).

وها هنا مسألة: هل ينفع الكافر ما يعمله من خير؟

والجواب: أنه يُجازى عليه في الدنيا؛ لأن الله لا يظلم أحدًا شيئًا، فيُجازي في الدنيا بمقدار ما عمل من الخير والطاعات[١].

وأما المؤمن فما عمل من خير- وإن كان شيئًا يسيرًا- قد يُجازى عليه في الدنيا ويُدَّخر له في الآخرة ما هو أعظم، وما عمل من شر- وإن كان قليلًا- فقد يُعجَّل له عقوبته في الدنيا بما يُخفِّف عنه عقوبته في الآخرة، وقد تُؤَخَّر عقوبته إلى يوم القيامة، وقد يغفر الله له ذنبه.

وأصحاب الكبائر تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم، كما في قصة الرجل الذي قال الله تعالى فيه: «**اعرِضُوا عليه صِغَارَ ذُنوبِه، وارفَعُوا عنه كِبَارَهَا. فتُعرضُ عليه صغَارُ ذنوبِه، فيقال: عَمِلْتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا. فيقول: نعم. لا يستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مشفِقٌ من كِبَارِ ذنوبِهِ أَنْ تُعرَضَ عليهِ، فيقال له: فإنَّ لك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً. فيقول: ربِّ! قد عملت أشياءَ لا أراها هاهنا**»[٢].

وفي الآية حثٌّ للإنسان على أمرين:

١- أَلَّا يستهين بخير يعمله كائنًا ما كان هذا الخير، ولو كان زهيدًا، كما قال ﷺ: «**لا تَحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ**»[٣]. وقال: «**الكَلِمةُ الطيبة صَدَقةٌ**»[٤]. وقال: «**وأَمْرٌ بالمعْروفِ صدقةٌ، ونهيٌ عن المنكَرِ صدقةٌ**»[٥]. وقال: «**ولا يزالُ لِسَانُك رطبًا بذكرِ الله**»[٦]. والخيرات كثيرة، كلٌّ مستطيع أن يأخذ منها

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الانشقاق»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٧)، ومسلم (١٠٣٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٧٢٠) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٦٩٨)، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وابن حبان (٨١٥)، والحاكم (١/ ٤٩٥) من حديث عبد الله بن بُسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بنصيب.

ومن ذلك: عملُ القلب، مثل: العفو عن المؤمنين والمؤمنات، ومسامحتهم إن أخطؤوا وظلموا، والتذكر والتفكر.

وهكذا الأعمال الصالحة المتعدِّية نفعها للناس، سواءً أكانت أعمالًا تعبُّدية شرعية؛ كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم أعمالًا دنيوية؛ كالبِرِّ والجود والإحسان والصِّلة ونفع الناس في دنياهم ومعاشهم، والتسلية عن همومهم.. إلى غير ذلك من المقاصد التي يحبها الله ويرضاها.

٢- أَلَّا يستهين بمعصية ولو قلَّت؛ فإن المحقَّرات من الذنوب تجتمع على الرجل العظيم حتى تهلِكَه؛ فلا يستهين بكلمة غيبة، أو نميمة، أو نظرة حرام، أو سخرية، أو غفلة، أو تأخر في صلاة، أو كلمة سيئة في حق الوالد، أو تقصير في واجب، أو غِشٍّ يسير، أو تجاوز.

فحريٌّ بمَن يقرأ هذه الآية أن يقف عندها؛ ولهذا ورد أن صَعْصَعة بن معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عم الأَحنف جاء إلى النبي ﷺ، فسمعه يقرأ هذه الآية، فقال: «حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها»[١].

وقرأ الحسن البصري هذه الآية عند أعرابي، فلما قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. قال الرجل: انتهت الموعظة[٢].

ooo

(١) أخرجه أحمد (٢٠٥٩٣)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١١٩٨)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٩٤)، والطبراني (٧٤١١)، والحاكم (٣/ ٦١٣).

(٢) ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٨٢)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٤٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٥).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

❁ تسمية السورة:

اسمها: «**سورة العَاديات**» في معظم المصاحف وكتب التفسير.

وبعضهم يضيف الواو، فيسميها: «**سورة** ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ﴾»(١). وهذا بالنظر إلى حكاية الآية وسياقها.

❁ عدد آياتها: إحدى عشرة آية باتفاقهم(٢).

❁ واختلف هل هي مكية أم مدنية؟ فقيل: مكية، وهو قول ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعطاء، والحسن، وعكرمة(٣).

وقيل: مدنية، وهو قول ابن عباس، وأنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وقتادة، ورجَّحه الطاهر ابن عاشور(٤).

واعتمد في الترجيح على سبب النزول، وحاصله أن النبيَّ ﷺ بعث سريةً

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٣)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٧٩٥)، و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٠)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٣)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٣)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٦١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤١).

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٠)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٥).

(٤) ينظر: «إعراب القرآن» لابن سيده (٨/ ٢١٤)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٩٩)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٤٩)، و«الإتقان» (١/ ٤٦، ٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٧).

فأبطأت عليه شهرًا لا يأتيه خبرها، فاغتم لذلك ﷺ، ثم نزلت هذه السورة[1].

وهذا ضعيف، شأنه شأن معظم أسباب النزول؛ فإنه يغلب عليها الضعف، ولم يصح في فضل هذه السورة حديث فيما أعلم، وذكر الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» آثارًا لا تصح[2].

اشتملت السورة على ثلاثة أقسام:

الأول: يشمل خمس آيات، وهي قوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾، وهي مقدِّمات تعتبر قَسَمًا أقسم الله تعالى به، وهو الثلث الأول من السورة.

الثاني: الحقيقة التي أقسم الله عليها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾.

الثالث: وعظ وتذكير، وهو بقية السورة: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾:

* ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾:

مأخوذة من العَدْو، وهو الرَّكض السريع، ولا يخص الحيوانات فحسب، بل هو شامل للإنسان.

وهي هنا الحيوانات العادية، أقسم الله بها حال عَدْوها.

ويحتمل أن تكون هي الخيل بخاصة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وخصُّوا الخيل؛ لقوله: ﴿ضَبْحًا﴾؛ لأن الضَّبْح- وهو الحَمْحَمة- هو صوت الخيل إذا أسرعت وركضت، فيصير لها صوت قوي في داخلها لا يبين، هكذا:

---

(١) أخرجه البزار (٢٢٩١- كشف)، والدارقطني في «الثاني من الأفراد» (٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص٤٦٣). وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٦٧٣)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين» (٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٣)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٥٩٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢١٧).

(٢) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٣٨).

«أح أح أح»[١].

وقد نُقل عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره أنه لا يَضْبَح إلا الثعلب والكلب والفرس[٢].

وقيل: هي الإبل، وهو مروي عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[٣]، فيكون على سبيل الاستعارة والنقل، فالإبل لا تَضْبَح كما تَضْبَح الخيل.

وقد روى الشَّعْبيُّ وغيره أن رجلًا سأل عليَّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما «العاديات ضبحًا»؟ فقال: هي الإبل. فكأن الرجل تعجَّب، فقال عليٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هل سألتَ أحدًا قبلي؟ قال: نعم. قال: مَن؟ قال: سألتُ ابنَ عباس. قال: فما قال لك؟ قال: قال: إنها الخيل. قال: عليَّ به. فجاؤوا بابن عباس- وكان هذا في خلافة علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- فقال له: يا ابنَ عباس، أقلتَ في «العاديات ضبحًا»: إنها الخيل؟ أتفتي فيما لا علم لك، والله، لقد غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة بدر، وما كان معنا إلا فَرَسان، وما كانت إلا الإبل، فالعاديات هي الإبل، وقد أقسم اللهُ بها وبغارتها[٤].

وابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لم يقل: إنها كانت في بدر أو في غيرها، وكأن عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرى أن القَسَم هو بركائب المسلمين في بدر وغارتها، وظاهره أنه يرى أن السورة مدنية.

والضَّبح، أو الضَّبْع هو: الصوت مع مد العنق، وهو مفعول مطلق، أي: تضبحُ

---

(١) ينظر: «الصحاح» (١/ ٣٨٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٠١)، و«تاج العروس» (٦/ ٥٦١- ٥٦٢) «ض ب ح».

(٢) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٦٨)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٤، ١٥٦)، و«تفسير الخازن» (٧/ ٢٨٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٤٩٩)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٨/ ٥٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٨).

(٣) ينظر: «تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٠٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٣)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «الأضداد» لابن الأنباري (ص٣٦٤، ٣٦٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٠)، و«المستدرك» (٢/ ١١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٥)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٤/ ٢٦٧)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٢٧).

ضَبْحًا[1].

* ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾:

أَوْرَى: أوقد أو شبَّ، فالذي يُورِي هو الذي يقدح[2].

والمقصود: الخيل إذا جرت؛ لأنها تقدح النار إذا ضربت حوافرها في الصخر أو الحجارة التي في الأرض لسرعتها، فيقع من جراء ذلك الشَّرر، وهذا قول جمهور المفسرين[3].

وهذا يقوِّي القول بأن المقصود بها الخيل؛ لأن الإبل لا يقع لها ذلك بخفافها، إلا إذا قلنا بنوع من التكلف: إن الإبل إذا أسرعت تضرب الحجارة بعضها ببعض، ويقع من جراء ذلك قدح للنار.

وقيل: الموريات: نيران المجاهدين إذا أوقدوها؛ لأنهم غالبًا إذا هموا بالهجوم يوقدون النيران؛ حتى يظن أنهم كثير، ولو لم يكونوا كذلك.

وبعضهم قال: هي مكر الرجال، وتحريكهم لعقولهم في استنباط الحيل! أو هي ألسنتهم إذا كشفت الحجج وأبانت عنها.

وقيل: هي نيران الحجيج إذا أوقدوها بعرفة أو مزدلفة.

وعزَّزوا ذلك بأن مزدلفة تسمَّى: ﴿جَمْعًا﴾، وهذا على القول بأن «العاديات» هي الإبل إذا مضت بالـحُجَّاج.

والأقرب أن المقصود: الخيل؛ لأنها إذا ضربت بحوافرها في الأرض الصلبة

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٥)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٥- ١٥٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٤٩٩).

(٢) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ٢٢٨)، و«تاج العروس» (٧/ ٤٠) «ق د ح»، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (٣/ ٢٤٢٩) «وري».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٥- ٥٧٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٠).

أورت النار؛ ولذلك يقول النابغة(١):

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سُيوفَهم بِهنَّ فُلولٌ من قِراعِ الكتائِب(٢)
تَقُدُّ السَّلُوقيَّ المُضاعَفَ نسجُهُ وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ(٣)

* ﴿فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣﴾:

الركائب التي تُغِير على العدو في الصباح(٤)؛ لأنهم أكثر ما يُغيرون في الصباح؛ لأن الأمور في النهار مكشوفة، والنور يفضح.

وفي الحديث: «**إنا إذا نَزَلْنَا بساحة قومٍ، فسَاءَ صباحُ المُنْذَرينَ**»(٥). وهكذا في القرآن: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧].

وإذا كان المقصود بـ«العاديات»: الإبل، فتكون الغارة هنا هي الدفع من عرفة إلى مزدلفة، ثم الدفع من مزدلفة إلى منى.

وليست الغارة مقصورة على الحرب، بل دفع الإبل مجموعةً إلى مكانٍ ما يسمى غارة، ولو لم يغيروا على عدو، فهم كانوا يذهبون إلى منى بعد الإشراق، فيقولون: «أَشْرِقْ ثَبِيرُ، كَيْمَا نُغيرُ». فلا ينصرفون إلا إذا سطع عليه نور الصباح(٦).

* ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤﴾:

الإثارة: تحريك الشيء الساكن، **والنَّقْع** هو: الغبار، كما قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٧):

عَدِمنَا خَيْلَنا إنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثيرُ النَّقْعَ موعِدُها كَدَاء

---

(١) ينظر: «ديوان النابغة الذُّبياني» (ص١٥).

(٢) **الفُلول** جمع: فل، وهو تشقق حد السيف، **وقِراع الكتائب**: مجالدة الجيوش.

(٣) **السَّلُوقي**: درع منسوبة إلى سَلوق؛ مدينة بالروم، **والمضاعف نسجه**: الذي نُسِج حلقتين حلقتين، **والصُّفاح**: حجارة عريضة، **والحُباحب**: ذُباب يطير بالليل في أذنابه كشرر النار، **وقيل**: ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة.

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٧٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧١، ٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) ينظر: «صحيح البخاري» (١٦٨٤). **وثَبِير**: جبل بمزدلفة.

(٧) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (ص٧٣).

وقال بَشَّار بن بُرْد(١):

كَأَنَّ مثارَ النَّقْعِ فَوقَ رؤوسِنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكِبُهُ

فالنَّقْع إذا جاء معه كلمة «أثار»، فالغالب أن المقصود به الغبار، وضمير الهاء في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ يجوز أن يكون عائدًا إلى العَدْو المذكور في أول السورة، أو يعود إلى المكان الذي يُثار فيه الغبار(٢).

* ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾:

يحتمل أن يكون الضمير كسابقه عائدًا للعَدْو، ويحتمل أن يكون عائدًا للمكان، أي: صرن في وسط هذا الجمع من الأعداء الذين استهدفتهم الغارة.

وإذا قلنا: إن العاديات هي: الإبل، فقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: مزدلفة، وجَمْع: اسم من أسمائها، ومنه قولهم: ليلة جَمْع، أي: مزدلفة. فيكون المعنى: دخلت الإبل بمزدلفة، حتى صارت في وسط هذا المَشْعَر.

ومن الملاحظ أن السياق كان في البداية أسماء، ثم صار أفعالًا، أقسم الله تعالى بـ«العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. ثم انتقل السياق وتغير، بخلاف سور أخرى، مثل: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، ومثل ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ والسياق هنا أبلغ مما لو ساق مجموعة من الأسماء المتسلسلة، كما قال الشاعر العربي، الذي يدَّعي أنه لقي الغُول(٣):

بأني قد لقيتُ الغُولَ تهوي بسَهْبٍ كالصَّحيفَةِ صَحْصَحانِ

فأضرِبُها بلا دهْشٍ فخرَّت صريعًا لليدَيْنِ وللجِرانِ

فغاير بين الفعل الماضي والمضارع ثم الماضي، فالتنويع يحدث عند الإنسان نوعًا من عدم الاسترسال، ويغيِّر النمط الذي سمعه.

(١) ينظر: «ديوان بشار بن برد» (١/ ٣١٨).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٠)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٤٠٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٧)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠١).

(٣) ينظر: «ديوان تأبط شرًّا» (ص٢٢٤- ٢٢٥)، و«الكشاف» (٣/ ٦٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٢٧)، و«البحر المحيط في التفسير» (٩/ ١٦).

* ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦﴾:

هذا هو المقسَم عليه، وأكثر المفسرين على أن الإنسان هو: الكافر أو الفاجر. وهذا محتمل.

ويمكن أن يكون المقصود: جنس الإنسان من حيث هو؛ فأصله وطبعه كذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فكل الناس حملوا الأمانة، والغالب في الإنسان أنه ظلوم جهول، إلا مَن حفظه الله ورحمه(١).

وقد ورد من حديث أبي أُمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح: «الكَنُود: الذي يضرِب عبدَه، ويمنعُ رِفدَه، ويأكُل وحدَه»(٢).

وهذه صفات سيئة في الإنسان، وهي بعض صفات الكَنُود، وقد وُصف بصفات أخرى، **فقيل**: الكفور الذي يجحد النعمة، **وقيل**: الجحود الذي لا يعترف بالفضل والإحسان، وإنما يذكر السيئ، **وقيل**: الحقود، أو الحسود(٣).

وبعضهم نظم هذا في أبيات فقال(٤):

يا أيُّها الظَالِمُ في فِعْلِهِ ... والظُّلمُ مردودٌ على مَنْ ظَلَمْ
إلى مَتى أنتَ وحتَّى متَى ... تَشْكُو المُصيباتِ وتَنْسَى النِّعَمْ

أقسم تعالى على هذا الوصف، وكأن في ذلك إشارة إلى ما شرعه الله تعالى

---

(١) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٦١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٣).

(٢) أخرجه مرفوعًا: ابن وهب في «تفسيره» (٢٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٥٨٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٧)- والطبراني (٧٧٧٨، ٧٩٥٨)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٧١).

وأخرجه موقوفًا: ابن معين في «تاريخه» (٥٤٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٦٠)، والطبري (٢٤/ ٥٨٧). وهو ضعيف موقوفًا ومرفوعًا، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٥٨٣٣).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٢).

(٤) ينظر: «الشكر» لابن أبي الدنيا (٦٣)، و«شعب الإيمان» (٤٣١٠) منسوبًا إلى محمود الورَّاق.

لعباده وأوجبه عليهم، من الجهاد بالنفس والمال، فالذي يحول بين الإنسان وبين طاعة الله تعالى هو حظ النفس، وما يكون في الإنسان من الجحود والكنود والنكران والأَثَرة وحب المال والنفس.

* ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾:

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان.

والبعض يُرجع الضمير إلى «الله»؛ لأنه أقرب مذكور، وهذا ضعيف. **والراجح الأول**[1].

وهل الإنسان يشهد على نفسه بأنه كنود؟

هذا فيه إشكال، والذين قالوا: إن مرجع الضمير إلى «الله»، أرادوا الخروج من هذا الإشكال.

ولعل شهادته تكون بأنه يدرك ذلك من نفسه حال الهدوء والمراجعة والملاحظة والنظر في حال النفس، فإن الإنسان تمر به أحوال شتى، فربما غلب عليه الغضب أو الهوى أو الشهوة، ثم يفيق، ويشهد على نفسه بالخطأ، وتجد في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧].

ولذا كان من أعظم ما يربِّي النفس اعتياد المرء على مراقبتها ولحظ تصرفاتها ودوافعها وانفعالاتها، وذلك ينفع أكثر مما تنفع نصائح الآخرين؛ لأنك قد ترى أنهم ظلموك أو جاروا عليك؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥].

ويحتمل أن المعنى: يشهد بعضُهم على بعض، كما يشهدون في مصالح

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٧٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨١)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٤).

الدنيا والحقوق وغيرها، فكذلك يشهد بعضهم على بعض في الآخرة وفي الدنيا، وهو اجتهاد في فهم الآية يخضع للأخذ والرد.

ونلحظ أن الإنسان يدرك من عيوب غيره ما لا يدركه من عيوب نفسه، فهذا من الشهادة على الآخرين، فيشهد على فلان بأنه جحود، أو كذَّاب، أو بخيل، وفي الحديث الصحيح: «**هذا أَثْنَيْتُمْ عليه خيرًا؛ فوجَبَتْ له الجنةُ، وهذا أَثْنَيْتُمْ عليه شرًّا؛ فوجَبَتْ له النارُ، أنتُمْ شهداءُ الله في الأرض**»(١).

وهي شهادة على نفسه من وجه آخر؛ فكونه يبصر القَذَاة في عيون الآخرين، ولا يبصر الجَذْع في عينه، دليل على أنه يشكو المصيبات وينسى النعم، ويرى السيئات ويجحد الحسنات.

ويحتمل أن المعنى أنه يشهد على نفسه في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، فتشهد على الإنسان جوارحه بكل ما عمل(٢).

وثَمَّ معنًى خامس، وهو أنه يشهد بلسان الحال، وإن لم يشهد بلسان المقال، فقد لا يعترف بأنه كَنُود وجحود، لكن حاله تشهد بذلك، وأنت إذا قرأت في كتب الأدب، كـ«العِقْد الفريد»، أو كتب ابن قُتيبة، كـ«عيون الأخبار» والكتب الجوامع؛ وجدتهم كثيرًا ما يذمون جنس الإنسان، ويقولون: الناس صاروا شوكًا لا ورق فيه، ومن ذلك ما قاله أبو الطيب المُتَنَبِّي(٣):

ولـمـا صـار ودُّ الـنـاس خِـبًّا ... جَزَيتُ على ابتسام بابتسـامِ
وصِرتُ أَشكُّ فيمَنْ أصطفِيهِ ... لعِلْمِي أَنَّـهُ بَـعْضُ الأَنـامِ

وقال المعتصم بن صُمادح(٤):

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة البروج»: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾.

(٣) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٣)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٤/ ١٤٤).

(٤) ينظر: «البرق الشامي» (٣/ ٨١)، و«المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ص١٧٣)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ٥١)، و«المغرب في حلي المغرب» (٢/ ١٩٧).

وزهَّـدني في الناسِ معرفتي بهم وطولُ اختباري صاحبًا بعد صاحبِ
فلم تُـرني الأيـامُ خِـلًّا تسرُّني مباديـه إلا سـاءني في العواقـبِ
ولا صرتُ أرجوه لكشفِ ملمَّةٍ من الدهرِ إلا صار إحدى المصائبِ

ولعل جميع هذه المعاني صحيحة.

ويحتمل أن تكون ﴿عَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «مع»، كقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. يعني: مع حبه، **فيكون المعنى**: وإنه مع ذلك لشهيد، يعني: شهيد على هذه الحقيقة(١).

* ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾:

أكثر المفسرين على أن المقصود بالخير: المال، وقد يكون المقصود جنس الخير، فيشمل المال وغيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، والغالب أن المال محبوب، وأن الناس يعدُّونه خيرًا، وأنه سبيل إلى الخير(٢).

وعلى هذا فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ يعني: أنه يحب المال حبًّا شديدًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ٢٠].

وبعضهم يقولون: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ يعني: لبخيل بسبب حب المال(٣)، فتكون اللام هنا سببية، والشديد تأتي بمعنى البخيل، كما قال الشاعر(٤):

أرى المـوتَ يَعتامُ الكـرامَ ويَصْطَفِي عَقيلـةَ مـالِ البَاخِـلِ المتَشـدِّدِ

(١) ينظر: «تفسير ابن عرفة» (٤/ ٣٣٨)، و«دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» (ص٢٨٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٨)، و«تفسير الماوردي» (١/ ٢٣١)، (٦/ ٣٢٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٢)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٥٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٦)، و«الكشاف» (٤/ ٧٨٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٧)، والمصادر السابقة.

(٤) ينظر: «ديوان طرفة بن العبد» (ص٢٦)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٥٤)، و«مقاييس اللغة» (٣/ ١٧٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٢).

المتشدِّد: الممسك. **والمعنى متقارب.**

وهذا مُقْسَم عليه في السورة؛ فالله أقسم على أن الإنسان كَنُود، وأنه على هذا شهيد، وأنه لحب المال لشديد.

* ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾:

هنا بدأ الوعظ والتخويف والزجر والتهديد، **والمعنى**: أفلا يعلم هذا الإنسان إذا بُعثر ما في القبور؟

والبعثرة كلمة تدل على شيء غير منظم، يقال: أشياء مبعثرة: مرمية على غير انتظام، فما أثير وأُخرج وفُرِّق ورُمي على غير انتظام يقال له: مبعثر.

ولم يقل: «مَن في القبور»، مع أن المقصود هو الإنسان، للإشارة إلى أنه يبعث كل ما في القبور، حتى الحيوانات تُحشر.

ولأن الإنسان حينما يُبعثر من قبره ليس عاقلًا ولا مكلَّفًا، ولم تعد إليه روحه، فكان كما لو كان غير عاقل، وعومل معاملة غير العاقل، وفي ذلك إشارة أيضًا إلى أن الناس يوم القيامة يكونون كما قال عنهم ربهم: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

* ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾:

أي: أُبرز وأُظهر وبُيِّن ومُيِّز، كما قال لَبيد(١):

وكُلُّ امْـرِئٍ يومًـا سَـيعلمُ سَـعْيَهُ　　　إذا كُشِّـفَتْ عِنـدَ الإلـهِ الحَصَائِـلُ

وهذا يعني: إظهار الصحف التي تتطاير يوم القيامة وفيها كل شيء.

أو يعني أن يظهر الإنسان يوم القيامة على حقيقته، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(٢) [الطارق: ٩].

---

(١) ينظر: «ديوان لبيد» (ص٨٥)، و«تاج العروس» (٢٨/ ٣٠٢) «ح ص ل».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٥٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٣)، وما تقدم في «سورة الطارق».

* ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾:

وربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خبير بهم في كل حال وفي كل حين، ولكن يومئذ: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، ولا يجادل أحد في علمه سبحانه كما كان يجادل في الدنيا؛ فالخبرة تظهر ظهورًا ضروريًّا لا يجادل فيه أحد.

الترابط الموضوعي في السورة:

لما أقسم تعالى بـ«العاديات وضبحها»، ثم بـ«النار التي تُورى وتُقدح»، ثم بـ«الغارة التي تشنها هذه الخيل أو الإبل»، نلاحظ تسلسلًا متَّسقًا:

فالآية الأولى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ تتعلق باحتدامٍ واندفاع من داخل النفس، وذلك هو الضَّبْح.

ثم في الآية الثانية: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ تأخذ الخيل في سرعة شديدة حتى إذا ضربت بحوافرها الحجارة الصلبة أورت النار قدحًا، وهو أمر عَرَضي، لكنه مشهد واقع لتلك الخيل المغيرة.

ثم في الآية الثالثة: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ والغارة مقصودة يقينًا، وهي الغاية.

وهكذا لو تأملت لوجدت أن الأشياء كلها- والله أعلم- تمر بهذه الدرجات الثلاث، تبدأ من داخل النفس حركة شعورًا وإرادة ورغبة وهمة؛ ولذلك جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**أحبُّ الأسماء إلى الله** عَزَّوَجَلَّ: **عبدُ الله وعبدُ الرحمن، وأصدَقُها: حارثٌ وهمَّامٌ**»(١)؛ وهي تتطلَّب نقل ذلك إلى الواقع بعمل دؤوب

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٨١٤)، وأبو داود (٤٩٥٠)، والنسائي (٦/ ٢١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/ ٣٨٠) (٩٤٩)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦/ ٣٠٤٢) (٧٠٤٥)، والبيهقي (٩/ ٥١٤)، وغيرهم.

وله علَّة بيَّنها أبو حاتم الرازي، كما في «العلل» لابنه (٢٤٥١، ٢٥٢٥)، وقبله غيره. وينظر: «الجرح والتعديل» (٥/ ٣٢٦)، و«المراسيل» لابن أبي حاتم (ص١١٧- ١١٨)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٧٧٥)، و«بيان الوهم والإيهام» (٤/ ٣٧٩- ٣٨٤)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (٢/ ٧٨٨- ٧٩٠)، و«تهذيب التهذيب» (١٢/ ٢٧٤- ٢٧٥)، و«الإصابة» (١٣/ ٨٦- ٨٧)، و«إرواء الغليل» (١١٧٦، ١١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (٩٠٤، ١٠٤٠).

وأول الحديث في «صحيح مسلم» (٢١٣٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وجهد متواصل، ويمكن تشبيه هذا بـ«الموريات قدحًا»، وهذه هي **الدرجة الثانية** التي هي الانطلاق والسير والمواصلة والوسيلة.

ثم الثالثة: هي ثمرة العمل والجهد الذي كان همًّا بادئ الأمر، فمَن هَمَّ بتجارة أو بزواج أو ببناء أو بوظيفة أو بتخصُّص؛ فإنه يكون في أول الأمر همًّا يختلج في داخل النفس، ثم ينتقل إلى جهد وعمل ميسر، وينتهي إلى الهدف المقصود.

وبدأ الله سبحانه بالأسماء، فقال: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾، ثم انتقل إلى الفعل، فقال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ لأن المقصود الأعظم والأسمى هو الفعل الذي يراد من الإنسان أن يصل إليه.

وخذ على سبيل المثال: الحرب، حيث يقول الشاعر(١):

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ نارٍ ... ويوشِكُ أن يكونَ لها ضِرامُ(٢)
فإنَّ النَّارَ بالعودَين تُذْكَى ... وإنَّ الحَربَ أوَّلُها كَلامُ
إذا لم يُطْفِها عُقَلاءُ قومٍ ... يكونُ وقودُها جُثَثٌ وهَامُ

والله تعالى أقسم بالخيل، بالنظر إلى أن الإنسان هو سائسها ومالكها، وفضلها من فضل مستعملها؛ ولهذا جاء في «الصحيح» أن النبيَّ ﷺ قال عن الخيل: «**الخيلُ لثلاثة: لرجل أَجْرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجل وزرٌ**»(٣).

ومن هنا كان القَسَم بها في هذه السورة.

والإنسان نفسه جسد وروح، وشرف الإنسان ليس ببدنه ولا بقوته، ولا بجماله أو بكبريائه، وإنما جسم الإنسان حامل للروح والعقل والنفس، فإذا كانت النفس شريفة بتقوى الله تعالى وطاعته، وبالعلم النافع وبالعمل الصالح وبالهمم الكبار، كان شرف الجسم تبعًا لذلك، وإذا صار مدار أمره على الدنيا من المال

---

(١) ينظر: «البيان والتبيين» (١/ ١٤٦)، و«عيون الأخبار» (١/ ٢١٠)، و«تهذيب اللغة» (٦/ ٦٣)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ١٥٠) منسوبًا إلى نصر بن سيَّار.

(٢) أي: اشتعال.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٦٠)، ومسلم (٩٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والشهوة والمنظر الجميل؛ فإنه يفقد بذلك معناه وقيمته.

وفي السورة معنًى آخرُ يتعلق بالزمن؛ فقد بدأ تعالى بـ«العاديات»، وهذا يصدق على «العاديات» في كل ساعة من ليل أو نهار، ثم انتقل إلى معنًى أخص، وهو «الموريات»، وهذا إنما يكون في الليل، ثم انتقل إلى معنًى أخص منه، وهي «المغيرات»، وهذا غالبًا يكون في الصباح، ولذلك قيَّده في الآية بقوله: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾.

وفي ذلك إشارة إلى شرف الوقت وأهميته، وأن مدار الجزاء الموعود في آخر السورة هو على استثمار هذا الوقت الذي يتناقص، فيكون عندك واسعًا في أول الأمر، ثم يضيق عليك شيئًا فشيئًا.

والتسلسل الزمني في «العاديات».. فـ«الموريات».. فـ«المغيرات».. يتناسب مع المقسَم عليه؛ **فإن الله تعالى أَقْسَم على ثلاثة أشياء:**

الأول: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾، **والكَنُود** هو: الجحود[1]، فهذا يتعلق بالأرض السَّبِخة اليابسة التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأً، وهذا من معاني الكَنُود.

الثاني: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾، فتنتقل من مقام الجحود إلى مقام الاعتراف، فهو يعترف على نفسه، سواءً اعترف بلسانه على نفسه أو اعترف على غيره، في الدنيا أو في الآخرة.

الثالث: ثم انتقل إلى مقام البخل والإمساك، والعمل، وحب الخير الذي من معانيه: حب المال، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

ويقابل ذلك ثلاثة أشياء، ذكرها الله تعالى في السورة نفسها؛ فقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾، يقابله قوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾﴾. فهذا الإنسان الكَنُود الجحود هو كالأرض السَّبِخة، ويوم القيامة تقع البعثرة، فتحفر القبور، ويخرج مَن فيها من الناس.

---

(١) ينظر: «تفسير الخازن» (٤/ ٤٦١)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١١/ ٨٩).

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾، هذا الاعتراف يقابله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾، وقد يكون هذا من معاني قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾، وسبق احتمال أن المقصود شهادته في الدار الآخرة على نفسه، باعتراف جوارحه، أو بشهادة غيره عليه، أو بشهادة الكرام الكاتبين، كما قال سبحانه: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وكما في الحديث: «**أَوَ لَيْسَ كَفَى بي شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتِبِينَ؟!**»(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾. هذا قد يناسب قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾، فهو الآن يحب ما يعتقد أنه خير، وهو المال، ولا ينفقه، وقد يكون هذا المال شرًّا له، فإذا قيل له: أنفق. تمنَّع ورفض، وقال: ﴿أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦]، وهذا في الناس كثير، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١﴾، فهو خبير بما أنفقوا، وبما لم ينفقوا، خبير بما عرفوا من عيوبهم وأخطائهم، وما تجاوزوا، وهكذا يتبين خيط دقيق بين الأشياء التي أقسم الله بها وبين الأشياء التي أقسم عليها، وبين الآيات الثلاث التي فيها الوعظ والتذكير بالدار الآخرة، فالإنسان يخرج من القبر بعد أن كان فيه، ثم يخرج منه ما كان في صدره، أو قلبه.

وفي ختام السورة إشعار بأن الجحود والإنكار لن يجديهم شيئًا، فالله عليم خبير لا تخفى عليه خافية.

وهذه السورة تجعل المؤمن في حالة رقابة للنفس، وهي من المقامات العظيمة التي يغفلها الكثير من الناس، وقد رأيتُ من المربِّين والدُّعاة مَن يحاسب الآخرين وينتقدهم أكثر مما يحاسب نفسه وينتقدها؛ لأن الآخرين بمرأى عينه، فهو نَقَّاد دقيق الملاحظة؛ لكنه عن نقد نفسه في غفلة.

---

(١) أخرجه البزار (٧٤٧٦)، وأبو يعلى (٣٩٧٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٠٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره»- كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٧٠)- والحاكم (٤/ ٦٠١)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩١) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي بعض الناس خصلتان، إحداهما شرٌّ من الأخرى: **الأولى**: غفلته عن عيوبه؛ لأنه مشغول بالآخرين.

قَبيحٌ مِنَ الإنسانِ ينْسَى عيوبَهُ ... ويذكُرُ عَيْبًا في أَخِيهِ قَدِ اخْتَفَى[1]

والثانية: كثرة النقد للآخرين مما يولِّد لديه احتقارًا وازدراءً لهم، وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»[2]. فبَطْرُ الحقِّ هو: جحده، بحيث لا يرى في نفسه عيبًا.

وقد يُبتلى بالكِبر طالب العلم أو الداعية أو الواعظ أو غيرهم، فيكون كبيرًا في عين نفسه، ويرى من نفسه ما لا يراه الناس، ولذلك يقول الشاعر[3]:

تَواضَعْ تكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لنَاظرٍ ... على صَفَحاتِ الماءِ وَهوَ رفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخَانِ يعلُو مُحَلِّقًا ... على طَبَقاتِ الجوِّ وَهو وَضِيعُ

فالإنسان المتكبِّر مثل الدخان في سرعته وخفته، والإنسان المتواضع مثل النَّجْم، يُرَى في الماء وهو في مكانه، **فهما أمران متلازمان**: الكبر الذي هو بطر الحق وجحده، ورؤية الإنسان نفسه بمنظار الكمال.

○○○

---

(١) ينظر: «نفح الأزهار في منتخبات الأشعار» (ص٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٩١).

(٣) ينظر: «أعيان العصر» للصفدي (٥/ ٤٧٩) منسوبًا إلى موسى بن علي الزَّرزاري.

وينظر أيضًا: «جواهر الأدب» لأحمد الهاشمي (٢/ ٦١)، و«غرر الخصائص الواضحة» (١/ ٢٠).

سُورَةُ القَارِعَةِ

❊ **تسمية السورة:**

لا يُعرف لها اسم إلا: «**سورة القارعة**»، وهذا ما ورد في المصاحف، وكتب التفسير، وغيرها، ولم يُنقل عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم، أو الأئمة تسميتها بغير هذا الاسم(١).

❊ **عدد آياتها:** إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي، وعشر آيات في مصحف مكة والمدينة، وثمان في مصحف البصرة والشام(٢)؛ وذلك بحسب تقسيم الوقفات، فـ﴿**ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢**﴾ بعضهم يعدها آيتين، وبعضهم يعدها آية واحدة... وهكذا.

❊ **وهي مكية** بإجماع العلماء، وممن حكى ذلك: ابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وغيرهم(٣).

❊ **وقد ورد في فضلها حديث ضعيف**، أن النبيَّ ﷺ دخل على أبي بكر وعمر،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٥)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٠٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٠٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٢)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٤)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٠)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٠٩).

فرَأَوْا في وجهه ولحيته الشَّيْبَ، فحزنوا وقالوا: شِبْتَ يا رسولَ الله! فقال ﷺ: «**شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها، وآلُ حامِيم، والمرسلاتُ، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾**»[(١)].

وفي الحديث اضطراب، وفي معظم رواياته لم يرد ذكر «القارعة».

* ﴿**ٱلْقَارِعَةُ ۝١**﴾:

﴿**ٱلْقَارِعَةُ**﴾: مأخوذة من القَرْع، وهو: الطَّرْق أو الضرب بشدة[(٢)].

وسُمِّيت: ﴿**ٱلْقَارِعَةُ**﴾؛ لأنها تقرع الآذان بجلجلتها وزلزلتها، وتقرع القلوب بمخاوفها ووجلها وتساؤلاتها؛ وتقرع العقول بغرائبها، حتى تدع الحليم حيرانًا.

«**القارعة**» هي: الحادثة العظيمة الجليلة، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ**﴾ [الرعد: ٣١]، والمقصود: ما يصيبهم في الدنيا من نكبة أو عذاب.

وجمهور المفسرين على أن ﴿**ٱلْقَارِعَةُ**﴾ هي: القيامة، فتكون اسمًا من أسمائها.

ويرى بعضهم أن «**القارعة**» هي: النفخة الأولى.

وذهب آخرون إلى أنها: النار، **والأرجح** أن ﴿**ٱلْقَارِعَةُ**﴾ هي: القيامة[(٣)]، **ولها أسماء أخرى، مثل:**

- «**الحاقَّة**»، كما في قول الله تعالى: ﴿**ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ**﴾ [الحاقة: ١- ٣].
- «**الطَّامَّة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ**﴾ [النازعات: ٣٤].
- «**الصَّاخَّة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ**﴾ [عبس: ٣٣].

---

(١) أخرجه ابن سعد (١/ ٣٧٥)، ومحمد بن نصر المروزي في«قيام الليل» (ص١٤٤- مختصره للمقريزي)، وابن عساكر (٤/ ١٧٣- ١٧٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإسناده ضعيف جدًّا. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (١٩٣١). وله طرق أخرى، كما تقدم في أول «سورة الواقعة»، و«سورة المرسلات»، و«سورة النبأ»، و«سورة التكوير».

(٢) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٦٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٥)، و«فتح القدير» (٣/ ١٠١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤٧)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر ما تقدم أول «سورة التكوير».

- «**التغابن**»، كما في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾ [التغابن: ٩].
- «**يوم الدين**»، كما في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].
- «**الغاشية**»، كما في قوله تعالى: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾ [الغاشية: ١].
- «**السَّاعة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا**﴾ [محمد: ١٨].
- «**يوم التَّناد**»، كما في قوله تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ**﴾ [غافر: ٣٢].
- «**الجاثية**»، كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً**﴾ [الجاثية: ٢٨].
- «**الواقعة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ**﴾ [الواقعة: ١].
- «**الزَّلْزَلة**»، كما في قوله تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾ [الزلزلة: ١].

* ولما ذكر ﴿**الْقَارِعَةُ**﴾ قال: ﴿**مَا الْقَارِعَةُ** ﴿٢﴾﴾، ويكثر في القرآن استخدام أسلوب الاستفهام؛ لأن كثيرًا من الحقائق والمعاني الكبيرة تمر على الناس دون أن يتفطَّنوا لها، **والأسئلة في القرآن على نوعين:**

الأول: أن يرد ذكر السؤال ومعه الجواب، ويكون المقصود لفت النظر للجواب.

والثاني: أن يرد ذكر السؤال وليس معه جواب، وحينئذ يكون المقصود إعمال الذهن وتحريك الفكر بحثًا عن الجواب.

فهنا ليس المقصود السؤال عن اللفظ اللُّغوي؛ لأن كل واحد يعرف أن القارعة هي الشيء الذي يقرع، بل السؤال عما جاء في السورة نفسها، فهو استفهام تعظيم وتهويل لا ينتظر له جواب.

* ثم كرر السؤال بصيغة أخرى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** ﴿٣﴾﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿**وَمَا يُدْرِيكَ**﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر[1].

والمعنى: ما أعلمك؟ يشير إلى أن ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ فوق مستوى إدراك الإنسان وعقله وفهمه، فالبشر لا يستطيعون أن يستقلوا بمعرفتها، ولا أن يتصوروها، وأن المصدر الذي يمكن أن يعلِّمهم بها هو القرآن، والله تعالى وحده الذي يعلم حقيقتها ويطلع عباده منها على ما يشاء، ولهذا خوَّفنا الله تعالى من النار ورغَّبنا في الجنة، ومع ذلك أخبر النبيُّ ﷺ أن في الجنة: «**ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشَرٍ**»[2].

لو حرَّكت خيالك للتعرف على نعيم الجنة ما استطعت، ولو حرَّكت خيالك للتعرف على عذاب النار ما استطعت؛ فالعقل محدود الإدراك، ولا يعرف الكثير عن الماضي أو المستقبل، ولا عن الأشياء التي لم يسبق له أن رآها أو رأى نظائرها، وهو ينفع في مجاله وميدانه، ويتوقف حين يوضع أمام قضايا غيبية لا يعرف نواميسها.

* ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾:

قد يُظن أن هذا الجواب للاستفهام السابق، والذي يظهر أن هذا ليس جوابًا؛ لأن السؤال كان عن ماهية ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أي: حقيقتها[3].

أما الآية فهي وصف لبعض حوادث ذلك اليوم، ومع هذا لم يحدِّد زمنًا؛ لأن الساعة من الأمور التي لا يَعلم ميقاتها إلا الله، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فلا مجال للسؤال عن تحديد اليوم هنا؛ ولذا انتقل إلى وصف مشهد من مشاهده، كأنما يشهده الإنسان، ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٤٤، ٤٧٨٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).

(٣) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١١).

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾، ذكر تعالى تغييرين، أحدهما يتعلق بالناس.

والفَراش هي: الدواب التي تتطاير حول النار، وكثيرًا ما تقع فيها، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنما مَثَلي ومثلُ النَّاس كمَثَل رجل استوقدَ نارًا، فلما أضاءتْ ما حولَهُ جعلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ التي تقعُ في النار يقعنَ فيها، فجعل ينزعُهُنَّ ويغلبْنَهُ فيَقْتَحِمْنَ فيها، فأنا آخُذُ بحُجَزِكُمْ عن النار، وهم يَقْتَحِمُونَ فيها**»(١). وكثيرًا ما يضرب بها المثل بالجهل والطيش وسوء المعرفة بالعواقب.

وقد وصفهم بوصف آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وثَمَّ فرق بين الفراش والجراد، فهم يشبهون الفراش في تفرقه، وكل واحد يَهِيم على وجهه على غير هدى، ويشبهون الجراد في خروجهم من الأَجْداث- أي: القبور- في كثرة واضطراب يكاد يركب بعضه بعضًا.

وما بالك بموقف يُحشر فيه الناس كلهم أولهم وآخرهم من لدن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آخر الناس، على صعيد واحد، فهاهنا الاضطراب والتداخل.

* ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾:

ثنَّى الله تعالى بالجبال التي تصبح كالعِهْن المنفوش، وهو الصوف عند جمهور المفسرين(٢).

والمنفوش: المنتفش المتطاير الخفيف، فهذه الجبال القوية المتينة تضعف، حتى تصبح كالصوف المنتفش المتطاير.

وفي آيات أخرى أخبار عن الجبال في يوم القيامة بأوصاف أخرى تحمل

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٤)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٥)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٢).

على التنوع في العبارة، والتنوع في أحوال الجبال(١).

فإذا كانت الجبال يقع لها مثل هذا، فما بالك بالإنسان وما يقع له من الرَّوْع والخوف والقلق؟ ولذا يقول أبو العلاء المَعَرِّي(٢) لما رثى والده:

فيا ليتَ شِعرِي هل يَخِفُّ وقارُه إذا صارَ أُحْدٌ في القيامةِ كالعِهْنِ؟
وهل يَرِدُ الحوضَ الرَّوِيَّ مُبادرًا مع الناسِ أم يأبى الزِّحامَ فيستأني؟

* ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾:

هذه الآيات هي مقصود السورة؛ فالنهاية جنة أو نار، والميزان هو الحكم العدل.

بدأ الله سبحانه بمَن ثقلت موازينهم؛ تقديمًا لجانب الرضا والرحمة؛ لأن الناس في حال رعب وخوف، والسورة ذكرت وصف الناس والجبال، والصوت المرعب، فهو تعالى أسرع بالرحمة والرضا، ولذلك قدم من ثقلت موازينه من أهل الجنة؛ لأن رحمته تسبق غضبه.

والجمع هنا قد يدل على وجود أكثر من ميزان، وقد يكون الميزان واحدًا، وإنما تعدَّد بحسب الأعمال، وقد يكون الأمر شيئًا آخر مما يعلمه ربنا ولا نعلمه، لكننا نؤمن بأن عند الله تعالى موازين، وهذا في القرآن واضح، كما يقول سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والسياق يوحي بأن لكل مكلَّف موازين تطيش أو تثقل، موازين عدل تُوزن بها الأعمال، أما كيفية الوزن، فأنت لا تعرف ما هو أهم من هذا وهو حقيقة يوم القيامة، ولا تستطيع أن تتخيَّل على وجه الصحة ما يجري فيه، إلا أن الله تعالى قرَّبه إليك بهذه المعاني التي يدركها عقلك.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾، و«سورة التكوير»: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾﴾.

(٢) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥/ ٤٤٤).

وجمهور أهل السنة يؤمنون بالموازين ويثبتونها، سواءً كانت ميزانًا واحدًا أو موازين، وبعضهم يقولون: توزن الأعمال ويوزن الأشخاص وتوزن السِّجِلات والصحائف[1].

والمهم النظر فيما تثقل به الموازين، وربما يطيل بعضهم الجدل حول الموازين، وتكون موازينه مملوءة بالغيبة والنميمة، والقيل والقال، والغل والحسد، والحقد والكذب، والشحناء.. ففقه اللسان لا يغني عن فقه القلب.

والعيشة الراضية: عيشة ذات رضا، اندمج فيها الرضا، فأصبحت راضية، فضلًا عن صاحبها الذي يتمتع بها، فهو في عيش ناعم منعم.

* ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩** ﴾:

يعني: من الكفار أو من المسلمين المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي الذين كانت سيئاتهم أكثر من حسناتهم.

والحق ثقيل، كما قال أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، فثقل الميزان يكون بعمل الصالحات والاجتهاد في الطاعات، واستجماع الإرادة والعزيمة، ومدافعة للنفس، أما الباطل فخفيف، لا يحتاج إلى عناء واجتهاد ذي بال.

وهذه الآية تحتمل ثلاثة معانٍ:

١ - أن المقصود بـ«الأم»: جهنم؛ لأنه يأوي إليها، فهي مثل الأم، وهو معروف عند العرب، يقول أُمَيَّة بن أبي الصَّلت[3]:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٢٨- ٣٢٩)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٩/ ٢٣)، (١٥/ ٩٤)، و«الكشاف» (٢/ ٨٩)، (٤/ ٧٩٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٦٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٤٨).

(٢) ينظر: «قوت القلوب» (١/ ١٣٧)، (٢/ ٨٤)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٣٠)، و«الآداب الشرعية» (١/ ٤١).

ورُوي من قول ابن مسعود وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (٢٩٠، ٨٥٠، ١٣٣٠)، و«الزهد» لهنَّاد (٤٩٩)، و«حلية الأولياء» (١/ ١٣٤)، (٤/ ٣٦٥)، (٨/ ١٤٥)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ٤٢٨).

(٣) ينظر: «الحيوان» للجاحظ (٣/ ١٧٣)، (٥/ ٢٣٣).

الأرضُ معْقِلُنا وكانَتْ أمَّنا ... فيها مقابِرُنا وفِيها نولَدُ

فشبَّه الأرض بالأم؛ لأنه: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، ويقول أبو القاسم الشَّابي[1] من المعاصرين:

وقالتْ لِيَ الأرضُ لَمَّا سَأَلْتُ: ... أَيَا أُمُّ هل تكرَهِينَ البَشَرْ؟!

٢- أن المقصود بـ«الأم»: الرأس، يقولون: أم رأسه. يعني: رأسه. فالتقدير: فأم رأسه هاوية. كأنه يقول: رأسُه تَهوِي وتتردَّى في جهنمَ.

٣- يعني: أمه ثاكلة حزينة، أو في مقام الحزينة، وكأنه مثلٌ يضرب، ولذلك يقول كعب بن سعد الغنوي في رثاء أخيه[2]:

هَوَتْ أمُّهُ ما يبعثُ الصبحُ غاديًا ... وماذا يؤدِّي الليلُ حين يؤوبُ

هَوَتْ أُمُّهُ: على سبيل التوجع له، كما يقولون: فلان ثكلته أمه، ولا يراد به حقيقة معناه.

والأول أرجح أن ﴿هَاوِيَةٞ﴾ صفة لجهنم، يعني: فأمه نارٌ هاوية[3].

* ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾:

أي: الهاوية، والهاء في: ﴿مَا هِيَهۡ﴾ هاء السكت، وهي تنطق وقفًا ووصلًا عند جمهور القراء[4]، أي: هي نار حامية، وكل نار فهي حامية، فالوصف توكيد لفظي، كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦- ٧]، والناس تعوَّدوا أن يجمعوا حطبًا؛ حتى يوقدوا النار، فتشتعل مرة وتنطفئ مرة أخرى، أما نار الآخرة فشيء آخر، وقد أُوقد عليها ألف

---

(١) ينظر: «ديوان أبي القاسم الشابي» (ص٩١).

(٢) ينظر: «الأصمعيات» (ص٩٥)، و«الأمثال» للقاسم بن سلاَّم (ص٧٠)، و«لسان العرب» (١٢/ ٣٠).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٥)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٥٧)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٧)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٩٥).

(٤) ينظر: «المحرر الوجيز» (١/ ٣٤٩)، و«التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ١٣٠١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٥).

عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام[1]، وفُضِّلَت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا[2]، كلهن مثل حرِّها، فكأن النيران الأخرى لا تعد شيئًا بالقياس إلى نار الآخرة.

❍ ❍ ❍

(١) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. أخرجه الترمذي (٢٥٩١)، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٩١٠، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ٥٤٠١).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٢٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٣).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

❊ **تسمية السورة:**

اسمها المشهور: «**سورة ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾**»، وهذا المُثْبت في معظم المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

وتسمَّى: «**سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾**»[2]. أو «**سورة ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾**»، وهذا ذكره البخاري في «صحيحه» في كتاب التفسير، وساق فيه حديثًا سيأتي قريبًا.

وكان بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسمونها: «**سورة المَقْبَرة**»[3].

❊ **عدد آياتها:** ثمان آيات بلا خلاف[4].

❊ **وهي مكية**، على قول جمهور المفسرين[5]، وحكى ابن عطية الإجماع على ذلك[6]، والصحيح أن في ذلك خلافًا، وإنما هو قول الجمهور.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١٣)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٦)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٦)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٤)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٢٨)، و«روح المعاني» (٣٠/ ٢٢٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٦).

(٥) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٥)، و«تفسير البغوي» (٨/ ٥١٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٧٢)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧).

(٦) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٤٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٥٠٥).

والقول الآخر: أنها مدنية، وقد يعزِّز هذا ما في «الصحيحين» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لو أن لابن آدمَ واديًا من ذهبٍ، أَحبَّ أن يكونَ له واديان، ولن يملأَ فاهُ إلَّا الترابُ**»(١).

وقال البخاري: «وقال لنا أبو الوليد- أي: الطيالسي-: حدَّثنا حماد بنُ سلمة، عن ثابت، عن أنس، عن أُبيٍّ قال: كنا نَرَى هذا من القرآن، **حتى نزلت**: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾»(٢).

وهذا يدل بظاهره على أن السورة مدنية؛ لأن أبي بن كعب وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من الأنصار(٣).

لكن في الاستدلال بالحديث نظر؛ لأمور:

١- سنده ليس على شرط الصحيح؛ لأن البخاري لم يقل: «حدَّثنا أبو الوليد». بل قال: «وقال لنا أبو الوليد». وفي الغالب أنه لا يقول هذا إلا لشيء في الإسناد(٤).

٢- أن قول أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا نرى»، لا يلزم أنه يتكلم عن نفسه، بل يحتمل أنه يتكلم عن جماعة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وعلى هذا الاحتمال فلا يكون الكلام خاصًّا بأُبَيٍّ، وإنما بالمسلمين، ولا يلزم أن يكون بالمدينة.

٣- قوله: «كنا نرى هذا من القرآن». الغالب أن المقصود أنهم كانوا يظنونه من القرآن، والذي يغلب على ظني- والله أعلم-: أنه لا يعني أنهم كانوا يحسبونه من المصحف؛ لأن بلاغة القرآن وتميزه عن سائر الكلام لا يخفى، وحديث: «**لو أن لابن آدمَ واديًا من ذهب، أحبَّ أن يكون له واديان**» ليس له إعجاز الأسلوب القرآني، وإن كان كلامًا فصيحًا، فلعلهم كانوا يظنونه من الأحاديث القدسية؛

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٩)، ومسلم (١٠٤٨).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٤٤٠).

(٣) ورجَّح ابن العربي في «أحكام القرآن» (٤/ ٤٤٢)، والسيوطي في «الإتقان» (١/ ٤٦) أنها مدنية.

(٤) ينظر: «مقدمة ابن الصلاح» (ص٢٨٣)، و«المنهل الرَّوي» (ص٥٠)، و«فتح الباري» (٢/ ٣٣٥، ٥١٣)، (١١/ ٢٥٦)، و«تدريب الراوي» (١/ ٢٥٣).

لأن النبيَّ ﷺ ربما يقول لهم في أوله أحيانًا: «قال الله تعالى». والحديث القدسي يشترك مع القرآن الكريم في كونه منسوبًا إلى الله تعالى، لكن القرآن مُعْجِز متعبَّد بتلاوته متحدًّى به، بخلاف الحديث القدسي، مثل قول الله تعالى: «**إني حَرمتُ الظلمَ على نفسِي، وجعلتُه بينكُم محرَّمًا، فلا تَظَالموا**»(١). ومثل قوله تعالى: «**إنَّا أنزلنا المالَ لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة**»(٢). فهذه أحاديث قدسية ألهمها أو ألقاها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه، لكن ليس في لفظها إعجاز ولا تحدٍّ.

وقد يكون حصل ذلك لبعض المؤمنين في أول عهدهم بالإسلام قبل أن يتمكَّنوا من إدراك جوانب البلاغة والعظمة في القرآن الكريم، فوقع عندهم شيء من عدم التمييز بينه وبين سائر الكلام.

كما استدل القائلون بأنها مدنية بما ورد أنها نزلت في مفاخرةٍ بين بعض قبائل المدينة أو اليهود، فهذه القبيلة فاخرت تلك القبيلة، وقالوا: نحن أكثر منكم، ومنا السادة، ومنا، ومنا، ومنا... فلما انتهوا من الأحياء، قالت إحدى القبائل: هلم نذهب إلى القبور حتى نتفاخر بالأموات؛ فسيدنا فلان الذي مات منذ كذا وكذا، فصاروا يتفاخرون بهم، فذهبوا إلى المقابر يتفاخرون بالموتى(٣).

ولو صح هذا الوجه في سبب النزول لكان دليلًا على أن السورة مدنية.

لكن ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره أن قبائل من العرب من بني عبد مناف وبني سَهْم وغيرهما من القبائل المكية، تفاخروا حتى وصلوا إلى القبور فتفاخروا بها(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢١٩٠٦) من حديث أبي واقد اللَّيْثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٩).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٧٦)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٦٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٤).

(٤) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٤٧٦)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦١٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥١٧، ٥١٨)، والمصادر السابقة.

والأقرب أن السورة خطاب مَكّيٌّ؛ لأنه وعيد للكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين لَهَوْا بأموالهم وبأولادهم، مثل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ﴾ [المدثر: ١١- ١٦].

في حين أن خطاب الله تعالى للمؤمنين في الغالب خطاب عطف ولُطف وحماية، وتناسب بين الخوف والرجاء، وغالبًا يُذكر الوعد والوعيد، ولم يكن المسلمون في مطلع العهد المدني أهل مال وثراء وجاه، ومَن كان كذلك لم يكن هذا يلهيه عن آخرته.

فالراجح أن السورة نزلت بمكة قبل الهجرة.

* ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾:

أي: شغلكم، وجعلكم تلهون به عما هو خير منه وأبقى.

و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ تفاعل من الكثرة، **ولها ثلاثة معانٍ**(١):

١- الاستكثار من شيء وطلب الزيادة منه، كإنسان عنده مال فيطلب المزيد، وآخر عنده أولاد، وهو يريد المزيد.

٢- مسابقة الآخرين ومغالبتهم، فيما يتنافس الناس فيه من جاه أو علم أو مال أو ولد، وقد لا يكون له رغبة في الشيء ذاته بقدر الرغبة في الغلبة والسبق، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠]، فالتفاخر يكون مع الآخرين؛ لأن الإنسان لا يتفاخر مع نفسه.

وهذا هو الموضع الثاني الذي ذُكر فيه لفظ ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في القرآن.

٣- المفاخرة بالكلام دون الفعل، وهو مقصور على المفاخرة بما مضى من أفعالهم أو أفعال آبائهم.

والآية عتاب ولوم على التكاثر في أمر الدنيا والغفلة عن الآخرة، وأن العبرة

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٢).

بالكيف لا بالكم، أما الاهتمام بالكم فهو التكاثر.

وغالب الناس مشغوفون بالكم أكثر من الكيف، فتجد أحدهم حريصًا على جمع المال ورصده، لا يبالي أمن الحلال أم من الحرام؟ وقد يكون بخيلًا، فلا يرى عليه أثر النعمة والغنى، فيعيش عيشة الفقراء، محرومًا من طيب اللباس والطعام والسكن، وما هو إلا وبال عليه، كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عجبتُ للبخيل؛ يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيشُ في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء!»(١).

ومثله: التكاثر في عدد الأولاد، دون اهتمام بالتعليم والتربية والأدب، وكأنه في زمن الجاهلية، يريد أولادًا يخوِّف بهم أعداءه أو يحمي بهم ذِماره(٢)، وقد يعجز عن الإنفاق عليهم، أو منحهم العاطفة والحب، أو مساعدتهم على النجاح والتفوق.

وفي العبادات، صارت عناية الناس بالمبنى دون المعنى، وبشكل العبادة دون حقيقتها وروحها، ويتحدَّثون: فلان كم صلَّى، وكم صام، وكم ختم المصحف، وكم حفظ من فنون العلم ونصوصه، دون أن يتساءلوا عن أثر ذلك على سلوكه وخلقه وسمته.

وغالب ثقافة الناس عددية: كم عدد المسلمين، كم أتباع هذه الجماعة أو الحزب، وكم عدد قراء هذا الكتاب، أو مشاهدي هذا المقطع، أو متابعي هذه القناة أو البرنامج، أو مشتري هذه المطبوعة، أو متصفحي هذا الموقع؟

أما السؤال عن التأثير والتغيير، فقلما نعيره الأهمية اللازمة.

وفي غزوة حُنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فحاقت بهم الهزيمة، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا

---

(١) ينظر: «نثر الدر» لأبي سعد الآبي (١/ ٢٢٢)، و«الإعجاز والإيجاز» للثعالبي (ص٣٩)، و«الشكوى والعتاب» للثعالبي (ص١٥٨)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ٤٢٢)، و«الصواعق المحرقة» لابن حجر الهيتمي (٢/ ٣٨٠)، و«أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (ص٣٦٢).

(٢) أي: أهله وكل ما يلزم المرء حفظه وحمايته والدفاع عنه.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ...﴾ [التوبة: ٢٥].

ومطلق التكاثر لا يذم، بل المذموم هو التكاثر الملهي، كما تنصُّ الآية.

ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠- ١١]. فإذا كان هذا عنده أعمال، وهذا عنده أعمال، وأعمالهم متكافئة طمأنينة وإتقانًا وإخلاص نية، وعلى وفق السنة، فإنهم يتفاضلون بعد ذلك بالكثرة، أي: بما استغرق من أوقاتهم وجهدهم من تلك الأعمال.

وسواءً حملناه على طلب المزيد، كما هو المعنى الأول، أو على منافسة الآخرين، كما قد يقع في الجهاد أحيانًا؛ فقد تجد قومًا يكون لهم بلاء، فالآخرون يريدون أن يكون لهم بلاء أعظم، أو هؤلاء لهم دعوة، فالآخرون يحاولون أن يحقِّقوا نجاحًا في الدعوة يسبقون به هؤلاء، أو كان نوعًا من التكاثر بالقول الذي لا يقصد به الاغترار بالعمل، وإنما يقصد به المنافسة في الخير، أو إثبات الحق، فليس مذمومًا بإطلاق، وإنما المذموم منه ما كان ملهيًا عن طاعة الله تعالى، ولهذا يقول النبيُّ ﷺ: «**سبق درهمٌ مائةَ ألفِ درهم**»(١). وذلك لأن الدرهم هو كل ما يقدر عليه، وتوفر فيه الصدق والإخلاص، وتجرد من المن والأذى.

* ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرف غاية عند أهل اللغة، يعني: ألهاكم إلى غاية معينة، والمعنى: استغرقتم في ملذات الدنيا، فلم تفيقوا إلا وأنتم في القبور؛ ألهاكم حتى مُتم ودفنتم.

وعبَّر عن ذلك بالزيارة؛ لأنهم سوف يرتحلون منها إلى الدار الآخرة، فهي إقامة مؤقتة، وقد جاء في «الصحيح» أن النبيَّ ﷺ زار أعرابيًّا مريضًا، وكان فيه حمَّى شديدة، فقال له النبيُّ ﷺ: «**لا بأسَ طَهورٌ إنْ شاءَ اللهُ**». فقال الأعرابيُّ: كلا،

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩١٦)، والنسائي (٥/ ٥٩)، وابن خزيمة (٢٤٤٣)، وابن حبان (٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٤١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بل حمى تفورُ، على شيخ كبير، تُزِيرُه القبورَ. فقال النبيُّ ﷺ: «**فنعم إذًا**»[1].

وتُزِيرُه القبور، أي: توصله إلى الموت.

وقد يتساءل البعض: كيف ماتوا فعلًا وهم ما زالوا أحياء يسمعون الخطاب، ويردون الجواب، ويتقلبون في الأرض، ويتكاثرون بالأموال والأولاد، ويسعون سعيًا كادحًا حثيثًا؟

الجواب: أن هذا باعتبار ما سيكون، ويقول العلماء: هذا لتحقق الوقوع، وقد يعبر بالفعل الماضي لتحقّق الوقوع، وهذا أمر مقطوع به، ولا أحد يشك في أنه سوف يزور المقابر.

وعبَّر هنا بالفعل الماضي ﴿زُرْتُمُ﴾، ولم يقل: «تزوروا»؛ لتحقّق الوقوع، فهو أمر مقطوع به، متعلِّق بالتكاثر، والمعنى: إن حبكم للتكاثر والتهاءكم به حملكم على التفاخر بالأموات، فكأنكم ذهبتم إلى القبور لتستنطقوا منها مآثر آبائكم.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ إشارة إلى أنهم حُرِموا من المحاسبة والمراجعة والنظر والتأمل في أحوالهم؛ ولذلك يموتون ولديهم حاجات وأمنيات معلَّقة، وكانوا يتوهمون أنهم سيحققونها، وكانوا يعوِّلون على شيء اسمه: المستقبل، وهذا المستقبل لما صار حاضرًا، تجدَّدت لهم الآمال والأطماع، حتى زاروا المقابر دون أن يشعروا.

فصاحب المال زار القبر، ولم يتمكّن من كتابة الوصية!!

وصاحب الذنب زار القبر، ولم يتمكّن من التوبة!!

ها هم يموتون، وتموت بموتهم آمالهم وأحلامهم، وفي الآية حث على استثمار الحياة، والتحذير من التسويف وطول الأمل.

والله سبحانه لم يذكر ما هو الشيء الذي لَهَوْا عنه، أما الذي لَهَوْا فيه فهو ظاهر، ولم يذكره لظهوره ولهوانه، وأما الذي لَهَوْا عنه، فلم يذكره لعظمته؛ فالإنسان ربما لَهَى بأمورٍ دنيئةٍ خسيسةٍ حقيرة عن أمور عظيمة، وعن جنة عرضها السماوات والأرض، وعن رضا الله تبارك وتعالى، وعن معالي الأمور ومكارم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦) من حديث ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا.

الأخلاق، وعن أجمل لذات الحياة ومتعها.

ربما يُشْغَلُ كثيرون بلذة الجسد الحسية والمتاع العابر، ويقعون في حبائله بالحلال أو بالتأويل أو بالحرام، ويرونه غاية اللذة، فيلهيهم عن كسب المعارف والعلوم، وما فيه من المتعة والبهجة، وعن العبادة وما فيها من الطمأنينة وقرة العين، وربما شغلهم عن تذوق حلاوة الأخلاق والعقل والروح.

* ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾:

الآية مكررة مرتين، و﴿ كَلَّا ﴾ حرف زجر ووعيد وتهديد، في غالب سياقات القرآن، ولا يوجد في القرآن تكرار من غير معنًى مضاف، وقد صنَّف بعض أهل العلم كتبًا في أسرار التكرار في القرآن العظيم، سواءً تكرار القصص، أو المعاني، أو الألفاظ، وهو ما يسمى بالتكرار اللفظي، أو التوكيد اللفظي(١).

و﴿ ثُمَّ ﴾ حرف عطف يفيد التراخي، والتكرار لا يعني مرتين فقط، بل هو إلى ما لا نهاية؛ فالعرب عادة يستخدمون المرتين تعبيرًا عن مطلق العدد، فهو تحذير وإنذار وتوبيخ وتقريع مستمر مرة بعد مرة، وهو حجة بالغة عليهم أن الله أمهلهم ومدّ لهم وحذَّرهم المرة تلو الأخرى(٢).

ويحتمل أن التحذير الأول: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: في الدنيا، وذلك بما سوف ترون من المصائب، وذهاب القوة وورود المرض، والهزيمة والخذلان، وظهور الحجج والآيات، ونصر الله تعالى لأوليائه ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ورفعةِ شأن هذا الدين.. سوف تعلمون هذا في الدنيا، وعند الموت يؤمن الكافر، ويبر الفاجر، ولاتَ ساعة مَنْدَم.

---

(١) ينظر: «متشابه القرآن» للكسائي، و«أسرار التكرار في القرآن»، أو «البرهان في توجيه متشابه القرآن» للكرماني، و«هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب» لأبي الحسن السخاوي.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٠١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٧٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٠٧).

والدنيا فيها من العبر الشيء الكثير، والذين يرحلون عنها سوف يجدون شيئًا آخر مختلفًا عما كانوا يعيشونه في الدنيا ويتمتعون به.

أما الثاني فهو وعيد يتعلّق بالبرزخ، ولذلك كان بعض الصحابة- كعلي وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- يرون في هذه الآية دليلًا على إثبات عذاب القبر[1]؛ لأن قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ دليل على ما سوف يرونه ويعلمونه بعد الدنيا، وذلك حينما يكونون في قبورهم. وقد تكون الأولى للدنيا، والثانية للآخرة مطلقًا، وليس للقبر فقط، وإنما للقبر وللنشر وللحساب وللجزاء وللنار إذا دخلوها.

ويحتمل أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ للكفار، وقوله: ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ للمؤمنين[2].

وهذا معنًى لا بأس به، وإن لم يكن في قوة ما قبله؛ فالمؤمنون سوف يعلمون، وسيرون فضل الله تعالى ورحمته وآياته في الأنفس وفي الآفاق، كما قال سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، والكفار سوف يعلمون وعيد الله تعالى وصدق ما أخبر به الرسل.

ولم يبيِّن ماذا سوف يعلمون؛ ليكون التهديد غامضًا مبهمًا ضخمًا، فقد يكون المراد: سوف تعلمون العذاب، أو الوعيد، أو النار، أو السخط، أو الخوف والرعب الذي يداخلكم وقت حلول الوعيد.

ومن معاني الإبهام وعدم تحديد المعلوم: الإشارة إلى أن السبب في لهوهم وانشغالهم بالتكاثر هو نقص علمهم أو عدم علمهم، فعدم العلم هو سبب اللهو، وسبب التكاثر، ولو عرفوا المعرفة الصحيحة لعقلوا.

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي» (٣٣٥٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٨٠)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٢٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٢)، و«التذكرة» للقرطبي (١/ ١٦٣)، و«البحر المحيط في التفسير» (٨/ ٥٠٦)، و«تفسير الثعالبي» (٤/ ٤٣٩).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٧٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٤).

وفي ذلك إشادة بالعلم، وأنه أول درجات الاستقامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

* ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾:

لم يذكر جواب: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، فإن ﴿لَوْ﴾ أداة شرط، وفي العادة أنه يُذكر جوابُها، كما يقال: لو جاء صالح لأوسعنا له في المجلس، لو شرب الإنسان هذا الماء لرَوِيَ، لو حضر الدرس فلان لأفاد. فـ﴿لَوْ﴾ لا بد لها من جواب.

والمستقر في أذهاننا أن قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾﴾ هو الجواب؛ لأن فيها اللام؛ والعادة أن جواب ﴿لَوْ﴾ يكون مصحوبًا باللام، ولو تأملت لوجدت أن التركيب لا يستقيم على هذا المفهوم، وإنما الصواب أن قول الله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ شرط ليس له جواب، وهو مثل قول الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، فإنه ليس لها جواب؛ لأن الجواب مفهوم من سياق الشرط.

فالجواب مستبطن في الشرط نفسه، وهو مفهوم ظاهر؛ فإنه لما ألهاكم التكاثر، حتى زرتم المقابر بالطريقة المذمومة، ولما قصَّرتم في الواجبات، ولما ارتكبتم المحرمات، وعصيتم الله تعالى، فسوف تعلمون العاقبة(١).

وهذا من عظمة ترك الجواب، ولذلك نلاحظ أن في السورة محذوفات كثيرة من أجل لفت الأنظار وتحريك الفكر، وهذا من أقوى صور الإيجاز والبلاغة والتأثير، ومَنْ عنده معرفة باللغة العربية، وحِسٌّ بلاغي، يجد من ذلك أشياء كثيرة تأخذ بلُبِّه وتهزه هزًّا!

وعلم اليقين إشارة إلى أن عندهم معلومات كثيرة مما يظنونه علمًا وليس بعلم، وهذه مشكلة، فهناك ألوان من العلوم مضلة، وقد تَحْجِب عن الله تعالى،

---

(١) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥١٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٩٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢١).

أو تكون غير مطابقة للواقع، أو تكون مما يختلط فيها الحق بالباطل، أو تكون علومًا ظاهرية، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧].

حتى من العلوم الشرعية؛ فقد ينشغل الإنسان وينهَمُك في علم المسائل والأحكام والأقوال والمذاهب والترجيح، ويكون العلم في لسانه لم يصل إلى قلبه، **والمقصود بالعلم**: علم اليقين الذي يلامس القلب؛ فيتحول إلى حقيقة عملية في حياة الإنسان.

والعلم الحقيقي اليقيني يُطلق على ثلاثة أشياء:

١- **المحسوس**، فأنت ترى أمامك الإناء، وهو محسوس يقينًا، ولا يجادل في هذا إلا أهل الأوهام، ومن اليقين طلوع الشمس وغروبها، والأشياء التي يراها الإنسان بعينه أو يحسها بحواسه.

٢- **المعقول من مصادر العلم اليقيني**، وبعض الناس عنده وحشة من العقل، وكأنه استقر في أذهان البعض أن العقل نقيض للشرع، وهذا خطأ؛ فالله تعالى أحالنا على العقول في القرآن الكريم كثيرًا، فقال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.. بل حتى في أمر الدين والوحي والرسالة، قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦]. ولا يحيلنا اللهُ على شيء يحتَمِل الحقَّ والباطلَ والخطأَ والصوابَ.

إن الوهم في العقول يأتي مما يظنه الناس معقولًا وليس بمعقول، مما يكون تلبيسًا أو تدليسًا أو وهمًا أو تضليلًا، وقد يتكلم الناس عنه ويظنونه من المعقولات، ويقول بعضهم: هذا يُدرك بالعقل، وهذا شيء معقول، وهذا مستحيل عقلًا، مع أنه في واقع الأمر ليس كذلك؛ لأنه جعل تصوره الشخصي للأشياء هو معيار العقل.

٣- **النقل المصدَّق**، أو الوحي من القرآن وصحيح السنة المتواتر أو المستفيض.

* ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥﴾:

هذا خبر جديد، فقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جملة مستأنفة، وهذه صيغة

قَسَم على الأغلب، فاللام لام القسم، وهي مؤكّدة، ومثلها النون في آخر الفعل[1].

* ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾:

أقسم تعالى للمخاطبين بأنهم سوف يرون الجحيم، ثم يرونها عين اليقين، والفرق بين «عين اليقين» و«علم اليقين» هو أن «علم اليقين» علم في القلب والصدر، أما «عين اليقين» فشيء محسوس مشاهد؛ ولهذا قال: ﴿لَتَرَوُنَّهَا﴾.

وفي السورة وجوه من الإنذار:

١- حرف الردع ﴿ كَلَّا ﴾، وقد تكرر في السورة ثلاث مرات، وغالبًا أن أقصى ما ينتهي إليه التهديد هو أن يكون ثلاث مرات، وقد أنذر الله تعالى في هذه السورة ثلاث مرات.

٢- كلمة: ﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على أن الإنذار الثاني، أبلغ وأقوى من الإنذار الأول.

٣- حذف جواب: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ وهو يفيد الإثارة والتخويف.

٤- لام القسم في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾.

٥- نون التوكيد في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾.

٦- تكرار القسم مرة أخرى في قوله: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

٧- التحذير بقوله: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ إشارة إلى أن ما تخبرون عنه الآن خبرًا سوف ترونه رؤية، وسيصبح عين اليقين بعد أن كان علم اليقين.

* ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾:

والنَّعيم هو ما ينعم به الإنسان من خارج جسده، كما يقول بعض المفسِّرين؛ فالصحة- مثلًا- لا تسمَّى نَعِيمًا، وإنما النَّعيم هو: المال والجاه والرزق،

---

(١) ينظر: «تفسير التستري» (ص٢٠٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٠٩)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٤/ ٥٤٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٤)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٤٨١)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٩٨).

والمأكل، والمشرب، والملبس، والأشياء المحيطة بالإنسان، أما الأشياء التي في ذات الإنسان، فهي تسمى نعمة.

وهذا ذكره الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «التحرير والتنوير»(١)، وهو محتمل، وأغلب المفسرين لا يفرِّقون بين هذا وهذا، فيعدُّون النَّعيم والنِّعمة مترادفين في المعنى، فالناس جميعًا يُسألون عن النَّعيم، سواء كان نعيمًا في ذواتهم من الصحة والعافية والشباب وحسن الهيئة وجمال الصورة، أو كان في خارجهم من الغنى والمال والجاه وغير ذلك.

وهل السؤال خاص بالكفار، أو عام للناس كلهم؟

الصحيح أنه عام للناس كلهم، **وقيل**: خاص بالكفار؛ لأن السورة خطاب للكافرين(٢).

وقد جاء في حديث ضعيف، أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خرج لم يخرجه إِلَّا الجوعُ، وأن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خرج لم يخرجه إِلَّا الجوعُ، وأن النبيَّ ﷺ خرج عليهما، وأنهما أخبراه أنه لم يخرجهما إلا الجوعُ، فقال: انطلقوا بنا إلى منزل رجل من الأنصار، يُقالُ له: أبو الهيثم بن التَّيِّهان، فإذا هو ليس في المنزل، ذهب يستسقي، قال: فرحَّبت المرأةُ برسول الله ﷺ وبصاحبيه، وبسطتْ لهم شيئًا فجلسوا عليه، فسألها النبيُّ ﷺ: «**أين انطلقَ أبو الهيثم؟**». قالت: ذهب يستعذبُ لنا. فلم يلبث أن جاء بقربة فيها ماءٌ فعلَّقها، وأراد أن يذبحَ لهم شاةً، فكأنَّ النبيَّ ﷺ كره ذاك لهم، قال: فذبحَ لهم عَناقًا، ثم انطلقَ فجاء بكبائسَ من النخل(٣)، فأكلوا من ذلك اللَّحم والبُسر والرُّطَب، وشربوا من الماء، فقال أحدهما- إما أبو بكر وإما عمر-: هذا من النَّعيم الذي نُسأل عنه. فقال النبيُّ ﷺ: «**المؤمنُ لا يُثرَّبُ على شيء أصابه في**

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٤).

(٢) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٤- ١٧٧)، و«روح البيان» (١٠/ ٥٠٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٤).

(٣) الكبائس جمع: كِبَاسة، وهو: العِذْق التام، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب.

الدنيا، إنما يُثرَّبُ على الكافرين»[1].

وأصل القصة في «صحيح مسلم»، وفيها: «خرج رسولُ الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: «**ما أخرجكُما من بيوتِكُما هذه السَّاعةَ؟**». قالا: الجوعُ يا رسولَ الله. قال: «**وأنا والذي نفسي بيدِه، لأخرجَني الذي أخرجَكما، قوموا**». فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأةُ قالت: مرحبًا وأهلًا. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**أين فلانٌ؟**». قالت: ذهبَ يستعذبُ لنا من الماء. إذ جاء الأنصاريُّ، فنظرَ إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمدُ لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافًا مني! قال: فانطلقَ فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ. فقال: كلوا من هذه. وأخذ المُدْيَةَ، فقال له النبيُّ ﷺ: «**إياك والحَلوبَ**». يعني: إذا كنتَ ولا بد ستذبح، فلا تذبح الحَلوبَ، فذبحَ لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذْق وشربُوا، فلما أن شبعوا ورَوُوا قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**والذي نفسي بيدِه، لتُسألُنَّ عن هذا النَّعيم يومَ القيامة، أخرجَكُم من بيوتِكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابَكُم هذا النَّعيمُ**»[2].

وهذا الرجل **قيل**: هو: أبو الهيثم بن التَّيِّهان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وقيل**: أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

يُسأل الكفار إذًا سؤال توبيخ وتقريع وتقرير على عدم شكرهم لله عَزَّ وَجَلَّ، وعقوبة لهم على سوء استخدامهم وتصرفهم في تلك النعم، وعدم شكرهم لمسديها ومموليها.

ويُسأل المؤمنون سؤال تشريف وتكريم ورفعة لهم عند الله تعالى يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٩٦)- ومن طريقه الشجري في «الأمالي» (٢٤٧٤)- من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٦٧٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «التمهيد» (٢٤/ ٣٤١)، و«الأسماء المبهمة» للخطيب (ص٢٨٢- ٢٨٤)، و«غوامض الأسماء المبهمة» لابن شكوال (٢/ ٦٢٨- ٦٣٠)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٣/ ٢١٣).

ولعل مَن قال: إن السؤال خاص بالكافرين، أراد سؤال التوبيخ والتقريع، ولا مانع أن يُسأل المؤمن عن مدى شكره لنعمة الله تعالى؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**إن اللهَ ليرضى عن العبدِ أن يأكلَ الأَكْلةَ فيحمدَه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمدَه عليها**»[1].

○○○

(١) أخرجه مسلم» (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سُورَةُ العَصْرِ

❁ **تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة العصر**»، وهو المثبت في معظم التفاسير.

وفي «صحيح البخاري»: «**سورة** ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾» بإثبات الواو على الحكاية[(١)].

وفي حديث أبي مَدِينة الدَّارمي قال: «كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا، لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾. ثم يسلِّم أحدهما على الآخر»[(٢)]. وصحَّح إسناده غير واحد[(٣)].

❁ **عدد آياتها:** ثلاث آيات[(٤)]، وهي إحدى أقصر ثلاث سور في القرآن الكريم، مع «الكوثر» و«النصر».

❁ **وهي مكية** عند أكثر المفسرين، ورُوي عن قتادة ومجاهد أنها مدنية[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٧)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٨)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٢)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٤٠٢)، والطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٦٣٩).

(٣) وأشار البيهقي إلى الاختلاف في إسناده، وقال الذهبي: «حديث غريب جدًّا، ورواته مشهورون». ينظر: «تاريخ الإسلام» (٦/ ٥٣٩- ٥٤٠)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٦٤٨).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٧)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٥)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٩).

(٥) ينظر: «تفسير البغوي» (٨/ ٥٢٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٤٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٧٩)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٠)، والمصادر السابقة.

واختيار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذه السورة لقراءتها عند لقياهم، لم يكن على سبيل التبرُّك؛ فإن القرآن كله فيه البركة والخير، وبكل حرف عشر حسنات[١]، ولا مراعاة لفضيلة السورة فحسب، وإلا لاختاروا «سورة الإخلاص» التي تعدل ثلث القرآن[٢]، وإنما اختاروا «سورة العصر»؛ لمعانٍ تضمنتها السورة، فهي شاملة لمعاني الكمال العلمي والعملي في النفس وفي الغير، ومؤسِّسة للعلاقة الإيجابية الفعَّالة بين المؤمنين بما تضمنته من التواصي بالحق والصبر المبني على الإيمان والعمل الصالح.

قال الإمام الشافعي: «لو تدبر الناسُ هذه السورة لكفتهم، أو لوسعتهم»[٣].

* ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾:

القَسَم دليل على عظمة وأهمية الـمُقسَم عليه.

أكَّد الـمُقْسَم عليه بالقَسَم، و«إن»، وهي حرف توكيد، وباللام، وهي حرف توكيد أيضًا، **فما هو العصر؟ في تأويل ذلك أقوال**[٤]:

١- هو الدَّهر أو الزمن، ونسبه ابن القيم للجمهور[٥].

٢- وقت العصر، الذي هو آخر النهار.

٣- فترة من الزمن.

٤- صلاة العصر.

ولعل هذه المعاني كلها داخلة في المعنى؛ لأن اللفظ عام، ولم يأت ما

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي» (٢٩١٠)، و«المستدرك» (١/ ٥٥٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠١٣- ٥٠١٥)، و«صحيح مسلم» (٨١١، ٨١٢).

(٣) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٢٠٣)، (٨/ ٤٧٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٨).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٢)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٣٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٢٩٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٧٨)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٣٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٧- ٤٥٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٢٨- ٥٣٠).

(٥) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص٥٤).

يخصِّص بعضها.

وقد كان الناس ينسبون ما يصيبهم إلى الزمن، كما في الحديث القدسي: «**يؤذيني ابنُ آدم! يسبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّب الليلَ والنهارَ**». وفي لفظ: «**لا تَسبُّوا الدهرَ**»[1].

ويريدون بذلك أن ينفصلوا من التبعة والمسؤولية فيما يقعون فيه من أخطاء.

والأمر كما قال الشافعي[2]:

نعيبُ زمانَنَا والعيبُ فِينَا ... وما لزمانِنا عيبٌ سِوانا
وقد نَهْجُو الزمانَ بغير جُرْمٍ ... ولو نطقَ الزمانُ بنا هَجانا

والقَسَم به يبرز أن ظرف الزمان محايد، والعبرة بما يصنعه الناس فيه، ولذا فالتعبير بفساد الزمان ليس جيدًا، إلا باعتبار أن المقصود أهل الزمان، وحتى على هذا فهو نوع من عيب الناس على سبيل التعميم وفي باطنه استثناء النفس.

فأقسم الله بالعصر تشريفًا وتعظيمًا لشأنه، فهو ظرف لأعمال الإنسان، وهذه مناسبة القسم به، وقد ذكر الله سبحانه الزمان والمكان، فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، فذكر ما في السماوات وما في الأرض، وهو المكان، وفي الآية بعدها قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٢- ١٣]، فالليل والنهار زمان، والمكان والزمان ظرفان للحوادث، ولا يمكن أن ينفك الإنسان في دنياه عن هذين الظرفين.

وعلى أن المقصود بالعصر آخر النهار، فما وجه مناسبته للقَسَم على أن الإنسان في خُسر؟

ثَمَّة مناسبة لطيفة، وهي أنَّ عادة الناس في السعي إلى مكاسبهم أنها تكون من الصباح، كما قال النبيُّ ﷺ: «**كلُّ النَّاسِ يغدُو، فبائعٌ نفسه فمعتقُها أو موبِقُها**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص١٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالغُدو يكون أول النهار، ومنهم مَن يغدُو إلى خير وبِر، ومنهم مَن يغدُو إلى إثم وقطيعة رحم وشر.

فالقَسَم بالعصر إشارة إلى نهاية المطاف، ووقت الحصاد، حيث يكون الناس في نهاية أعمالهم، فالموظَّف يرجع إلى بيته، والطالب يرجع إلى أسرته، والعامل يرجع إلى أهله.

وبعضهم استخرج معنى لطيفًا في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]، حيث أقسم سبحانه بالضُّحى على أن النبي ﷺ محفوظ بحفظ الله، وأن الله ما تركه ولا قَلَاه ولا أبغضه، فكان القَسَم بالضُّحى الذي هو بداية العمل والنشاط والانطلاق.

وأقسم بالعصر على الخسارة لأولئك الذين تجافوا عن سواء السبيل، وحاربوا رسول الله وآذوا أتباعه.

ويحتمل أن يكون العصر هو الزمن الذي تعيشه الآن، والمعاصرة هي العيش في العصر، ومنه سُمِّيت العصور السياسية والأدبية، ويكون في القسم بهذا الجزء من الزمن تنبيه على أهمية فهم العصر وما يجري فيه والقيام بأمر الشريعة وفق مقتضيات الواقع المعاش، وليس التنظير المحض.

وقد جاء في الحديث عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنما أجلُكم في أجل مَن خَلَا من الأمم كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلُكم ومثلُ اليهود والنصارى، كمثلِ رجلٍ استعمل عمَّالًا، فقال: مَن يعملُ لي إلى نصف النهار على قيراطٍ؟ فعملت اليهودُ، فقال: مَن يعملُ لي من نصفِ النهار إلى العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين. قالوا: نحن أكثرُ عملًا وأقلُّ عطاءً؟ قال: هل ظلمتُكم من حقِّكم؟ قالوا: لا. قال: فذاك فضلي أُوتيه من شِئْتُ**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢١).

وعلى أن المقصود بالعصر: صلاة العصر، يكون تعالى أقسم بها، وهي ذات علاقة بما قبلها؛ لأنها تقع في آخر النهار، وهي صلاة فاضلة، بل هي الصلاة الوسطى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وصحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن تركَ صلاةَ العصرِ، فقد حَبِط عملُه**»[١]. وحبوط العمل: خسارته، وقال: «**الذي تفوته صلاةُ العصر، كأنما وُتِر أهلَه ومالَه**»[٢].

وأشد الخسارة: أن يخسر الإنسان نفسه وأهله وماله، والنبيُّ ﷺ جعل مَن فاتته صلاة العصر كأنما وُتر أهله وماله، وهذا يدل على أهمية صلاة العصر، والمحافظة عليها مع الجماعة، وأدائها في وقتها.

* ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾:

الإنسان جنس، و«ال» للاستغراق، **وقيل**: المقصود: جماعة من المشركين، **وقيل**: أبو جهل، **وقيل**: أبو لهب[٣].

والصواب أن المقصود جنس الإنسان؛ ولذلك قال تعالى بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فدل على أن المقصود الجنس، وليس شخصًا بعينه؛ فإن الشخص لا يُستثنى منه.

الغالب على الناس إذًا هو الخسار؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ويقول: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وعبَّر بأن الإنسان في خُسر، ولم يقل: «إن الإنسان لخاسر». فحرف الجر «في» يدل على الظرفية، وكأن الخسر وعاء أو ظرف؛ والإنسان مغموس فيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بُريدة بن الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري» (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) ينظر: «تفسير السمعاني» (٦/ ٢٧٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٣٦٤)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٤٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٥٨).

أما قولك: «إن الإنسان لخاسر». لا يعدو أن يكون وصفًا مجردًا، والظرفية أدل على المقصود من جهة الإشارة إلى أن الخسارة محيطة بالإنسان من كل وجه؛ كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

والتنكير في كلمة ﴿خُسۡرٍ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى تنوع الخسارة، بمعنى أن الخاسرين درجات، وهذا واضح من السياق، فإن الله لم يستثن من الخُسر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. فمَن نقص شيئًا من الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر؛ تكون خسارته جزئية، بخلاف مَن ترك هذه الصفات كلها، فإن خسارته تكون مُطبِقة.

فالتنكير دليل على تنوع الخسر ودرجاته، وأنه ليس بمنزلة واحدة، بل منه خسر تام مطبق، ومنه دون ذلك.

وبعضهم قال: إن التنكير للتهويل، ولتعظيم الخسر، وأن الإنسان خسر كل شيء، وليس كالذين خسروا بعض الشيء، مثل مَن نزلت مراتبهم في الجنة، فما فاتهم شيء عظيم بالقياس إلى ما أدركه السابقون، وإن كانوا بالقياس إلى مَن دونهم على خير كثير(١).

والتعبير بالخسارة صيغة قرآنية دارجة، يعبِّر الله بها عن أهل النار، مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [هود: ٢١].

وعند ما نقول: خسر التاجر. معناه: أنه ضاع عليه رأس المال، أو جزء من رأس المال، ورأس المال بالنسبة للمكلَّف هو الوقت، هو العصر، هو العمر؛ ولذا قال بعض السلف: «تعلَّمتُ معنى هذه الآية من بائع الثلج، كان يصيحُ ويقولُ: ارحموا مَن يذوبُ رأسُ ماله!»(٢).

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٩)، و«تفسير البيضاوي» (٥/ ٣٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٧٨).

والوقتُ أَنفَسُ ما عُنِيتَ بحفظِهِ   وأَراهُ أسهلَ ما عليكَ يَضِيعُ[1]

والأخسرون أعظم خُسرًا، كما في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥]، وكيف يكونون أكثر خسارة؟

يكون ذلك باستئصال رأس المال كله، والوقت الذي يضيع بغير خير خسارة؛ لأنه كان ممكنًا أن يُملأ بطاعة، والوقت الذي يضيع عليك بمعصية أكثر خسارة؛ لأنه محسوب، وكان جديرًا أن يُعمر بطاعة أو بمباح لا إثم فيه، فهو خسارة مركَّبة مضاعفة.

* ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾:

لم يذكر تعالى سبب الخسار، وذكر سبب الربح، مع أن السورة بدأت الكلام عن الخُسر؟

الجواب: لأن طريق الربح واحد، لكن طرق الخسار كثيرة لا تنتهي، منها: الفعل، ومنها: الترك، بخلاف الربح: فالمنهج فيه واضح منضبط محصور، وهو المذكور في هذه الآية.

يقول ابن القيم: «جعل الله تعالى في هذه الآية نهاية الكمال العلمي والعملي، والكمال اللازم والمتعدِّي»[2].

فالكمال العلمي للإنسان بالإيمان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمقصود صدق تصورات الإنسان، فيؤمن بالله تعالى وملائكته والقدر والآخرة.

والكمال العملي: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: من الصلاة والزكاة والصوم والحج وصلة الأرحام والأخلاق الفاضلة وغيرها.

والكمال اللازم، أي: الكمال الشخصي في الإنسان، والكمال المتعدِّي هو ما يفيض من الإنسان إلى الآخرين بالنفع أو التواصي أو التعليم أو الأمر أو النهي.

---

(١) ينظر: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (ص٣٥٣)، و«الآداب الشرعية» (٢/ ٢٤٦)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ١٦٧).

(٢) ينظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٦- ٥٧).

وفي هذه السورة الكريمة أربع دوائر متداخلة:

١- دائرة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهي الدائرة الأوسع، ولو اقتصرنا على لفظ الإيمان لدخل فيه العمل الصالح وما بعده، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: صلاتكم إلى بيت المقدس(١)، فأداء الزكاة من الإيمان، وأداء الصلوات وبر الوالدين والحج والصوم من الإيمان.

ولهذا إذا ذكر الإيمان مجرَّدًا، ولم يذكر معه غيره يدخل في الإسلام.

٢- دائرة أضيق، وهي: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، ولو لم يذكر إلا العمل الصالح لدخل فيه الإيمان، ولكن من باب التخصيص والتنصيص، ولهذا رُوي عن النبي ﷺ: «**الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ**»(٢)، ولا يصح(٣).

٣- دائرة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، والتواصي بالحق من الإيمان ومن الأعمال الصالحة، لكن ذكَره إشادةً بأهله وبيانًا لمزيتهم عن غيرهم.

٤- دائرة ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، والصبر من الإيمان، ومن العمل الصالح، ومن الحق الذي يُتواصى به، وقد ذكره على سبيل التخصيص، فكأنه ذكره أربع مرات.

ولم يذكر بماذا آمنوا وبمَن آمنوا، وقد صرَّح بذلك في «سورة النساء»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٦٥١)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٦/ ٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٣١٩)، وأحمد (١٢٣٨١)، وأبو يعلى (٢٩٢٣)، والعقيلي (٣/ ٢٥٠)، وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ١١١)، وابن عدي (٥/ ٢٠٧)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٠٧٦) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «ميزان الاعتدال» (٣/ ١٥٦)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ١٢١)، و«السلسلة الضعيفة» (٦٩٠٦).

الواو هنا واو الجماعة، فالله تكلم عن جماعة، وهذا غالب ما تجده في القرآن الكريم، وهو يدل على أهمية الاجتماع والتآلف، وأن الله تعالى يحب اجتماع المؤمنين ويكره فرقتهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فأين هدي القرآن؟ وأين هي تعاليمه من واقع الناس اليوم؟!

لقد قال النبي ﷺ لمعاذ وأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**تطاوَعا ولا تختلِفا**»[(١)]. وهو دليل على وجود اختلاف بينهما في الرأي؛ لكنه أرشدهما إلى الحلول العملية، وهي أن يكونوا ميسِّرين سهلين لينين بأيدي إخوانهم، وألَّا تكون سهامُ بعضهم مصوَّبة إلى بعض، أو جهود بعضهم تجهض بعضًا، وأن يتوجهوا إلى الهم الواحد، ويجتهدوا في التعليم والدعوة والإصلاح دون أن يفترضوا أنه لا يمكن أن يقوموا بعمل ناجح إلا أن يكون عملهم متقاطعًا مع جهود الآخرين.

أليس بمقدور المسلم اليوم أن يوجِّه همَّه نحو الأمر المثمر الفعَّال، وأن يشتغل في أي خير: دعوة، وإغاثة، وعلم، وفق الشروط التي يراها، وليس لأحد عليه سبيل، ولا يمنع هذا من النصيحة، ولا من النقد باللغة الراقية المناسبة، وفق الضوابط الشرعية، إنما الخطر في الانشقاق الذي دمَّر الطاقات، وقضى على الجهود، واستغرق الأوقات.

ثَمَّ مشكلة أخرى، وهي قضية التجمعات الإسلامية، وهي أفضل من التفرُّق، فالاجتماع والتقارب والتفاهم وحسن التعامل والمودة بين المسلمين أمر مطلوب، والاجتماع على الخير والبر والطاعة والتقوى من الأصول الثابتة.

لكن ينبغي ألَّا يتحول الاجتماع إلى تعصب لجماعة أو حزب، فنكون قد خرجنا من ورطة إلى أخرى؛ خرجنا من ورطة الفردية والذاتية والأنانية للشخص، ودخلنا في ورطة الأنانية والذاتية والفردية للمجموعة، وعند ما يجتمع الناس على

---

(١) أخرجه البخاري» (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣) من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خير يلزمهم تعاهد دائم أَلَّا يكون الولاء الديني فيما بينهم يعني نبذ مَن سواهم، وإنما لُحْمة الولاء لهذه الأمة أشمل وأبقى، وينبغي أن تكون هي الأصل، وإنما هم أشبه بشركة أو جامعة التقت على عمل خاص تتعاون عليه، دون أن تقيم حدودًا أو سدودًا مع الآخرين.

إن كثيرًا من الأعمال الصالحة شُرعت جماعة، كالصلاة، والصوم، والحج، وغيرها.

والعجب ممن يجمعهم كل ذلك من الأصول العلمية والأركان العملية، ثم يتجاهلون الأصل العظيم المحكم الذي هو حسن الخلق، فيهجر بعضهم بعضًا بسبب اختلاف في موقف، أو مسألة علمية أو سياسية، أو تأويل أو لنقل بسبب خطأ صدر من بعضهم بغير قصد أو بقصد.

والنبي ﷺ يقول: «**لا يحِلُّ لمسلم أن يهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثٍ**»(١). فهم يلتقون في المسجد، ورِجْل هذا إلى رِجْل الآخر، فإذا سلَّم لم يلتفت إليه بوجهه، بل يغمض عينيه لئلا يراه، أو لا يبالغ في الالتفات لما يجده في قلبه! فانظر كيف عمل الشيطان في الإغراء بالفرقة والخلاف والتناقض، وأضعف ذلك أثر ما نمارسه من عبادات وأعمال جماعية في نفوسنا، وصار الإنسان يمارس العبادة ويمارس نقيضها في الوقت نفسه!

ذكر أبو بكر بن العربي أن شيخه أبا بكر الطُّرْطُوشي زار المغرب، فصلَّى في مسجد للمالكية، فرفع الطُّرْطُوشي يديه عند الركوع وعند الرفع منه، فرآه رئيس البحر فانزعج من ذلك وأمر بقتله!

قال ابن العربي: فطار قلبي من بين جوانحي، وقلتُ: سبحان الله! هذا الطُّرْطُوشي فقيه الوقت! فقال لي: لماذا يرفع يديه؟ قال ابن العربي: فما زلتُ أبيِّن له أن هذه سنة النبي ﷺ حتى سكن غضبه(٢).

(١) أخرجه البخاري» (٦٠٧٥)، ومسلم (٢٥٦٠) من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ٣٧٠)، و«تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٨١)، و«الاعتصام» (١/ ٢٧٤).

وأول ما يُوصي الإنسان نفسه، وأصل الوصية تكون للناس، لكن لما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ دل على أن المقصود التواصي بين العديد من الناس، وهو ترسيخ لقضية الاجتماع على الخير والبر والتقوى.

وعبَّر في الآية بـ«تَوَاصَوْا»؛ لأن فيها معنى الاستمرار، بخلاف «أَوْصَوْا»، فقد يكون مرة ثم ينتهي.

كذلك التواصي فيه معنى التفاعل بين الطرفين، فأنا أوصيك وأنت توصيني، فلا تجد في الإسلام فئة فقط هي التي توصي الناس، والبقية يكون دورهم مجرد الاستماع، وإنما كل مسلم يوصي أخاه بالحق، فهي عملية تبادلية بين جميع المؤمنين، **وقد قيل**: لا أحد أقل من أن يفيد، ولا أحد أكبر من أن يستفيد، فلا يقال: هذا العالم جاوز القنطرة، فلا ينصح. ولا أحد يقول: هذا حقير لا يوجد عنده شيء.

وهذا يشمل التواصي، ويشمل التواصي بالتواصي، فعند ما نقول: يا إخوان، علينا أن يُوصي بعضُنا بعضًا، فنحن نوصي بعضنا بالوصية، تقول: أوصيك أن توصي الآخرين بالصبر، والنبيُّ ﷺ يقول: «**استَوصُوا بالنساءِ خيرًا**»(١). يعني: ليُوصي بعضُكم بعضًا بالنساء خيرًا(٢).

والحق يُعرف بأدلة الشريعة، وهي مسألة مهمة، وهي: أن علينا أن نتواصى بالحق الذي هو الشرع، فإذا كانت القضية مجرد اجتهادات وآراء فلا يشملها الأمر؛ لأن الرأي يخطئ ويصيب، ولا حظر أن يتناقش المختلفون ويتحاوروا حول الرأي الأصوب والأَسَدِّ؛ لكن دون تعصب أو توهُّم أن الرأي دين لا يسع أحدًا مخالفته.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ والصبر من الحق، وهو رأس الفضائل؛ ولذلك قال عليٌّ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١، ٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٣/ ٤٧٧- ٤٧٨)، و«عمدة القاري» (٢٠/ ١٦٦)، و«فيض القدير» (١/ ٥٠٣)، و«حاشية السندي على سنن ابن ماجه» (١/ ٥٦٨).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبرُ مَطِيَّةٌ لا تَكْبُو»[1].

ولو تأملت وصايا الله تعالى لعباده بالصبر لوجدت شيئًا كثيرًا مذهِلًا، والحقيقة أنه لا دين ولا دنيا إلا بالصبر، حتى قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وجدنا خيرَ عيشنا بالصبر»[2].

فالإيمان يحتاج إلى صبر، بل الإيمان نصفه الصبر.

ومثله العمل الصالح، وقد يستقيم المرء شهرًا أو سنة، لكن إذا لم يكن عنده صبر، فإنه ينقطع.

وهكذا التواصي بالحق، قد نتواصى بالحق مرة أو مرتين، لكن إذا لم يكن عندنا صبر، فإننا نتوقف أو نمل.

والإنسان قد يصبر سنة أو سنتين، لكن إذا لم يكن عنده صبر على الصبر فإنه ينقطع.

والصبر يكون في الصحبة بين الزوجين، أو في التجارة، أو في طلب العلم، أو في الدعوة، أو في الجهاد؛ لأنه ما من عمل إلا والإنسان يقوم به مع غيره، والإنسان محتاج فيه إلى غيره.

ولا يمكن أن توجد صحبة بين اثنين إلا بصبر وتسامح؛ ولما ذهب موسى مع الخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قال له: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وهما اثنان، وهذا نبيٌّ وهذا نبيٌّ[3]، قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧- ٦٨].

إن الذين يذهبون إلى طلب العلم كثير، والذين يتعبَّدون الله كثير، والذين

---

(١) ينظر: «الرسالة القشيرية» (ص٨٥)، و«أدب الدنيا والدين» (ص٣٥٩)، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٧٨)، و«سراج الملوك» (ص٧٩)، و«شرح نهج البلاغة» (١/ ٣١٩)، (١١/ ٢٠٣)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥٨)، و«عدة الصابرين» (١/ ٩، ٧٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٤).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة البلد»: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

(٣) والخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيٌّ على قول الجمهور، وهو الصحيح. ينظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٣٧٧)، و«تفسير القرطبي» (١١/ ١٦)، و«البحر المحيط في التفسير» (٦/ ١٣٩)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٢٧)، و«فتح الباري» (١/ ٢٢٢)، (٦/ ٤٣٤).

يتجهون إلى الخير كثير، ولكن الذين يصلون إلى الغاية، ويقطعون المشوار إلى نهايته قليل!

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا فَقَدْ صارُوا أَقَلَّ مِنَ القليلِ[1]

وهؤلاء هم الصابرون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بمنه وكرمه!!

❍ ❍ ❍

(١) ينظر: «العقد الفريد» (٢/ ١٠٦)، و«الصداقة والصديق» لأبي حيان التوحيدي (ص٩٥)، و«معجم الأدباء» (٣/ ١٢٦٥)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص١٦٣).

سُورَةُ الهُمَزَةِ

❊ **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الهمزة**»(١).

وسماها البخاري، وغيره: «**سورة** ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾»(٢)، بأول آياتها.

وذكر الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز» أن من أسمائها: «**الحُطَمة**»(٣)؛ لورود اسم الحُطَمة فيها.

❊ **عدد آياتها:** تسع آيات بالاتفاق(٤).

❊ **وهي مكية** باتفاق العلماء(٥).

وذكر بعض المفسرين أنها نزلت في جماعة من صناديد كفار مكة، الذين كانوا ينالون من المسلمين ويهمزونهم ويلمزونهم، ويسبونهم ويعيبونهم، وينسبون إليهم الأباطيل، يحاولون بها تشويه صورتهم.

وممن قيل إن السورة نزلت فيه: الوليد بن المغيرة، والأَخْنس بن شَرِيق،

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٣١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٨)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٥٩)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٣) ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٤٣)، و«إملاء ما من به الرحمن» (٢/ ٢٩٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦١٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨١)، والمصادر السابقة.

وأُمَيَّة ابن خلف، وأُبيّ بن خلف، وجَـمِيل بن مَعْمر الجُمَحي، والعاص بن وائل السَّهْمي، والأسود بن عبد يَغُوث، وغيرهم.

ومن المفسرين مَن قال: إنها لم تنزل في أحد بعينه[1].

والملاحظ أن القرآن لا يذكر أسماء الذين نزلت فيهم الآيات، **وهذا فيه دروس وفوائد، منها:**

١- أن المقصود الفعل، وليس الشخص؛ فالأشخاص يذهبون ويُنْسَوْنَ، لكن العبرة بالأفعال الطيبة التي يُراد من الناس أن ينتهجوها، والأفعال السيئة التي يُراد أن يجتنبوها.

٢- في الإبهام فسح مجال للتوبة، بخلاف ما لو ذُكر اسمه مذمومًا في آية تُتلى، فربما عزَّ عليه الرجوع، وقد تأخذه العزة بالإثم.

ومن هؤلاء الذين قيل إن السورة نزلت فيهم: جَـمِيل بن مَعْمر، وقد أسلم وحسن إسلامه، وشهد مع النبي ﷺ غزوة حُنين[2].

وفي المثل: «للعدو الهارب ابنِ جسرًا». والنبي ﷺ كان يبني لهم جسورًا، وقد علَّمه ربُّه هذا، والشرع لا يأمر بتعيير الناس بأخطائهم ولا تيئيسهم من التوبة، والمؤمن المشفق على العصاة حريص على أن ينهضوا من عثرتهم، وعلى أن يستقيموا، ولذا فهو يجتهد في هدايتهم، لا يضع شروطًا تعجيزية أمام توبة التائبين، ولا يطلب مَن التائب أن يقوم على الملأ ويعدِّد أخطاءه السابقة، ويعلن الرجوع عنها، وفي هذا إطاحة بإنسانيته وتعويق له، وقد لا يجد شجاعة ليخطِّئ نفسه، وربما لا يرى ذلك من المصلحة، أو كان تدرَّج في طريق الهداية شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما وصل إليه.

ومن علامات التوفيق للداعية أن يفرح بما يراه من الناس من بوادر الخير،

(١) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ينظر: «الإصابة» (١/ ٥٠٠).

وكل خطوة يتقدَّم بها هؤلاء إلى الصراط المستقيم يبش لها ويتفاءل ويفرح، ولعل الخطوة تمهِّد لما بعدها، وليس الدين ملكية لأشخاص، وإنما هو دين الله، والناس فيه سواسية، لا فضل بينهم إلا بالتقوى.

٣- أن في ذكرهم بأسمائهم تعييرًا لذريتهم من بعدهم؛ ولهذا قال ﷺ عن أبي جهل: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ**»(١).

وقد يكون في هؤلاء المؤمن والتقي والصالح والعالم، فيكون في ذكر اسم أبيه مذمومًا في القرآن تعييرٌ له وسبٌّ وإيذاء، وهذا أمر مشاهد؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتخلَّى عن قراباته، وقد ورد في السيرة أن عبدَ الله بنَ عبد الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ لما بلغه في غزوة الْمُرَيْسِيع(٢) أن النبيَّ ﷺ كان يريد أن يقتل أباه، قال: يا رسولَ الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبَيٍّ فيما بلغك عنه، فإن كنتَ لا بد فاعلًا، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبَيٍّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، وأدخل النارَ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**بل نترفَّقُ بهِ ونحسِنُ صحبَتَهُ ما بَقِي معنَا**»(٣).

ففي عدم ذكر أسماء مَن نزلت فيهم الآيات حفاظ على مشاعر أقاربهم وأسرهم ومَن له بهم علاقة.

وعند عامة الأصوليين: «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب»، والمدار على هذه الأوصاف المرذولة والتحذير منها ووعيد أهلها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٢١٠)، والترمذي (١٩٨٢)، وابن حبان (٣٠٢٢) من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٩٧)، وما سيأتي في أول «سورة الكوثر».

(٢) هي غزوة بني المصطلق، والمريسيع: ماء لخزاعة، وهو من قولهم: رسعت عين الرجل. إذا دمعت من فساد. ينظر: «الروض الأنف» (٤/ ١٣).

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٥٦)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٠٥)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١١٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٤/ ٦١)، و«كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ٥٣٢)، و«أسد الغابة» (٢/ ١٣٣)، و«البداية والنهاية» (٤/ ١٥٨)، و«الإصابة» (٤/ ١٥٥)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٥٩٩)، و«هذا رسول الله ﷺ» (١٦٦- ١٦٩)، وما تقدم في «سورة المنافقون».

* ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾:

﴿وَيۡلٞ﴾ التي افتتحت بها السورة تكررت في القرآن الكريم؛ **ومن ذلك:**

١- وردت في شأن اليهود، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩].

٢- وعلى لسان مَن يخالل الأشرار، فيصدونه عن سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٨].

٣- وفي الذين ينقصون المكيال، قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

٤- في الأفَّاك الأثيم، وهو الكذّاب المفتري الذي يسمع آيات الله ثم يصر على كفره وضلاله مستكبرًا، قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الجاثية: ٧].

٥- في المكذِّبين، قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

٦- في القاسية قلوبهم، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

٧- وفي الظالمين، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

٨- في الذين يغفلون عن صلاتهم ويقصِّرون في أدائها، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥].

وفي هذه السورة وعيد لكل هُمزة لمُزة غيَّاب عيَّاب.

في الويل معنى التهديد والوعيد، وبكل حال فالغالب على هذه المواضع أنها في شأن أولئك الذين يؤذون عباد الله، كما في الأفَّاك الأثيم، والمطفِّفين، وفي الـهُمزة اللُّمزة، والظالمين، الذين آذوا الناس وظلموهم.

وكلمة ﴿وَيۡلٞ﴾ قد تكون دعاءً على الإنسان، وقد تكون خبرًا، وأيًّا ما كانت، فهي بيان عن سوء حال هذا الإنسان الذي جاءه الوعيد.

وكأن أصل الكلمة- والله أعلم- أن الإنسان إذا نزلت به نازلة أو مصيبة يقول: «وي». وهذه كلمة توجعٍ وتحزُّنٍ وتخوفٍ وقلقٍ، ثم يقول: «لي»، فلكثرة

استعمالها صارت: «ويلي»، وقد تأتي معرفة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وثَمَّ فرق بين «ويح» و«ويل»، فـ«ويح» فيها الرحمة والترحم، أما «ويل» ففيها التوعُّد(١).

وقال بعض المفسرين: ﴿وَيْلٌ﴾: واد في جهنم. وهذا لم يصح فيه شيء، كما سبق في «سورة المطففين»(٢).

والتعميم في «كل» يدل على أن السورة لم تنـزل في شخص بعينه، بل هي لكل همَّاز لـمَّاز.

والهُمَزَة: من الهَمْز، **واللُّمَزة**: من اللَّمز، وهما على وزن: فُعَلَة، **والمقصود بالهُمَزَة اللُّمَزة**: كثير الهمز واللَّمز(٣).

ولهذا نظائر، كما يقال: فلان ضُحكة، أي: كثير الضحك، وفلان لُعَنَة، أي: كثير اللَّعن، وهو يدل على أن الصفات المذكورة تلبَّست بالإنسان، وصارت جزءًا من شخصيته، بل لعلها أبرز معالم شخصيته، فلو قيل: ما الصفة المميزة له؟ لقلت: فلان همزة. أي: كثير الهمز في كل مجلس، وهكذا إن كان ضحَّاكًا أو لعَّانًا، فهي عادة أدمنها، وغرم بها، حتى صارت الغالب من فعله.

وهل الهُمَزَة هو اللُّمَزَة، أم أن بينهما فرقًا؟

قال ابن قُتيبة والزَّجَّاج: لا فرق بينهما، فهما بمعنى واحد، وكأنه من باب مترادف الألفاظ، وهو: العيَّاب الطعَّان الذي إذا لقيك أحسن إليك وضحك، وإذا

---

(١) ينظر: «الصحاح» (٥/ ١٨٤٦) «و ي ل»، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٥٧٩)، و«تفسير غريب ما في الصحيحين» (ص٥٦٤)، و«الفائق» للزمخشري (٤/ ٨٥)، و«تاج العروس» (٧/ ٢٢٠) «و ي ح».

(٢) تقدم في «سورة المطففين»: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٥٩)، (٢٤/ ٦١٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٨)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٤٨٨)، و«التحرير والتنوير» (٢٩/ ٧٢)، و«أضواء البيان» (٧/ ٤١٣).

انصرفت عنه سبَّك وعيَّرك(١)، كما قال القائل(٢):

إذا لقيتُكَ عن كُرهٍ تُكاشِرُني ... وإن تغيَّبتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ

وقد يعيِّر بظاهر من القول تارة، أو بغمز أو همز تارة أخرى، وهذا معنى جيد؛ لأن المعاني في القرآن لا يلزم معها الانشغال بحقيقة الفروق الدقيقة بين لفظ ولفظ عن المعنى المراد، ولكن ثَمَّ أقوال تفرِّق بين اللفظين، وهي كثيرة أوصلها ابن الجوزي في «زاد المسير» إلى سبعة(٣).

منها: أن الهمز في اللغة أصله الكسر، يقولون: همزت الخشبة، إذا وضعتها على كتفيك ثم كسرتها، ويوجد كلمة أخرى قريبة من الهمز إذا قلبنا الزاي سينًا، وهي: الهمس، الذي يكاد لا يُسمع(٤).

وهل بين الهَمْز والهَمْس تقارب؟

بينهما تقارب في المخرج، وتقارب في المعنى(٥)؛ لأن الهمس هو الصوت الخفي، فقد يكون المقصود بالهمز: تنقص الناس وازدراؤهم واحتقارهم من خلال حركات الجوارح الخفية التي ربما لا يكاد الناس يتفطنون لها، يغمز بطرف عينه مثلًا، أو بشدقيه، أو بوجهه، أو بحركة يده.

فهذا هو الهمز، وقد يدخل فيه مَن يحاكي الناس في حركاتهم، أو أصواتهم وأقوالهم، من أجل أن يُضْحِك الآخرين على سبيل التعيير أو الازدراء.

ولو قلَّد صوت الآخر على سبيل الإعجاب بصوته واستحسانه، فليس فيه بأس، لأن بعض الصحابة حاكوا صوت النبي ﷺ في قراءته: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا**

---

(١) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٣٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦١)، و«تهذيب اللغة» (٤/ ٣٦٧)، و«لسان العرب» (٥/ ٣٩٧)، و«تاج العروس» (١٥/ ٣٢٢).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨- ٤٨٩)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص٣١٢)، و«تفسير الرازي» (١٦/ ٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٨).

(٤) ينظر: «لسان العرب» (٥/ ٣٢٦)، و«تاج العروس» (١٥/ ٣٨٨) «هـ م ز».

(٥) ينظر: «لسان العرب» (٦/ ٢٥٠)، و«تاج العروس» (١٧/ ٤٠) «هـ م ز»، «هـ م س».

مُّبِينًا﴾[1] [الفتح: ١].

والعبرة هنا بدافع الفعل، فإذا قلَّد إنسان صوت قارئ أو متحدِّث أو محاضر أو خطيب؛ لأنه معجب بصوته، ولم يقصد ذمًّا، فهذا لا بأس به.

أما اللَّمز؛ فالغالب أن يكون باللسان، وقوعًا وولوغًا في أعراض الناس، تعييرًا وتعييبًا وازدراءً، وهذا قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقتادة، وغيرهما[2].

والكلام في الناس بالجرح والتعديل أنواع:

١ - ما لا يدخل في الوعيد، كأن يتكلم في الناس بحق واعتدال، ويكون أهلًا لذلك، والناس بحاجة إليه.

- أن يكون باعتدال؛ فلا يبخس الناس أشياءهم ولا يظلمهم، ولا يحط من أقدارهم.

- أن يكون أهلًا لذلك؛ فلا يهجم على الكلام في الناس مَن لم يتأهَّل للجرح، ولا يجرِّح أو يعدِّل في الناس مَن هو بحاجة إلى مَن يعدِّله.

ولذلك صنَّف علماء الجرح والتعديل فيمَن يُعتمد قوله في الجرح والتعديل، فلا يُقبل الجرح ولا التعديل من كل أحد، بل لا بد أن يكون الجارح أو المعدِّل إمامًا مشهورًا معروفًا بالإمامة والحفظ والعلم، ومعرفة درجات العدالة.

- أن يكون ثَمَّة حاجة إلى ذلك؛ كحاجة علماء الحديث السابقين إلى معرفة صحيح حديث النبي ﷺ من ضعيفه، وكالحاجة إلى بيان أحوال مَن قد يلتبس أمره، فتكون الأمة بحاجة إلى بيان حاله، مع أن الذي عليه عامة أهل العلم وأهل السنة، أنه إذا أمكن بيان الحق من غير ذكر الشخص فهو أولى، وأما إذا احتيج إلى ذكر شخص بعينه فلا بأس بذلك.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٩٥٧)، وأحمد (١٦٧٨٩، ٢٠٥٤٢)، والبخاري (٤٢٨١، ٧٥٤٠)، ومسلم (٧٩٤)، والروياني (٨٧٩)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٤٠٥٧)، وابن حبان (٧٤٨)، والبيهقي (١٠/ ٢٢٩) من حديث عبد الله بن مُغَفَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٩٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٥٩٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٠٦)، والمصادر السابقة والآتية.

وقد ابُتلي كثير من الناس اليوم بالتلذُّذ بالولوغ في أعراض الناس، والجراءة على ذلك يخشى أن تدفع بصاحبها إلى الوقوع فيما حذر الله تعالى منه.

٢- **المكروه**؛ وهو ما يكون فيه استرسال واستطراد، ونوع من الحظوظ النفسية، مع وجود الحاجة فيه.

٣- **المحرَّم**؛ وهو أن يكون من غير المتأهِّل، أو يكون فيه ظلم وعدوان، أو يكون على سبيل البغي على الناس، وهذا قلَّ مَن يسلم منه، حتى من أهل الصلاح.

وقد يتطور إلى ما يُخشى على دين صاحبه، وهو ما يكون فيه همز ولمز للشريعة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦].

والاشتغال بالناس في الأصل مَذمَّة، ولو أن إنسانًا صرف عمره كله للعن فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأُبيٍّ بن خلف، لم يكن رشيدًا مصيبًا في ذلك.

ويُروى أن الخوارج دخلوا على عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، فلم يدع لهم حجة إلا كسرها، فقالوا: لسنا نجيبك حتى تكفِّرَ أهلَ بيتك وتلعنَهم وتتبرَّأَ منهم. فقال لهم عمر: «إن الله لم يجعلني لَعَّانًا، ولكن إن أبقى أنا وأنتم فسوف أحملكم وإياهم على المحجَّة البيضاء». فأَبَوْا أن يقبلوا ذلك منه. فقال لهم: «إنه لا يسعكم في دينكم إلا الصدق، منذ كم دنتم الله بهذا الدين؟». قالوا: منذ كذا وكذا سنة. قال: «فهل لعنتم فرعونَ وتبرأتم منه؟». قالوا: لا. قال: «فكيف وسعكم تركه، أَلَا يسعني ترك أهل بيتي، وقد كان فيهم المحسن والمسيء، والمصيب والمخطئ؟»[1].

* ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾:

اختلف القراء فيها، فقراءة عاصم: ﴿جَمَعَ﴾ بالتخفيف، وقرأ حمزة والكِسائي

---

(١) ينظر: «حلية الأولياء» (٥/ ٣٠٩)، و«سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي (ص٩٤- ٩٥).

وابن عامر بتشديد الميم: ﴿جَمَّعَ﴾[1]، وهو أبلغ من ﴿جَمَعَ﴾، وتدل على الجهد الذي بذله في تجميع المال، فهو قد أخذ وقتًا طويلًا في تجميعه، وبذل فيه كثيرًا من الأسباب والحيل[2].

وجاء المال نكرة: ﴿مَالًا﴾؛ لأن المال في ذاته ليس هو الذي ينفع الإنسان، وإنما الذي ينفعه عمله الصالح، وجمع المال بحد ذاته ليس مذمة، وإنما المذمة ما وراء ذلك من سوء التصرف فيه.

وفيها معنى أنه لم يكن يهتم بنوع المال وسلامة مصدره، بقدر ما يهتم بجمعه، حتى لو كان من حرام أو غش أو سرقة.

ولقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ **أكثر من معنى**[3]:

١- جعله عُدَّة، بمعنى أنه أَعَدَّه، وادَّخره لنوائب الدهر وصروف الزمان، ونسي أن هذا المال قد يخذله أحوج ما يكون إليه.

٢- عدَّده، أي: أحصاه مرة بعد مرة، وهذا ينبئ عن الحرص والنهم الشديد والخوف على زواله، وليس المذموم هو الغنى أو كثرة المال، وإنما الحرص والانشغال به عن طاعة الله أو تصريفه في الحرام.

٣- عدَّده، أي: نوَّعه، يعني: عنده أنواع وألوان من الأموال أرصدة، وسبائك ذهب، وعقار، وماشية... إلخ.

إن كل ما كان سببًا في احتقار الناس وازدرائهم فهو معيب، حتى لو كان ذلك بعبادة أو علم أو جاه أو نسب أو حسب أو جمال أو مال، على أن كسب المال

---

(١) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص٦٩٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٥٧٥- ٥٧٦).

(٢) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٥)، و«الحجة للقراء السبعة» (٣/ ٣٥٢)، و«حجة القراءات» (ص٧٧٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٠)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦١٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٣٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٠٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٣).

ليس عيبًا بذاته.

ذَرِيني للغِنَى أسعَى فإني ... رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ
وأحقرُهم وأهونُهم لدَيهم ... وإن أمسَى لهُ نسبٌ وخيرُ
ويُهمِلُه النديُّ وتزدريهِ ... عقيلتُه ويهملُه الصغيرُ

إلى قوله:

قليلٌ ذنبهُ والذنبُ جمٌّ ... ولكِنْ للغِنَى ربٌّ غفورُ[1]

فالغنى منه ما يكون سببًا في رفعة الإنسان في الدنيا، واحترام الناس له، ومنه ما يكون سببًا في رفعته في الآخرة، ووصوله إلى أعلى الدرجات.

* ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ٣﴾:

أي: أخلده في الدنيا[2]، وأتى بالفعل الماضي: ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾، ولم يقل: «يخلده»، على سبيل التهكُّم بهذا الذي يحسب أن القضية مفروغ منها، فما دام عنده مال، فهو قد أخلده، والأمر قد حُسم وانتهى، فيقال له: رويدك، وهَوِّن عليك! ليس الأمر كما تظن.

وكيف يحسب أن ماله أخلده؟ هذا له عدة احتمالات:

١- يحسب أن المال أطال عمره، ومن الناس مَن يظن أنه بالمال، يتداوى من الأمراض، ويأكل أطيب الطعام، وأن المال يكون سببًا في طول عمره، والواقع أن الإنسان قد يموت بسبب ماله، وإن كان من المعلوم بالحساب والإحصاء أن معدل أعمار الأفراد في الدول المتقدِّمة أطول منه في الدول النامية، بسبب الخدمات الصحية، والغذائية، والوقائية، وهذه من الأسباب الشرعية، وليس سببًا خارقًا أو خارجًا عن القضاء والقدر، فالبلاد التي تشيع فيها الأمراض والمخاطر

(١) ينظر: «البيان والتبيين» (ص١٣٠)، و«البخلاء» للجاحظ (٢/ ١٣٥- ١٣٦)، و«عيون الأخبار» (١/ ١٠٣)، و«إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٤٧٩)، و«العقد الفريد» (١/ ٢٦١)، و«الأمتاع والمؤانسة» (ص٦١)، و«أخلاق الوزيرين» لأبي حيان التوحيدي (ص٦٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢١)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦١٦)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٣٩).

البيئية، وتكثر فيها حالات المصادرة والقهر والحرمان والأذى للناس؛ يكون الفرد فيها أقصر عمرًا.

لكن هل الأغنياء والمشاهير في البلاد المتقدِّمة أو غيرها هم أطول أعمارًا من غيرهم؟

إن من أكثر أسباب مرض الضغط والسكر والقلق والجلطات الدماغية، الانشغال بالمال والإفراط فيه.

٢- أنه نسي الموت بانهماكه بالدنيا وانشغاله بها، فعمله على مَن يعتقد الخلود، كما يقول الحسن البصري: «ما رأيتُ يقينًا لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت»(١).

٣- أنه يظن المال أخلده في الذكر، والذكر عُمْر، كما قال الشاعر(٢):

فارفعْ لنفسِكَ بعد موتِك ذكرَها ... فالذِّكرُ للإنسانِ عمرٌ ثانِي

فهو بنى المباني الفخمة، وشَيَّد وأَسَّس، فلذلك يحسب أن هذا المال خلَّده ببقاء ذكره بعد الموت، ومن الناس مَن يكون له شيء من الذكر بالمال إذا أحسن استخدامه، ومع هذا فالناس سَرَعان ما ينسون، وإن ذكروا فذكرهم لا ينفع الميت إِلَّا أن يكون دعاء وثناء بخير.

٤- أن يكون المقصود خلود مَن بعده من الورثة والقرابة ونحوهم، فهو يظن أنه بنى لهم مجدًا لا يزول بهذا المال.

٥- أنه يحسب المال أخلد طريقته ومنهجه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. هم يعرفون أنهم يموتون، ولكن يقولون: يرثنا قوم آخرون، يكونون مثلَنا، على طريقتنا ومنهجنا.

---

(١) ينظر: «البديع في البديع» (ص١٢٥)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص٣٠٩)، و«التمثيل والمحاضرة» (ص٤٠٤)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» (٤/ ٩٣٤)، و«دلائل الإعجاز» (ص٦٠٤)، و«محاضرات الأدباء» (٢/ ٥٠٥)، و«الكشكول» (٢/ ٢٢٩).

(٢) ينظر: «الموسوعة الشوقية» (٥/ ٣٥٥- ٣٥٦).

وفي كتاب: «نهاية التاريخ» أن الحضارة الأمريكية ونظام الحكم الديمقراطي الليبرالي هو نهاية التاريخ والتطور البشري.

وفي الآية الكريمة تعريض لطيف بأن المجد ليس بالمال، ولهذا قال بعده: ﴿كَلَّا﴾ وإنما سبب الخلود في الدنيا والآخرة هي الأعمال الصالحة، والفضائل المعنوية: فضيلة العلم، الخلق، الإحسان إلى الناس، والتعبد، والتواضع، فالفضائل المعنوية والعلوم والأخلاق، هي المجد الباقي لصاحبه في الدنيا والآخرة.

فبذلك يضمن الإنسان شيئًا من الخلود في الدنيا بالذكر الحسن، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وكذلك الخلود في الجنة.

* ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾:

وهذا زجر وإنكار لهذا الحسبان، يعني: حسابه خطأ، ولا خلود له.

و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: شديدة الحطم والتحطيم(١)، وجاء في «صحيح مسلم»، أن عائذَ ابن عمرو صاحب رسول الله ﷺ دخل على عُبيد الله بن زياد، وهو أمير بالكوفة، وكان بطَّاشًا ظلومًا، فقال له: أي بُنَيَّ، إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إن شرَّ الرِّعاءِ الـحُطَمَةُ**». يعني: الذي يحطم رعيته حطمًا بقسوة وغلظة، لا يبالي بكبير ولا صغير ولا ضعيف ولا غيره، ثم قال: «فإياك أن تكون منهم». فقال له: اجلس، فإنما أنت من نُخالة أصحاب محمد ﷺ. فقال: وهل كانت لهم نُخالة؟ إنما النُّخالة بعدهم وفي غيرهم(٢).

وهذه من الأجوبة المفحمة المسكتة، يعني: أنت وأمثالك النُّخالة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢١)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦١٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٨٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨١)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٨٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٤).

(٢) ينظر: «صحيح مسلم» (١٨٣٠).

فالحُطَمة تحطم الإنسان، وتأتي عليه كله، والنَّبْذ هو الرمي والإلقاء، كما تُنبذ النواة أو الحصاة.

وفيه إشعار بالإهمال والنسيان، كما لو كان شيئًا حقيرًا مستكرهًا، فيُنبذ ويُلقى ويُهمل ويُنسى، فلا يتفطن له أحد، وسوف يُهمل ذكره، بخلاف ما كان يظن أن ماله أخلده، سوف لا يُذكر، ولا يخلد ولا يبقى، ولهذا قال تعالى عن فرعون الذي يحسب أن ماله وسلطانه أخلده: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠]، في احتقار وازدراء وتهوين.

والحُطَمة: اسم من أسماء جهنم، أو صفة لجهنم، أو إحدى دَرَكاتها أو أبوابها(١)، على وزن: فُعَلَة، كهُمزة ولمُزة؛ فـ«الجزاء من جنس العمل»، فهذا الإنسان هُمزة لُمزة، توعَّده الله سبحانه أن يُنبذ في الـحُطَمة، جزاءً وفاقًا لما كان عليه في الدنيا من تحطيم الناس باحتقارهم والاستهزاء بهم والتكبر عليهم.

* ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾:

قال سُفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره به، وكلُّ شيء: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يخبره به».

وقد تقدَّم الكلام حول هذا الحصر(٢).

وهو سؤال تفخيم، كما في قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة: ١- ٣].

وفي الآية الكريمة إشارة إلى خيبة طموح الإنسان في الخلود: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾؛ لأن الله قال له: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾، ومتى يُنبذ في الحطمة؟ في الآخرة، يعني: بعد الموت.. فهو سوف يموت ولا يخلَّد.. ﴿وَيَأْتِينَا

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢١)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (١٢/ ٨٤٣١)، و«تفسير السمعاني» (٣/ ١٤١)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨١).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الحاقة»: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾.

فَرۡدًا﴾ [مريم: ٨٠]، فآماله وطموحاته في الخلود والبقاء تبخرت وذهبت أدراج الرياح، فلا أهل ولا مال ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

و﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ ليست معروفة في لغة العرب، ولعل هذا من أسرار السؤال عنها كالقارعة والحاقة وغيرها؛ فالله تعالى يذكر هذه الأسماء التي لم يعرفها العرب من قبل، أو كانوا يستخدمونها في معنى ثم غيَّر القرآن استخدامها ووظَّفها في غيره.

* ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾:

فنسبها تعالى إليه، فهي ليست نار شيخ من شيوخ العرب، أو نار قبيلة من قبائلهم توقدها تفاخرًا أو تعاظمًا أو تهديدًا، وهي ليست كنار الدنيا التي تُوقَدُ ثم مآلها إلى أن تخبو وتنطفئ، وهذا الوقد وصف يصح أن يطلق عليها مطلقًا، فكل وقت هي موقدة؛ فالنار كانت موقدة، وهي الآن موقدة، وهي يوم القيامة موقدة.

* ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾:

﴿ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾: القلوب، والمقصود أن النار تصل إلى قلوبهم(١)، فهذا القلب الرَّقيق الذي يتألم لأي شيء؛ تصل بحرِّها وسمومها إليه، فتؤلمه أشد الإيلام؛ وذلك لأن القلوب هي محل الكفر، ومحل الكبر، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**لا يدخلُ الجنةَ مَن كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْر**». قال رجلٌ: إن الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة؟ قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ؛ الكبرُ بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس**»(٢).

ومن ذلك الهمز واللَّمز، وازدراء الناس، وبَطْر الحق.

* ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾:

أي: مغلقة(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِ﴾ [الكهف:

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٨٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٠٤)، والمصادر السابقة.

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٣)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٣٧)، و«زاد المسير» (٣/ ٧٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٥).

١٨]، **والوَصِيد** هو: الباب، والنار لها سبعة أبواب، كما قال الله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[الحجر: ٤٤]، كما أن الجنة لها أبواب ثمانية، كما في الحديث: «**أدخله اللهُ من أيِّ أبواب الجنة الثمانية شاءَ**»(١).

وقرأ عاصم وجماعة: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ بالهمز، والجمهور يقرؤونها بالواو(٢)، والمعنى واحد.

وهذا دليل على أنهم يدخلون النار، كما ورد في مواضع كثيرة في القرآن، ويخرج الله منها مَن شاء، كما في حديث الـجَهَنَّميين وغيرهم(٣)، ممن يأذن الله تعالى في خروجهم منها من أهل الإسلام، ولكن بالنسبة للكافرين الذين هم أهل النار، فإن وجود الأبواب يزيد في تعذيبهم؛ لأنه كلما رأى الباب همَّ بالخروج وتمنَّاه وتطلَّع إليه، وكان حاله حال السَّجِين الذي كلما سمع قعقعة الباب عاودته الآمال، وظن هذا إيذانًا بفرجه، فهم في نار جهنم ينظرون إلى الأبواب، ويتطلعون إلى خروجهم منها، ولكن هيهات!

* ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾:

قراءة الجمهور بفتحتين ﴿عَمَدٍ﴾، وقرأ حمزة والكِسائي: ﴿عُمُدٍ﴾ بضم العين والميم(٤). وكلاهما جمع، وقد يكون جمعًا لعمود(٥).

و﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ صفة لـ﴿عَمَدٍ﴾، وليست صفة لـ﴿الْحُطَمَةِ﴾، خلافًا لما يظنه

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وفي «صحيح مسلم» (٢٣٤) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٢)، و«السبعة في القراءات» (ص٦٨٦)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٢)، و«حجة القراءات» (ص٧٦٦)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٣٩٣- ٣٩٤)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٥٨٠- ٥٨١).

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٥٩، ٦٥٦٦)، و«صحيح مسلم» (١٩١).

(٤) ينظر: «السبعة في القراءات» (٦٩٧)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص٢٢٥)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٤٠٣)، و«معجم القراءات» (١٠/ ٥٨١- ٥٨٣).

(٥) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص٣٧٦)، و«حجة القراءات» (ص٧٧٣).

بعضهم من أن النار ممدَّدة في أعمدة، وقد تكون هذه العمد من نار، وقد تكون مما شاء الله تعالى، وهذا غيب لا يستطيع أحد أن يتكلم فيه، والكلام فيه رجم بالغيب، وإن ذكره بعض المفسرين[1].

هذه العمد الطويلة قد تكون عمدًا في النار يوثقون بها كما يوثق السِّجين في الغُلِّ، ويقيدون بها، وقد تكون عمدًا ممددة على الأبواب مبالغة في إحكامها، وعدم خروجهم منها.

○○○

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٥/ ٣٠٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٨٩)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٦٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤١).

سُورَةُ الفِيلِ

❁ **تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة الفيل**»، كما في المصاحف وكتب التفسير(١).

ويسميها بعضهم: «**سورة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾**»، كما في «صحيح البخاري»، وهكذا في بعض الروايات عن أُبيٍّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وغيره(٢).

❁ **عدد آياتها:** خمس آيات بلا خلاف(٣).

❁ **وهي مكية** بإجماع أهل العلم، وهي والسورة التي تليها «سورة قريش» في مصحف أُبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سورة واحدة، حتى إنه ورد أنه لم يفصل بينهما بالبسملة(٤).

وقد ورد أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قرأ بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ و﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ في الركعة الثانية من صلاة المغرب، وقد ذكر ذلك القرطبي وجماعة من أهل التفسير(٥)،

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٤٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٢٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٨٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٤).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦/ ١٧٧)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٧٥)، و«فضائل القرآن» للمستغفري (٢/ ٦٨٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٣).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٨٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٥٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨٧).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٠)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«روح المعاني» (٣/ ٢٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٣، ٥٥٣).

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠). والأثر أخرجه عبد الرزاق (٢٦٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٥٩٣)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ٣٤٨).

مما يدل على أنهما عنده كالسورة الواحدة، وأن معناهما مترابط.

والقصة التي نزلت فيها السورة معروفة، وخلاصتها: أن أَبْرَهَة الحبشي الأَشْرم كان ملك اليمن من قِبَلِ النجاشي في الحبشة، حيث كانت اليمن تابعة للحبشة الذين دخلوا اليمن بعد حادثة الأُخدود في نَجْران، وهي جغرافيًّا وتاريخيًّا من اليمن، والذين قُتلوا فيها كانوا من النصارى المؤمنين الموحِّدين، وحصل عليهم من التعذيب ما ذكره الله تعالى في «سورة البروج»، وبعدها غزا الأحباش اليمن، وحكموها رَدَحًا من الزمن، وكان مندوبهم في اليمن الذي يحكم باسمهم هو أَبْرَهة الأَشْرم، وكان قد بنى في صنعاء كنيسة سماها: القُلَّيْس[1]، وكان أَبْرَهة قد أخذ العمال بالعمل أخذًا شديدًا، وكلَّفهم فيها أنواعًا من السُّخْرة، وكان ينقل إليها الرخام المجزَّع، والحجارة المنقوشة بالذهب والفضة، فلم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض، فأراد أَبْرَهة صرف قلوب الناس إليها بالتعبد والذكر، فَهَمَّ بغزو الكعبة؛ لئلا تنافس القُلَّيْس، أو لأن بعض العرب حاولوا هدم هذه الكنيسة أو تخريبها أو إهانتها، فجمع جيشًا كبيرًا، وجعل معهم أفيالًا، وقيل: فيلًا واحدًا؛ ولهذا سماهم: «أصحاب الفيل»، فغزا مكة، وجاء إليها؛ ليهدم الكعبة، ولما اقترب من مكة جاءه بعض وجوه العرب وعرضوا عليه الفدية والمال في مقابل أن يرجع عن مسيره، فأَبَى ورفض، وأخذ جيشه إبلًا لعبد المطَّلب، فجاءه عبد المطَّلب- وكان رجلًا عظيمًا وسيمًا جسيما- فقال له: إنكم قد أخذتم بعض إبلي. فقال له: قد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلَّمتني، أتكلِّمُني في مائتي بعير، وتتركُ بيتًا هو دينُكَ ودينُ آبائك قد جئتُ لهدمه، لا

---

(١) بضم القاف وتشديد اللام مع الفتح، وقد تفتح اللام دون تشديد، وقيل: بفتح القاف وكسر اللام الخفيفة، وقيل غير ذلك. ينظر: «معجم البلدان» (٤/ ٣٩٤)، و«لسان العرب» (٦/ ١٨٠)، و«مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» (٣/ ١١٢٠)، و«حياة الحيوان الكبرى» (٢/ ٣١٥)، و«حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي» (٨/ ٣٩٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٤٦)، و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص٢٥٦)، و«المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص٢٢٨).

تكلِّمني فيه! فقال له عبدُ المطَّلب: إني أنا ربُّ الإبل، وللبيت ربٌّ سيمنعُهُ منك. فقال أَبْرَهة: ما كان ليُمنعَ مني! فقال عبد المطَّلب: أنت وذاك. فردَّ أَبْرَهةُ على عبد المطَّلب إبلَه، ثم انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال والشِّعاب[1].

ثم قام عبد المطَّلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله تعالى، ثم قال:

لاهُـمَّ[2] إن العبدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَـهُ فامنعْ حِـلَالَـكْ[3]
لا يَـغْـلِبَـنَّ صليبُـهم ... ومِحَالُهم غَـدْوًا مِـحَالَـك[4]
إن كـنـتَ تـاركَـهـم وقِـبْـ ... ـلتَنا فـأَمْـرٌ ما بَـدَا لـكْ

وخرجت قريش بنسائها وأطفالها؛ خشية أن يغشاهم الجيش أو ينتهك أعراضهم أو يعتدي عليهم، وتركوا الكعبة أيامًا، ثم إن الله سبحانه بعث عليهم طيرًا أبابيل، أي: جماعات معها حجارة، كل طير معه ثلاثة أحجار: واحد في فمه، واثنان في رجليه، ترمي هؤلاء القوم، حتى أهلكتهم جميعًا.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «رأيتُ عند أم هانئ نحو قَفِيز من هذه الحجارة مخطَّطة كالجَزْع الظَّفاري»[5].

والجَزْع الظَّفاري: نوع من الخرز الصغار، دون حبات الحمّص[6] وفوق

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٩- ٥١)، و«المنمق في أخبار قريش» (ص٧٤- ٧٦)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ١٣٣- ١٣٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٣٥- ٦٤٠)، و«المنتظم» (٢/ ١٢٤- ١٢٥)، و«الكامل في التاريخ» (١/ ٤٠٣- ٤٠٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ١٤٤- ١٤٦)، والمصادر السابقة.

(٢) لاهمَّ: أصلها: اللَّهمَّ، وهي بمعناها.

(٣) الحِلال: القوم النُّزول، وجماعة بيوت الناس. وفي رواية: «رحالك».

(٤) **المِحال**: الكيد والقوة، **والغَدو**: الغد.

(٥) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (٤/ ٤٣٢)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٩٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥١).

(٦) بكسر الحاء، وفتح وكسر الميم المشددة، والعامة تضمهما. ينظر: «تاج العروس» (١٧/ ٥٣٢- ٥٣٣)، و«معجم الصواب اللغوي» (١/ ٣٣٣)، و«معجم اللغة العربية المعاصرة» (١/ ٥٥٩).

العَدَسِ، فهي حجارة صغيرة مخطَّطة، وهذا يدل على بقاء آثار أصحاب الفيل.

وورد أن بعض رَوْثه كان موجودًا في مكة، وكأن العرب تركوه من باب الإبقاء على ما يدل على إهلاك القوم.

وورد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها رأت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس(١).

وهذا الأثر إن صحَّ فهو يدل على أنهم عُمِّروا، وهم من العرب الذين خانوا، وقد كان العرب يرجمون قبر أبي رِغَالٍ؛ لأنه دلَّهم على الطريق.

وقد ذكر تعالى هذه القصة تذكيرًا وتثبيتًا للنبي ﷺ، بأن الله يدافع عنه وعن دينه، وإذا كان الله حمى الكعبة وهي حجارة، أفلا يحمي نبيه ﷺ وأولياءه ودينه ووحيه؟!

كما أن في ذلك عَلَمًا من أعلام نبوة النبي ﷺ؛ لأنه أخبر بهذه القصة ولم يكن ﷺ شهدها، وكان بعض الذين شهدوا القصة أحياء، فكان من المعمَّرين: حَكِيم بن حِزام(٢)، ونَوْفَل بن عبد العُزَّى؛ فقد عمرا مائة وعشرين سنة، وهما ممن عاصروا الحادثة.

وقد ذُكرت قصة الفيل في القرآن مرة واحدة، وفي القصة فوائد عظيمة، **منها:**

إقامة الحجة على العرب، متقدِّميهم ومتأخِّريهم؛ وحماية النبي ﷺ، وتثبيت قلوب المؤمنين.

وذُكرت حادثة الفيل في سُنَّة النبي ﷺ في الحُدَيْبِيَة، لما خرج النبي ﷺ إلى مكة، حتى إذا كان بالثَّنِيَّة التي يُهبطُ عليهم منها بَرَكَتْ به راحلتُه، فقال الناسُ: خَلأَتِ القَصْواءُ، خَلأَتِ القَصْواءُ. فقال النبيُّ ﷺ: «**ما خَلأَتِ القَصْواءُ، وما ذاك لها**

---

(١) أخرجه ابن إسحاق (ص١٦)، والواقدي- كما في «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨٩)- وخليفة بن خياط في «تاريخه» (ص٥٣)، والأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٤٨)، والبزار (٣٠٠)، والدينوري في «المجالسة» (١٢٥٤)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ١٢٥).

(٢) ينظر: «المستدرك» (٣/ ٤٨٢)، و«مَن عاش مائة وعشرين سنة من الصحابة» لابن منده (ص٢١- ٢٧)، و«أسد الغابة» (٢/ ٥٨)، و«الإصابة» (٢/ ٦٠٥).

بخُلُقٍ[1]**، ولكن حبسَها حابِسُ الفِيل»**.

وتأمَّل هنا أن النبيَّ ﷺ عبَّر عن حبس الفيل، وليس عن الكعبة فقط، فالله حمى الكعبة وحمى مكة المكرمة.

وفي هذا يظهر تعظيم النبي ﷺ للكعبة ولمكة، حتى وهو يقدمها لحج بيت الله الحرام وللعمرة، ومعه المؤمنون، ومع ذلك لما خَلَأَت تراجع وقال: «**والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطَّةً يعظِّمونَ فيها حُرمات الله، إلا أعطيتُهم إيَّاها**»[2].

وانظر إلى هذا الموقف النبوي، وإلى مواقف بعض المسلمين عبر التاريخ الذين انتهكوا حرمة البيت، فالباطنية القرامطة الملحدون انتهكوا حرمة البيت، وقتلوا الحُجَّاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا الحجر الأسود، وهربوا به إلى مقر مملكتهم وحكومتهم في الأَحْساء، ومكث عندهم اثنتين وعشرين سنة[3]**!!**

وأعجب من هذا، الحادثة الشهيرة التي انتهك فيها حرمة البيت الحرام عام (١٤٠٠هـ)[4].

إن المؤمن بحاجة إلى مراقبة النفس بشكل دائم، وألَّا يسمح لنفسه أن تصول وتندفع؛ تأسِّيًا بموقف النبي ﷺ، وكيف جاء بأصحابه ورُدَّ عن البيت، ولم يعط لنفسه أي تأويل، ولما عرضوا عليه الصلح- مع ما فيه من مذلة في ظاهر الأمر- قبله النبي ﷺ وأمضاه، **هذا موقف**.

والموقف الثاني: أن النبي ﷺ لما فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة خطب الناس، وقال: «**إن الله حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسلَّطَ عليها رسولَه والمؤمنين، وإنها لم تحِلَّ لأحدٍ كان قبلي، وإنها أُحلَّت لي ساعةً من نهارٍ، وإنها لن تحلَّ لأحدٍ بعدي،**

---

(١) أي: ليس من عادتها.

(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٨٥٥)، و«مسند أحمد» (١٨٩٢٨)، و«صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«تفسير الطبري» (٢١/ ٢٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٠).

(٣) ينظر: «أخبار ملوك بني عُبيد ومسيرتهم» (ص٥١)، و«غرر الخصائص الواضحة» (ص٢٧٤)، و«تاريخ الإسلام» (٢٥/ ٤٤)، و«البداية والنهاية» (١٥/ ٣٧- ٣٨)، و«تاريخ الخميس» (٢/ ٢٥٠).

(٤) ينظر: «طفولة قلب» للمؤلِّف (ص١٨٩- ١٩٦).

فلا يُنفَّر صيدُها، ولا يُختلَى شوكُها، ولا تَحِلُّ ساقطتُها إلا لمُنشدٍ»[1].

وحادثة الفيل وقعت في العام الذي وُلد فيه النبي ﷺ بإجماع المؤرِّخين وعلماء السير، كما ذكره خليفة بن خَيَّاط، وأبو الخطاب بن دِحية، وذكره ابن كثير وابن القيم وابن حجر وغيرهم، ونقل غير واحد الإجماع عليه، سواءً من المفسرين أو من أهل السيرة[2].

ولكن كانت ولادة النبي ﷺ بعد حادثة الفيل بخمسين يومًا، وحادثة الفيل كانت في شهر الله المحرم، وهو يوافق شهر شباط أو فبراير من الشهور الأعجمية، وذلك سنة (٥٧٠) من ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعد ذلك اليوم بخمسين يومًا وُلِد النبي ﷺ.

* ﴿**أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ** ١﴾:

الاستفهام هنا تقريري، والمعنى: أنك قد رأيتَ، ولكنه غالبًا يأتي بصيغة النفي الذي ظاهره النفي وحقيقته الإثبات، ويفيد معنى التحدِّي، فلا المخاطب ولا غيره يستطيع أن ينفي هذه الحادثة، فهي في ثبوتها قضية يقينية لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يشكِّك فيها.

وهذا الاستفهام التقريري مثله كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ**﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿**أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ**﴾ [الفرقان: ٤٥]، ﴿**أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ**﴾ [الشرح: ١]، ﴿**أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ**﴾ [الضحى: ٦].

والرؤية هنا يحتمل أن تكون علمية، أي: علمتَ العلم اليقيني القطعي أن الله تعالى فعل بأصحاب الفيل ما فعل.

ويحتمل أن تكون بصرية، يعني: بعينك، وهل رأى النبي ﷺ أصحاب الفيل

(١) أخرجه البخاري» (٢٤٣٤)، ومسلم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «تاريخ خليفة» (ص٥٣)، و«العقد الفريد» (٥/ ٣)، و«شرف المصطفى» لأبي سعد الخركوشي (١/ ٤٤١)، و«تاريخ دمشق» (٣/ ٧٦)، و«تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٢- ٢٣)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٢٥)، و«زاد المعاد» (١/ ٧٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٣٨٠).

وما جرى لهم بعينه؟ كلَّا.

فإما أن يحمل على مَن رأوا هذه الحادثة، وكان بعضهم أحياء كما تقدَّم، وهم مخاطبون بهذا القرآن ويسمعونه، أو أن يكون ذلك إشارة إلى ما رأوا من الآثار، مثل أثر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه رأى في بيت أم هانئ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعض الحجارة، ومثل ما ذكر بعضهم أن آثار الأفيال كانت موجودة في أنحاء مكة.

وفي التعبير بالرؤية دعوة إلى استحضار الصورة في الذهن؛ لأن الكيفية عبارة عن صورة تفصيلية، فإذا قيل لك: كيف فعل ربك؟ تخيَّلت الكيفية والجيش والأفيال، ثم الحجارة وهي تقصفهم قصفًا.

وفي قوله: ﴿كَيْفَ﴾ لفت نظر المستمع إلى أن يعتني بالكيفية في الأشياء.

فالكيفيات مهمة للتخيّل والتصوّر، وحينما يذكر تعالى الأشياء بالكمية، فإنه يذكر معها ما يتعلق بشكلها وأهميتها وصفتها.

ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، عبَّر بـ﴿كَمْ﴾ وهذا من حيث كثرة أنواع النبات، لكن هذا غير خارج عما نقوله؛ فهو يلفت النظر إلى الصفة وهي تتعلق بالكيفية، فالزَّوج الكريم والبَهيج هي صفات تتعلق بالكيفية.

فالكيفية مقصودة، وملاحظتها ضرورية، وعلى الإنسان أن يلاحظ في موضوع الكيفية شيئين:

١- ما يتعلق بالأشياء القَدَرِية المخلوقة من الله تعالى، فإن مراعاة كيفيتها مما يقيم الحجة على الناس، وهو أبلغ في الاعتبار، فإذا فكَّر الإنسان: كيف يسمع؟ كيف يبصر؟ كيف يأكل؟ كيف يفكِّر ويعقل؟... إلخ، فإن التأمل يُحدث يقظة القلب والإيمان.

والتدبر شيء ضخم هائل، وجرب ذلك في الكلام، نحن نسمع الكلام ونقول الكلام، ولكن لا يفكِّر أحدنا في كيفيته، وكيف يخرج؟ وكيف تتكون الحروف؟ وكيف يسمع؟ وكيف يصل؟ وكيف يحلِّله الدماغ؟ وكيف تنقله الأعصاب؟

وكيف يستجيب له الجسم؟ وكيف تتكون اللغات وتكتمل وتتنوع؟ أو كيف يأكل؟ أو يشرب؟ أو ينام؟ وما الفرق بين النوم واليقظة؟ أو كيف يفكِّر؟ وكيف يستذكر؛ لكان التأمل في هذه الكيفيات من أعظم ما يعزِّز الإيمان.

٢- ما يتعلق بالأمر الاختياري، فإن على الإنسان أن يضبطه بالمعيار الشرعي، ويصحِّحه ويلتزم فيه بالأدب والخلق والتهذيب، ويطوِّره شيئًا فشيئًا؛ لأن العبرة بالكيفيات، وليس فقط بالكميات، يعني: ليس العبرة كم لك من صديق؛ لأن كثرة الأصدقاء ليست بحد ذاتها أمرًا محمودًا، ولهذا قال ابن الرُّومي[1]:

عدوُّك من صديقِك مستفادُ ... فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ

فإنَّ الداءَ أكثر ما تراه ... يكونُ من الطعامِ أو الشرابِ

العبرة بكيفية الصحبة، وحسن المعاشرة، وحسن الأدب، والتلطف، والصبر، والاستفادة منهم، ومثله العبادات والطاعات والمصالح، العبرة بكيفية إنجازها وأدائها، فليتأمل المؤمن كيف يصلِّي، وكيف يصوم، وكيف يحج، وكيف يعبد ربه، وكيف يطبق تعاليم الإسلام بالأخلاق والعلاقات وغيرها.

وهذا يبيِّن فضل معرفة الكيفيات المفصَّلة على الإجمال والإبهام.

فلو قيل لك: إن جيشًا غزا مكة وقُتلوا، ربما لا يلفت نظرك، لكن إذا فصَّل ذلك كما في السياق؛ لوجدت العجب في ترسيخ الإيمان وتدعيمه، حتى إن الأساطير المركبة المتداولة في ثقافات الشعوب ذات تأثير عظيم بسبب تفصيلها وتحديد مساقاتها.

وتأمَّل أنه قال هنا: ﴿فَعَلَ﴾، ولم يقل: «صنع»، أو: «خلق»، أو: «أرسل»؛ لأن الأمر الذي جرى على أصحاب الفيل فيه خَلْقٌ، مِن خَلْقِ الطير والحجارة، وفيه إرسال، وفيه جعل، فاختار تعالى كلمة: ﴿فَعَلَ﴾؛ حتى تشمل هذه الأشياء كلها.

وقال: ﴿رَبُّكَ﴾، ولم يقل: «الله»؛ لما فيه من إشارة إلى ارتباط حادثة الفيل بمبعث الرسول ﷺ، وأن هذه الحادثة وإن كانت قبل البعثة، بل وقبل ميلاده ﷺ،

(١) ينظر: «ديوان ابن الرومي» (١/ ١٠٨).

إلا أنها من إرهاصات بعثته ﷺ؛ ولذلك استعمل لفظ «الرب»، المتضمِّن لمعنى الرحمة والرعاية، وفيها الملك والتدبير، وفيها التصريف والتربية.

فـ﴿رَبُّكَ﴾ هو الذي ربَّاك بنعمه، وتعاهدك بفضله وعطائه، فكأن في ذلك إشارة إلى أن حادثة الفيل هي من لُطف ربك، وحُسن تدبيره وتصريفه ورعايته لك، فقدَّم بين يدي بعثتك، بل بين يدي ميلادك هذه الحادثة العظيمة التي كان من آثارها حفظ الكعبة، وكون قبائل العرب في الجزيرة العربية يتجهون إلى الكعبة بالتعظيم، ويحبون الكعبة وأهلها، ويكون لقريش من المكانة ما يمهد ويهيئ لقبول رسالة النبي ﷺ وخروجه فيهم.

وفيه معنى الاختصاص؛ فالذي أَهْلَك أهل الفيل هو ﴿رَبُّكَ﴾، وهو الذي سوف يهلك كلَّ عدو يقصدك بسوء؛ لأنك أنت وكل مؤمن أعظم حرمة من الكعبة، وقد ورد في الحديث أن النبيَّ ﷺ نظر إلى الكعبة وقال: «**ما أطيبَكِ وأطيبَ ريحَكِ! ما أعظمَكِ وأعظمَ حُرمتَكِ! والذي نفسُ محمد بيده، لحُرْمةُ المؤمن أعظمُ عند الله حرمةً منك، مالِه ودمِه، وأن نظنَّ به إِلَّا خيرًا**»(١). وقتل المؤمن أعظم عند الله تعالى من زوال الكعبة!

فهذا فيه ربط للنبي ﷺ بحادثة الفيل، فهو مثل قول الله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١- ٢]، فهذه هي مكة التي وُلدت فيها، وبُعثت فيها، وسوف تكون منطلقك ومردك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

وقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يرى جمهور المفسرين أن نسبتهم إلى الفيل هو مجرد تعريف، مثل قولك: أصحاب الجمل، وأصحاب الكهف، وأصحاب السجن، وأصحاب السَّبْت، وأصحاب الجنة، أي: البستان، فقد يُنسب الناس إلى أدنى ملابسة تتعلق بهم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢٠).

أما العرب، فلم تكن تعرف الفيل أصلًا، بل كانوا يتخيلونه مجرد تخيل بأذهانهم، كما قال كعب بن زُهير[1]:

وقد أقومُ مقامًا لو يقومُ به ... أرى وأسمع ما لا يسمع الفيلُ

وكما قال لَبِيد[2]:

ومقام ضيق فرَّجته ... ببيانٍ ولسان وجدلْ

لو يقومُ الفيلُ أو فياله ... زلَّ عن مثل مقامي وزحلْ

والفيل أعظم من الجمل الذي تعرفه العرب، وله هذا الخرطوم الذي يلتف به على ما يريد، وكانوا في الحروب يعتبرونه محفة، ويركب عليه ستة أو سبعة من الجنود، وهو سلاح هائل يحطم ما أمامه.

فجيش أَبْرَهة جاؤوا إلى جزيرة العرب بشيء لم يكن معروفًا عند العرب، يشبه أسلحة العصر الحاضر من الطائرات الضخمة والبارجات الهائلة والدبابات العظيمة التي لا عهد للعرب بها، فوقع لهم من الدهشة والخوف والرُّعب ما لا يخطر على بال، وكان أَبْرَهة وجنده يظنون أنهم مانعتهم أفيالهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؛ ولهذا ناسب أن ينسبهم إليه، وفي هذا نوع من التحقير المبطن لهم؛ لأن هذا الفيل- وهو حيوان- بَرَكَ، وحُبِس عن مكة، فكان إذا وُجِّه إلى الكعبة بَرَكَ، وإذا وُجِّه إلى أي جهة أخرى ثار وأسرع في المسير[3]، في حين يصرُّ هؤلاء على هدم بيت الله تعالى وأذية أهل بيته! فكان الفيل خيرًا منهم عملًا وأحسن مصيرًا.

* ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾:

وفي السياق دعوة إلى رؤية فعل الله، بدلًا من الوقوف الطويل على فعل العباد، فالسورة لم تستطرد في حكاية القصة ولا سرد المؤامرة، بل وجَّهت العناية

---

(1) البيت من قصيدة اعتذاره للرسول ﷺ، وهو في «ديوانه» (ص٤٩).

(2) ينظر: «ديوان لبيد» (ص٨٥).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٣)، و«الكشاف» (٤/ ٧٩٧)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٥٨).

إلى الفعل الإلهي تحذيرًا للمؤمنين من المبالغة في استحضار الكيد الفاجر، أو سيطرة الخوف المفرط على النفوس والغفلة عن الحكمة والتدبير الإلهي.

وهذا بيان للإجمال، والله تعالى سمَّى عملهم: كيدًا، والغالب أن الكَيْد هو: التدبير الخفي اللَّطيف، وما فعله أهل الفيل كان ظاهرًا مكشوفًا، فقد جاؤوا بالفيل مع جيش عَرَمْرَم، فهذا ليس خفيًّا، فلماذا سماه الله تعالى: كيدًا؟ **في هذا أكثر من احتمال**(١):

١- لأن هؤلاء القوم وإن جاؤوا بحجة أنهم يثأرون لكنيستهم المهانة، أو بحجة هدم الكعبة، إلا أن حقيقة ما جاؤوا له كان أعظم مما أعلنوه، ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، وكذلك يفعل الطُّغاة دومًا، فهم يتحدَّثون عن إسقاط حكومة أو إزالة نظام، لكن حقيقة مقاصدهم أعظم مما يبوحون به، وهكذا أصحاب الفيل، أعلنوا هدفًا محدَّدًا، وهو هدم الكعبة، أو الانتصار لكنيسة القُلَّيْس، لكن حقيقة ما يهدفون إليه أبعد من ذلك، فكان دافعهم الحسد للعرب، ومحاولة صرف الناس عن ملة الحنيفية بكل وسيلة، وعلى ما هو مقرَّر؛ فإن هدم رمز من رموز الدين هو هدم للدين نفسه.

٢- أو لأن مثل هذه الحروب عادة ما تكون مصحوبة بعمل استخباراتي واسع قبلها ومعها وبعدها، ولولا هذا العمل الاستخباراتي ما تحقَّقت أهدافها، وهو عمل يقوم على استقراء الظروف، ومعرفة الطرق، والعدو والتخطيط له، والمكر والمباغتة، وغير ذلك من الأساليب والفنون الحربية، وهذا كله يدخل في باب الكيد؛ ولذلك ذكره تعالى عن فرعون: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]؛ لأن جانب المؤامرة فيه ظاهر: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤- ٥٦].

وكونهم حاذرين يقتضي منهم التحرز والاحتياط وعمل المكر والتجسس

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٤٢)، و«مفردات القرآن» للفراهي (ص٣٧٤).

ورسم الخطط وتبييت الحيل... إلخ.

ولكن لم يغنهم حذرهم شيئًا، واستدرجهم الله إلى اليم ليغرقوا فيه، وهم ظانون أنهم مدركو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَن معه.

والتضليل هو: الضلال، فلم يصل هذا الكيد إلى أهدافه التي حدَّدوها، ولم يحقِّق القوم مقصودهم، فَضَلَّ هذا الكيدُ وذهب أدراجَ الرياح، وجعل الله كيدهم في تضليل.

* لقد انتهى كيد أصحاب الفيل وانهزموا سريعًا، وكان باستطاعتهم أن يعودوا إلى بلادهم سالمين، ويعيدوا الكَرَّة بعد حين، لكن الله تعالى باغتهم بجنود من عنده ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾:

وهذا من ذكر الكيفية التي فعلها بهم ربنا تبارك وتعالى، فهو لم يقل: «أرسل إليهم»، وإنما قال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾؛ ليدل على أن ما أُرسل إليهم واقع بهم لا يخطئهم.

ونكَّر ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، ولم يقل: «الطير الأبابيل»؛ **لمقاصد منها:**

١- أن هذه الطيور ليست مما يُعرف، فهي طيور منكرة؛ ولهذا قال العلماء: ليست بنجدية ولا تهامية ولا مما يعرفه العرب، وإنما هي طير من عند الله تعالى، مخلوقة لهذا الغرض بخاصة.

٢- أن في التنكير إشارة إلى غموض أمرها، والغموض في المعارك مما يزيد الأعداء خوفًا، وقد يقول القائل: كيف يزيد الأعداء خوفًا وقد ماتوا وفنوا؟

نقول: كذلك مَن بعدهم ممن خُوطبوا بهذا الوعيد من قريش، ومن أمم الكفر في غابر الزمان وحاضره ومستقبله، فيقال لهم: إن الله تعالى أرسل على قوم طيرًا أبابيل، وعنده من الجنود ما لا يعلمه إلا هو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ولا غرابة أنها كانت غامضة حتى على مَن أرسلت إليهم، فهم لا يعلمون جهتها ولا طبيعتها، وكانت مفاجأة غير محسوبة عندهم.

٣- أنها جاءت نكرة لعظم أثرها، فإنك إذا رأيتَ كيف صنعت بهؤلاء القوم الأشداء رأيتَ شيئًا عظيمًا، والتنكير يكون للتعظيم، كما هو معلوم عند العرب.

٤- أن من معاني التنكير التصغير والتحقير، فهذه الطيور صغيرة حقيرة في نظر الإنسان، ولكنها على صغرها وهوانها عند مَن يراها، إلا أن الله تعالى أجرى بسببها هذا الأثر العظيم، وهذا من الإعجاز(١).

و﴿أَبَابِيلَ﴾ ليس لها واحد من لفظها، مثل: ﴿أَسَٰطِيرُ﴾، وإن كان المتأخرون يقولون: أُسطورة. **وقيل**: إن لها مفردًا، واختلفوا هل هو: إِبِّيل، أو إِبَّوْل، أو إبال، أو إِبَّالة(٢)؟

ومعنى ﴿أَبَابِيلَ﴾: جماعات، قاله الأخفش والفرَّاء وجماعة من أهل اللغة(٣).

وبعض المفسرين خاضوا في صفتها بما يثير العجب والاستغراب، فإن ربنا تعالى لم يذكر شيئًا من ذلك، وإنما وصفها بأنها «طير» وحسب، وأنها أتت جماعات جماعات، يعني: فرقًا من الطيور، تأتي هذه من هنا، وهذه من هنا، وهذه من هنا، وهذا هو محل الاعتبار، أما الخوض في شيء من صفاتها مما لم يذكره القرآن، فهو أمر لا ينبغي أن نتشاغل به عن محل العبرة والعظة ومقصود السياق، كما أن فيه تتبعًا لما لم يأتنا فيه خبر ولا علم، وإنما هي مجرد ظنون واجتهادات.

* ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾:

ترمي: فعل مضارع، والمضارع يدل على أن الفعل يحدث الآن، وإنما جاء

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩١)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٤٣).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٢)، و«مجاز القرآن» لمعمر بن المثنى (٢/ ٣١٢)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٢٩٦)، و«تفسير الطبري» (٩/ ٢٠٠)، (٢٤/ ٦٢٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٤)، و«غريب القرآن» للسجستاني (ص٨٧)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠)، و«الكشاف» (٤/ ٧٩٩).

(٣) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٢٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٨٧)، والمصادر السابقة.

التعبير بالمضارع من أجل استحضار الحال، كأنك تتخيَّل هؤلاء القوم والطير ترميهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩]، يعني: حالة إثارتها للسحاب؛ وقد جاء عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه ذكر هذه الحجارة التي يرمون بها، وقال: «لما أرسل اللهُ الحجارة على أصحاب الفيل، جعل لا تقع منها حجر برجل منهم، إلا نفط مكانه». قال: «فذلك أول ما كان من الجُدَرِي»[١].

وهو مروي عن سَعيد بن جُبير وغيره، وذكره معظم المفسرين[٢]، ولم يكن العرب يعرفون مرض الجُدَري قبل الحادثة.

وهنا أود أن أشير إلى أن بعض المفسرين المعاصرين، كالشيخ المراغي، والشيخ محمد عبده، وجماعة قالوا: إن هذه الطير مثل الذباب أو البعوض التي تنقل الأمراض والأوبئة، وأنها نقلت مرض الجُدَري إلى هؤلاء، وقالوا: إن هذا فيه عبرة[٣].

وفي كل صنع ربنا تبارك وتعالى عبرة وأُسوة، حتى خلق البعوض أو الذباب وما هو أحقر منهما، ففيه عبرة لـمَن اعتبر، لكن الله تعالى ذكر أنها ترميهم بحجارة، وتأويل الحجارة بالجراثيم أو الأوبئة بعيد لا يساعده السياق، وهذه الحجارة من جنس الحجارة التي عُوقب بها قوم لوط، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: ٨٢]، والسِّجيل المنضود هو الحجارة من الطين، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ...﴾ [الذاريات: ٣٣].

فتبيَّن من هذا أن ما أُرسل على أصحاب الفيل هو نظير ما أُرسل على قوم لوط؛ ولذا فإن تأويل ذلك بالجراثيم أو الجدري بعيد.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٤٦١).

(٢) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ١٢٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٢)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٦٦٢)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٤٣)، و«في ظلال القرآن» (٦/ ٣٩٧٦).

والأقرب أن الأمر كان آية ربانية خارقة للمألوف، وربنا تعالى على كل شيء قدير، والذي أنزل على قوم لوط هذه الحجارة قادر على أن ينزلها على هؤلاء، فهذا من حكمته وقدرته وانتقامه ممن عصوا أمره.

وبعض المفسرين المتقدِّمين يذكرون عن الحجارة من سجِّيل شيئًا آخر، فبعضهم يقول: إن السِّجِّيل هو: السِّجِّين المذكور في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، أي: فهي من النار، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هي: السماء الدنيا.

وهذا لا يعرف في لغة العرب، وبعضهم يقول: السِّجِّيل هو: السِّجِل المذكور في قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أي: أن هذه الحجارة مما كُتب في القدر واللوح المحفوظ أن يعاقبوا بها(١).

وكل هذه الأقوال بعيدة، والقرآن يُفَسِّر بعضه بعضًا، فذكر الله تعالى عن قوم لوط أنهم عُوقبوا بحجارة من سِجِّيل، و﴿مِّن﴾ هنا بيانية، يعني: المادة التي تكونت منها هذه الحجارة هي السِّجِّيل، وهي الطين المتحجِّر، وليست الحجارة الصخرية(٢).

* ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ٥﴾:

قيل: إن العَصْف هو: الشيء الذي تعصف به الرِّياح، ولذلك قال بعضهم: العَصْف: ورق الحنطة، وقال بعضهم: التبن.

والعَصْف ورد في القرآن الكريم في موضع آخر: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢]، وهو: الورق أو التبن، **وقيل**: هو: القشر الذي يكون

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ١٩٥)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٦١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٩٧)، و«زاد المسير» (٢/ ٣٩٣)، (٤/ ٤٩٢)، و«تفسير القرطبي» (٩/ ٨٢)، (٢٠/ ١٩٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٠٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٦٨)، و«التحرير والتنوير» (١٢/ ١٣٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ١٨٤)، و«تفسير البغوي» (٢/ ٤٦١)، و«تفسير الرازي» (١٨/ ٣٨٣)، والمصادر السابقة والآتية.

على حبة البُرِّ، فيزال عنها[1].

ومادة «عصف» هي ما يعصف أو يحطم من الزرع، مثل التبن، أو الورق اليابس[2].

والله لم يجعلهم كعَصْف فقط، بل كعَصْف مأكول، **وكيف يكون العَصْف مأكولًا؟**

يحتمل أن يكون معنى مأكول، أي: أكله الدود، فالورق قد يصير ضعيفًا شديد الضعف واهيًا.

ويحتمل أن يكون المعنى كزرع أُكِل حبه وبقي العَصْف وهو القشر.

ويحتمل أن يكون المعنى أُكِلَ أكثرُه، وبقي بعضه، فإنه إذا أكلت البهائم التبن أو غيره، فإنها تأكل منه، ويبقى منه بقية مقطعة ممزقة منثورة ذات اليمين وذات الشمال، وهذا أحقر ما يكون، يعني: لم يجعلهم مثل التبن فقط، بل مثل التبن الذي أكلت منه الحيوانات وفرَّقته، فلم يعد له قيمة، حتى إن البهائم استنكفت عن ذلك لحقارته[3].

وفي هذه القصة آية وعبرة أجراها الله تعالى حماية لبيته العتيق، فإن الله امتن بحمايته يوم كان الناس في الجاهلية قبل بعثة الرسول ﷺ، وكان هذا إرهاصًا للبعثة، وحماية للنبي ﷺ، وإيذانًا بانتشار الرسالة، وقوتها وعظمتها.

ومع ذلك يذكر التاريخ أن الكعبة على مدى حكم الإسلام لها قد تضرَّرت أكثر من مرة، فالحَجَّاج حاصر الكعبة في عهد عبد الملك بن مَرْوان، ورماها

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٦٣٦، ٧٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٢/ ١٨٣- ١٨٥)، (٢٤/ ٦٤٣)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٩٨)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ٣٢٤)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٣٣٢)، (٥/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٤- ٥٢٥)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ١٥٦)، (٢٠/ ١٩٩)، و«تفسير ابن كثير» (٧/ ٤٩٠)، (٨/ ٤٨٨)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠٣).

(٢) ينظر: «الصحاح» (٤/ ١٤٠٤)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٥٦٩)، و«تاج العروس» (٢٤/ ١٦١) «ع ص ف».

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ١٩٩)، والمصادر السابقة.

بالـمِنجنيق[١]، فتهدَّم بعضها، ومع ذلك لم يأت لجيشه ما جاء لأصحاب الفيل.

وهكذا النبي ﷺ أَخْبر أنه في آخر الزمان «**يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَيْن من الحبشةِ**»[٢]. تصغير ساق!

وأصحاب الفيل هم من الحبشة، فربما يكون عندهم في بعض كتبهم أنهم هم الذين يُخرِّبون الكعبة، وهذا قد يكون موجودًا في الكتب السابقة، فلعلهم تلقَّوا في كتبهم التي يتوارثونها أن الحبشة يُخرِّبون الكعبة، فكل واحد منهم يستعجل أن يكون له هذا الذي يعتبره شرفًا، ويريد أن يتم هذا على يده، والله تعالى أعلم.

وهذا كثير ما يقع، كما تجده في هذه الأمة في الروايات والآثار الواردة في ظهور الـمَهْدي الذي يملأ الأرض قِسْطًا وعدلًا كما مُلئت جَوْرًا وظلمًا، فمنذ عهد بني أمية وكثير من الناس يدَّعون هذا، فقد يكون مجيء أصحاب الفيل إلى مكة؛ لأنهم يجدون في كتبهم مثلما نجد نحن في كتبنا أن الذي يهدم الكعبة هو ذو السُّوَيْقَتَيْن، فاستعجلوا ذلك وعاقبهم الله تعالى، وإنما يكون هدمها في آخر الزمان، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**كأني به أسودَ أَفْحَجَ، يقلعُها حجرًا حجرًا**»[٣].

والسؤال: لماذا أنزل الله تعالى ما أنزل على أصحاب الفيل، ولم يعاقب الـحَجَّاج ومَن معه، ولم يعاقب ذا السُّوَيْقَتَيْن؟

والجواب- والله أعلم-: أن العقوبات كانت تأخذ الأمم قبل البعثة المحمدية، كما حكى الله عن أمم الأنبياء، فهكذا قصة أصحاب الفيل، وأن قصة أصحاب الفيل وما نزل بهم كان من نوع الإرهاص بميلاد النبي ﷺ وبعثته، فهي حال خاصة تلفت أحياء العرب إلى هذا البيت وما سيكون حوله من بعثة محمد ﷺ.

وأما بعد ذلك فقد تحمَّلت الأمة مسؤولية الجهاد والدفاع والمدافعة عن البيت، ولا يلزم أن مَن قصده بسوء يُنتظر به ما نزل بأصحاب الفيل؛ فالحَجَّاج

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٤٣)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ١٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٩٥) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أصاب الكعبة بالمِنجنيق، والقرامطة قصدوا الكعبة بالعدوان، وانتزعوا أعظم أحجارها؛ الحجر الأسود، ولم يصح حصول أمر استثنائي أو عقوبة سماوية بهم؛ ليتحمل المسلمون مسؤوليتهم، ويجري الله عقوبته على مَن ظلم بأيديهم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

أما ما يتعلق بذي السُّوَيْقَتَيْن فإن الأمر مختلف؛ لأن الكعبة إنما تكون عظمتها بمَن يطوف بها ويصلِّي إليها، والله جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس، فلما لم يبق في الأرض مَن يحج، ولا مَن يعتمر، ولا مَن يصلِّي إلى البيت الحرام، فقد تعطلت منافعها، فيأذن الله تبارك وتعالى بهدمها آخر الزمان حينما لا يبقى في الأرض مسلم يقول: «الله الله»، كما أخبر النبي ﷺ(١)، وقال أيضًا: «**وليُسْرَى على كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ **في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية**»(٢). وذلك حينما يندرس الإسلام، وينتهي أمره قبيل قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(١) ينظر: «صحيح مسلم» (١٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، والحاكم (٤/ ٤٧٣، ٥٤٥) من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٨٧).

سُورَةُ قُرَيْشٍ

❊ **تسمية السورة:**

لها اسمان:

«**سورة قريش**»، وهو ما ورد في المصاحف كلها، وغالب كتب التفسير[1].

و«**سورة** ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾»، وجاءت هذه التسمية في رواية عَمرو بن ميمون الأَوْدي، لما ذكر صلاةَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المغربَ، وقراءته بهاتين السورتين، وذكره البخاري في «صحيحه»[2].

❊ **عدد آياتها:** أربع آيات عند الجمهور، وعدَّها أهل المدينة خمس آيات[3].

❊ **وهي مكية** بإجماع أهل العلم، كما قال ابن عطية[4].

ورُوي عن الضحاك والكَلْبي أنها مدنية، وهو قول ضعيف، فالسورة ذات علاقة وثيقة- على الأرجح- بـ«سورة الفيل»[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٥٥)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠).

(٢) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٥٩٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٥٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٥)، والمصادر السابقة.

(٥) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٠)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٣٠/ ٥٠٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٣).

وهي سورة منفصلة عن «سورة الفيل»، وجاءت في مصحف أُبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجوارها غير مفصول بينهما بالبسملة، ولعل أبيًّا كان يرى أن السورتين سورة واحدة، والله أعلم(١).

وهذا ليس نصًّا، فقد يكون الأمر فيها كالأمر في «سورة الأنفال» و«سورة براءة»، حيث لم يفصل بينهما بالبسملة، ومع ذلك فهما سورتان، وبعض المفسرين يحكي الإجماع على أنهما سورتان لا سورة واحدة(٢).

والسورة على قصرها حوت فوائد وحِكَمًا عظيمة، وما أكثر الذين يقرؤونها ولا يدركون حِكَمها وفوائدها، أو لا يفهمون معناها.

* ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١﴾:

الإيلاف: مأخوذ من الإِلْف والأُلْفة والتأليف، وهو أن يلزم الإنسان الشيء، ويعكف عليه، ويعتاده، حتى يصبح مألوفًا، فالمعنى: لإلف قريش، أي: لكي يألفوا ويعتادوا ويسهل عليهم أمر السفر(٣).

وفي اللام في أول السورة ثلاثة احتمالات:

الأول: أن تكون متعلقة بما قبلها، في «سورة الفيل»، وعليه فالمعنى: أن الله تعالى يمتن بإهلاك أصحاب الفيل، وجعلهم كعَصْف مأكول، وحماية هذا البيت؛ من أجل «إيلاف قريش».

وذلك أن الله أهلك أصحاب الفيل؛ من أجل بقاء قريش ومصالحهم، وفي ذلك كثير من الحِكَم والأسرار التي منها بعثة النبي ﷺ فيهم.

ومنها: بقاء أثرهم؛ فقريش هم سَدَنة البيت وحماته، واستمرت مكانتهم في الإسلام، حتى قال النبيُّ ﷺ: «**لا يزالُ هذا الأمرُ في قريش**»(٤). يعني: أمر الخلافة

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الفيل».

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٠).

(٣) ينظر: «العين» (٨/ ٣٣٦)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٨١)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٦).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٠١)، ومسلم (١٨٢٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والحكم والسلطان، وظلت قريش في عهد الخلفاء الراشدين، وبني أُمَيَّة، وبني العباس، محط أنظار المسلمين، وكانت فيهم السيادة والسلطان العام للأمة كلها.

ولأن لهذه القبيلة شأنًا عظيمًا في تاريخ الإسلام، فهي القبيلة الوحيدة التي ذُكر اسمها في القرآن الكريم.

والقول بترابط هاتين السورتين، وأن **اللام** فيها مرتبطة بما قبلها، قول ابن إسحاق في «السيرة»، وجماعة من أهل اللغة، كالفرَّاء والزجَّاج وأبي عُبيدة، وقال القرطبي: «هو معنى قول مجاهد».

وحسبك بمجاهد في التفسير؛ لأنه أخذه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهذا القول رواية عن سَعِيد بن جُبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال الزمخشري: «وهذا بمنزلة التضمين في الشعر، وهو أن يتعلَّق معنى البيت بالذي قبله تعلُّقًا لا يصح إلا به».

وقال الطاهر ابن عاشور: «يعنون أن هذه السورة وإن كانت سورةً مستقلةً، فهي ملحقة بـ«سورة الفيل»، فكما تُلحق الآية بآية نزلت قبلها، تُلحق آيات هي سورة فتتعلق بسورة نزلت قبلها»(١).

لكن استنكر ابن جرير وجماعة أن تكون اللام متصلة بقصة الفيل، وأن ما في «سورة قريش» اعتماد على معنى مفهوم في أذهان السامعين، ولا يصح عندهم أن يكون المعنى: أهلكنا أصحاب الفيل من أجل إيلاف قريش(٢).

وذكر البيت موجود في السورة نفسها: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾. فحفظ الله تعالى الكعبة لإيلاف قريش، والمعنى تام وغير مرتبط بـ«سورة الفيل»، كما أن معنى «سورة الفيل» تام.

---

(١) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عُبيدة (٢/ ٣١٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٥)، «الكشاف» (٤/ ٨٠١)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٤٧)، و«البرهان في علوم القرآن» (١/ ٥٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٥٥).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٠)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (١١/ ١١١)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٠٣)، والمصادر السابقة.

وقريش: اسم جد القبيلة، **وجدُّهم** عند جمهور أهل النسب: فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة، وبالإجماع فإن قريشًا هم بنو النَّضْر بن كِنانة، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**نحن بنو النَّضر بن كِنانة، لا نَقْفُو أُمَّنا، ولا نَنْتَفي من أَبِينا**»(١).

وقريش تصغير: قرش، وهو سمك ضخم مخيف، يأكل السمك، ويهاجم السفن، **قيل**: إن قريشًا سُمِّيت بذلك لضخامتها ومكانتها ومنزلتها؛ ولأن القبائل كلها تذوب فيها، كما قال النبيُّ ﷺ في المدينة: «**أُمرت بقريةٍ تأكل القُرَى**»(٢). وليس المقصود حقيقة الأكل، وإنما المعنى: أنها تغلبها وتنتصر عليها، فسُمِّيت بهذا الاسم؛ لهيمنتها وقوتها.

وقيل: من القِرْش وهو المال؛ لأنهم أهل تجارة.

وقيل: من التَّقَرُّش، وهو الاجتماع؛ لأنهم تفرقوا ثم اجتمعوا(٣).

وقد كانت مكة أرضًا جرداء، كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ**﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فلما كان البيت بأرضهم؛ عظَّمهم العرب، ولما وقعت حادثة الفيل، وردَّ الله كيدهم، زاد قَدْر قريش، وارتفع شأنهم عند العرب، فكانوا يتسابقون إلى رضاهم وحمايتهم، ويسمونهم: جيران بيت الله، وأحيانًا يسمونهم: أهل الله.

ولو هدم البيت أو صار كغيره من البيوت بلا قدسية ولا مكانة؛ لزالت هذه المنزلة الرفيعة لقريش عند العرب، ولصاروا مثل القبائل الأخرى.

فالاحتمال الأول: أن يكون معنى: ﴿**لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ**﴾ أن الله تعالى حمى البيت، وأهلك مَن أراد به سوءًا، من أجل إيلاف قريش، وأن يألفوا رحلة الشتاء

---

(١) أخرجه الطيالسي (١١٤٥)، وأحمد (٢١٨٣٩)، وابن ماجه (٢٦١٢) من حديث الأشعث بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٣٧٥). ومعنى: «**لا نقفوا أمنا**»: لا نتهمها ولا نقذفها.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٤٢)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٨٧)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٠)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٢٩٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٣)، والمصادر الآتية.

والصيف، وأن يتصرَّفوا في المعاش، وأن تكون لهم تلك المنزلة التي ستبقى في خدمة الدين والدعوة والرسالة.

وثَمَّ احتمال آخر، وهو أن يكون المعنى متعلِّقًا بآخر السورة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾، أي: اعبدوا يا قريش ربَّ هذا البيت، الذي أنعم عليكم برحلة الشتاء والصيف، وغيرها من النعم، التي كان بها عزكم ومجدكم.

وإنما خص الله تعالى هذه النعمة بالذكر - وهي: رحلة الشتاء والصيف - لأنها سر تفوقهم، والبيت من ميراث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو من الأماكن المعظَّمة عند الله تعالى، فكأنه يعاتب قريشًا ويقول: كيف يتحول بيت الله إلى معبد للأصنام؟! وقد كان فيه ثلاثمائة وستون صنمًا تُعْبَد من دون الله، فيكون في السورة تقديم وتأخير، يعني: اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف، وآلفكم برحلة الشتاء والصيف.

وذكر هنا فضيلة الشرف بوراثة النبوة والبيت، وفضيلة المجد والسعي في الكسب والتجارة.

وفي السورة وجه ثالث، لا يكون له تعلق لا بآخر السورة، ولا بـ«سورة الفيل»، وإنما يكون ذلك على سبيل التعجب، فيكون في الآية محذوف تقديره: اعجبوا لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، ومع ذلك فهم يَلِجُّون في شركهم ومعصيتهم، ولا يشكرون نعمة الله تعالى. **وهذا المعنى أقرب من الذي قبله**(١).

* ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾:

إيلاف هنا مجرورة؛ لأنها عطف بيان على إيلاف الأولى، فـ«إيلاف» الثانية هي «إيلاف» الأولى، وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. فـ«الأسباب» الأولى هي «الأسباب»

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٤٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٥)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٨٤)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٣٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠١)، و«بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٤)، والمصادر السابقة.

الثانية، لكن استأنف بها آية أخرى فقال: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٦- ٣٧].

والرحلة هي: الارتحال والمسير، ومنه نسمي الدابة: راحلة؛ لأن الإنسان يرتحلها؛ أي: يركبها إذا سافر، وقد كانت رحلة الشتاء إلى اليمن؛ لأن الجو فيها أدفأ، ورحلة الصيف إلى الشام؛ لأن الجو فيها أبرد، امتنَّ الله تعالى عليهم بذلك، وهذا من إضافة الفعل إلى زمانه.

وإذا أضيف الفعل إلى زمانه، فهل يلزم أن يستغرق الزمان كله؟

هل كل الشتاء وهم في اليمن؟ وكل الصيف وهم في الشام؟! كلا، فالرحلة تستغرق بعض الوقت، فعند ما نقول: صلاة الظهر؛ فإنها لا تأخذ إلا بعض الوقت.

والشتاء والصيف اسمان لفصلين من فصول السنة الشمسية، والشتاء يقدر فيها بحوالى (٨٩) يومًا، والصيف يقدر فيها بـ(٩٣) يومًا، والإمام مالك يقول: الشتاء نصف السنة، والصيف نصفها الآخر، والآية تصلح لهذا وهذا.

والآية فيها إشارة إلى معان كثيرة، منها:

١- أن الدعوة التي أذن الله أن تنطلق من جزيرة العرب ومن مكة، تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولهذا كانت الرحلة إلى اليمن وإلى الشام من إقامة العلاقة والتواصل والتعارف مع الناس، والاكتساب منهم؛ لأنه بالاتصال يتحقَّق التعارف، وهكذا الدعوة تحتاج إلى تواصل مع الأمم والشعوب الأخرى؛ ولذلك مهَّد تعالى لنبيه ﷺ بهذا الاتصال، الذي تمثل في رحلة الشتاء، ورحلة الصيف.

ولا يصح في الدعوة أن يعيش المسلمون في عزلة عن الناس، فهذا رسول الله ﷺ كان يراسل الملوك، فأرسل إلى كِسْرى وإلى الـمُقَوقس وإلى النَّجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى، ثم كان يستقبل الوفود، فاستقبل نصارى نَجْران، واستقبل قبائل العرب من الجزيرة، وخاطبهم ودعاهم إلى الله، وهذا التواصل يحتاج إلى فهم الطرف الآخر، سواءً كان فردًا أو جماعة أو شعبًا أو قبيلة، فتفهم لغته وثقافته وتاريخه.

٢- أن المصالح الدنيوية التي بها قِوام حياة الناس- مثل الاقتصاد- تحتاج إلى الاتصال، فهي مصالح متشابكة متبادلة، وهذا يخفى- مع ظهوره- على كثير من الناس، الذين يرون أن مجرد استفادة العدو من الشيء الذي نستفيد نحن منه يحتم علينا تركه وحرمان أنفسنا منه.

وهذا من الغلط البيِّن؛ فالنبي ﷺ مات ودرعه مرهونةٌ عند يهودي(١)، وهذا اليهودي كان يستفيد من البيع، والنبي ﷺ استفاد من الشراء، ولكن النبي ﷺ راعى مصلحته، فمن الفقه أن ندرك هذه المصلحة المشتركة بين بني الإنسان، وأن على المرء أن يتحرَّى مصلحته ولو وافقت مصالح خصومه أو مخالفيه، ولا يعد هذا من باب التعاون على الإثم والعدوان، أو الإعانة على الشر كما يتوهمه بعضهم!

فإذا كان للمسلمين عامة أو لطائفة منهم مصلحة في شيء، وهذه المصلحة قد يستفيد منها الكفار، فلا ينبغي أن نحرم أنفسنا من هذه المصلحة من أجل حرمان الآخرين، فمن الخطأ الكبير أن يكون تقديرنا للمصالح والمفاسد مبنيًّا على مراعاة حرمان الآخرين من هذه المصلحة، وإذا كانت هذه المفسدة سوف تضر الآخرين، لكنها تضرك أنت أيضًا، فهل من الحكمة أن تفعلها؟ كلا، فالمصالح الدنيوية والدينية متشابكة، ولا يوجد في الدنيا مصالح محضة أو مفاسد محضة، وإنما المصلحة الغالبة في طيها بعض المفسدة، والمفسدة الغالبة معها بعض المصلحة، فالقضية لها حسابات لا يمكن إدراكها إلا بالنظر السديد والعقل الراجح، ولهذا يحسن الاعتناء بدراسة مقاصد الشريعة.

٣- أن الله تعالى يحفظ الفرد والجماعة والدولة والأمة في الأخلاق العامة التي يحتاج الناس إليها، فإذا رأيت العدل يضرب بجِرَانِه في بلد أو دولة أو أمة، ورأيت المسامحة، والمحافظة على حقوق الناس، فهذه الصفات جديرة بأن تمنح

---

(١) ينظر: «مسند أحمد» (٢٧٢٤)، و«صحيح البخاري» (٢٥٠٩، ٢٩١٦، ٤٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٦٠٣).

أهلها التقدم والتمكين، ولو كانوا كفارًا.

وإذا رأيتَ الظلم والبغي والعدوان ومصادرة الحقوق ينتشر في دولة أو مجتمع؛ فهو جدير بأن يحل به عقاب الله تعالى، ولو كان مسلمًا، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»(١).

والنبيُّ ﷺ يقول: «**تقومُ الساعةُ والرومُ أكثرُ الناس**»(٢). وكثرتهم تعني القوة، والشجاعة، والتسلط، والكثرة ليست محصورة في الكثرة العددية.

ولماذا هذه الكثرة فيهم؟

قال عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٣): «إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلمُ الناس عند فتنة، وأسرعُهم إفاقةً بعد مصيبة، وأوشكُهم كرةً بعد فرة، وخيرُهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ وجميلةٌ: وأمنعُهم من ظلم الملوك».

فهذه الأخلاق عامة متعلقة بحقوق الناس، وإقامة العدل وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه.

وإن الله سبحانه ذكَّر قريشًا حفظَ مكانتهم؛ لما جُبِلوا عليه من مكارم الأخلاق، وقد ذكر عطاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أن قريشًا كانوا إذا أصابتهم مجاعة أو مَـخْمَصة أو مَسْغبة، أدخل الرجلُ أولاده في بيت أو خباء، فمكثوا فيه جائعين حتى يموتوا من الـمَخْمَصة، بسبب الكرامة والأَنَفَة، فقال لهم هاشم بن عبد مناف: يا معشر قريش، إنكم أحدثتم حدثًا، حيث تتركون أنفسكم وأولادكم في بيت حتى تموتوا من الجوع، وبهذا تقلون أنتم، وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله تعالى، والناس لكم في ذلك تَبَعٌ. ثم أجمع أمرهم على أن ينشئوا هاتين الرحلتين إلى اليمن وإلى الشام وما ربحوه في هذه الرحلات

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٨) من حديث المستورد بن شدَّاد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) كما في الحديث السابق.

يقتسمونه بينهم، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، ذكرهم وأنثاهم[1]، ولذلك قال مطرود الخُزاعي[2]، وهو يمدحهم:

يا أيُّها الرجلُ المحوِّلُ رحلَه ... هلَّا مررْتَ بآلِ عبدِ منافِ
الآخذونَ العهدَ من آفاقِها ... والراحلونَ لرحلةِ الإيلافِ
والخالطون غنيَّهم بفقيرِهم ... حتى يكونَ فقيرُهم كالكافي

فكان الفقير مثل الغني سواءً بسواء فيما يكسبونه، فلما كانت عندهم هذه الخصلة في بذل المال والإنصاف، وعدم تفضيل الغني على الفقير؛ جعل الله تعالى لهم هذه المنزلة.

فمعنى الآية: تذكير قريش بنعمة الله تعالى عليهم، وهي نعمة لم تكن لغيرهم ببركة لزومهم للبيت الحرام وحمايته، وعمارة المسجد الحرام، فكانت القبائل كلها تحترم قريشًا، وحتى القبائل التي لم تكن تعظم الأشهر الحرم، كقُضاعة، وخَثْعم، وطَيٍّ، كانوا يعظِّمون قريشًا.

ومن هنا صارت مكة مركزًا تجاريًّا تُجلب إليه البضائع من كل مكان، وكانت الحبشة ترسل البضائع عبر البحر إلى جدة، وهكذا الشام واليمن، وقامت حول مكة الأسواق المعروفة، مثل عُكاظ ومَجَنَّة وذي المَجَاز، وانتشرت الحركة الاقتصادية، وصار العرب يقدمون مكة من أجل الحصول على مكاسبهم وأرزاقهم، ولذلك تحسَّنت لغة قريش وتهذَّبت، وصار عندهم شيء من الإبداع في العلم والأدب والشعر، والعلاقات الاجتماعية، وكل هذا فيه تمهيد لانبثاق رسالة الإسلام وانطلاقها من هذا البلد الحرام.

ولهذا امتن الله تعالى عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت:

---

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٥).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ١٧٨)، و«المنمق في أخبار قريش» (ص٤٦)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٦٠)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٢٥٢)، و«أمالي القالي» (١/ ٢٤١)، و«معجم الشعراء» (ص٣٧٥). وتُنسب أيضًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، كما في «الحماسة البصرية» (١/ ٦٥)، وينظر: «شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى» (ص٥٤) فيما نُسب إلى عبد الله بن الزِّبَعْرَى وإلى غيره.

٦٧]. وقال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

وهذا الإيلاف الذي ذكره تعالى لقريش في بقائهم بمكة، هو نقيض ما حكاه عن اليهود: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨].

* ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾:

لم يأمرهم سبحانه أن يتركوا الرحلة إلى اليمن والشام ليفرغوا للعبادة، فلهم أن يألفوا هذه الرحلة ويستمروا عليها، ليعبدوا ربهم تبارك وتعالى.

ومن العبادة: أن يوظِّفوا ما رزقهم الله تعالى في مصلحة عباده، والعبادة هنا شكر لما أنعم الله به عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

وكلمة ﴿رَبَّ﴾ تشعر بالرعاية والحفظ، وما قصة أصحاب الفيل عنا ببعيد، ومقتضى هذا الأمر أن يجتنبوا عبادة الأوثان، وذكَّرهم أن لهذا البيت الذي يعتزون به ربًّا يحميه، فهو المستحق وحده للعبادة، ولذا أضاف ذاته العلية واسمه الشريف إلى البيت؛ إشارة إلى أن هذا بيت الله سبحانه، وشرفه بهذا، وليس بشيء آخر، وفي قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ [البقرة: ١٢٥]. نسب البيت إلى ذاته العلية، فصار بيت الله عَزَّوَجَلَّ، والمقام هنا مقام امتنان بالنعم، فيناسبه ذكر صفة الربوبية دون غيرها.

وقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى البيت، والعادة أن الإشارة تكون لشيء حاضر، كما تقول: هذا الكتاب، وهذا القلم، فالإشارة كانت لأمر موجود عند السامعين، يُشار إليه، كما أشار عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صلاته، حيث صلَّى عند البيت، فقرأ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، فجعل يومئ إلى البيت، ويقول: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾(١).

وفيه معنى عظيم، وهو أن الله سبحانه يقرِّر أن هذا البيت باقٍ مرفوع شامخ أبيٌّ، يتعالى على كل محاولات الهدم والتخريب، ولذلك يُشار إليه؛ لأنه موجود،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨٤٩١).

وهذا قبل أن تنقل شاشات التلفاز والقنوات الفضائية الصور الحية من البيت الحرام، فهو اليوم يُشاهد من كل مكان في الأرض.

وإنك تتعجب أَلَّا تجد اليوم حول هذا البيت الحركة والنشاط العلمي والنشاط الإيماني الذي يتناسب مع مكانته، في حين أن أمم الأرض كلها اليوم تفتخر بمعالمها ومتاحفها ورسومها وآثارها ورموزها، ويفتخرون بأبنية حديثة من المعابد والكنائس، والمسلمون في أمصار الإسلام يفخرون برمز من رموز العلم فيها، فالرمز العلمي والإيماني في مصر هو: الأزهر، وفي تونس: الزيتونة، وفي المغرب: القرويين، وهذا البيت عريق، والله تعالى فضَّله يوم خلق السماوات والأرض، وجعل الأنبياء يحجُّون إليه ويطوفون به، وجعل له هذه القدسية وهذا البقاء وهذا الخلود، وهذا يستوجب أن يكون حول البيت العمل الكثير، والحركة العلمية النشيطة، والتأثير الكبير بما يتناسب مع جلالة البيت ومكانته ومنزلته.

* ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾:

وثمة فرق بين ﴿أَطۡعَمَهُم﴾ و«أشبعهم»؛ فالإطعام نعمة كبيرة لا يستغني عنها أحد، بخلاف الشبع، فليس محمودًا بكل حال؛ فقد يفضي إلى التخمة، وربما أضر بالصحة، والمرء يُذَمُّ إذا كان منهمكًا في ألوان الملذات من المآكل والمشارب؛ ولذلك عبَّر بالإطعام، لأنه القدر الذي يحتاج إليه.

ويحتمل أن يكون معناها: أطعمهم من جوع ألـمَّ بهم بعض الوقت، ومن ذلك أنهم كانوا إذا جاعوا جلسوا في خباء حتى يموتوا[(١)].

ومن ذلك أن النبيَّ ﷺ لما استعصت عليه قريش قال: «**اللهمَّ أعني عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسف**»[(٢)]. فجاعوا حتى أكلوا الجلود، وورق الشجر، وحتى كان الواحد منهم ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، حتى قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]، فالله تعالى يذكِّرهم

(١) كما تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٢٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أنه هو الذي أطعمهم من جوع.

و﴿مِّن﴾ هنا بدلية، أي: أبدلهم من الجوع إطعامًا(١).

ويحتمل أن يكون المعنى: أطعمهم من جوعٍ كان يقتضيه المقام، باعتبار طبيعة مكة، فهي بلد غير ذي زرع، ولكن الله مَنَّ عليهم بأن جلب لهم الأرزاق من كل مكان فصار يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان، وهي دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٢) [البقرة: ١٢٦].

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾: يحتمل آمنهم من خوف ألـمَّ بهم كانوا عليه، وأقرب مثال مذكور قصة أصحاب الفيل، فأهل مكة خافوا منهم، وخرجوا إلى شَعَف الجبال.

أو يكون المعنى: آمنهم من خوفٍ كانوا خليقين به؛ لأنه لم يكن عندهم مَنَعَةٌ ولا سلاح؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فالقبائل العربية كانت تتناحر فيما بينها، ويحارب بعضها بعضًا، وهذا البلد آمن، وهذه دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، فاستجاب الله دعاءه، وجعل البلد آمنًا(٣).

وهنا لفتات لطيفة في الآية الكريمة:

١- الإشارة إلى أهمية الأمن والطعام في حياة الفرد والجماعة، وهذه من الحاجات الفطرية الضرورية التي ركّب في الإنسان حاجته إليها، فالإنسان إذا جاع لن يفكِّر بشكل صحيح، ولن يعبد ربه كما ينبغي، ولن يتعلم، ولن يعمل، فالجوع يجعل الإنسان منقطعًا عن الخير الديني والدنيوي، وربما تجرَّأ على أن

---

(١) ينظر: «حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (١/ ٣٩٩)، (٨/ ٣٩٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٣)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦١).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٦٦)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٤٩)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٠٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٣)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، والمصادر السابقة.

يكذب ويسرق، كما قال النبي ﷺ: «**إن الرجلَ إذا غَرِمَ**- يعني: صار عليه دينٌ- **حدَّث فكذبَ، ووعدَ فأخلفَ**»(١).

وقد جعل الجوع والخوف عقوبةً للأمم المذنبة، كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. فالجوع والخوف قد يحيط بالإنسان مثل اللِّباس، ويحول بينه وبين مصالح الدنيا والآخرة.

والاستقرار الذي يفضي إلى الحصول على الحاجات الضرورية، هو أصل لنمو الخير، وتحقق المصالح، وبالعكس من ذلك، فإن الحروب الأهلية مثلًا، والقلق وزوال الأمن واشتداد الجوع من العوائق والعوارض التي تحول بين الناس وبين مصالح الدنيا والآخرة، ففي البلد الذي يشيع فيه الخوف أو الفقر لا تطمع أن يكون أهله على مستوى مقنع من العلم والعمل والأخلاق والتفكير.

وكثير من بلاد الإسلام مبتلاة بأحد الأمرين، إما أن يكون فيها الفقر، فتجد مئات الملايين فقراء، مع أنها قد تكون بلادًا نفطية، كنيجيريا وغيرها؛ وفقرها بسبب سوء التنظيم، وسوء توزيع الثروة، وإما أن تُصاب بالخوف، بسبب الحروب الأهلية.

ومن المحزن أن ثمانية وعشرين من بين ثلاثين نزاعًا عالميًّا موجودة في البلاد الإسلامية، ولا نقول: إن هذا بسبب كيد أعدائنا فحسب؛ فنحن غير سالمين من التَّبِعات، وليس كل ما ينزل بنا بسبب عدونا، وعدونا سيصنع، ولكن كما قال الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فلو كنا على قدرٍ من الاستقامة لما استطاع الأعداء أن يوجدوا بيننا الحروب والصراعات.

(١) أخرجه البخاري» (٢٣٩٧)، ومسلم (٥٨٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢- أن الآية ليست خاصة بقريش، كما أنها ليست خاصة بما قبل النبوة، أو وقت النبوة، فها نحن اليوم بعد (١٤٠٠) سنة، نقرأ السورة ونجد فيها أن الله ينعم على البلد الحرام وما حوله بالأمن، والطعام، ثم تأتي الدعوة للعبادة، بأن توظَّف هذه النعم لطاعة رب هذا البيت، وطاعة نبيه ﷺ، ونشر دينه، والإحسان إلى عباده: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[القصص: ١٧]. وكل مخاطب يرى البيت المشار إليه عيانًا أو عبر الشاشات المباشرة.

فعلى الأمة أن تحقِّق التواصل مع الأمم الأخرى وتألفهم، مع حفاظها على هويتها وثقافتها، من أجل أن تقدم لها الصورة الصحيحة للإسلام، وتبحث عن مصالحها الدينية والدنيوية في كل مكان.

❍ ❍ ❍

سُورَةُ الماعُونِ

*** تسمية السورة:**

لهذه السورة أسماء عديدة، والمشهور في غالب كتب التفسير والمصاحف:

«**سورة الماعون**»[(١)]؛ وذلك لذكر الماعون في آخرها.

و«**سورة** ﴿أَرَءَيْتَ﴾». ورد ذلك في «صحيح البخاري»، وبعض كتب التفسير[(٢)]، باعتبار أول لفظ فيها.

و«**سورة الدِّين**»[(٣)]؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾.

و«**سورة اليتيم**»[(٤)]؛ لذكره فيها.

وبعضهم سمَّاها: «**سورة التكذيب**»[(٥)]؛ لقوله تعالى: ﴿يُكَذِّبُ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٥)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٧)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٦)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٣)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٧)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٣) ينظر: «اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥١١)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٢٧٥)، و«الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٤) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٦١١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤٠١)، و«نيل المرام من تفسير آيات الأحكام» (ص٤٦٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٥) ينظر: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

❊ **عدد آياتها:** ست آيات، باعتبار أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾، ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ آية واحدة، وبعضهم يفصلها فيجعلها آيتين، فتصبح سبعًا، كما هو في المصاحف اليوم(١).

❊ **وهي مكية** على قول جمهور المفسرين. وقال ابن عطية: «مكية بلا خلاف علمته»(٢).

وقيل: نزلت بالمدينة، وهو قول قتادة(٣).

وقيل: نزل بمكة الآيات الثلاث الأول، والباقي نزل بالمدينة، وهو مروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، واختاره بعض المصنِّفين في التفسير(٤).

❊ **سبب نزولها: قال بعضهم:** إنها نزلت في أبي سفيان، وكان كريمًا ينحر في كل أسبوع ناقة، ويوزِّعها على الناس، فجاءه يتيم يطلب منه لحمًا أو غيره فقرعه بعصا(٥).

وقيل: نزلت في العاص بن وائل، **وقيل:** في الوليد بن المغيرة، **وقيل:** في أبي جهل، ولأبي جهل قصة ذكرها ابن هشام وغيره من أهل السير، وهي قصته مع الأَرَاشي، حيث أخذ ماله، ورفض أن يعطيه حقه، فقيل له: استشفع إلى أبي جهل بمحمد ﷺ، وهو لا يدري ما بينه وبينه، فأخذ الأمر على التصديق، فذهب إلى

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٩)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٦٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٧)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٤) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٨٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٣).

(٥) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٥٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٢٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦).

النبي ﷺ، فجاء النبيُّ ﷺ إلى أبي جهل، واستخرج للرجل حقه، فقالوا لأبي جهل في ذلك، فقال: والله، لقد رأيتُ شيئًا وهولًا بيني وبينه. فأصابه رعب وأعطى الرجل حقه![1].

وقيل: إن السورة عامة، وإنها لم تنزل في شأن أحد بعينه، وإنما نزلت فيمَن كان هذا حاله.

* ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾:

هذا استفهام على سبيل التعجُّب، فهو تعالى يريد إثارة العجب والدهشة ممَن يتصف بصفات معينة، فهو حديث عن فئة من الناس تعيش بين أظهرنا، ونخالطها، ويُراد منا أن نلتفت ونتفطن لبعض مواطن الغرابة في حياتها وسلوكها!

وهذه الرؤية قد تكون بصرية؛ لأنهم أناس نشاهدهم ونراهم، وربما كانت علمية؛ وهي في الحالين تتعلق بأمر محسوس مشاهد.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ خطاب عام لكل مَن يصلح له الخطاب.

ويحتمل أن يكون المقصود ﴿بِٱلدِّينِ﴾: الإسلام، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويحتمل أن يكون المقصود: الجزاء والحساب، وهذا كثير الورود في القرآن، كما في قوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧- ١٨]، فالغالب أن كلمة «الدين» في القرآن يقصد بها الدينونة[2]، ويقال: كما تَدِين تُدان. أي: كما تفعل تُجازى.

وفي هذا إشارة إلى أثر الوازع الإيماني في القلوب، وأن الإيمان بالدار الآخرة

---

(١) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (٤/ ١٧٦)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٣٣- ٢٣٥)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (١/ ١٩٦- ١٩٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٩٣- ١٩٤)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٥)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦)، و«مع المصطفى ﷺ» للمؤلِّف (ص٢٨٥- ٢٨٧).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة المعارج»: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦﴾، و«سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾.

من أعظم الأركان؛ ولهذا قال تعالى عن أنبيائه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ [ص: ٤٦- ٤٧]، فثَمَّ فرق جوهري بين إنسان يعيش في هذه الدنيا وهو مستيقن بالجزاء على الأعمال يوم القيامة، وآخر يرى أَلَّا بعث ولا نشور ولا جزاء ولا حساب؛ ولذا فحساباته تنتهي عند آخر لحظة في الدنيا.

والإيمان بالبعث والنشور والحساب يحمل الإنسان على مراعاة حقوق الخلق، ولذا قرن هنا التكذيب بدعِّ اليتيم، وترك الحض على طعام المسكين.

فأعظم ضمانة لحفظ حقوق الناس وعدم ظلمهم والإحسان إليهم هي الإيمان بالدار الآخرة؛ فالمؤمن يتعب في جمع المال ثم يُخرج منه حقه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤- ٢٥]؛ لأنه يرجو الثواب في الآخرة، ولو لم يجد أثره وثمرته في الدنيا.

والتكذيب في القلب، والسورة تكشف عن العلامات الظاهرة في الأحوال والأخلاق والمعاملات التي تطبع أولئك المكذِّبين.

وقال بعض المفسرين: إن الفاء في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾، واقعة في جواب شرط محذوف، وكأن التقدير: إن كنت تريد أن تعرفه، فهو ﴿ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢﴾، فتركيز السورة ليس على التكذيب بيوم الدين، مع أنه أعظم الفجور والكفر؛ بل على ذكر أخلاق اجتماعية فاسدة منحرفة، وتعليلها بأنها لا تصدر إلا من أقوام خلت قلوبهم من الإيمان.

وهل كان أولئك الطغاة المتجاهلون للحقوق الإنسانية مكذِّبين أم كانوا جاحدين؟

يحتمل أن أحدهم يكذِّب بلسانه، ولا يقيم للدين وزنًا في حياته، كشأن غالب البشر اليوم الذين لا يقيمون للدين وزنًا، ولكنهم يجرون على ألسنتهم كلمات التكذيب أو الشك أو اللامبالاة.

والكفار أنواع، والله تعالى وصف كل نوع منهم بصفته، **فمن الكفار مَن لا**

يؤمن بيوم الدين، ويكذِّب به ظاهرًا وباطنًا.

ومنهم مَن يقر بقلبه ويجحد بلسانه، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وكما في الآية الأخرى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ومنهم مَن يقع عنده شك وتردُّد.

ومنهم الغافل، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]، فيكون غافلًا عن قضية الدِّين أصلًا، بانشغاله بهموم وظيفته وتأمين مستقبله.

❁ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾:

﴿يَدُعُّ﴾ فعل مضارع يدل على الاستمرار، حتى صار طبعًا يُعرف به.

والمعنى: يدفعه دفعًا عنيفًا[1]، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، أي: يُدفعون إليها بقوة وشدة، والمعنى: يدفع اليتيم بالضرب، ولا يرفق به، ولا يراعي إحساسه ويتمه، أو يدفعه عن حقه إذا جاء يطالب به؛ لأنه يراه ضعيفًا لا أحد يحامي عنه، وهذه غاية الخساسة والأَثَرة.

واليتيم هو: صغير السن الذي فقد أباه، وقد يستمر اليتم إلى حال استغنائه عن الناس[2]، ومن هنا جاء الوعيد على زجره وتعنيفه وقهره، وهو لأجل يتمه يتجرَّأ عليه كثير من الناس ويؤذونه ولا يبالون به؛ لأنه ليس له والد يدافع عنه.

❁ ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾:

﴿يَحُضُّ﴾ فعل مضارع يدل على التكرار، وهذه الصفة ترك وليست فعلًا.

والحضُّ هو: الحث؛ لكنه بالضاد أقوى، فحرف الضاد أشد من الثاء، واختيار

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٩)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٢٦)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٥١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١١).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص٣١٤- ٣١٥) «د ع»، و«إعراب القرآن» لِقَوام السُّنَّة (ص٥٥٥).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الفجر»: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾.

الحرف في القرآن الكريم له دلالة وله معنى[1].

ويشبه سياق الآيتين هنا ما جاء في «سورة الفجر» في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾.

والكلام ليس عن شخص بعينه، وإنما عن فئة من الناس، فهذا لا يحض هذا، وهذا لا يحض هذا، فمن ذلك يتولَّد أنهم لا يتحاضون على طعام المسكين، فهو لا يحض نفسه ولا يحض غيره.

وقد يكون السياق يتعلق بإنسان غير واجد، ليس عنده ما يقدِّمه من مال أو طعام، ولكن قادر على أن يحض غيره على ما عجز هو عنه، كما قال المُتَنَبِّي[2]:

لا خيلَ عندَكَ تُهديها ولا مالُ فليُسعِدُ النطقُ إن لم تُسْعِدِ الحالُ

ويسوِّغ أن يلام الإنسان إذا لم يكن بالذي يُطعم، ولا هو بالذي يَحُضُّ على الإطعام، وهذا تقبيح لحال الذي لا يحض، فما بالك إن كان عنده مال، ولا يحض نفسه على إطعام المحتاج؟

والشريعة والحكمة تستحثُّ المكلَّف القادر أن يبذل ما يستطيع، إن كان ذا مال أخرج من ماله، وإلا كان في جهده وعطائه المعنوي وحثه للناس ومشاركتهم في الأعمال الطوعية الخيرية، ما يجعله باب خير وبر، فربما شارك بعقله وتخطيطه وابتكاره للبرامج والطرائق التي تضبط هذا العمل وتطوِّره.

فوصفهم تعالى أولًا بـ«التكذيب»، وهو أمر اعتقادي، ثم وصفهم بـ«دَعِّ اليتيم»، وهو أمر وجودي فعلي، وهو أنهم يضربون اليتيم ويدفعونه، ثم وصفهم بأمر تركي أو منعي، وهو أنهم «لا يحضُّون على طعام المسكين»، فهذه الصفة ليست موجودة فيهم، وكان يجب أن تكون فيهم.

والإنسان قد يندفع إلى الإحسان للخلق بسبب فطري جِبلِّي يعود إلى طبيعته

(١) ينظر: «تفسير القرطبي» (٢٠/ ٥٣)، و«فتح القدير» (٥/ ٥٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) ينظر: «ديوان المتنبي» (ص٤٨٦)، و«شرحه» المنسوب إلى أبي البقاء العكبري (٣/ ٢٧٦).

وسجيته الكريمة، والمؤمن يُثاب على فعل الإحسان حتى لو لم تحضره نية؛ تحفيزًا للناس إلى المبادرة للخير وعدم التردد.

وقد يفعل المعروف احتسابًا يرجو به خير الله تعالى وبره في الدنيا والآخرة، فهو يعرف أن مَن أحسن إلى الناس أحسن اللهُ إليه، فيبادر ببر الوالدين، وصلة الرحم، وطلب ثواب الآخرة ظاهر(١).

وهل طلب خير الدنيا من سعة الرزق والنَّسأ في الأثر والصحة، مما يعكِّر على حسن النية، أو يُعَدُّ من إرادة الإنسان بعمله الدنيا؟

كلا، فالنبي ﷺ قال: «**مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رزقه ويُنسأَ له في أَثَرِه، فليَصِلْ رحمه**»(٢). من باب حث الناس على أن يصلوا أرحامهم؛ لأنهم يرغبون في طول العمر، وفي سعة الرزق، وهذا ليس بمذموم في حد ذاته، وإنما هو من عاجل البشرى.

وكذلك الحياة الطيبة الموعودة لـمَن عمل الصالحات، والسعادة والسكينة، وسائر ما ورد في الكتاب والسنة من عاجل الثواب.

وأفضل الناس حالًا مَن توفَّر عنده الدافع الفطري والشرعي، فهو كالأرض الطيبة التي نزل عليها المطر فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بَهِيج؛ لأن الدافع الفطري يحمله على هذا، فصار من طبعه لا يحتاج فيه إلى تكلُّف، فجاءت الشريعة وزكَّتْ نفسَه وكمَّلتها.

وأسوأ الناس حالًا «المُفْلِس» من الدافعين، فلا فطرة سليمة تدفعه إلى الخير، ولا رغبة في الآخرة!

و﴿ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ هو: المحتاج الذي لا يجد ما يكفي نفقته ونفقة مَن يعول، ويدخل فيه الفقير، وقد يكون اليتيم مسكينًا، وقد لا يكون كذلك، وكذلك

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة الملك»: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾، و«سورة الإنسان»: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المسكين قد يكون يتيمًا وقد يكون كبيرًا.

وهذه الآيات الثلاث دعوة إلى مراعاة الجانب الاجتماعي، وهو من أعظم مقاصد الشريعة، ومن العلامات الفارقة بين المؤمنين والمكذبين.

إن من الخطأ الكبير الانهماك في جانب من الشريعة أو الدين، والغفلة عن جوانب أخرى، مثل هذا الجانب الذي تعتني به هذه السورة، وهو الجانب الاجتماعي الخيري، وما يسمى بـ«النفع العام»، يفعله أفراد أو مؤسسات وجمعيات، فهذا الخير بسببه تُحفظ المجتمعات، ويدرأ سبحانه عنها الفتن والشر والبلاء بما تقدِّمه من النفع والخير والإحسان.

ومن العجب أن أكثر المسلمين الذين يردِّدون هذه الآيات في صلواتهم وحلقات درسهم ويلقِّنونها صبيانهم، من أبعد الناس عن تحقيق دلالتها، وليس بالأمر النادر أن نجد مجتمعات نفطية واسعة الثراء، ومدنًا ومباني شاهقات وسيارات فخمة غالية الأثمان، وبالقرب منها أحياء شعبية تدخلها فتجد فيها ألوانًا من الفقر وشَظَف العيش، وتنتشر فيها الجرائم والمخدرات والسرقات، وكل ذلك بسبب الفقر الذي كاد أن يكون كُفْرًا[1]، ويُروى عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته».

والعجب أن هذه الآيات نزلت في مكة، وأغلب الناس يومئذ كانوا كفارًا، ولم يكن آمن بالرسول ﷺ إلا قليل، ولم يكونوا يجدون المال، وكأنما نزلت السورة لتهيئ نفوسهم للبذل، وترسِّخ الربط بين الإيمان وبين نداوة اليد للفقير والمسكين.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**بينما رجلٌ يمشي بطريق، اشتدَّ عليه العطشُ، فوجد بئرًا، فنزلَ فيها، فشربَ ثم خرجَ، فإذا كلبٌ يلهثُ، يأكلُ الثَّرَى من العطش، فقال الرجلُ: لقد بلغَ هذا الكلبَ من العطش مثل**

(١) وهذا رُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «السلسلة الضعيفة» (٤٠٨٠).

الذي كان بلغَ مني. فنزلَ البئرَ فملأ خفَّه ماءً، ثم أمسكه بفِيهِ حتى رَقِيَ، فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له، فغفرَ له». قالوا: يا رسولَ الله، وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: «**في كلِّ كبد رَطْبة أجرٌ**»(١).

وفي حديثه الآخر: «**بينما كلبٌ يُطيفُ برَكيَّة(٢)، قد كاد يقتله العطشُ، إذ رأته بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فنزعت مُوقَها(٣)، فاستقت له به، فسقته إياه، فغُفر لها به**»(٤).

بعض الأخيار يقول: أُحسن لهذا الكافر من أجل أن يُسلم. وهذا حسن، وهو من تأليف القلوب، الذي هو أحد مخارج الزكاة.

والمؤلَّفة قلوبهم أربعة أنواع(٥):

١- الكافر الذي يُرجى إسلامه.

٢- الكافر الذي يُرجى إسلام قبيله أو نظيره أو قريبه.

٣- المسلم الجديد الذي يُرجى بإعطائه الزكاة أن يحسن إسلامه.

٤- الكافر الذي يُرجى أن يدفع شره، أو يكون سببًا في دفع شر غيره عن المسلمين.

ولا يدخل في عداد هؤلاء: المحارب؛ لإظهاره العداوة للإسلام.

ولكن الكرم والجود والبذل لا يحسن أن يكون محصورًا في هذا، بل ينبغي أن يكون طبعًا وجِبلَّة، تفيض حتى على مَن لا ترجو من وراء عطائه نفعًا عاجلًا؛ ولذا شُرع الإحسان إلى البهائم والطيور، وجاء النص النبوي عامًّا في حصول الأجر في كل كبد رَطْبة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٩)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٢) أي: يدور حول بئر.

(٣) المُوق: الخف.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٥) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (٣/ ٢٨٢- ٢٨٦).

* ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾:

ثَمَّ ترابط بين الآيات من وجوه:

١- لما ذكر في أول السورة تقصير أولئك في حق المخلوقين من الأيتام والمساكين، انتقل إلى تقصيرهم في حق الخالق، وهو أنهم لا يصلون، أو يصلون رياءً، ويمنعون الماعون.

٢- أن الله تعالى أراد توكيد المعنى، والربط بين الإيمان والإحسان، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والمصلون وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢﴾، ثم ساق أوصاف المصلِّين، ومنها: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٥].

فهؤلاء هم المصلُّون حقيقةً، فكأنه قال هنا: إن صلاة هؤلاء لم تنفعهم؛ لأنها صلاة رياء وسُمعة للناس لا لله.

٣- قد تكون الآيات الأخيرة نزلت بشأن أقوام معينين في المدينة على ما ذكرنا، وكأن الآيات الأولى تدل على أن عدم الإيمان بيوم الدين هو سبب إيذاء اليتامى والمساكين وغيرهم، فكأن قائلًا يقول: في المدينة أناس يصلون في المساجد، ولا يطعمون المساكين، ولا يحسنون إليهم، فجاء النص ليقول: «ويل لهم»؛ لأنهم ليسوا مصلِّين؛ فهم: ﴿يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾، وكان يجب أن تكون صلاتهم لله، فحرَّفوها وبدَّلوها وجعلوها للناس، كما قال الله في شأن المنافقين: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢].

٤- التناسب في الانتقال من المفرد إلى الجمع في خطاب السورة، حيث بدأ بـ﴿ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، وانتهى بـ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ﴾.

والذي يظهر أن سر الانتقال إلى الجمع، أن المراد في بداية السورة جنس المكذِّبين، وليس فردًا بعينه، والإفراد في أول السورة مناسب؛ لأن الآية تتحدَّث

عن شخص يفجر ويعتدي ويبخس الناس أشياءهم وهو منفرد، وليس أمام الناس؛ هو الذي يعبِّر عن حقيقة أخلاقه إذا خلا من مراعاة الآخرين.

ثم انتقل إلى طبيعته وأمثاله حين يكونون في الملأ والناس، فيتظاهرون بما ليس من شأنهم!

قال كثير من القراء: لا يقف القارئ عند قوله: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ مع أنه رأس آية، ومنهم مَن قال: إن وقف عندها أعادها وقرن معها ما بعدها[(١)].

* ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾:

السهو: الغفلة والنسيان[(٢)]، وقال هنا: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل: «في صلاتهم»، وبينهما فرق كبير؛ **فالسهو في الصلاة**، هو ما يقع فيها من شرود ذهني أو خطأ، يجبره سجود السهو، أما **السهو عن الصلاة**، فهو تأخير الصلاة عن وقتها، أو تعمُّد ترك بعض الفرائض أو كلها من أجل شواغل الدنيا، أو لقلة الاهتمام، أو لعدم الاعتياد.

وقال قتادة: «لا يبالي أصلَّى، أم لم يصلِّ!»[(٣)].

وقال الشيخ محمد عبده: «فأولئك الذين يصلُّون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يُرى للناس، مما لا يكلِّفهم بذل شيء من مالهم، ولا يخشون منه ضررًا يلحق بأبدانهم، أو نقصًا يلم بجاههم، ثم يمنعون ماعونهم، ولا ينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجة المعوزين، وتوفير ما يكفل لهم راحتهم، وأمنهم وطمأنينتهم؛

---

(١) ينظر: «المكتفى في الوقف والابتدا» (ص١٥)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠)، و«التمهيد في علم التجويد» (ص١٧٥)، و«النشر في القراءات العشر» (١/ ٢٢٩- ٢٣٠)، و«الإتقان» (١/ ٢٩٢)، و«هداية القاري إلى تجويد كلام الباري» (ص٣٨٨).

(٢) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٠/ ٤٣٣)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٢٨١)، و«زاد المسير» (٤/ ١٦٨)، و«فتح القدير» (٥/ ١٠٠).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٥٩- ٦٦٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٠٥)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٥- ٤٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٧).

فهؤلاء لا تنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم عن حد المكذِّبين بالدين، ولا فرق بين مَن وسموا أنفسهم بسمة الإسلام أو غيره، فإن حكم الله واحد، لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة... إلخ»[1].

وفي كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ شدة وغلظة ومبالغة مفرطة، وقد وجدتُ له نظيرًا في كتبه، ففي أكثر من موضع يأتي في «تفسيره» بعبارات شديدة في حق العصاة والمخالفين، ومثل هذا الكلام موجود في كتابات بعض الدُّعاة، كالأستاذ سيد قطب، وبعض الناس يظنون أن هذا يدل على تكفيرهم للناس، وفي نظري أن هذه ليست أحكامًا، بل مواعظ يقصد بها الزجر والتحذير والتأثير.

ويُعرف من سير هؤلاء المصلحين أنهم لم يكونوا يكفِّرون المسلمين، بل يمقتون ما هم عليه من التناقض بين الدين الذي ينتسبون إليه، وما يقتضي منهم من مكارم الأخلاق؛ وبين واقعهم الرديء.

* ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾:

قال بعض المفسرين، كالزمخشري: «إن الرياء لا يكون في صلاة الفريضة، وإنما يكون في النافلة»[2].

وهذا غير مسلَّم، وظاهر الآية يدل على أن رياءهم في صلاة الفريضة، ولعلهم منافقون لم يكونوا ينوون الصلاة أصلًا.

والضابط الذي يميِّز الرياء عن غيره: أن المكلَّف إذا كان سيقوم بالعمل، سواء وُجد الناس أم لم يوجدوا، فهو مخلص، ولو طرأ عليه رياء؛ لأن النية استقلت بإحداث العمل، أما إذا كان لن يعمل العمل ما دام الناس غير موجودين، فهذا يدل أنه فعله رياءً ولا يعتدُّ به.

وعلى المصلِّي أن يحذر من الوسوسة والمبالغة والتنطّع، وأن يقطع نظره عن

---

(١) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الماتريدي» (٢/ ٢٦٤)، (٦/ ٣٩٥)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٥)، و«المحرر الوجيز» (١/ ٣٦٥)، و«تفسير القرطبي» (٣/ ٣٣٢)، (٢٠/ ٢١٣).

الناس لا تركًا من أجلهم، ولا فعلًا من أجلهم، وكما قال البعض: «لا تتركها حياءً، ولا تفعلها رياءً».

وبعض طلبة العلم يعانون في هذا الباب، ويفتقدون الاعتدال في مراعاة الناس، وهذا يحتاج إلى تربية عظيمة، في كيفية التعامل مع الناس، حتى لا يبالغ في الاهتمام بهم والعمل من أجلهم، ولا يبالغ في إقصائهم خشية الرِّياء ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

وفي الحديث: «**مَن سمَّعَ سمَّعَ اللهُ به، ومَن راءى راءى اللهُ به**»[١].

فالرِّياء يكون بالعمل الذي يراه الناس، مثل: الرِّياء في الصلاة، والتسميع يكون بالقول، مثل: قراءة القرآن أو الذكر أو الكلام الذي يسمعه الناس.

أو السُّمعة لقصد الشهرة، وقد يصلِّي الإنسان رِياءً وسُمعة، من أجل أن يراه الناس، ولتكون سمعته عند الناس حسنة؛ وليكون كلام الناس فيه حسنًا.

* ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾:

قيل: الماعون هو: الزكاة، كما ذكره جماعة من الصحابة والسلف والأئمة[٢].

وقيل: الماعون المنتفع به في البيوت، مثل القِدْر والفأس والدلو والإبرة والغربال، وكل ما يحتاجه الناس ويتعارفون على إعارته واستعارته[٣].

ولهذا قال العلماء: من الفضل أن يستكثر الإنسان في منزله مما يحتاجه الجيران، ومثله: طالب العلم يأخذ معه الممحاة والمبراة وقلم الرصاص والحبر، وإن لم يكن يحتاج هذا كله، لكن لينتفع به الآخرون.

---

(١) أخرجه البخاري» (٦٤٩٩) من حديث جُندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه مسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٤)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٧١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٣- ٤٦٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٦٧- ٦٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٨٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٦٨).

(٣) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٦)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٢)، والمصادر السابقة.

وهؤلاء الذين توعَّدهم الله جعلوا ما لله مقصودًا به الناس، ولهذا جاءهم الوعيد المذكور، والوعيد ينبغي أن يكون على مجمل الخصال، يعني: لـمَن وُجدت فيه كلها، وفيه مع ذلك تنفير من أفراد هذه الخصال.

وسياق الآيات يبعث في المؤمن الرغبة في عمل الخير، والحرص على أَلَّا يقع في واحدة من الصفات المرذولة التي حذَّر الله تعالى منها، وذكر أنها مَن صفات مَن يكذِّب بيوم الدين، والله أعلم.

سُورَةُ الكَوْثَرِ

*** تسمية السورة:**

الأشهر تسميتها: «**سورة الكوثر**»[1].

وتسمى: «**سورة النَّحْر**»[2].

وسماها البخاري وغيره: «**سورة** ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾»[3].

*** عدد آياتها:** ثلاث آيات بلا خلاف[4]، وهي إحدى أقصر ثلاث سور في كتاب الله تعالى مع «العصر»، و«النصر».

*** وهي مكية**، على قول جمهور المفسرين، وهذا ظاهر سياقها، وجوُّها قريب من جو «سورة العلق» في قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾، وفيها الوعيد والتهديد للكافرين المعاندين للرسول ﷺ، مما يدل على أنها مكية[5].

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٦)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٨٧٣)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٥)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٢) ينظر: «السراج المنير» للخطيب الشربيني (٤/ ٥٩٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٣) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٦)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

(٤) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٢).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣١٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧١).

لكن يُشكل على هذا حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ استيقظ وهو يضحك، فقال: «**أُنْزِلت عليَّ آنفًا سورةٌ**». فقرأ: «﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾». ثم قال ﷺ: «**أتدرون ما الكوثر؟!**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنه نهرٌ وعدَنيه ربي** عَزَّ وَجَلَّ...»(١).

والحديث يدل على أن السورة مدنية- وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة(٢)- لأن الراوي أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأنصار، فإن قيل بتعدُّد النزول فلا إشكال، وإلا فيحتمل أن يكون قوله: «**أُنزلت عليَّ آنفًا**». رواه الراوي بالمعنى، والمقصود أنها أنزلت فيما مضى.

أو يكون المقصود: أنه أُنزل عليه تفسير الكوثر، وأنه نهر في الجنة وعده الله تعالى نبيه ﷺ، وبهذا يزول الإشكال، وتبقى السورة مكية، والحديث صحيح، وهو في بيان معنى الكوثر.

وموضوع السورة قريب من موضوع «سورة الضحى»، و«سورة الشرح»، و«سورة القدر»، وهو تسلية النبي ﷺ.

وفي «سورة الماعون» التي قبلها، توعَّد الله الساهين عن الصلاة بالويل، وفي هذه السورة أوصى نبيه ﷺ بنقيض ذلك، فأوصاه بالصلاة بقوله: ﴿فَصَلِّ﴾، وأوصاه بالإخلاص وعدم الرياء في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾، فالمعنى: صلِّ لربك مريدًا بعملك وجهه تعالى.

وفي مقابل ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قال هنا: ﴿وَٱنْحَرْ﴾؛ لأن النحر يكون لله تعالى، مقصودًا فيه إطعام الفقراء والمساكين من المنحور من بهيمة الأنعام، ففي السورة أمر بما يضاد المذموم في السورة التي قبلها.

* وأول السورة الكريمة هذا الضمير العظيم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ١﴾: وهذا جاء في سور أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:

(١) أخرجه مسلم (٤٠٠).

(٢) ينظر: «زاد المسير» (٤/ ٤٩٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٩٨)، والمصادر السابقة.

١]، والبداءة بهذا الضمير لها دلالة عريقة عميقة.

ابتدئت بلفظ التعظيم والتفخيم والتأكيد: ﴿إِنَّآ﴾، وهي تكون للجمع أو للواحد المعظَّم، وهي خطاب مباشر من الله تعالى للرسول ﷺ، وفيه تعزير وتعظيم للنبي ﷺ؛ لأن عظمة العطية يُنظر إليها من جهة مقام المعطِي العظيم، ولذا يقال: الهدية على قدر مُهْدِيها.

إن كون هذه العطية من الله تعالى مالك الملك لنبيه، هو تشريف لقدره ﷺ.

ومن هنا حوت هذه الآية على قصرها بيان عظمة الـمُعْطِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعظمة العطية أو الهبة، وعظم مقام الموهوب له، فبدأ بالضمير العائد إليه تعالى، ثم ثنَّى بضمير خطاب النبي ﷺ، ثم ثلَّث بالعطية وهي الكوثر.

والغالب في القرآن أن ضمير «نا» يأتي في مقام المنة والمنحة، أو في مقام الأخذ والعذاب، أو في الموضع الذي يكون للملائكة فيه عمل أُوكل إليهم كالحفظ والإنزال ونحوها.

وتأمل كيف قال: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾، ولم يقل: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، مع أنه جاء لفظ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، **فما هو الفرق بين اللفظين؟**

﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ تدل على الملكية والخصوصية، وأما ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ فقد لا تكون في شيء خاص، فمثلًا: إنزال المثاني والقرآن ليس شيئًا خاصًّا بالرسول ﷺ، ولكن واجب عليه بيانها للناس، بخلاف الكوثر ففيه خصوصية.

واختيار لفظ: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ دليل على أن هذه العطية لا يُرجع فيها، والله تعالى أكرم من أن يعود في عطيته، بخلاف الإيتاء؛ فقد يرجع فيه لحكمة، أليس الله تعالى يقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]. فقال: ﴿تُؤۡتِي﴾، ولم يقل: «تعطي»، ثم قال: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾، وتأمل لفظ: «تنزع»، فإنه يدل على الأخذ بشدة، وكأن المنزوع منه متمسك به، ولا يتركه ما استطاع،

لكنه يُنْزع منه بالقوة؛ ولهذا جاء في سنة النبي ﷺ النهي عن الرجوع في العطية والهبة[١].

وتأمل أن الفعل هنا جاء بصيغة الماضي «أعطى»؛ ليدل على أن العطية قد حصلت وتحقَّقت، ولهذا فرح بها النبي ﷺ وسُرَّ؛ فهي عطية منجزة.

ويُروى عن أحد السلف أنه قال: «لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله، وتصغيره، وستره»[٢].

وستره بألَّا تذكره للناس، لكن إعلانه هنا من أحسن ما يكون؛ لأن السورة ذاتها نعمة جديدة، وإعلان العطية هو عز الدنيا والآخرة للنبي الكريم ﷺ.

إن إعلان العطية في سورة تُتلى إلى ما شاء الله تشريف للنبي ﷺ؛ لأن فيها رفعًا لقدره ومقامه عند الملائكة وعند عباد الله الصالحين.

وفيها رفع لمقامه ﷺ في مقابل أولئك الذين ينتقصونه أو يسبونه من المشركين.

فإذا كان الله تعالى أعطاه هذه العطية العظيمة، فماذا يضيره أن يحط من مقامه أو ينال من عرضه مَن لا وزن لهم؟!

وثمة لفتة أخرى مهمة: وهي أن الله تعالى بدأ بالعطية، ثم أمره بالصلاة، **فهل العطية فضل ابتدائي، أو هي جزاء على فعلٍ فعله الرسول ﷺ؟**

الجواب: بل هي فضل ابتدائي، فمن نعمة الله أن أعطاه الكوثر، وقد اصطفاه لهذا الفضل، ثم أمره بالصلاة والنحر على سبيل الشكر.

وكَوْثَر: على وزن: «فوعل»، مثل: كَوْكَب، وزَوْرَق، وجَوْهَر، ودَوْسَر، وهي أسماء جامدة، تدل على الكثرة في الشيء، فدَوْسَر، أي: كثرة في القوة والضخامة[٣].

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٦٢١)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٢).

(٢) ينظر: «اصطناع المعروف» لابن أبي الدنيا (٢٢)، و«المجالسة» (٣/ ٧١) (٦٨٥)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٩٨)، و«شعب الإيمان» (١٠٤٢٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٦٣).

(٣) ينظر: «تهذيب اللغة» (١٢/ ٢٤٩)، و«اللسان» (٤/ ٢٨٥)، و«تاج العروس» (١١/ ٢٩٢).

والكوثر هو: الخير الكثير المفرط في الكثرة، بما لا مزيد عليه. وهذا أعم ما قاله المفسرون، ويدخل فيه كل ما قيل.

وقد قيل فيه أكثر من خمسة عشر قولًا(١)، وصحَّ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «الكوثر: الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه». فقيل لسعيد بن جُبير: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه(٢).

ويظهر أن الذين عبَّروا بأن الكوثر نهر في الجنة قصدوا التفسير بالمثال.

ومن معاني الكوثر: كثرة أولاد النبي ﷺ، وهذا نقيض ما قاله المشركون: إنه أبتر، **والأبتر** هو: مَن لا ولد له، أو لا يعيش أولاده الذكور(٣).

وهذا من نذالتهم؛ لأنهم يلمزونه بما لا يد له فيه، وإنما هو شيء جرى به القدر، لا مجال للتعيير والشماتة بالموت، ولم يكن النبي ﷺ بما جُبل عليه من الـخُلُق العظيم يشمت بموت أعدائه أو موت أقاربهم، بل قال ﷺ في شأن فرعون هذه الأمة أبي جهل: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فتؤذوا الأحياءَ**»(٤). وقال: «**لا تسبُّوا الأمواتَ؛ فإنهم قد أَفْضَوْا إلى ما قدَّموا**»(٥).

فإن قال قائل: قد مات أولاده ﷺ في حياته، فمن أين تندفع هذه الشماتة به ﷺ بأنه أبتر؟

الجواب: إن ذرية النبي ﷺ من السادة الأشراف الذين نسلوا من بناته، كثيرون في الحجاز واليمن وبلاد العرب والهند وسائر أصقاع الأرض، حفظوا أنسابهم وتناسلوا وتكاثروا، في حين لو أردت أن تبحث في ذرية الذين كانوا يعيِّرون النبي

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٧٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٥٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢١٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٧٨).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٦٥٧٨).

(٣) ينظر: «فتح القدير» (٥/ ٦١٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٦)، والمصادر السابقة.

(٤) تقدم تخريجه في أول «سورة الهمزة».

(٥) أخرجه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ﷺ بأنه أبتر، فلن تجد واحدًا ينتسب إليهم، ولا يمكن أن تجد واحدًا يقول: هذا من ذرية أبي لهب مثلًا؛ لأنهم قد اندرسوا واندثروا، وهم الذين كانوا يعيرونه بأنه أبتر ويفخرون بكثرة أبنائهم ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١١- ١٣].

ومن معاني الكوثر: كثرة علماء أمة محمد ﷺ؛ لأن الله تعالى حفظ هذه الأمة بالعلماء، فهم ورثة الأنبياء، وقد وعد نبيه ﷺ بأن يجعل في أمته من أهل العلم والحكمة مَن يحفظ الله تعالى بهم الأمة.

ومن معاني الكوثر: كثرة أتباع النبي ﷺ، وما أكثرهم الآن، على رغم الصعاب التي تواجه الدعوة، ورغم حرب الاستئصال في غير ما مكان، حتى إنك لو رأيت أفواج الحجيج والعمار كالسَّيل المندفع في طرقات مكة وبين المشاعر، لأدركت جانبًا من هذه البشارة، ولو رآهم النبي ﷺ لسُرَّ، ولو رآهم المشركون لعلموا أن وعد الله حق!

ويشمل الكوثر: الخير المعنوي، مثل: أن الله تعالى أعطاه النبوة، وهي خير كثير، وآتاه الإسلام، والقرآن، ورفعة الذكر، كما قيل[1]:

أغرُّ عليه للنبوةِ خاتَمٌ ... من الله من نورٍ يلوحُ ويشهدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسمِه ... إذا قالَ في الخمسِ المؤذنُ: أشهدُ
وشقَّ له من اسمه ليجلَّه ... فذو العرشِ محمودٌ وهذا محمدُ

وبالمناسبة، فإن أكثر اسم ظهر في العالم كله هو اسم نبينا ﷺ، وهذا من رفعة الذكر له، ولا يكاد أحد اليوم في العالم إلا يعرفه، سواءً كان مؤمنًا به أو كافرًا.

ومن الكوثر: فضائل النبي ﷺ المحفوظة، وما أطلعه الله عليه من العلم والحكمة.

وقد كان هذا الخطاب له وهو في مكة مستضعف محارَب، فهي معجزة باقية

(١) ينظر: «ديوان حسان بن ثابت» (١/ ٣٠٦).

أبد الدهر، وهي بشارة وتسلية للنبي ﷺ، وبشارة لأمته في عصره ومن بعده؛ لأن الله تعالى وعدهم بالخير الكثير في الدنيا والآخرة.

أما الخير الكثير في الدنيا، فكما ذكرنا، وأما خير الآخرة، فمنه النهر الذي وعد الله تعالى نبيه ﷺ في الجنة، وقد جاء في الأحاديث ذكر آنيته ولونه وحوافه وغير ذلك من صفاته[1].

ومنه الشفاعة، ومنه الوسيلة، ومنه ما يعلم الله له من الفضيلة.

وقد علم سبحانه أنه سوف تمر بالأمة أزمات ومحن، ففي مكة كان الإسلام محاصَرًا، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كانت الهجرة انفتاحًا وسَعة، ومع ذلك قال النبي ﷺ لهم يومًا: «**أَحْصُوا لي كم يلفظُ الإسلامَ**». فقلنا: يا رسولَ الله، أتخافُ علينا ونحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة؟ قال ﷺ: «**إنكم لا تدرونَ لعلكم أن تُبتلوا**». قال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فابتُلينا، حتى جعل الرجلُ منا لا يصلِّي إلا سرًّا[2].

وفي غزوة الأحزاب زُلزلوا زلزالًا عظيمًا، وكانت عاقبته الفرج والعز، حتى قال النبيُّ ﷺ: «**اليومَ نغزوهم ولا يغزوننا**»[3]. نحن نسير إليهم، وهكذا كان.

ثم جاء موت النبي ﷺ وارتدت قبائل العرب، ثم آمنوا ورجعوا.

ثم جاءت حوادث الخلاف بين المسلمين.

ثم غُزي أهل المدينة واستبيحت المدينة في عهد يزيد بن معاوية.

ثم جاءت أزمات ومحن، والإسلام يتجاوز العقبات التي تعترضه، والناس بحاجة إلى التطمين، وإذا فقدوا الطُّمأنينة وقعوا في يأس وإحباط وقنوط، واليائس لا يعمل شيئًا، وما لم يكن ثَمَّ أمل فلا عمل، كما قيل[4]:

أعلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها ... ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأملِ

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٦٤- ٤٩٦٦، ٦٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٤٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠٩، ٤١١٠) من حديث سليمان بن صُرَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «معجم الأدباء» (٣/ ١١١٢)، و«بغية الطلب في تاريخ حلب» (٦/ ٢٦٩٣)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ١٨٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٥٤) منسوبًا إلى مؤيد الدين الطُّغْرائي.

على المؤمن أن يكون واثقًا من ربه ومن انتصار دينه، ولا يلزم من هذه الثقة أن تدرك بذاتك نصر الله لدينه؛ فهذا ليس بلازم، فقد ينصر الله دينه بغيرك أو بعد موتك، والذي عليك أن تكون متفائلًا بأن الله تعالى سوف يأتي بالفرج، وكما قيل(١):

اشتدِّي أزمةُ تنفرجي ... قد آذنَ ليلُك بالبَلَجِ

وكما قيل(٢):

ولرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ... ذَرْعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استَحْكَمَتْ حَلَقاتها ... فُرِجت وكنتُ أظنُّها لا تفرجُ

وعلى المؤمن حين يواجه عسرة مادية أو مشكلة عائلية أو شخصية أو أزمة صحية، أن يملأ قلبه بالثقة بوعد الله، ويفوِّض الأمر إلى الله، فإن هذا يعطيه قوة ودفعة إلى الأمام، ويعينه على الانعتاق وتجديد الانطلاق.

* ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾:

الأمر بالصلاة تفريع على العطاء، أي: نحن أعطيناك فَصَلِّ، ففي هذا أن الله تعالى أمره بالشيء الذي كان المشركون ينهونه عنه، كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩- ١٠]، ولذلك قال في تلك السورة: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

والعادة أن النعم يأتي عقبها الأمر بالشكر، وهنا لم يقل: «فاشكر»؛ لأن الصلاة جامعة لكل معاني الشكر، **ويقول العلماء: إن الشكر يكون بثلاثة أشياء**(٣):

بالقلب، وذلك بأن يشعر قلبك بالامتنان، وتذكر المنة التي طوق الله بها

---

(١) ينظر: «عنوان الدراية» لأبي العباس الغبريني (ص٣٢٦)، و«تاريخ الإسلام» (٣٥/ ٣٦٠) منسوبًا إلى أبي الفضل يوسف بن محمد، المعروف بابن النحوي.

(٢) ينظر: «ديوان الشافعي» (ص٢٩).

(٣) ينظر: «تنبيه الغافلين» للسمرقندي (ص٤٤٨)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٤٦١)، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص١٩٨)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٨١)، و«تفسير الرازي» (٥/ ١٩١)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٧٧)، و«مجموع الفتاوى» (١١/ ١٣٥)، و«عدة الصابرين» (ص١٤٩)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٢٣٧).

عنقك في خلقك ورزقك وسمعك وبصرك.

وباللِّسان، بأن تلهج بالشكر بلسانك، كما قال الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وبالجوارح، وذلك بالعمل وحسن توظيف النعم.

يقول الشاعر(١):

أفادتْكُم النَّعماءُ مني ثلاثةً: يدي ولساني والضميرَ المحجَّبا

والصلاة تتضمن ذلك كله، ولهذا جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، فقالت عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسولَ الله، أتصنعُ هذا وقد غُفر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟! فقال: «**يا عائشةُ، أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**»(٢).

فالصلاة شكر، بل هي رأس الشكر، وهكذا تأسَّى النبي ﷺ بإخوانه من المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كنوح الذي وصفه ربه بأنه كان عبدًا شكورًا، وداود الذي أمره ربه أن يعمل شكرًا.

وهنا أتى باللام؛ واللام هي سر الإخلاص؛ لأن معناها: لا تصلِّ كما يصلِّي المشركون لآلهتهم، وإنما صلِّ لربك موحِّدًا له، ولا تكن مرائيًا، كأولئك الذين يراءون ويمنعون الماعون.

وهي صيغة قصر، يعني: أن تكون صلاتك مقصورة على ربك؛ بحيث لا تصلِّي إلا لربك.

ولم يقل: «فصلِّ لنا»، أو: «فصلِّ لله»، أو: «لي»، وإنما قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ إشارة للاسم المناسب لموضوع الصلاة، وهو أن الصلاة عبودية، والعبودية

---

(١) ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (١/ ٣٤٦)، و«الكشاف» (١/ ٨)، و«ربيع الأبرار» (٥/ ٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨٢٠). وينظر ما تقدم في «سورة المزمل»: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾.

اللائق فيها اسم «الرب» الذي يعبده الناس.

وفيه إيماء إلى رعاية الله تعالى وحفظه؛ لأنه «ربك» الذي رباك في الماضي، وتعاهدك، وأعطاك الكوثر.

والعادة في القرآن أن الصلاة لا تكاد تُذكر إلا مقرونة بالزكاة، وهنا تذكر الصلاة مقرونة بالنحر، **فلماذا عدل عن «الزكاة» واختار «النحر»**؟

لعل ذلك؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يكن يملك مالًا تجب فيه الزكاة، وكان إذا حصل على شيء ينفقه في الحال.

ولذا فإنك لا تقرأ في سيرة النبي ﷺ أنه أخرج زكاة؛ لأنه لم يكن عنده مال يحول عليه الحول فيزكِّيه، وإنما كان يدخر لأهله قوت سنة(١)، ومثل هذا لا يزكَّى؛ لأنه قوتٌ من تمر أو شَعِير أو بُر، وأما النقد فكان يتصدَّق به فورًا، حتى إنه صلَّى العصر يومًا، ثم قام مسرعًا إلى بيته، فلما رجع سأله الناسُ، فقال: «**ذكرتُ شيئًا من تِبْرٍ عندنا، فكرهتُ أن يحبسني، فأمرتُ بِقسمته**»(٢).

وقد أَهْدَى النبي ﷺ في حجة الوداع مائة بدنة، نحر منها ثلاثًا وستين بيده، وأمر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فنحر ما بقي منها(٣).

والنَّحر نوع خاص من الذبح، وهو للإبل، حيث تُنحر قائمة معقولة يدها اليسرى، تُطْعَنُ في لَبَّتِها(٤) فتسقط، بخلاف الذبح؛ فإنه يكون للغنم والبقر.

والنحر يُطلق ويقصد به مطلق القُربان، ولذلك يُسمى يوم العيد: يوم النحر، مع أن من الناس مَن ينحر ومنهم مَن يذبح، وما يُذبح فيه من الغنم أكثر مما يُنحر من الإبل، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ يشمل الأمرين معًا.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨٥١) من حديث عقبة بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. **والتِّبْر**: الذهب.

(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٧٤، ٢٣٥٩، ١٤٥٤٩)، و«صحيح البخاري» (١٧١٨)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«جامع الترمذي» (٨١٥)، و«سنن ابن ماجه» (٣٠٧٦).

(٤) **اللَّبَّة**: وسط الصدر والمنحر. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٧٣٣)، و«تاج العروس» (٤/ ١٨٩) «ل ب ب».

ومن أهل العلم مَن احتج بهذه الآية على وجوب الأُضحية، وهو قول الحنفية؛ لأن الله تعال أمر بها نبيه ﷺ.

وذهب كثير من الفقهاء والمفسرين- وهو مروي عن الإمام مالك- إلى أن المقصود بالصلاة: صلاة عيد الأضحى، أي: فصل صلاة العيد ثم انحر، وهذا وجه جيد، ولا يلزم قصر الآية عليه، فالآية دليل على مشروعية صلاة العيد، ومشروعية الأضاحي.

والراجح أنها لا تدل على وجوب صلاة العيد، ولا وجوب الأضحية، والوجوب يفتقر إلى دليل آخر، وغاية ما فيها الأمر بمطلق الصلاة ومطلق النحر(١).

كما استدلوا بهذه الآية على أن النحر يكون بعد الصلاة، وكان النبي ﷺ يأمر أصحابه أَلَّا ينحروا إلا بعد صلاة العيد، ولما جاءه أبو بُردة بن نِيَار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخبره أنه ذبح قبل الصلاة، قال له: «**شاتُك شاةُ لحم**». وأمره أن يذبح بدلها أخرى(٢).

وقد خاطب اللهُ نبيَّه ﷺ بهذه الآية، مع أنه كان هو وأصحابه في مكة فقراء جياعًا خائفين، وفيه تأكيد على أنه سيعطيهم من الخير العميم ما تتغير به أحوالهم من الضيق إلى السعة ومن الفقر إلى الغنى.

وفيه تأكيد على عز الدين وأهله، فما أمره أن يصلِّي لربه وينحر، إلا وقد تعهد له ولأصحابه أنه سوف يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، فيعبدونه، ويصلون وينحرون ولا يشركون به شيئًا.

* ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ٣﴾:

والشانئ: المبغض(٣)، كما قال الله: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا**

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٩٣- ٦٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣١٨)، و«فتح القدير» (٥/ ٦١٤- ٦١٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨١)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤١٢- ٤١٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٤٩٥- ٤٩٧)، (٤/ ٣٧١- ٣٧٣).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٩٥٥)، و«صحيح مسلم» (١٩٦١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٦٩٧)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٣٠)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٥٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٠)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٧).

تَعۡدِلُواْ﴾ [المائدة: ٨].

والأَبْتر: المقطوع[1]، يقال: بُتر العضو، أي: قُطع، **والبتراء هي**: الركعة الواحدة؛ لأنها مقطوعة عما بعدها، وهكذا هو الأَبْتر مَن لا يأتيه أولاد ذكور، أو مَن يموت أولاده الذكور[2].

ومن هنا جاء في بعض الروايات[3] أن بعض المشركين في مكة- **قيل**: أبو جهل، **وقيل**: العاص بن وائل السهمي، **وقيل**: عُتبة بن رَبيعة، **وقيل**: أبو لهب- كانوا يعيِّرون النبي ﷺ بذلك، فرد سبحانه بأن مبغضك وقاليك وكارهك هو الأبتر، وليس أنت كما يدَّعي.

ومن شرف مقام النبي ﷺ أن تولَّى الله عَزَّوَجَلَّ الدفاع عنه بما لم يكن النبي يعلمه، ولا يملك أن يقوله، وإذا كان هؤلاء يسبُّون النبي ﷺ وينتقصونه؛ فماذا يضيره إذا كان ربه تبارك وتعالى هو الذي يسليه ويدافع عنه؟ وأبدل الله الحزن والألم الذي كانوا يسعون في تسبيبه لرسول الله ﷺ بأن جعل هذا العطاء الجَزْلَ مسوقًا بمناسبة الكلام الذي قالوه، فجعل الله عاقبته خيرًا، **﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾** [النساء: ١٩].

وفي وصف العدو بالشانئ دليل على أنه لم يتحقق من كيدهم إلا بغض قلوبهم له؛ لأن الله تعالى يدافع عنه، وقد قيض أبا طالب في أول البعثة يدافع عنه، وكان يقول[4]:

والله لـن يصِلـوا إليـك بجَمْعِهـم ... حتـى أُوسَّـدَ فـي التـراب دفِينَـا

ثم لما مات أبو طالب قيَّض له في المدينة الأنصار والمهاجرين، ثم حمى الله

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٣٨٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٦)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٤/ ٣٧)، و«تاج العروس» (١٠/ ٩٧) «ب ت ر».

(٣) ينظر: «سيرة ابن إسحاق» (ص٢٤٥، ٢٧٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٦٩).

(٤) ينظر: «ديوان أبي طالب» (ص٩١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، و«ثمرات الأوراق» (٢/ ٤)، و«سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٣٢٧).

سبحانه دينه، ونصره وأعلاه على الأديان الأخرى.

والمبغضون حالهم كما قال ابن حزم في بعض قصائده(١):

قالوا: تحفَّظْ فإن الناسَ قد كثُرَتْ ... أَقْوالُهم، وأقاويلُ الورَى مِحَنُ
فقلتُ: هل عيبُهم لي غيرَ أنِّيَ لا ... أقولُ بالرأي؛ إذ في رأيهم فِتَنُ
وأنَّني مُوْلَعٌ بالنصِّ لستُ إلى ... سواهُ أنحو ولا في نصرِه أَهِنُ
دعهم يعضُّوا على صُمِّ الحَصَى كَمَدًا ... مَن ماتَ من قوله عندي له كفنُ

أخذ هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩]، وهنا قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، فليس له إلا مجرد البغض الذي يحمله في قلبه، ولذلك قالوا: «لله در الحسد؛ ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله».

وفي أعقاب أحداث سبتمبر قامت في الولايات المتحدة الأمريكية حملة ضارية على النبي ﷺ:

فـ(جيري فالويل) له برنامج تلفزيوني، وستة ملايين أسرة تستقبل البرنامج وتتأثر به! وعنده جامعة أصولية، وله موقع على الإنترنت، يقول في قناة فوكس عن النبي ﷺ: إنه إرهابي! ورجل عنف! ودموي! وإن كانوا قد نقلوا عنه أنه اعتذر بعد ذلك.

وكذلك (بات روبرتسون) له برنامج تلفزيوني شهير اسمه: نادي السبعمائة، تكلم عن النبي ﷺ ووصفه بأنه يدعو أصحابه إلى قتل الناس! وأنه متعصِّب! وأنه- حاشاه ﷺ- كان لصًّا وقاطع طريق!

و(فرانكلين جراهم) عنده برنامج تلفزيوني، وموقع إلكتروني ضخم يبث بست لغات عالمية، وهو ممن تولَّوا كبر النيل من الرسول ﷺ ووصف الإسلام بأنه دين شرير، وهؤلاء من الأصوليين اليمينيين المتطرِّفين، وكانت فترة رئاسة جورج بوش الابن تشكِّل العصر الذهبي لهم.

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٢١٢).

ومهما يقولون، فإن رجالًا من بني جلدتهم كانوا أكثر حيادية وأبعد عن التعصب، وهم كثير:

منهم: (مايكل هارت)، صاحب كتاب «المائة الأوائل» الذي وضع النبي ﷺ في الرتبة الأولى، وجعل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرتبة الثالثة، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرتبة السادسة عشرة.

وقال: إن النبي محمدًا (ﷺ) كان سياسيًّا محنكًا، وكان قائدًا عسكريًّا، وإنه ملأ قلوب المسلمين بالعدل والإنصاف.

ونجد كثيرًا من الأدباء والشعراء والفلاسفة والمؤرِّخين والمفكِّرين الذين درسوا الإسلام باعتدال وإنصاف، أشادوا بالنبي ﷺ بلغة غريبة.

حتى إن الشاعر الفرنسي (لا مارتين) يقول: أعظم حدث في حياتي هو أنني قرأتُ سيرة النبي محمد (ﷺ)، ودرستها دراسة وافية، وأدركت ما في سيرته من عظمة وخلود.

ويقول: أي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك محمدٌ (ﷺ)؟! وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ؟

لقد هزم الرسول (ﷺ) المعتقدات الباطلة التي تجعل واسطة بين الخالق وبين المخلوق.

وعالم اللاهوت السويسري الدكتور (هانت كونت) يقول: محمد (ﷺ) نبي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا إنكار أن محمدًا (ﷺ) هو المرشد القائد إلى طريق النجاة.

وشاعر الألمان الشهير (جوته) يقول: بحثت في التاريخ عن مثل أعلى يمثِّل الإنسانية في أرقى صورها، فوجدته النبي العربي محمدًا (ﷺ).

ويقول في كلمة مؤثِّرة تأخذ باللُّب يخاطب بها أستاذه الروحي الشاعر الكبير حافظ الشيرازي: يا حافظ، إن أغانيك وقصائدك تبعث السكون في نفسي، إنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطَّمة، بهم جميعًا، أرجوك أن تأخذنا في طريق

الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد (ﷺ).

ويقول (فارس الخوري): إن محمدًا (ﷺ) أعظم عظماء العالم، والدين الذي جاء به هو أكمل الأديان.

ويقول الأديب والروائي الروسي الشهير (تولستوي): أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد (ﷺ) الذي اختاره الله الواحد إله الكون ليكون آخر الأنبياء، ولتكون رسالته آخر الرسالات على وجه الأرض.

ومن العجيب أن (برناردشو) الأديب والفيلسوف الغربي المعروف يقول: قرأتُ حياة رسول الإسلام (ﷺ) جيدًا مرات، فلم أجد فيها إلا الـخُلق كما ينبغي أن يكون، وكم تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم!

ويقول أيضًا: لقد درستُ محمدًا (ﷺ) باعتباره رجلًا مدهشًا، فرأيتُه بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يُدعى: «منقذ الإنسانية»، وأوروبا مبتعدة عن عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك، وتمنيت أن تعترف أوروبا بقدرة هذه العقيدة الإسلامية على حل مشكلاتها، وبهذا الروح يجب أن تفهموا كلامي!

كان النبيُّ ﷺ رجلًا متواضعًا، بعيدًا عن الادِّعاء والتكلف والتفاخر بالدنيا، فتولَّى ربه الدفاع عنه في وجه الشانئين المغرضين، ووعده فأجزل وأنجز، وأوصاه بدوام الذكر والشكر، وبيَّن مصير خصومه، فما كان التاريخ سوى ترجمة أمينة دقيقة لهذا الوعد وذاك الوعيد!

○ ○ ○

سُورَةُ الكَافِرُونَ

❋ **تسمية السورة:**

المشهور تسميتها: «**سورة الكافرون**»، وبعضهم يسميها: «**سورة الكافرين**» باعتبار أنها مضاف إليه مجرور بالياء[1].

وسماها البخاري في «صحيحه»: «**سورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾**»[2].

ولها أسماء أخرى، ذكرها بعض المفسِّرين والمصنِّفين في «أصول التفسير» كالسيوطي، منها: «سورة المقشقشة»، و«سورة البراءة»، و«سورة الدِّين»، و«سورة العبادة»، و«سورة المنابذة»[3].

وهذه ليست أسماء، بل أوصاف، ولذا تشترك مع غيرها، كـ«سورة الدِّين» التي هي من أسماء «سورة الماعون»، و«المقشقشة» التي تُطلق على «سورة التوبة».

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٨٥)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٧)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٢)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ١٩٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٢) ينظر: «مجاز القرآن» لأبي عُبيدة (٢/ ٣١٤)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٦٩)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٨)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٨٦)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٤)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) ينظر: «جامع البيان في القراءات السبع» (٤/ ١٧٢٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٣)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠٢)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٢٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٨١)، و«الإتقان» (١/ ١٩٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤)، و«التحرير والتنوير» (١٠/ ٩٥)، (٣٠/ ٥٧٩).

* **عدد آياتها:** ست آيات بلا خلاف[1].

* **وهي مكية** باتفاق العلماء، كما ذكره ابن عطية، وغيره، وفي المسألة خلاف يسير[2].

* **وجاء في فضلها أحاديث،** منها: حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ قرأ في ركعتي الطواف بسورتي الإخلاص: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسولَ الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[4].

وجاء عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، أن رسولَ الله قرأ في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب بضعًا وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[5].

والأحاديث تدل على استحباب القراءة بها في راتبة الفجر، وراتبة المغرب، وركعتي الطواف، وفي الوتر.

* **سبب نزول السورة:** هو أن النبي ﷺ كان يطوف بالبيت، فجاءه ملأٌ من قريش، وقالوا: يا محمد، عَلِمْنا الذي تدعو إليه، فهلمَّ نعبدُ إلهكَ سنةً، وتعبدُ إلهنا سنةً، فإن كان الذي تعبده خيرًا، كنا قد أدركنا حظًّا منه، وإن كان الذي نعبده خيرًا، كنتَ قد أخذتَ بحظِّك منه. فرفض النبيُّ ﷺ ذلك، ثم نزلت هذه السورة

---

(١) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٣)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٦)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٢)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣١)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٣٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه أبو داود (١٩٠٥)، والترمذي (٨٦٩)، وله أصل في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٥) أخرجه أحمد (٤٧٦٣)، وابن ماجه (١١٤٩)، والنسائي (٢/ ١٧٠).

لترد على هذه المفاوضة[1].

* ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾:

افتتحت السورة بفعل أمر، وهو: ﴿قُلۡ﴾، والقرآن كله من عند الله، وقد أُمر النبيُّ ﷺ أن يتلوه على الناس، لكن ثَمَّة سور افتتحت بهذه الكلمة، كـ«سورة الجن»، وهذه السورة، و«سورة الإخلاص»، والمعوِّذتين، فهذه خمس سور، وأما الآيات فكثيرة.

وما الحكمة من هذا الاستفتاح؟

١- للتأكيد على أن موضوع السورة ليس مما يخص النبي ﷺ، ولا يدخل تحت اختياره أو اجتهاده، بل هو من محكمات العقيدة التي لا يملك الرسول ﷺ ولا أحد من البشر أن يجتهد فيها، وهو مسألة الإيمان بالله تعالى ونبذ عبادة ما سواه.

وهنا نلحظ فرقًا بين هذه المسألة وبين مسائل أخرى وقع للنبي ﷺ فيها اجتهاد لمصلحة المسلمين، كقصة الأحزاب حين أحاطوا بالمدينة، ورأى النبي ﷺ أن العرب قد رمته عن قوس واحدة، فعَرَض ﷺ على الصحابة أن يصالح غَطَفان وغيرهم، على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا.

فهذه من مسائل السياسة الشرعية الاجتهادية، وليست مسألة عقيدة.

وكذا لما خرج النبي ﷺ إلى مكة عام صلح الحُدَيْبِيَة، وردوه، وحصلت المفاوضة بينه وبين كفار مكة قال ﷺ: «**أما والله لا يدعوني اليومَ إلى خُطَّة يعظِّمونَ فيها حُرمةً، ولا يدعوني فيها إلى صلة إلا أجبتُهُم إليها**»[2]. فلما جاؤوه وعرضوا عليه الصلح بشروطهم قبل بها ﷺ؛ لأنها من قَبِيل المسائل الاجتهادية

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨٨٧)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٠٨)، و«تاريخ الطبري» (١/ ٥٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٣)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٦٧)، و«الكشاف» (٤/ ٨٠٨)، و«فتح الباري» (٨/ ٧٣٣)، و«التحرير والتنوير» (٧/ ٣٠٣).

(٢) تقدم تخريجه في أول «سورة الفيل».

الداخلة في السياسة الشرعية.

وكثير من الناس- بسبب قلة الفقه، أو شدة الغيرة- يخلطون بين هذه وتلك، في حين نجد في حياة النبي ﷺ العامة الفصل الواضح المبين؛ فالمسائل المحكمة الأصولية القطعية لا مجال فيها للاجتهاد والتفاوض كما في موضوع هذه السورة، أما المسائل المتعلقة بالسِّلْم والحرب والمواقف الاجتهادية، فيسوغ فيها الاجتهاد.

٢- لتجديد أمر الرسالة وتأكيد مصدرها، وأن النبي مؤتمن على القرآن يبلِّغه بحروفه؛ وكأنه يقول: علموا أن الله تعالى هو الذي حسم هذا الأمر، وأمر به، فتبين بهذا أن ﴿قُلْ﴾ هنا ضرورية.

٣- للتبليغ وعدم الكتمان، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فالنبي ﷺ مأمور بتبليغ القرآن، وقد بلغه ولم يكتم منه شيئًا.

والنبي ﷺ كان في مكة في حالة ضعف، والكفار من حوله بمكة هم أكابر في السن والمكانة، ودعوته لا زالت في مهدها، فأن ينزل القرآن ليجابههم بهذا الخطاب: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد! لهؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فهو شيء مزلزل، وقطع لا تردُّد فيه لأي مفاوضة من هذا القبيل.

٤- في ذلك إعراض عن الكافرين وتعظيم الرسول ﷺ؛ فإنه تعالى عظَّم النبي ﷺ بمخاطبته، ويكفيه فخرًا وشرفًا أن يخاطبه ربه جل وعز خطابًا مباشرًا، وهذا تشريف للنبي ﷺ، وفيه صدود عن المشركين والكافرين؛ لأن الله تعالى لم يخاطبهم، وإنما أمر نبيه أن يخاطبهم بمدلول الآية، كما وصفهم تبارك وتعالى بوصف لا مجاملة فيه ولا ملاينة فوصفهم بـ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهو وصف مقرِّع شديد.

٥- في هذا أن الله تعالى علِمَ في طبع النبي ﷺ ما جُبل عليه من الرحمة واللِّين، والله تعالى اختاره على علمه بهذه الصفات؛ لأن الله تعالى أراد أن يجمع به الشمل المتفرِّق لهذه الأمة، والشمل المتفرِّق يجتمع على الرحمة واللِّين،

وليس على الغلظة والشدة.

فلقَّنه هنا البراءة الصريحة من الشرك والمشركين؛ للإشارة إلى أن حُسن خُلُقه ﷺ مكرمة نبيلة في حقه، وشرف عظيم، وسبب لنجاح الدعوة وقبولها لدى الخاص والعام، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، لكن حسن الخلق لا يتنافى مع المفاصلة مع الكفار والبراءة من شركهم.

ولما كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مجبولًا على الشدة والقوة في طبعه، كما في قصته مع الرجل الذي وَكَزَهُ فقضى عليه، كان أول ما أوصاه الله تعالى أن قال له: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣- ٤٤].

فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم أن فرعون من أهل النار، ولكن الحجة لا تقوم إلا بالقول اللَّيِّن؛ ولذا أمر به وأوجبه.

وكثير من الناس يخلط بين البراءة من الشرك وأهله، وبين حسن المعاملة والملاينة، فالنبي ﷺ كان يعيش في مكة بين أظهر المشركين، ويحسن معاملتهم ويخالقهم بخلق حسن، ولما هاجر إلى المدينة كان فيها اليهود والمنافقون والمشركون، وكانت أخلاق النبي ﷺ مع هؤلاء أخلاقًا حسنة يحسن معاملتهم ويعدل معهم.

وبعضهم يظن أن البراءة من الشرك تلزمه أَلَّا يصافح المشرك، وليس لديه دليل قطعي على ذلك، بل العلماء مجمعون على أن الكافر ليس بنجس العين، وإنما نجاسة الكافر معنوية، لا ينجس المسلم بملامسته(١).

كما أن البراءة من الشرك وأهله لا تمنع التعامل معهم بيعًا وشراءً، ولا التبسم والمصافحة وحسن الأدب، ومراعاة الأعراف العامة التي لا تنافي أحكام الإسلام وأصوله، فقد كان النبي ﷺ يتلطَّف معهم، ويغشى مجالسهم، ويأكل من طعامهم، ويبايعهم، ويتكلم معهم، ويباسطهم.

---

(١) ينظر: «المبسوط» (١/ ٤٧)، و«بدائع الصنائع» (١/ ٦٤)، و«المحلى» (١/ ١٣٨)، و«كشاف القناع» (١/ ٥٣)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (١/ ٩٤- ٩٥).

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء حَبْر إلى النبي فقال: يا محمد- أو: يا أبا القاسم- إن الله تعالى يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثَّرَى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ. فضحك رسولُ الله تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له»(١). فلم يمنعه كونه يهوديًّا أن يصدِّق بما قال، وأن يتبسم لكلامه.

وفي خيبر دعت اليهودية النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة إلى الشاة، فجاؤوا وأكلوا عندها من طبخها، وكانت قد وضعت فيها السُّمَّ(٢).

وقد يجد المسلم في قلبه حبًّا لشخص ما، لا لكفره ومعاصيه، وإنما بمقتضى الطبيعة والفطرة، كحب الابن لوالده أو الوالد لولده، وحب الزوج لزوجته، والله يقول: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فإذا تزوج كتابية فسوف يأكل معها، ويضاحكها ويداعبها، وهذا يستدعي مودة ومحبة في قلبه لها، لكنها ليست محبة لشركها وكفرها.

ومثل هذا حب الوالدين، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، والولد يحب والده فطرة؛ لأن الولد بعض من الوالد، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان واضحًا في محبته لأبيه وحرصه عليه، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم: ٤٧]، وقال تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وحب مَن أحسن إليك، كما قال سبحانه عن أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

والحب لا يحمل المؤمن على ما لا يحل من عبادة غير الله، أو ارتكاب ما

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٣)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حرم الله، أو المداهنة في الدين، أو إفشاء أسرار المسلمين.

فثَمَّ فرق بين البراءة من الشرك والكفر والمعصية، والبراءة من أهلها بهذا الاعتبار، وبين مخالقتهم بخلق حسن، ومحبتهم المحبة الفطرية الطبيعية.

وأما الكفار المحاربون، فقد صرَّح القرآن بالنهي عن موالاتهم، وأن مَن تولَّاهم فأولئك هم الظالمون، ووصف متولِّيهم بأنه قد ضَلَّ عن سواء السبيل.

وقد ذكر الرازي في «تفسيره» أكثر من ثلاثة وأربعين وجهًا في سر افتتاح السورة بهذا المطلع ﴿قُلْ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ثلاثة حروف، هي حروف نداء: «يا»، وهو وحده كافٍ، والحرف الثاني: «أيُّ»، والحرف الثالث: «الهاء»، والهاء قد يكون حرف نداء، وقد يكون حرف تنبيه، فهذه الحروف الثلاثة هي لحشد الانتباه، وأتت من أجل استجماع الذهن والسمع؛ لتلقي القرار الصارم الذي لا تردُّد فيه.

وقد وصفهم الله بـ«الكافرين»، وفي موضع آخر بـ«الجاهلين»، كما في قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

وورد أن الآية نزلت في السبب نفسه الذي نزلت له «سورة الكافرون».

وبين «الجهل» و«الكفر» تلازم، وربما يكون الجهل سببًا، والكفر نتيجة، فبسبب الجهل بالله وقعوا في الكفر، والكفر أشد من الجهل.

وهنا سمَّاهم: «كافرين»، وهو الاسم الذي ينطبق عليهم ويعبِّر عن حقيقتهم، فليست من أجل التعيير، وإنما من أجل الدعوة إلى ترك ما هم عليه، ومباعدة الحالة التي هم فيها، وهم يصرحون بذلك ويقولون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

والمقصودون هنا هم الذين يعبدون الأوثان، كاللَّات والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى، وليس المقصود كل الكافرين؛ لأن منهم مَن يعبد الله، أو يدَّعي ذلك، مثل أهل الكتاب، فأهل الكتاب يزعمون أنهم يعبدون الله، لكن عبادتهم على

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٣- ٣٢٩).

جهل وضلال، أو بملة منسوخة محرفة.

ويوجد من الكافرين مَن لا يعبد شيئًا أصلًا، أو لا يؤمن بوجود الله، وهؤلاء ليسوا عابدين لشيء البتة.

فالمقصود إذًا عبدة الأوثان، وقد قال أهل أسباب النزول(١): إن هذه السورة نزلت في الأسود بن المطَّلب، أو الوليد بن المغيرة، أو أُمَيَّة بن خلف، أو العاص بن وائل، وهؤلاء هم الأربعة الذين حاولوا مفاوضة النبي ﷺ، لـمَّا قالوا: تعبدُ إلهنا سنةً، ونعبدُ إلهك سنةً، وكانوا يظنون أن أمر الدين كأمور الدنيا، فهم كانوا إذا اختلفوا في أمر دنيوي يتصالحون فيما بينهم، فيتنازل هذا عن بعض حقه، وهذا عن بعض حقه، ثم يلتقون على حل وسط.

والكفر لغة: السَّتْر(٢)، ومنه تسمية الفلَّاح: كافرًا؛ لأنه يستر الحب، وفي مصر يسمون القرى الزراعية: كَفْر.

وصفهم بأنهم كافرون؛ لأنهم يسترون الحقيقة، ويجحدونها.

* ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾:

أي: في الحال، أي: الآن، لا أعبد الشيء الذي تعبدونه، كما قال: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ [يونس: ١٠٤].

* ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾:

أي: ما دمتم على الكفر، فلستم عابدين إلهي، حتى لو تظاهرتم بشيء من ذلك، في وقت أو سنة، كما جاء في عرضكم التفاوضي، فالحقيقة أنكم لم تعبدوا الله الذي أعبد؛ لأن العبادة يشترط لها الإخلاص، وهو أول شرط من شروطها،

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٢٤٦)، و«تفسير الرازي» (٤/ ١٤٣)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٧١٤)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٨٣)، وينظر أيضًا: «لسان العرب» (٥/ ١٤٤)، و«الكليات» للكَفَوي (ص٧٦٣)، و«تاج العروس» (١٤/ ٥٠) «ك ف ر».

وهم ليسوا مخلصين ولا مؤمنين ولا عابدين.

فعبادة الأصنام شر وشرك، وعبادة الله تعالى يشترط لها أن يكون العابد مؤمنًا بالله وحده، ولو عبد على أنه سيجرب، فهنا لا يكون عابدًا لله، إذ ليست عبادة الله إلا إذا كان مبناها على الإيمان والتوحيد، والخلوص من الشرك.

وتأمَّل كيف عبَّر بالفعل: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ لينفي أنه يعبد آلهتهم، حتى ولو لحظة واحدة.

لكن لما خاطبهم قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، ولم يقل: «ولا أنتم تعبدون»؛ لأنه قد يقع منهم الفعل، ولكن لا يتحقق به عبادتهم لله؛ لغياب شرط الإيمان وهو الخلوص من الشرك والبراءة من الآلهة المدَّعاة.

فالشرك يقع ولو للحظة واحدة، لكن بالنسبة للإيمان بالله سبحانه فإنه لا يتحقَّق بمجرد كون الواحد عَبَدَ، حتى يبقى على ذلك ويدوم.

وربما يستغرب بعض الناس تكرار الآيات في هذه السورة على قصرها، ولا يفهم معنى التكرار، وما فيه من الأسرار اللطيفة والمعاني الشريفة.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ تصريح بأنهم حتى لو ادَّعوا العبودية لله فإنهم لم يعبدوه، لكن قال بعض العلماء: إن في الآية سرًّا آخر، وهو أن المعنى: أنكم أنتم على وجه الخصوص، يا مَن عرضتم على النبي ﷺ فكرة «اعبد إلهنا سنة، ونعبد إلهك سنة» محكوم عليكم عند الله تعالى أنكم لن تعبدوا الله، ولن تؤمنوا، وسوف تموتون على الشرك، وهكذا كان، فإن هؤلاء الأربعة ماتوا مشركين، وكان هذا من دلائل نبوة النبي ﷺ.

والمقصود: لستم بعابدين الله الذي أعبده، فـ﴿مَآ﴾ هنا تكون للعالم وغير العالم، فإذا أمن اللبس فهي موصولة، وتصلح للعالم وغيره.

والتكرار مقصود لأهمية الموضوع؛ لأنه أصل الدين، ويستحق أن يكرر الكلام فيه؛ لأنه لب اللباب، وأصل الكتاب.

ويتكرر لتكرر العرض منهم، فهم يعرضون على النبي ﷺ مرة ومرتين وثلاثًا،

ولم ييئسوا من العرض، فيأتي التكرار في القرآن الكريم، وكأن المعنى: مهما كررتم العرض، ونوعتم في أساليبه وطرائقه، فإن الجواب سيظل واحدًا لا يتبدل.

* ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾:

لم يقل: «ولا أنا عابد ما تعبدون»، **وفيها أسرار**:

منها: أن المعنى ما تعبدونه لم أعبده قط في حياتي، فقد كان يمقت الأصنام ويكرهها، حتى قبل البعثة، وكان لا يأكل ما ذُبح على الأنصاب، ولو كان النبي ﷺ يعبدها في الجاهلية لقالوا له: أنت كنت تعبدها. بل كانوا يعرفون مجانبته لها وهجرها.

ومنها: الإشارة إلى عراقتهم في الكفر والشرك، فهذا الأمر مما توارثوه، فهو ليس شيئًا جديدًا طارئًا عليهم يسهل زواله، بل هو أمر قديم، فهم غارقون فيه هم وآباؤهم إلى الأذقان.

ويحتمل أن يكون التكرار لنفي المعبود ونفي العبادة ذاتها، أي: لا أعبد أصنامكم، ولا أتعبد بعباداتكم التي تفعلون، وفيه دليل على تحريم مشابهة المشركين فيما يفعلونه على سبيل التعبُّد.

أما الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة، فهي عبادات توحيدية جاءت بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وبقيت من آثار الرسالة، فأخذتها قريش، ولذلك أُقِرّت في الإسلام، وصارت من أركان الحج والعمرة ومناسكهما بعد إزالة ما أضافته الجاهلية إليها من الطقوس الفاسدة، كالعُرِي في الطواف.

ولم يذكر الله سبحانه حججًا في هذه السورة كالعادة، فلم يحتج عليهم بالسماء ولا بالأرض ولا بالنبات ولا بخلق الإنسان.

ولعل السر في ذلك: أن مقام السورة ومقصدها واضح، وهو إعلان البراءة من الشرك والمشركين، ومن أوثانهم، وإعلان مفاصلتهم في المنهج والعقيدة؛ ولذلك لم تكن السورة مشوبة بمعانٍ أخرى لمحاجتهم ومجادلتهم، بل هي مخصَّصة لإعلان البراءة؛ ولهذا سُمِّيت: «سورة الإخلاص»، و«سورة البراءة»،

و«سورة المنابذة».

وكما تجلَّى فيها أنه ﷺ لن يعبد ما يعبدون، فكذلك تجلَّى أنهم لن يعبدوا ربه الواحد الذي يعبده، فإن قلنا: المقصود فئة خاصة، فلأنهم يموتون على الكفر، وإن قلنا: المقصود أعم، فإن المعنى: ما دمتم كافرين؛ لأنه وصفهم الآن أنهم كافرون.

* ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾:

إخبار بأنهم لا يعبدونَ اللهَ إخبارًا ثانيًا، تنبيهًا على أن الله أعلمه بأنهم لا يعبدونه، وتقويةً لدلالة هذين الإخبارين على نبوته ﷺ؛ فقد أخبر عنهم بذلك، فمات أولئك كلهم على الكفر، وكانت هذه السورة من دلائل النبوة.

ويجوز أن تكون جملة ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾ تأكيدًا لفظيًّا لنظيرتها السابقة بتمامها، والمقصود من التأكيد: تحقيق تكذيبهم في عرضهم أنهم يعبدون رب محمد ﷺ(١).

* ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾:

وهذا أسلوب حصر، فحين أقول: لك الكتاب، فمعناه: أنه يخصك وحدك.

وفرق بين قوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ وبين أن يقول: «دينكم لكم»، فإذا قُدِّم المسند، ففيه إشارة إلى اختصاصهم بدينهم(٢)، وكأنه يقول: دينكم لكم وحدكم، ولا تعلق لي فيه بحال من الأحوال، وديني لي وحدي، ولا يتجاوزني ديني لكم ما دمتم على شرككم، فأنتم تختصون بدينكم، وأنا أختص بديني.

وهذا ليس إذنًا لهم بأن يكفروا، وإنما هي مفاصلة في المنهج، وبيان أن الإسلام لا يختلط بالكفر، وفيه بيان الاختلاف الأصلي بينه وبينهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ على لسان شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وكما قال موسى

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٣- ٥٨٤).

(٢) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٤).

عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]، أي: اتركهم لنا، وخلِّ بيننا وبينهم، وهؤلاء جماعتنا ندعوهم إلى الله تعالى، فإن أسلموا فالحمد لله، وإن لم يسلموا فجرمهم على أنفسهم.

وقد قال النبي ﷺ لقريش لما حاربوه وآذوه: «**يا وَيْحَ قريش، قد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللهُ تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون**»[(١)].

والحكم المذكور هنا حكم مستغرق لكل زمان ومكان لا يتبدل ولا يعطل.

وتأمل كيف ابتدأت السورة بالخطاب الصريح المباشر المؤكَّد: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، واختتمت بخطاب أقرب إلى اللُّطف، وهو: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

والخلاصة أن الله تعالى قرَّر المفاصلة مع المشركين، حتى لا يلتبس الحق بالباطل، والإسلام بالكفر، والهدى بالضلال، ولم يتعرض في السورة لموضوع المعاملة.

وتحتمل الآية معنًى آخر، وهو أن المقصود بالدِّين: الجزاء والحساب[(٢)]، فحسابي على نفسي، وحسابكم عليكم، ولن أؤخذ يوم القيامة بجريرتكم، ولن تؤخذوا بجريرتي، فعلى هذا تكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

○○○

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣٢) من حديث المِسْور بن مَخْرمة ومَرْوان بن الحكم. وينظر ما تقدم في «سورة العلق»: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

(٢) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٢٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٨٩)، وما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾﴾.

سُورَةُ النَّصرِ

* تسمية السورة:

للسورة تسميتان:

«**سورة النصر**»، وهو المشهور[(١)].

و«**سورة الفتح**»[(٢)]، والأول أغلب، وتسميتها بـ«الفتح» يُحدث لبسًا مع «سورة ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾».

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسميها: «**سورة التوديع**»[(٣)]؛ لأنها إيذان بقرب أجل الرسول ﷺ، حيث أدَّى الرسالة وبلَّغ الأمانة وأكمل الله به الدين ودخل الناسُ في دينه أفواجًا.

وهكذا فهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- كما في «صحيح البخاري»- قال: كان عمرُ يُدْخلُني مع أَشْياخ بدر، فقال بعضُهم: لِمَ تُدْخِلُ هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقال: «إنه مِمَّن قد علمتم». قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم، وما رُئِيتُهُ دعاني يومئذ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ منِّي،، فقال لهم: «ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٠٣)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٤٨)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٣٢٩)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

(٣) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٢١)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٣٩)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (١/ ٢٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [١] ...». حتى ختم السورة؟ فقال بعضُهم: أُمرنا أن نحمدَ اللهَ ونستغفرَه إذا نُصرنا وفُتح علينا. وقال بعضُهم: لا ندري. أو لم يقل بعضُهم شيئًا. فقال لي: «يا ابنَ عباس، أكذاك تقولُ؟». قلتُ: لا. قال: «فما تقولُ؟». قلتُ: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ، أعلمه اللهُ له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾: فتح مكة، فذاك علامة أَجلِكَ، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. فقال عمر: «ما أعلمُ منها إلا ما تعلمُ»(١).

وليس في السورة تصريح بأَجَل النبي ﷺ، وإنما فيها البشارة بالفتح والنصر ودخول الناس في الدين، وأمر النبي ﷺ بالتسبيح والاستغفار، لكن الفقيه الفطن يدرك أن كمال الأمر له ما بعده، كما قيل(٢):

إذا تَمَّ شيءٌ بدا نقصُهُ ترقَّب زوالًا إذا قيل: تَمْ

فمن وراء ذلك إشعار باقتراب أجل الرسول ﷺ وتمام مهمته.

* **عدد آياتها:** ثلاث آيات(٣)، وهي إحدى أقصر ثلاث سور في القرآن الكريم؛ مع «العصر»، و«الكوثر»، إلا أن فيها من المعاني ما يُعجز البلغاء.

* **توقيت نزولها:** هي مدنية بالاتفاق، بل هي من أواخر سور القرآن الكريم نزولًا، وهي آخر سورة نزلت كاملة، كما قال كثير من المفسرين(٤).

ولكن اختلف في وقت النزول، فبعضهم يقول: في السنة السابعة، وعلى هذا تكون قبل فتح مكة؛ لأنه كان في السنة الثامنة.

وقيل: كانت بعد الفتح، وهو الأظهر، وقبل وفاة النبي ﷺ بوقت يتراوح بين

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢٩٤، ٤٩٧٠).

(٢) ينظر: «عيون الأخبار» (٢/ ٣٥٨)، و«الزهد» لابن أبي الدنيا (ص٩٠)، و«الصناعتين: الكتابة والشعر» (ص٣٩)، و«يتيمة الدهر» (٤/ ٢٥٩).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٤)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (٣/ ٢٦٨).

(٤) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٦٨)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٢٩- ٢٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٨٧).

سنتين إلى بضعة أشهر[١].

* ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾:

بدئت السورة بظرف الزمان ﴿إِذَا﴾، وغالبًا ما تستخدم للمستقبل، وقد تستخدم للحاضر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، أي: حين يشاء[٢].

ومجيء النصر والفتح مشعر بالتوقيف، وأنه لا يأتي اعتباطًا أو دون ترتيب، بل بتوقيت وتوفيق وتوثيق من الله تعالى، وفي ذلك رعاية للأسباب؛ لأن هذا النصر جاء بعد عشرين سنة كان فيها من المجاهدة والمصابرة ما لا يحتمله إلا الأصفياء الأتقياء، فمن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَن قُتل، ومنهم مَن ضُرب، ومنهم مَن طُرد، ومنهم مَن أُوذي، ومنهم من لاقى آلامًا لا يحتملها إلا الصابرون المجاهدون.

والأمر كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ٢١]، فجاء النصر هنا على قَدَرٍ، كما قال الشاعر[٣]:

جاءَ الخلافةَ أو كانتْ له قَدَرًا   كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

والتعبير بـ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ مشعر بأن النصر مِنَّةٌ من عنده سبحانه، وهذا يدعو للتواضع والانكسار، واستحضار فضل الله بما تحقق؛ ولذا لما دخل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة فاتحًا منتصرًا دخلها متواضعًا مطأطئًا رأسه، وقد خرج بالأمس طريدًا من مكة خائفًا يترقب، واليوم يدخل فاتحًا مظفرًا منصورًا[٤].

---

(١) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٤٠١)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠١)، و«البحر المحيط في التفسير» (١٠/ ٥٦٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩١)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «التحرير والتنوير» (٢٥/ ٩٨).

(٣) ينظر: «ديوان جرير» (١/ ٤١٦)، و«شرح الكافية الشافية» (٣/ ١٢٢٢)، و«مغني اللبيب» (ص٨٩).

(٤) ينظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٨٢٤)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٠٥)، و«المستدرك» (٣/ ٤٧)، (٤/ ٣١٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٦٨- ٦٩)، و«الكامل في التاريخ» (٢/ ١٢١)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٥٤٨)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٥٤٥-٥٤٨)، و«فتح الباري» (٨/ ١٨، ٤٩).

وقد جرت عادة السلاطين والملوك أنهم إذا فتحوا وتمكَّنوا من عدوهم يظهرون القوة والعزة والتشفِّي والبطش، ولسان حال أحدهم يقول: خصومك وقد أظفرك الله بهم، فأعملْ فيهم السيف، ولا تبق منهم ولا تذر، واجعلهم عبرة لـمَن خلفهم.

لكن النبي ﷺ لِمَا جبله الله عليه من صدق العبودية، وعدم التعلق بالدنيا، دخل مكة مطأطئًا، متواضعًا لله.

وفي «الصحيح» أنه ﷺ لما دخل مكة صلَّى صلاة الضُّحى(١).

ولو شاء الله لنصر هذا الدين بالملائكة، أو لخرق لهم النواميس، ولكنه شاء أن يبتلي بعض العباد ببعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]. فالمسألة مسألة مجاهدة ومصابرة، ويوم علينا ويوم لنا، ويوم نُساء ويوم نُسَر، حتى تكون العاقبة للتقوى.

إن نشوة الانتصار والظفر بالمطلوب وتحقق المقصود الذي كابدوا وبذلوا واجتهدوا وصابروا من أجله تنسيهم الآلام التي لقوها.

ولهذا كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمثَّل بهذا البيت(٢):

كأنـك لم تنصـبْ من الدهـرِ ليلةً ... إذا أنت أدركتَ الـذي كنتَ تَطْلُبُ

ونسبة النصر والفتح إليه تعالى نسبة تشريف.

ومن معاني ذلك: الدلالة على عظمة النصر، وديمومته، فهو لم يكن نصرًا محدودًا في معركة، أو تغلبًا على عدو، وإنما استقرار لأمر الدين، ولذلك سطع تاريخ الإسلام منذ ذلك الوقت؛ وقامت دولته في المدينة أولًا ثم في جزيرة العرب، ولم تكن البشارة به باعتباره نصرًا مرحليًّا، أو محدودًا ببيئة جغرافية أو بزمن معلوم،

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (١١٠٣، ١١٧٦)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦).

(٢) ينظر: «المنمق في أخبار قريش» (ص٣١١)، و«الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٥/ ١٠)، و«معجم الشعراء» (ص٢٧١)، و«شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص١٥٦)، و«سمط اللآلي في شرح أمالي القالي» (١/ ٨٤٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٤) منسوبًا إلى مرة بن عدَّاء الفَقْعَسي.

بل بنصر خالد يُخلِّد ذكر الإسلام وبقاءه إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

وفيه ثناء مبطن على النبي ﷺ والمؤمنين؛ لأنهم استحقوا نصر الله، وأي ثناء أعظم من أن يقال: أصبحتم جديرين بنصر الله؛ ولذلك تُربط هذه الآية بقوله سبحانه في «سورة الحج»: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم بيَّن الجديرين بالنصر بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، فربط الصفة بأمر مستقبل، ولم يقل: «لينصرن الله الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة».

والسر هنا لطيف، وربما وجد مَن يستحقون النصر في ظاهر الحال، لكن الله يعلم أنهم لو انتصروا ما التزموا بتبعات النصر ولا قاموا بتكاليفه، فيحجب الله عنهم النصر رحمة بهم وبالخلق، وحفاظًا على الرسالة وقدسيتها.

وبين ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فرق، والنصر قد يحصل ولا يكون معه فتح، فلو أن عدوك هجم عليك ثم قاتلته وطردته عن بلادك، فإن هذا «نصر»، وليس معه «فتح»، وإنما سلمتَ من شرٍّ، فـ«النصر» تغلب في معركة، أما «الفتح» فيدل على أنهم خاضوا المعركة، وانتصروا واستطاعوا أن يفتحوا، ويحققوا مقصودهم الأعظم.

و«النصر» له صور كثيرة:

منها: أن يثبت الإنسان على دينه، ولو تغلَّب عليه عدوه.

ومنها: إهلاك الله للأعداء، حتى لو لم يُفتح للمؤمنين.

ووعد الله نبيه ﷺ بالفتح، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١].

* ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾:

هذا هو **الوعد الثالث، والمقصود بالناس هنا**: العرب، وليس الناس كلهم،

ولهذا قال: ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعات إثر جماعات، كما قال بعضهم: إن (ال) هنا للاستغراق العرفي، يعني: الناس المعروفين في جزيرة العرب[1].

والأفواج جمع: فوج، وهو الجماعة، وهنا لم يعد الناس يدخلون أفرادًا مستخفين مستترين كما كان عليه الأمر[2].

وذلك دليل على قوة شوكة الإسلام، وأن شيئًا ما تغير فعلًا، وهؤلاء الذين دخلوا أفواجًا لا يعدون من السابقين إلى الإسلام؛ لأن الشيء الذي حملهم على أن يدخلوا أفواجًا هو إما الفتح وإما دينونة جزيرة العرب للإسلام، كما في حديث عمرو بن سَلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق»[3].

وبعضهم قد يكون منعه من الإسلام خوفه على نفسه، أو ماله، أو سلطانه، فلما رأوا أمر الإسلام قد عز واستوثق وتعاظم ذهبت المخاوف، ودخلوا في الدين مطمئنين.

ومنهم مَن دخل لرغبة أو رهبة، خوفًا أو رجاءً، كما جاء عن صفوان بن أُمَيَّة أنه قال: «أعطاني رسولُ الله ﷺ يوم حُنين وإنه لأبغض الخلق إليَّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليَّ»[4].

ومسألة تغيير الدين والانسلاخ من ملة لأخرى ليس بالأمر الهين، وبهذا تظهر منقبة السابقين للإسلام وفضلهم على غيرهم؛ حيث آثروا ما عند الله على متع الدنيا وشهواتها، وجاهدوا في ذلك أعظم المجاهدة، وتغلَّبوا على مألوفهم

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٠٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٦٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٢).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٧٢)، و«تفسير الماوردي» (٥/ ١٣٧)، (٦/ ٣٦١)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨٧، ٨١٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠١)، و«تفسير الرازي» (٣١/ ١٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٠٢).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٣٠٤)، ومسلم (٢٣١٣)، والترمذي (٦٦٦).

وعاداتهم، وبادروا لقبول الدعوة والتضحية في سبيلها.

والذين دخلوا في دين الله أفواجًا كان أكثرهم على مدى عشرين سنة شجًى في حلوق المؤمنين، آذوهم، وقتلوا منهم ونهبوا الأموال، ومع هذا قبل الله منهم الإسلام، وأمر نبيه ﷺ أن يعفو عنهم، فالإسلام يَـجُبُّ ما قبله، والهجرة تَجُبُّ ما قبلها، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها، والحج يَـجُبُّ ما قبله.

ذِكْرُ النصر والفتح، ثم ذِكْرُ دخول الناس في دين الله، يبيِّن أن الهدف هو دخول الناس في دين الله أفواجًا، وها هو قد تحقق.

إن فرح المؤمنين بدخول الناس في دين الله، هو دليل على تجردهم من حظوظ نفوسهم، وتغلبهم على أنانيتهم وقدرتهم على التسامح والصفح عن أولئك الذين ظلموهم وحاربوهم، ثم ها هم يفرحون بهم إخوانًا ينافسونهم في الطاعة والتقوى والجهاد.

إن المقصود الأعظم هو إزالة العقبات التي تحول دون دخول الناس في دين الله، والجهاد ليس غاية في نفسه، ولم يشرع من أجل إزهاق الأرواح، والكفر بمجرده ليس موجبًا لإزهاق النفس.

ولذلك قدر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يظل وجود الكفار في الدنيا إلى قيام الساعة، بل لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، و«**لا تقومُ الساعةُ حتى لا يُقالُ في الأرض: الله الله**»[1]. وله تعالى الحكمة البالغة التي لا يحيط بها خلقه.

ومن حكمته أن خلق الناس مختلفين، كما قال: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ**﴾ [التغابن: ٢]، وقدَّم الكافر؛ لأن الكفار هم الأكثر عددًا.

وليس المقصود إزهاق أرواحهم بالقتال، بل دعوتهم وهدايتهم.

ولذا كان الإسلام يمنع القتل ويحقن الدم، حتى ولو كان إسلامًا في الظاهر، كما في قصة أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ في سرية، فصبَّحنا الحُرَقات من جُهينة، فأدركتُ رجلًا، فقال: لا إله إلا الله. فطعنتُه، فوقع في نفسي

---

(١) أخرجه مسلم» (١٤٨) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

من ذلك، فذكرتُه للنبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلا الله. وقتلته؟**». قلتُ: يا رسولَ الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال ﷺ: «**أفلا شققتَ عن قلبه، حتى تعلمَ أقالها أم لا**». فما زال يكرِّرها عليَّ حتى تمنيتُ أني أسلمتُ يومئذ[1].

ولما بعث النبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى خَيْبر قال له: «**امشِ ولا تلتفتْ حتى يفتحَ اللهُ عليك**». فسار عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئًا، ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسولَ الله، على ماذا أقاتلُ الناسَ؟ قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله**». هذه رواية مسلم.

وفي رواية «الصحيحين»: قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال ﷺ: «**انفُذْ على رِسْلكَ حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حقِّ الله فيه، فوالله لأن يَهْدِيَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعَم**»[2].

ودخول الناس في دين الله أفواجًا كان ثمرة صلح الحُدَيْبِيَة؛ لأن الناس بدأ يتحدَّث بعضهم إلى بعض، وكذلك بعد فتح مكة استقر الأمر؛ لأن جزيرة العرب كلها دانت للمسلمين.

وإضافة الدين إلى الله هي في مقابل إضافة النصر إليه، فـ«نصر الله» جاء من أجل «دين الله»، ولم يقل: «الدِّين»؛ لأن العرب تُطلق الدِّين على الطاعة والاتِّباع للملوك[3]، والدعوة لم تكن إلى عبادة أحدٍ غير الله وحده.

* ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾:

أمر اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ بالتسبيح، وقد صحَّ من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبيَّ ﷺ بعدما نزلت عليه هذه السورة، كان قلَّما يركع أو يسجد إلا قال: «**سبحانك**

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٢١٠)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٥، ٢٤٠٦).

(٣) ينظر: «العين» (٨/ ٧٣)، و«جمهرة اللغة» (٢/ ٦٨٨)، و«غريب الحديث» للخطابي (١/ ٥٨٠)، و«لسان العرب» (١٣/ ١٦٩)، و«تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب» (ص١٢٥).

اللهمَّ ربنا وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي». يتأول القرآن(١). أي: يحقِّق ما أمره ربه تبارك وتعالى.

والأمر بالتسبيح بحمد الله معناه: قل: «سبحان الله والحمد لله». أو يكون المعنى: سبِّح ربك وأنت متلبِّس بحمده، يعني: قائم بحمده. وهو أقرب.

وكأن النبي لما جاء النصر والفتح، وتحقَّق له ما وعده ربه؛ حمد ربه من تلقاء نفسه بمجرد رؤيته لهذه النعم، وإن كان قبلها يحمد ربه بقلبه ولسانه وجوارحه.

والفرق بين «الحمد» و«الشكر» هو أن «**الحمد**» يكون بالثناء على المحمود بصفات الكمال والمجد والعظمة والكبرياء، والجلال والقوة والقدرة والعلم والرحمة، وأما «**الشكر**» فيكون بالثناء عليه بالمعروف الذي أسداه إلى الشاكر(٢).

ولماذا رُتِّبت هذه الأشياء الثلاثة، فبدأ بالتسبيح، ثم الحمد، ثم الاستغفار؟

الجواب: إن هذا الترتيب مناسب؛ لأن حقيقة التسبيح هو الثناء على الله بالمحامد، ونفي النقائص، وهذا أكمل وأعلى ما يكون.

ثم ثنَّى بالحمد، والحمد فيه معنى الشكر، فهو حمد الله تعالى على ما أنعم به على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين من الخير والنصر.

ثم ثلَّث بما يتعلق بحال العبد نفسه، وهو الاستغفار من الذنب والتقصير في العبادة والحمد والثناء، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

وهنا سؤال: ما معنى أمر النبي ﷺ بالاستغفار؟ وهل صدر منه ما يُوجِب الاستغفار حتى يؤمر بذلك؟!

من أهل العلم مَن قال: المقصود بهذا أمته ﷺ، أو أن يستغفر لأمته.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للنحاس (١/ ٥٧)، و«قوت القلوب» (٢/ ٥)، و«معجم الفروق اللغوية» (ص٣٠١)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٠٨)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٢٢٦)، و«بصائر ذوي التمييز» (٣/ ٣٤٠).

ومنهم مَن قال: أمره بالاستغفار من أجل أن تقتدي به أمته، فكأنه يقول: إذا كان الرسول ﷺ مأمورًا بالاستغفار فأنتم بذلك أولى!

ومنهم مَن قال: إن النبي ﷺ قد يقع منه ما ينبغي له الاستغفار منه من غير أن يكون معصية لله، فقد يقع منه اجتهاد على خلاف الأولى في بعض المسائل، أو يقع منه انشغال في بعض الأمور التي يكون الاستغفار منه لائقًا ومناسبًا ومحقِّقًا لكمال نبوته ﷺ، كما في قصة الأعمى، وأسرى بدر، وزواج زينب، وتحريم شرب العسل على نفسه ونحوها، وهي من جنس فعل المفضول، أو خلاف الأَوْلَى في الاجتهاد(١).

وأولى من ذلك أن يقال: إنه لا يستطيع أحدٌ أن يصل إلى أداء حق الله عليه، وإنَّ كل ما يعمله لله فهو قاصر عن أداء حق الله، ولذا تُتْبع الصلاة بالاستغفار(٢)، ويُتبع الحج بالاستغفار: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩]، ويُختم عمر النبي ﷺ ودعوته بالاستغفار: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾.

فكل كثير يُؤدَّى لله فهو قليل في جنب حقه العظيم جل وعز، ولا يلزم أن يتوجَّه الاستغفار إلى ذنب أو خطأ بعينه، ولكن حال كل أحد مهما اجتهد قاصرة عن أداء ما يجب لله.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾: لم يقل: «إنه كان غفارًا»، مع أنه أُمر بالاستغفار، من باب التنويع ورعاية الفواصل، وهو أدل على أن المقصود ليس الاستغفار من ذنوب أو معاصٍ، وإنما هو من باب ختم العمل والحياة بالتذلل لله العظيم حين

---

(١) ينظر: «تفسير الماوردي» (٦/ ٣٦١)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٤٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٣)، و«تفسير الخازن» (٤/ ٤٩٣)، و«اللباب في علوم الكتاب» (٢٠/ ٥٤٣)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٤).

(٢) كما في حديث ثوبانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا انصرفَ من صلاته استغفرَ ثلاثًا». أخرجه مسلم (٥٩١).

كان ﷺ في آخر أيام عمره المبارك، والتوبة رجوع، فناسب ذكرها للإشارة إلى قرب رجوعه ﷺ إلى ربه، وانقضاء أجله.

❍ ❍ ❍

سُورَةُ المَسَدِ

*** تسمية السورة:**

أشهر أسمائها: «**سورة ﴿تَبَّتْ﴾**»، وهكذا هي في كثير من المصاحف، وكتب التفسير، وبعضهم يزيد فيسميها: «**سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾**»(١).

وتسمَّى: «**سورة المَسَد**»، كما في طائفة أخرى من المصاحف وكتب التفسير(٢).

و«**سورة أبي لهب**»، وهذا ذكره جمع من المفسرين(٣).

*** عدد آياتها:** خمس آيات، بلا خلاف(٤).

*** وهي مكية** باتفاق العلماء(٥).

*** سبب نزولها:**

جاء من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرۡ

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٩)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٣)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٧٩)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٢) ينظر: «سنن النسائي الكبرى» (١٠/ ٣٥٠)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٤)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٢)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٢٩٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٩)، و«تفسير ابن فورك» (٣/ ٢٩٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٤٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٥٩٩).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧١٤)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٦)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (١٥/ ٤٣٥).

(٥) ينظر: «المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٤)، و«تفسير الثعالبي» (٥/ ٦٣٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٦).

﴿عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ورهطَك منهم المخلَصين، خرج رسولُ الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: «**يا صَبَاحاه!**». فقالوا: مَن هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فاجتمعوا إليه، فقال: «**يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطَّلب**». فاجتمعوا إليه، فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتُكم أن خيلًا تخرجُ بسَفْح هذا الجبل، أكنتم مصدِّقيَّ؟**». قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «**فإني نَذِيرٌ لكم، بين يَدَيْ عذاب شديد**». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا؟! ثم قام، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[1].

وهذا الحديث يرجِّح أن تكون السورة نزلت في السنة الرابعة من البعثة[2].

* ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾:

التباب هو: الخسران، والهلاك، والخيبة[3].

وهذه الجملة مقابلة لقول أبي لهب للنبي ﷺ: «تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا».

ويحتمل أن يكون هذا على سبيل الدعاء من الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، وهذا أولى، وفي لغة العرب إذا تكلم الإنسان بكلام سوء أو فعل فِعل سوء قيل له ذلك.

فعبَّر بيديه؛ لأنه كان يرجم النبي ﷺ بهما، أو أنه كان يعتقد أن يده هي الغالبة، وهي الطولى، فبيَّن سبحانه أن الأمر ليس كما يزعم، بل يده هي الفاجرة، وصفقته هي الخاسرة.

وقد يعبِّر باليد ويقصد المسمَّى كله، كما قال الله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٤، ٤٧٧٠، ٤٨٠١)، ومسلم (٢٠٨).

وأخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤، ٢٠٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأخرجه مسلم (٢٠٥، ٢٠٧) من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وغيرها نحوه.

(٢) ينظر: «البدء والتاريخ» (٤/ ١٤٦)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص٤٦٩- ٤٧٠)، و«المنتظم» (٢/ ٣٦٤)، و«التحرير والتنوير» (١٤/ ٨٨)، (٣٠/ ٩٩).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧١٤)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٩)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦١٢)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٤٩).

[الحج: ١٠]، وكما قال سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، أي: بما كسبوا؛ لأن غالب ما يفعله الإنسان بيديه.

وأبو لهب هو: عبد العُزَّى بن عبد المطَّلب، ولم يذكر الله اسمه؛ لما فيه من النكارة والتعبيد لغير الله، والعُزَّى: اسم صنم في الجاهلية يعبدونه، كما بيَّنه الله تعالى في «سورة النجم».

يقال: إن له ولدًا اسمه: لهب، وهذا الولد ليس له ذكر في التاريخ، وقد يكون مات متقدمًا.

وقيل: كان يسمى بهذا في الجاهلية لتوهج وجنتيه، وتورد وجهه، فقد كان أبيض أحمر وضيئًا جميلًا، فكانت كلمة أبي لهب كلمة مدح تثني على وضاءته وجماله.

وقيل: لُقِّب بذلك؛ لشدة غضبه وسرعة انفعاله(١).

وجاءت الكنية متوافقة مع الوعيد، فهو يكنى أبا لهب، والله تعالى توعَّده بأنه سوف يَصْلَى نارًا ذات لهب، وبهذا تحولت من مدح إلى ذم.

والعرب يطلقون الأب على الوالد، وعلى الملازم للشيء، فيقولون: أبو هريرة، وأبو العينين، وأبو جعدة، وهو الذئب، وجعدة هي: السخلة، فليس هو أباها بالحنو عليها، لكن هو صاحبها الذي يتربص الغفلة منها، وهكذا يقال: «أبو مالك» للبحر، ويقال: «أبو مالك» للطائر الحزين، و«أبو أمامة» للفأر.

وأبو لهب هو عم النبي ﷺ، وقد ورد أنه فرح بولادة النبي ﷺ، كما ذكر البخاري في حديث طويل من قول عروة بن الزُّبير: «فلما مات أبو لهب أُرِيَهُ بعض أهله بشرِّ حِيبَةٍ(٢)، قال له: ماذا لقيتَ؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدَكم راحة، غير أني

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩١٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٤/ ٥٦٨)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٢٩٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨١٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٦)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٧).

(٢) بالحاء المهملة، أي: سوء حال. ينظر: «مشارق الأنوار» (١/ ٢١٩)، و«النهاية» (١/ ٤٦٦)، و«لسان العرب» (١/ ٣٣٩)، و«فتح الباري» (٩/ ١٤٥)، و«تاج العروس» (٢/ ٣٢١) «ح و ب».

سُقِيتُ في هذه بعَتاقتي ثُويبةَ». وأشار إلى النَّقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وكانت ثُويبة هي التي بشَّرته بولادة النبي ﷺ، ففرح بميلاده، وأعتقها لهذه البُشرى(١).

وقد كان لأبي لهب ثلاثة أولاد، منهم عُتبة وعُتيبة، وقد تزوج عُتبة وعُتيبة -كما في بعض الروايات- بنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، عقدا عليهما ولم يدخلا بهما، فلما جهر الرسول ﷺ بالدعوة وظاهرته قريش بالعداوة، كان أبو لهب يقول: دعوا الأمر لي؛ فإن لي عند محمد يدًا ومنَّة، وأنا أكفل لكم أن ينتهي أمره، ويوقف هذه الدعوة.

ولم يستجب النبي ﷺ له؛ فعظم ذلك عليه واشتد عليه، حتى أصبح من أعظم الناس حربًا على النبي ﷺ، وأمر ولديه بأن يطلقا بنتي الرسول ﷺ، وقال لهما: وجهي من وجهيكما حرام، إذا بقيت رقية وأم كلثوم في ذمتكما. فطلقا بنتي رسول الله ﷺ.

كان هذا فعلًا رديئًا في منتهى الدناءة، والله تعالى أبدلهما خيرًا منهما وأبر، لكن كان هذا الأمر مع علاقة القرابة وعلاقة الأبوة أمرًا في غاية القبح.

ولما رأى أبو لهب إلحاح النبي ﷺ في الجهر بالدعوة أصبح يعلن العداوة له، وكانت العرب تنتظر إسلام هذا الحي من قريش، فيقولون: إذا أطاعه قومه أو انتصر، فهو نبي.

وقريش كانت تتربَّص أمر سادتها وزعمائها وأشياخها، وربما كان واسطة العقد في هؤلاء كلهم جميعًا أبو لهب، **لاعتبارات عديدة، منها:**

خاصية القرابة، فهو عم النبي ﷺ، ونحن نجد بالمقارنة أن أبا طالب كان عم

---

(١) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٨٧)، و«صحيح البخاري» (٥١٠١)، و«سنن البيهقي» (٧/ ١٦٢)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٤٠٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٣)، و«تاريخ الإسلام» (١/ ٤٥)، و«فتح الباري» (٩/ ١٤٠)، (١١/ ٤٣١).

النبي ﷺ مثل أبي لهب ولم يؤمن به، ولكنه كان حفيًّا به، ومعروفًا بحمايته له، وكان يُجلسه إلى جنبه، ويدافع عنه أشد المدافعة، وله في الثناء على الرسول ﷺ قصيدة شهيرة، منها قوله[1]:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمدٍ ... من خيرِ أديانِ البريَّةِ دينا
لولا الملامةُ أو حِذاريَ سُبَّةً ... لوجَدَتني سمْحًا بذاكَ مبينا

وقوله[2]:

فوالله لولا أن أجيءَ بسُبَّةٍ تَجُرُّ ... على أشياخنا في المحافلِ
لكنَّا اتَّبعناه على كلِّ حالةٍ ... من الدهرِ جدًّا غيرَ قولِ التَّهازُلِ
وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمامُ بوجهِه ... ثِمَالُ اليتامى عصمةٌ للأرامِلِ
يلوذُ بهِ الهُلَّاكُ من آلِ هاشمٍ ... فهُمْ عندَه في نعمةٍ وفواضِلِ

في حين أن أبا لهب كان يلاحق النبي ﷺ في الأسواق، كعُكاظ ومَجَنَّة وذي المَجَاز، وعند الكعبة، وعند البيت، والنبي ﷺ يقول للعرب: «**يا أيها الناسُ، قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا**»[3].

يقول راوي القصة: رأيتُ وراءه رجلًا أحمر وضيئًا ذو غديرتين أحول يمشي وراءه ويقول: لا تطيعوه؛ فإنه صابئ كذَّاب مجنون، وإنا لم نجد له طبًّا. يعني: لقد عرضناه على الرُّقاة وعلى الأطباء، ولكننا حتى الآن لم نجد له حلًّا ولا علاجًا، فكان الناس يقولون: مَن هذا؟ فيقال: عمه أبو لهب. فيقال: عمه أبصر به. ويتركون

---

(١) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ١٨٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ١٢١- قسم السيرة)، و«ديوان أبي طالب» (ص٦٧، ٧٣، ٩١).

(٢) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٧٦- ٢٨٠)، والمصادر السابقة.

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٦٥٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٧٢٠)، و«مسند أحمد» (١٦٠٢٠، ١٦٠٢٧، ١٦٠٦٦- زوائد عبد الله)، و«سنن النسائي» (٥/ ٦١)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٥٩)، و«صحيح ابن حبان» (٦٥٦٢)، و«المستدرك» (١/ ١٥)، (٢/ ٦١١- ٦١٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٨٠- ٣٨١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٤٢)، و«الإصابة» (١٤/ ٤٩٨)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٣٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٤٩٩).

دعوة النبي ﷺ.

والكلمة التي قالها أبو لهب أول ما سمع الدعوة العلنية- «تبًّا لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا!؟»- ظلَّت منهجًا له حتى مات على الكفر وحرب الدعوة بلا هوادة.

والله تعالى خاطب أنبياءه بألَّا يُكْرِهوا الناس على الإيمان، مع أن الدين حق من عند الله الذي خلق الخلق، ومن حقه أن يطيعوه فلا يعصوه، ومع ذلك بيَّن أن الدين لا يتحقَّق ولا يُقبل إلا أن يكون بإيمان وعن قناعة، فكيف بمَن يحاولون إكراه الناس على الباطل والشرك، كما يفعل أبو لهب؟!

وكيف بمَن يحاولون أن يمنعوا الدعوة من أن تنتشر، أو أن يتسامع الناس بها، وأن يمنعوا النبي ﷺ من حقه في القول والبلاغ؟! وكل ما كان يقوله ﷺ: «**أيها الناسُ، قولوا: لا إله إلا الله؛ تفلحوا**».

على أن عداوة أبي لهب لم تقتصر على سب النبي ﷺ وإيذائه بلسانه، بل كان يحرِّض على ذلك، ويؤجِّج العداوة ويسعى في قطع الرحم، وجنَّد معه زوجته وولديه، وقد دعا النبيُّ ﷺ على ولده عُتيبة؛ لأنه آذى النبيَّ ﷺ فقال: «**اللهمَّ سَلِّط عليه كلبًا من كلابك**». فخرج إلى الشام وافترسه الأسد.. في قصة معروفة، وقد ذكر هذا حسان بن ثابت رضي الله عنه(١) في بعض شعره:

مَن يرجعُ العامَ إلى أهلِه ... فما أكيلُ السَّبْعِ بالراجعِ

أما عُتبة ومُعَتَّب فقد أسلما، وحسن إسلامهما، وشهدا مع النبي ﷺ معركة حُنين(٢).

(١) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٤١٨)، و«تفسير القرطبي» (١٧/ ٨٣)، و«ديوان حسان بن ثابت» (ص١٦٢- ١٦٣).

(٢) ينظر: «طبقات ابن سعد» (٤/ ٥٥)، (٨/ ١٧)، و«تاريخ الطبري» (١١/ ٥٢٩)، و«تصحيفات المحدثين» للعسكري (٢/ ٧٠٨)، و«المستدرك» (٢/ ٥٣٩)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٤٨٨، ٢٩٧٢)، و«أعلام النبوة» للماوردي (ص١٢٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٣٨)، و«الاستيعاب» (٣/ ١٤٣٠)، و«تاريخ دمشق» (٣٨/ ٣٠١- ٣٠٢)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٣٧٧- ٣٧٨)، و«أسد الغابة» (٥/ ١٦٦)، و«كشف المشكل من حديث الصحيحين» (٢/ ٥٤٤)، و«طرح التثريب» (٥/ ٦٩)، و«فتح الباري» (٤/ ٣٩)، و«الإصابة» (١١/ ٢٠٨).

وفي الآية أن الإنسان لا تنفعه قرابته، ولا نسبه، وإنما ينفعه عمله الصالح، كما ذكر تعالى امرأة نوح وامرأة لوط، وابن نوح[1] عبرة في هذا، كما قيل[2]:

لَعَمرُكَ ما الإنسانُ إلَّا بدينِهِ ... فلا تَترُكِ التقوى اتِّكالًا على النَّسَب

فقد رَفَعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ ... وقد وضعَ الشِّركُ الشَّريفَ أَبا لَهَب

وفي التصريح بكنيته معنًى لطيف، فقد كان رأسًا في أذية النبي ﷺ، فلما نزلت السورة سقط السلاح الذي معه وتم تحييده، وصار إذا تكلم تهامس الناس وقالوا: هذا الذي نزل فيه ما نزل.

والذين يأتون من خارج مكة يسمعون أن الله أنزل فيه سورة تُتلى، فيصبح متَّهمًا، فإذا تكلم في حق النبي ﷺ لا يُلتفت إليه، وكأن عنده ثأرًا يريد أن يدركه.

ومع شدة قرابته كان النبي ﷺ يلقى منه الأذى، وكان يلزم الصمت ولا يتكلم؛ لما جبله عليه ربه من حُسن الخُلُق وسعة الحِلْم، ولما في قلبه من الرغبة في إسلام الناس ودخولهم في الدين، فكان يصبر عليهم، وهو لا يعرف مصيرهم ولا يدري ما يختم لهم به، فكان الله هو الذي تولَّى الدفاع عن النبي ﷺ، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وفيما يتعلق بالتشخيص والتسمية في الإنكار لها جانبان:

الأول: الأصل أن الأمر بالخير والنهي عن الشر يكون على سبيل العموم، دون تسمية أو تحديد، وعليه معظم ما نزل في القرآن الكريم، حتى إن أبا جهل نزلت فيه آيات كثيرة، ولم يسمه الله تعالى مع أنه فرعون هذه الأمة، وهكذا قال ﷺ: «**ما بالُ أقوام يفعلونَ كذا وكذا**». ولم يسم؛ من باب الستر عليهم وإطفاء الشر وفتح باب التوبة والرجوع لمن أراد الله هدايته.

---

(١) ينظر ما تقدم في «سورة التحريم»: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ...﴾ [التحريم: ١٠]، و«سورة نوح»: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا...﴾ [نوح: ٢٨].

(٢) ينظر: «مفيد العلوم» (ص٣٧٨)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٣٧)، و«ديوان علي بن أبي طالب» (ص١٢).

الثاني: بعض الحالات تحتاج إلى التصريح باسم إنسان ما، لمصلحة عامة؛ كما إذا كان رأسًا في الشر، وشديد النكاية والأذى للمؤمنين، وعظيم الصد عن سبيل الله، واضح المجاهرة والاستخفاف، مع ملاحظة أن الشخص المذكور في السورة كافر، فلو أن أحدًا تكلم عن رؤوس الكفر الذين يحملون راية الحرب على الإسلام، لم يكن في ذلك من بأس، وهذا ينسجم مع الدرس الذي تلقنه «سورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾»، والمتكلم هو الله الذي علم أنه لن يؤمن هو ولا زوجه، ولكن كتب الله بعد ذلك الهداية لولديه عُتبة ومُعَتِّب أسلما بعد الفتح، وسُرَّ النبي ﷺ بإسلامهما سرورًا عظيمًا، واستقبلهما وهَشَّ لهما وبَشَّ، وشهدا مع النبي ﷺ معركة حُنين، ولما هرب الناس وانفضوا كانا من الذين ثبتوا، وعني النبي ﷺ بهما، وأعاد اللُّحمة الماضية، وتحولت العداوة العائلية القديمة إلى محبة ونصرة، وقد نهى النبي ﷺ عن إيذائهم، حتى إنه لما قال رجلٌ لدُرة بنت أبي لهب: أنت بنت عدو الله أبي لهب. فجاءت إلى النبي ﷺ تشتكي، فقال النبيُّ ﷺ: «**لا يُؤذَى مسلمٌ بكافر**»(١). أي: لا يعيَّر هؤلاء بأبيهم.

وكان من حكمة الناس أن يقولوا: «أَبْقِ للصلح موضعًا». ومصداق هذا في القرآن: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ [الممتحنة: ٧].

والمرء ينتقل ويتغيَّر ويتطوَّر، ولا تكاد تراقب إنسانًا إلا وجدته في العشرين غيره في الأربعين غيره في الستين، خاصة إن كان صاحب ضمير حي واطلاع واسع وفكر نير، فمن البصيرة أَلَّا يحاصَر هؤلاء بالأحكام الحاسمة، وأَلَّا يعامَلوا وكأنهم أعداء لله ورسوله أو أولياء للكافرين.

وبعض الغيورين يتسرعون في الحكم على المخالفين بالتفسيق أو التكفير، وربما صار الحكم أو التصنيف محاصرة له لا لهم؛ لأنه لا يريد أن ينسخ هذا الحكم ولا أن يغيِّره، فلو بدا منهم تعديل أو تصحيح لم يقبله؛ واعتبره تمويهًا أو

(١) ينظر: «الحلم» لابن أبي الدنيا (١١٢)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٣٢٤)، (٧٦٢٤)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٧٢)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١).

خداعًا ؛ لأنه لا يريد أن يغيِّر حكمه، ولو أخذه على أنه بداية التحول أو الخطوة الأولى في التصحيح، لكان أخلق بروح الداعية الحريص.

﴿وَتَبَّ﴾ إن كان أول الآية دعاء عليه، فالمعنى أنه قد حصل وتحقَّق الذي دعا الله تعالى عليه وهو محقَّق، كما قال النَّابغة[1]:

جزى ربُّه عني عديَّ بنَ حاتمٍ   جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فَعَلْ

والدعاء من الله هو بمعنى الحكم، لكن فيه توبيخ وتقريع وتحقير له، والثاني خبر صريح بحال هذا الإنسان.

وفي الآية احتمال آخر أن أول الآية بيَّن أن التَّباب ليديه، وآخرها عمم التَّباب له كله.

* ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾:

إما أن يكون المقصود بماله: ما ورثه عن آبائه وأجداده، وما كسب: ما كسبه بجهده وعرقه؛ لأنه كان يفتخر، ويقول: لو بُعِث الناس فسوف أفتدي نفسي بمالي وولدي، فرد الله تعالى عليه ذلك.

أو يكون المقصود بالكسب ما هو أوسع من المال؛ لأن الولد من الكسب، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إن أطيبَ ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم**»[2].

ومن الكسب: الجاه والمجد والسُّمعة.

فأما المال، فقد صار للوارث، وأما الكسب، فقد تبرؤوا منه، ولم يكن يشرِّفهم أن يقولوا: نحن أولاد أبي لهب، وكانوا يتمنون أن يكون لهم اسم غير هذا الاسم، وأن يكون لأبيهم غير هذا المصير، وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فلا ينفعه

---

(١) ينظر: «الخصائص» لابن جني (١/ ٢٩٥، ٢٩٦)، و«تفسير الرازي» (١/ ٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٣)، ونُسب أيضًا إلى أبي الأسود الدُّؤلي وغيره. ينظر: التعليق على «الخصائص».

(٢) أخرجه الطيالسي (١٦٨٥)، وأحمد (٢٥٢٩٦)، وأبو داود (٣٥٢٨، ٣٥٢٩)، والترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢١٣٧)، والنسائي (٧/ ٢٤٠)، وابن حبان (٤٢٦٠)، والحاكم (٢/ ٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وينظر: «علل ابن أبي حاتم» (١٣٩٦، ١٤١٨)، و«علل الدارقطني» (١٤/ ٢٥٠)، و«المنتخب من علل الخلال» (٢٠٨، ٢٠٩)، و«إرواء الغليل» (١٦٢٦).

عمل ولا شفاعة ولا قرابة، حتى الذين أسلموا من أولاده لا ينفعه إيمانهم.

* ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾:

عبَّر بالسين؛ دلالة على القرب، فالوعد قريب، والدنيا قصيرة.

والصَّلْي هو: الشَّي، أي: يُشوى بالنار[1]؛ لأنه صاحب رسالة إلحاد وكفر، وصد عن الله وعن رسوله ﷺ، وفي أيام المواسم كان أكثرهم شرفًا وجاهًا وأطولهم نارًا، يَصْطَلي حولها، وحوله الأكابر من زعماء قريش وزعماء العرب الذين يحضرون هذه المناسبات، وهو يخشى أن يتسرب إليهم شيء من دعوة النبي ﷺ، فيرميه بالكذب والجنون وغيرهما، فتوعَّده الله تعالى بنار الآخرة، ووصفها بـ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ تناسبًا مع كنيته التي كان يفتخر بها.

* ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾:

قد يكون هذا الرفع على الاستئناف.

وكنيتها: أم جَمِيل، واسمها: أَرْوَى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وعمة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فهي امرأة شريفة في ذؤابة قريش نسبًا ورِفعة ومكانة، وكانت من سيدات نساء قريش، ولكن علاقتها مع أبي لهب وانسجامها معه وتقبلها لما هو عليه جعلها أيضًا شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وسبب وصف امرأة أبي لهب بحَمَّالة الحطب- على قول بعض المفسرين-: إنها كانت تحمل الحطب والشوك وتلقيه في طريق النبي ﷺ؛ حتى يعقر إذا مرَّ بالطريق، **وهذا محتمل**.

لكن روى ابن جرير، وابن أبي حاتم عن مجاهد- وحسبك به في التفسير- أنه فسَّر هذه الآية تفسيرًا آخر، فقال: كانت تمشي بالنميمة[2].

---

(١) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (٢/ ١٣٦١)، و«زاد المسير» (١/ ٤٧١)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ١٥٨)، و«روح المعاني» (٢/ ٤٢٥)، و«التحرير والتنوير» (١٩/ ٢٢٥)، وما تقدم في «سورة الانفطار»: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥﴾، و«سورة المطففين»: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦﴾.

(٢) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٥٩)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢١)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٢٤/ ٤١٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٣٩).

وعلى هذا فمعنى كونها حمالة الحطب: أنها كانت تمشي بالنميمة، وبالكلام الذي يوقد نيران العداوة والبغضاء بين الناس كما تُوقد النيران بالحطب.

وهكذا رُوي عن قتادة والحسن وعكرمة أنها كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض(١).

والعرب تقول: فلان يحطب على فلان، أي يجمع أخطاءه وأغلاطه، وما يقال فيه، وما ينسب إليه، ويزيد من كيسه(٢).

وكأن هذا أنسب مع حال المرأة؛ لأنها كانت شريفة، ومثلها لا تباشر المهنة بنفسها.

ولا يبعد أن تقوم بذلك لما تجده في نفسها، أو أن تكون فوَّضت بعض خدمها أن يقوم بحمل الحطب وإلقائه في وجه النبي ﷺ، ونسب إليها على سبيل المجاز.

* ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾:

بين الجِيد والعنق فرق، فإن العرب لا يذكرون الجِيد غالبًا إلا إذا كان جميلًا طويلًا، فإذا أرادوا الثناء على المرأة قالوا: جِيدها كأنه إبريق فضة.

والغالب أنهم إذا ذكروا الجِيد ذكروا موضع القِلادة، كما قال امرؤ القيس(٣):

وجِيدٍ كجيدِ الرِّئْمِ ليسَ بفاحشٍ ... إذا هــي نصَّتــهُ ولا بمُعَـطَّلِ(٤)

وذكر موضع القلادة فقال:

ترائبُها مَصْقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ(٥)

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٠- ٧٢١)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١٥)، و«الدر المنثور» (١٥/ ٧٣٧)، والمصادر السابقة.

(٢) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص١٠٣)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص٥٤٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٢٦)، و«مجمع الأمثال» (١/ ٢٥٦).

(٣) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص٤٠- ٤٣).

(٤) **الرِّئم**: الظبي الأبيض، **والنَّصّ**: الرفع. ينظر: «طبقات فحول الشعراء» (١/ ٨٨)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣١٢)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٩)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٨).

(٥) **الترّائب**: موضع القلادة من الصدر، **والسَّجَنْجَل**: المرآة، بالرومية، **وقيل**: سبيكة الفضة.

ولذا بيَّن قلادتها هنا وأنها ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾ فهذه قلادتها في النار؛ والله أعلم؛ لأنه لم يكن يعرف أنه كان يوضع في عنقها في الدنيا حبل من مَسَد، والـمَسَد هو: اللِّيف الشديد الخشن[1]، والعرب كانت تفتل الحبال فتلًا قويًّا من ليف أو من غيره.

ابتدأ الله تعالى السورة بذكر أبي لهب، وأنه سيصلى نارًا ذات لهب، واختتمها بذكر امرأته، وأن في جِيدها حبلًا من مسد، وفي هذا بيان بأن المعركة مع الباطل ليست معركة ذكورية أو أنثوية، فأعداء الإسلام هم من الرجال ومن النساء، والمؤمنون والدعاة والصالحون هم أيضًا من الرجال ومن النساء، والله يقول: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]،والله تعالى أعلم.

❍❍❍

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٣)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥١٦).

سُورَةُ الإخْلاصِ

* **سورة الإخلاص** أعظم سور القرآن الكريم، وحين يَدْلِفُ المرء إلى تفسير هذه السورة العظيمة يحس بالهيبة، ويشعر أنه ينبغي عليه أن يتهيَّأ نفسيًّا بقدر من الصفاء واليقين للدخول إلى هذا الحرم القدسي الذي فيه مباحث تتعلق بذات الرب سبحانه وأسمائه وصفاته.

* **تسمية السورة:**

لهذه السورة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تكون دليلًا على عظمة المسمَّى، فقد ذكر الفخر الرازي لها عشرين اسمًا، وغالبها أوصاف.

منها: «**سورة الإخلاص**»، وسمِّيت به في معظم المصاحف وكتب التفسير[1]، ولعله أشهر أسمائها، وسمِّيت به لما تضمنته من التوحيد والثناء على الله.

ولأجل هذا سُمِّيت «سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»: «سورة الإخلاص» أيضًا[2]؛ إذ بين السورتين ارتباط عقدي، وتعبدي؛ فـ«سورة الكافرون» فيها البراءة من الشرك، و«سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾» فيها إثبات التوحيد، والإنسان بحاجة إلى التخلية قبل التحلية، أي: التخلية من الشرك قبل التحلية بحقائق الإيمان.

ولهذا يقول العلماء: إن للإخلاص ركنين: النفي، والإثبات.

ويقول بعضهم: الحق ركنان: بنَّاء، وهدَّام، فركن الهدم: «سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩١٧)، و«جامع الترمذي» (٥/ ٣٠٨)، و«سنن النسائي الكبرى» (٧/ ٢٦٣)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«صحيح ابن حبان» (٣/ ٧٣)، و«المستدرك» (٢/ ٥٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٢).

(٢) ينظر ما تقدم في «سورة الكافرون».

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾» التي هدمت الأوثان المعبودة من دون الله عَزَّوَجَلَّ، **وركن البناء**: «سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾» التي جاءت لبناء التوحيد لله الواحد القهار.

ومن أسمائها: «**سورة** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾»[(١)]، فقد جاء في أكثر من حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن». وهو مروي عن جمع من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[(٢)].

و«**سورة الله الواحد الصمد**»، وهذا الاسم جاء في «صحيح البخاري»، وفي «السنن» أيضًا[(٣)].

و«**سورة الصمد**»، كما ذكره غير واحد من أهل الحديث والتفسير[(٤)]؛ وذلك لأن هذا الاسم الشريف لم يذكر في القرآن في غير هذا الموضع.

وتُسَمَّى مع ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ بـ«المعوِّذات»، كما سيأتي في «سورة الفلق».

❊ **عدد آياتها**: أربع آيات، **وقيل**: خمس آيات، باعتبار قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية، و﴿وَلَمْ يُولَدْ ﴾ آية[(٥)].

---

(١) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٥)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٨٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٠٥)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩).

(٢) مروي عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي مسعود، وأبي الدرداء، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ينظر: «مسند أحمد» (٩٥٣٥، ١١٣٠٦، ١٧١٠٩، ٢١٧٠٥)، و«صحيح البخاري» (٥٠١٣- ٥٠١٥، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤)، و«صحيح مسلم» (٨١١، ٨١٢)، وغيرهم.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (٥٠١٥)، و«جامع الترمذي» (٢٨٩٦)، و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٤٦٣)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٧)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩).

(٤) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٦٠)، و«سنن أبي داود» (٢/ ٧٢)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٦)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٢٢/ ٣٤٨)، و«إرشاد الساري» (٧/ ٤٣٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٠).

(٥) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٦)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٢).

* **توقيت نزولها:**

هي مكية عند جمهور العلماء، **وهو الأقرب**[1]؛ لملاحظة قصر آياتها، كما هو الشأن في السور المكية غالبًا، وخلوصها في تقرير العقيدة، ومن المعلوم أن الآيات والسور المكية كانت تُعنى ببيان العقيدة، وغرسها في النفوس دون ربطها بالأحكام، أما السور المدنية فهي تشتمل على أحكام الحلال والحرام وأمور التشريع.

ولِما ذُكر في سبب النزول، فقد جاء عند الترمذي، وغيره، أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسُب لنا ربك. أي: ما نسبته، وما هو؟! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2].

وقد ورد أن أهل الكتاب جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه هذا السؤال، فأجابهم النبي ﷺ بالجواب نفسه، وهو هذه السورة[3].

ولا يمنع أن يكون الرسول ﷺ تلاها على اليهود الذين جاوروه بالمدينة حين سألوه عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد كانوا يسألون على سبيل التعنُّت.

وهكذا نصارى نجران جاؤوا إلى النبي ﷺ وسألوه، فأجابهم بنحو ذلك[4].

ولا ينافي هذا أن تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، وقد يكون بعض الرواة ظن أن وقت تلاوتها عليهم كان وقت نزولها.

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٧)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٥)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١١).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢١٩)، والترمذي (٣٣٦٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٧٢٧)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٢٩)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٢٩)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٥)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١١).

(٤) ينظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٣)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٥٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٧/ ٤٥٣)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ١٥٦).

❁ فضلها:

ذكر الدارقطني، وغيره أنه لم يرد في فضل سورة من القرآن ما ورد في فضلها، سواء من حيث كثرة الروايات، أو من حيث صحتها[(١)].

ويكفي في فضلها: قول النبي ﷺ: «**إنها تعدل ثلث القرآن**». وجاء من طرق كثيرة، وصنَّف فيه الإمام ابن تيمية: «جواب أهل العلم والإيمان بتفسير ما أخبر به رسول الرحمن بأن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن».

وأما معنى كونها تعدل ثلث القرآن: فقد ذهب بعض العلماء إلى أن ذلك من جهة أن القرآن الكريم، إما أن يكون أحكامًا، أو يكون أخبارًا عن الماضي أو عن الغيب، أو يكون توحيدًا وعقائد، وهذه السورة تخلَّصت وتمحضت للكلام عن التوحيد والإيمان والعقائد، فصارت تعدل ثلث القرآن من حيث النظر إلى موضوع السورة وتعلقها بقضية التوحيد.

وذهب آخرون في معنى ذلك إلى أن القرآن إما خبر أو إنشاء، فالإنشاء هو الأوامر والنواهي، والأخبار إما أخبار عن الله، وإما أخبار عن الخلق، وهذه السورة خبر عن الله عَزَّوَجَلَّ، فصارت ثلث القرآن بهذا الاعتبار.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى القول بأنها ثلث القرآن في الأجر، من غير أن يقصدوا المعنى، فمَن قرأ هذه السورة فله أجر مَن قرأ ثلث القرآن، مع أنها لا تعدل ثلث القرآن في الأحكام، ولو أن إنسانًا قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات في الصلاة، فلن تجزئه عن قراءة الفاتحة؛ إذ ليس المقصود أنها تعدله من كل وجه.

وذكر ابن عبد البر أن السكوت في هذه المسألة وما كان مثلها أفضل من الكلام فيها وأسلم[(٢)].

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/ ٦).

(٢) ينظر: «نزهة الأبصار في مناقب الأنصار» (ص٢٩٩- ٣٠١)، و«الاستذكار» (٢/ ٥١١- ٥١٢)، و«التمهيد» (١٩/ ٢٢٨- ٢٣٢)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٤٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٠٩- ٦٢١).

ولعل مراده الإشارة إلى أن قول النبي ﷺ: «**تعدل ثلث القرآن**». أراد به الإشادة بفضلها، وعظمة معانيها، ودقائق أسرارها، وأن العبد لو أكثر من قراءتها وتدبرها لنفعه الله تعالى بها نفعًا عظيمًا، وهذا كافٍ دون الحاجة إلى الخوض في سر كونها تعدل ثلث القرآن.

* ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾:

استفتحت السورة بـ﴿قُلْ﴾، وقد خُوطب النبي ﷺ بهذا اللفظ في ثلاثمائة وعشرين موضعًا من القرآن الكريم، هذا أحدها.

ويتبين بالاستقراء أن عددًا غير قليل من هذه المواضع كان النبي ﷺ يتلقَّى فيها أسئلة الناس ثم يجيب الله تعالى عنها، ويُوجِّه الخطاب للنبي ﷺ فيقول: «قل لهم..».

وقد تكون هذه الإجابات لأسئلة المسلمين، كما في قوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقد تكون لأسئلة غير المسلمين طُرحت على سبيل الاستشكال، أو التعنُّت، أو الإحراج للنبي ﷺ، أو السخرية.

فمن ذلك: سؤال الوثنيين النبيَّ ﷺ أن ينسب لهم ربه؛ لأنهم كانوا يعرفون الأصنام التي يرونها بأعينهم عند الكعبة، وعند الصفا والمروة، وفي الطائف، وكانت مصنوعة من حجارة أو خشب على شكل إنسان، وأصبح المعنى العظيم للألوهية مرتبطًا عندهم بالأوثان التي تعوَّدوا على رؤيتها، فلما عرفوا اسم الله العظيم، كان فيه شيء من الدهشة عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، وقالوا: لا نعرف إلا رحمان اليمامة، فلهذا جاء بعض المشركين إلى النبي ﷺ قائلين له: انسُب إلهك: أحجر هو؟ أحديد هو؟ كما تقدم(١).

(١) تقدم أول السورة.

سألوا هذا على وفق ما كانوا يعتقدون، وما كان في عقولهم السخيفة في الجاهلية من تصور الآلهة بطريقة ساذجة مادية.

ومن ذلك: سؤال اليهود والنصارى النبيَّ ﷺ عن الله، وهي أسئلة خُبث، فكان سؤالهم على سبيل التحدِّي والإحراج، وأحيانًا على سبيل التظاهر بالعلم؛ لأن عندهم علم من الكتاب، فهم يفتخرون به.

ومن أسئلتهم: سؤالهم النبي ﷺ عن الولد، كيف ينزع إلى أبيه أو أمه؟ وسؤاله عن أول طعام يأكله أهل الجنة؟[1].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى أن العقيدة تُتلَقَّى من عند الله، وأما البشر فإنهم لا يستطيعون أن يحيطوا به تعالى علمًا، ولا أن يعرفوا العقيدة لو لم يعلِّمهم ويعرِّفهم بها، والله تعالى يقول للنبي ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وليست العقائد مما يُدرك بالعقل المجرد.

ولو نظرت إلى أكابر الفلاسفة من أمثال سُقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وإلى كلام أهل العلم في كل مجالات الحياة، لوجدت الكلام الذي يقولونه عن الله مضطربًا ضعيفًا، لا يزرع هيبة في القلوب، ولا يجيب على أسئلة العقول، ولا يزيل شبهة، ومع ذلك فهو مقصور على الباحثين والمتخصِّصين، ولا يصل إلى العامة وسائر المكلَّفين.

فالنبوة هي التي تعرِّف الناس بربهم حق المعرفة بواسطة الوحي المنـزَّل من حكيم حميد.

ونحن نؤمن بأن الفطرة السليمة مثل الورقة البيضاء التي تقبل الكتابة عليها، وتستجيب لها، وتفرح بالهداية إذا وصلت إليها، وتنسجم معها.

ونؤمن بأن العقل السليم يتقبل المعاني الصحيحة، كما قال ابن تيمية: «إن

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٢٩، ٣٩٣٨، ٤٤٨٠)، و«صحيح مسلم» (٣١١، ٣١٣، ٣١٥).

الأنبياء هم أكمل الناس كشفًا، وهم يخبرون بما يعجز عقول الناس عن معرفته، لا بما يُعرف في عقولهم أنه باطل، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول».

ومعنى هذا أنه لا يوجد في الشريعة شيء يناقض العقل، ولكن يوجد في الشريعة أشياء تتحيَّر فيها العقول؛ لأنها أكبر من العقول[1]، كما قال القائل[2]:

فيك يا أُعجوبةَ الكَوْ … نِ غدا الفِكْرُ كليلَا
أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ … ـبِ وبَلْبَلْتَ العقولَا
كلما أَقْدَمَ فكري … فيك شبرًا فَرَّ ميلَا
ناكصًا يخبطُ في عَمْـ … ـياءَ لا يُهْدَى السبيلَا

والإجابات الصحيحة عن الله تعالى وعن عالم الغيب لا يمكن الحصول عليها بواسطة العقل، ولا بواسطة الفطرة السليمة فقط، ولا بواسطة النظر البشري، بل عن طريق الوحي الذي تتقبَّله الفطرة ويصدِّقه العقل.

فإن قيل: إن الفطرة قد تهدي الإنسان إلى الإيمان بوجود الله تعالى؛ إذ إن من جملة الأدلة على وجود الله تعالى أدلة الفطرة!

فهذا صحيح، لكن لو أن إنسانًا اهتدى بفطرته إلى معرفة وجود الله تعالى، فإنه لن يهتدي إلى معرفة التفاصيل عن أسماء الله تعالى، وعن صفاته، وعما يجب له من ألوان العبادات.

وفي قوله: ﴿قُلْ﴾ إشارة إلى تشبُّع النبي ﷺ بهذه المعاني، واستغراقه فيها، فهي وإن كانت وحيًا من عند الله تعالى بالقطع واليقين، إلا أنه نزل بها جبريل الأمين على قلب النبي ﷺ فتشرَّبها، وتشبَّع بها، وآمن بها، واستغرق النبي ﷺ في هذه المعاني، فخالطت بشاشته.

---

(١) ينظر: «الجواب الصحيح لمَن بدَّل دين المسيح» (٤/ ٣٠٩، ٤٠٠)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١١٥- ١١٦)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٦١)، (٨/ ٥٣٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٢١٤)، (٥/ ٢٩٦- ٢٩٧)، (٧/ ٣٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (٢/ ٣١٢)، (١١/ ٢٤٣- ٢٤٤)، (١٧/ ٤٤٤).

(٢) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

فإذا قال النبي ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإنما يقولها كما أُمر، وظاهره وباطنه ﷺ متواطئان منسجمان، يقولها بلسانه وقلبه وعقله، وتُذْعِن لذلك جوانحه وجوارحه.

كما أن المجيء بلفظة ﴿قُلْ﴾ لأنها تتعلق بأعظم وأشرف علم ينبغي أن يتلقاه الناس، وهو العلم بالله تبارك وتعالى.

فإن قيل: في القرآن الكريم كثير من الآيات التي فيها تلقين العقيدة من غير أن يكون فيها ﴿قُلْ﴾؟!

فالجواب: أن لهذه السورة خصائص:

١- أنها كلها من أولها إلى آخرها في أمر التعريف بالله، وهذا ليس لغيرها من السور.

٢- أن فيها معاني خاصة ليست في غيرها، كاسم الله «الصَّمَد»، وهو من الأسماء العظيمة والدعاء به له سر، كما أن كل اسم من أسماء الله الحسنى عظيم وله سر، وهو مأمور به، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

﴿هُوَ﴾ ضمير غائب من حيث اللفظ، والله تعالى حيٌّ لا يموت، حاضر لا يغيب، وهو ضمير الشأن، للإشادة بالخبر، والاهتمام به، ولفت نظر المستمع، فكأنه تعالى يقول: هذا الذي تسألون عنه، وتنكرونه، وتعبدون غيره، وتتطلعون إلى معرفته ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقد يكون في هذا إشارة إلى سؤالهم، فكأنه يقول: لما سألوا: مَن ربك؟ قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ هو الاسم العلم الذي تُنسب إليه الأسماء الأخرى، كما في قوله سبحانه في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقيل هو: الاسم الأعظم، أو في ضمن الاسم الأعظم، وقد جاء في غير ما حديث أن رجلًا قال: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهدُ أنك أنت الله، لا إله إلا أنت،

الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ. فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد سأَلَ اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**»(١).

وفي حديث آخر أن رجلًا دعا، وقال: اللهمَّ إني أسألك بأن لك الحمدُ، لا إله إلا أنت، المنَّان، يا بديعَ السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيومُ. فقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد دعا اللهَ باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجابَ، وإذا سُئل به أعطى**»(٢). وما تقدَّم أصح منه.

فأجمع لفظ مشتمل على **اسم الله الأعظم** يكون: «الله الذي لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ، الأحدُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ، المنانُ، بديعُ السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام»(٣).

﴿ٱللَّهُ﴾ هو الاسم الذي لا يُسمَّى به غيره سبحانه، وكذلك «الرحمن»، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وأما بقية الأسماء فقد يُسمَّى ببعضها غير الله تعالى، فالله يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ولكن إطلاقها على المخلوقين باعتبار، وعلى الخالق باعتبار آخر، فتُطلق على المخلوق بما يناسبه من ضعف، وعلى الله عَزَّوَجَلَّ بما يناسبه من الكمال والجلال والعظمة.

﴿أَحَدٌ﴾ أي: واحد، وهذا من حيث أصل المعنى اللُّغوي، إلا أن كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ أبلغ وأدل على المقصود، وأكثر تمكنًا، ودلالة على نفي الشريك، وقد

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٧٤)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧) من حديث بُريدة بن الحُصيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٥٠، ١٣٠٨١)، وأبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣- ٥٠٤).

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٤٣- ٤٨).

دخل رسولُ الله ﷺ المسجدَ ذات مرة، فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهَّد وهو يقول: اللهمَّ إني أسأَلُكَ يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفورُ الرحيمُ. فقال ﷺ: «**قد غُفر له، قد غُفر له، قد غُفر له**»[1]. والحديث لا بأس بإسناده.

وأما «الفرد» فهي كلمة شائعة على ألسنة الناس، ولم يثبت في حديث صحيح أنه من أسماء الله تعالى[2].

فـ«الأحد» اسم من أسماء الله الحسنى، وهو اسم عظيم؛ ولذلك كان شعار المسلمين في معركة بدر: «أَحَدٌ أَحَدٌ»، وكان بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عذَّبه المشركون بمكة في الرمضاء يصرخ ويقول: «أَحَدٌ أَحَدٌ، والله لو أعلمُ كلمة هي أغيظ لكم من هذه الكلمة لقلتها»[3].

وهذا تأسيس للعبودية في السورة؛ ففيها بيان أن الله عَزَّ وَجَلَّ «واحد أحد»، ولا معبود بحق معه، فكل ما يدعيه الناس من الآلهة والمعبودات مرفوض، وهي مجرد أسماء، كما قال تعالى: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم**﴾ [يوسف: ٤٠]، فالمعنى الأول في الأحدية: أن الله تعالى أحد في ذاته، ليس معه إله آخر؛ فلا خالق، ولا رازق، ولا مالك، ولا رب، ولا مدبر في الكون، إلا هو جل وعلا.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩٧٤)، وأبو داود (٩٨٥)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٨٥)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٩٦) (٧٠٢)، والحاكم (١/ ٢٦٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٧)، وفي «الدعوات الكبير» (١٠٧) من حديث مِحْجَن ابن الأدرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٤٤).

(٣) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٣٤)، و«طبقات ابن سعد» (٣/ ٢١٣- ٢١٤)، و«مسند أحمد» (٣٨٣٢)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (١٩١)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠٨٣)، و«المستدرك» (٣/ ٢٨٤)، و«تاريخ دمشق» (١٠/ ٤٣٩- ٤٤٤)، و«تحفة الصديق في فضائل أبي بكر الصديق» لابن بلبان (ص٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٨)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٠٠)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٥).

والله تعالى أحد في أسمائه وصفاته، فإن الله تعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، ما لا يحيط بكنهه أحد، ولا يدركه عقل، ولا يصل إليه ظن ولا وهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

ورؤية المؤمنين لربهم جل وعلا يوم القيامة كائنة كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ، أما ذاته عَزَّوَجَلَّ وعظمته ومجده وكبرياؤه وجلاله وجماله وكماله، فهو مما لا يحيط به خلقه، وهذا من أحديته في أسمائه وصفاته.

ومن أحديته عَزَّوَجَلَّ: استئثاره بأسماء لا يعلمها أحد ولم يطَّلع عليها مخلوق، ولهذا كان من جملة دعاء النبي ﷺ: «**أسألُكَ بكل اسم هو لك؛ سمَّيتَ به نفسكَ، أو أنزلته في كتابكَ، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندكَ...**» الحديث[١].

وأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعينَ اسمًا، مائةً إلا واحدًا، مَن أحصاها دخلَ الجنةَ**»[٢]. فلا يعني أن الأسماء محصورة في هذا العدد، وإنما المراد: أن من أسماء الله تعالى تسعة وتسعين اسمًا موجودة في القرآن والسنة، مَن أحصاها وفهمها وعمل بها دخل الجنة[٣].

وأحديته تعالى تفرض أن كل ما يكون من تصورات وخيالات تعرض للسامع أو القارئ عن الله تعالى، فإنما هي من إلقاءات الشياطين، أو من خيالات النفس، ولا اعتبار لها ولا قيمة، ولا يضر الإنسان أن تقع هذه الصورة والأخيلة على صفة من النقص؛ لأن «كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك»، ومما يُنسب إلى علي رَضِيَاللَّهُعَنْهُ في هذا المعنى قوله[٤]:

(١) أخرجه أحمد (٣٧١٢، ٤٣١٨)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧، ٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَاللَّهُعَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)، وما تقدم في «سورة الحشر»: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٣٥- ٤٢).

(٤) تقدم تخريجه في «سورة الحديد»: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

العجزُ عـن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ والبحثُ عن سِرِّ ذاتِ السِّـرِّ إشراكُ

أي: أنه يكفي الإنسان أن يدري ويدرك أنه عاجز عن الإحاطة بربه تبارك وتعالى.

ويكفي في هذا أن يتخيل الإنسان حجمه ومكانته بالنسبة إلى الأرض، والأرض بالنسبة إلى الكون، والبحار وأعماقها، وليتدبر قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨- ٣٩]؛ فإذا تدبر ذلك أدرك أنه مخلوق صغير لا يكاد يذكر، وأن عقله الذي يفكر به لو وضع في كأس لوسعه، فكيف يُريد أن يحيط بعلم الله تعالى؟

ومن لوازم أحديته: وجوب توحيده في إلاهيته، فلا يُعبد إلا الله، وجميع صور العبادة القلبية والحسية البدنية الظاهرة والباطنة لا يجوز أن تصرف إلا لله، وهذا مخُّ ما جاء به الأنبياء والمرسلون، كما قال تعالى حكاية عنهم أنهم خاطبوا أقوامهم: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢٦]، وهذا معنى: «لا إله إلا الله».

وبعض الناس يظن أنه لا خلاف في توحيد الربوبية مع المشركين، والصواب: أنهم وإن أقروا في بعض الحالات نظريًّا بأن الله الخالق، إلا أنهم سرعان ما يجحدون وينكرون، وإقرارهم كان عَرِيًّا عن تحقيق مقتضى هذا التوحيد، وإلا فهو باب عظيم من أبواب التدبر والتأمل والخشوع والإخبات، وهو مدخل وأساس لما بعده.

❊ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ٢﴾:

كُرر الاسم الظاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إعادته بالضمير ﴿هُوَ﴾ وكأن هذا على سبيل التلقين، كما يُلقن الطالب الذي يتعلم، فيذكر له أصل المسألة ثم يفرع عليها، فيقال- مثلًا-: الصلاة هي أقوال وأعمال، الصلاة أحد أركان الإسلام، الصلاة فيصل بين الإيمان والكفر والشرك، والصلاة صلة بين العبد وربه.

كما أن في تكرار الاسم الظاهر تأكيدًا لأهمية الخبر الآخر، المتعلِّق بالصمدية، فجاءت الآية الأولى بالخبر عن الله تعالى أنه ﴿أَحَدٌ﴾ أي: واحد لا شريك له، وجاءت الآية الثانية بخبر جديد يُراد له أن يكون بنفس قوة الخبر الأول، وهو أنه

تعالى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾.

و﴿ٱلصَّمَدُ﴾: الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها وتتوجَّه إليه(١).

وهذا قول جماعة من السلف والخلف، وهو قول أكثر أهل اللغة، بل قيل: إنه قول أهل اللغة كلهم، قال أبو بكر بن الأنباري: «قال أهل اللغة أجمعون، لا اختلاف بينهم في ذلك: الصمد عند العرب: السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم»(٢).

وهذا الذي رجَّحه الخطَّابي وغيره، فـ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: السيد العظيم الذي يتوجَّه إليه الناس بمطالبهم وحاجاتهم وسؤالهم، أي: سؤال المسألة والدعاء والتضرع والشكوى(٣).

وكلما تأملت هذا الاسم وجدت القلب يتزلزل منه ومن وقعه وثقله، حيث يدخل في معناه: أن الله تعالى غني غنًى مطلقًا عن الناس، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فهو يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويغني ويفقر، ويصح ويمرض، ويرفع ويخفض، غني عن خلقه، ولا يحتاج إلى شيء؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، أي: هل من العقل والرشد والحكمة أن أتخذ وليًّا غير الله تعالى، هو فاطر السماوات والأرض، الخالق المالك الرب، الذي يطعم الناس ولا يُطعم؟!

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٥)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٣)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٢٨)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٧).

(٢) ينظر: «الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأنباري (١/ ٨٣- ٨٤)، و«عمدة الكتاب» لأبي جعفر النحاس (ص١١٤)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٣٤)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٦)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١١).

(٣) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص٢٤١- ٢٤٥).

وكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مستغنٍ عن حاجة الأكل والشرب داخل في معنى ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾؛ لأنه ليس بحاجة إلى ذلك.

وذكر الطبري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾: «السيدُ الذي قد كمُل في سُؤْدَدِه، والشريفُ الذي قد كمُل في شرفه، والعظيمُ الذي قد عظُم في عظمته، والحليمُ الذي قد كمُل في حلمه، والغنيُّ الذي قد كمُل في غناه، والجبَّارُ الذي قد كمُل في جبروته، والعالـمُ الذي قد كمُل في علمه، والحكيمُ الذي قد كمُل في حكمته، وهو الذي قد كمُل في أنواع الشرف والسُّؤْدَد، وهو الله سبحانه، هذه صفته، لا تنبغي إلا له»[1].

ومَن فسَّر ﴿ٱلصَّـمَدُ﴾ بأنه الذي لا يأكل ولا يشرب، فهذا من باب تفسير الاسم ببعض معانيه، وهو منقول عن الصحابة والتابعين وبعض أهل اللغة، إلا أنه داخل في المعنى الأول[2].

* كما أن صمديته تعالى وغناه المطلق يتضمن أنه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمْ يَـلِدْ وَلَـمْ يُولَـدْ ۝٣﴾، وذلك لأن الإنسان يحتاج إلى الوالد، ويحتاج إلى الولد، ويحتاج إلى النظير والشبيه، وهذا أمر جبل تعالى عليه الناس، أما هو سبحانه فهو غني بذاته عما سواه.

كيفية مجيء وصف الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن والسنة:

ويُلحظ في هاتين الآيتين أن الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بطريق السلب، أي: نفي صفات النقص، والأصل في تقرير الاعتقاد في القرآن والسنة أن يأتي غالبًا بالإثبات المفصَّل المطوَّل لصفات الكمال، والنفي المجمل، فيفصِّل في إثبات الأسماء والصفات لله تعالى، كما في آخر «سورة الحشر».

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣٦).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٣١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٤)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٦٢)، والمصادر السابقة.

أما النفي فيُؤتى به على سبيل الإجمال لا التفصيل؛ لأن الأشياء المذمومة السلبية التي يُراد نفيها كثيرة لا يأتي عليها الحصر، كما أنه ليس من مقام التعظيم والأدب مع الربوبية أن يُوصف الله تعالى بسلب النقائص عنه مجردة؛ إذ نفي النقائص على التفصيل لا رفعة فيه لـمَن نُفيت عنه؛ ولذا كانت طريقة القرآن هي الإثبات المفصل المستفيض المطول، والنفي المجمل الذي جاء لمناسبة.

ومن أمثلة النفي المفصل: ما جاء هنا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

ومناسبة النفي - والله أعلم - هو لكون بعض الناس قد قال بهذا القول، فاحتاج الأمر إلى نفيه، كقول اليهود: إن الله تعالى خلق الخلق فتعب فاستراح يوم السبت، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1] [ق: ٣٨].

ولما ادَّعى فريق من الناس أن لله تعالى ولدًا، كقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وكزعم العرب أن الملائكة بنات الله، رد على هؤلاء جميعًا ونفى الولد.

والفرق بين ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ و﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] هو أن قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ **يحتمل معنيين:**

الأول: أنه لم يلد.

الثاني: أنه لم يتخذ ولدًا، ولو لم يكن على سبيل الولادة، ولكن على سبيل نسبته إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فنفى الأمرين معًا.

وقدَّم تعالى نفي الولد على الوالد، مع أن الذي يجيء أولًا هو الأب؛ لأن الولد هو المدعى لله تعالى، وليس هناك أحد ادعى أن لله تعالى والدًا، فكان المناسب أن يبدأ بنفي ما يدعيه الجاهلون من اليهود والنصارى ومشركي العرب

(١) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص٣٩٧).

ومَن على شاكلتهم، فقال: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾.

فإن قيل: إذا لم يثبت عن أحد ادِّعاء الوالد لله عَزَّوَجَلَّ، فما السر في نفيه هنا؟

فيجاب عن ذلك بأجوبة:

١- يحتمل أن يكون ذلك جوابًا لقريش حين قالوا للنبي ﷺ: أُنسب لنا ربك[1]! لأنهم ربما سألوا هذا على سبيل التعنت، فقال الله تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾.

٢- أنه من باب المقابلة؛ لأن النسب له عمودان: الولد والوالد، فلما نفى الولد ناسب نفي العمود الآخر وهو الوالد.

٣- الإشارة إلى أنه عَزَّوَجَلَّ ليس قبله شيء، فقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ يتضمن معنى: أن الله تعالى أول ليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ [الحديد: ٣]، وكما قال النبي ﷺ: «**أنت الأولُ، فليس قبلك شيءٌ**»[2].

٤- أنه في مقام الحجة، فلما قال تعالى: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ ونفى ما كانوا يدعون قال: ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾. وفي هذا إقامة للحجة عليهم، ونفي وجود الولد، وكأن المعنى: أن الذي يكون له ولد يكون له والد، فلما نفى الله تعالى الولد نفى الوالد، وبيَّن ما في دعواهم الباطلة من الخطأ العظيم، والجهل الفاضح.

* ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾:

وهذا ختام لهذه السورة العظيمة، وإشادة بمعناها العظيم.

وخاتمة ما يقال في هذه السورة العظيمة أن رحاها تدور حول ثلاثة معانٍ:

١- أن الله تعالى أحد في ذاته وأسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته.

٢- أنه الغني السيد الكريم المتفضِّل الـمُعطي لعباده.

---

(١) تقدم في أول السورة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٣- أن الله تعالى ليس له كفؤ ولا شريك ولا مثيل، ولا نِدَّ ولا نظير.

فتضمنت السورة أصل التوحيد وفصله وبدايته ونهايته، وبهذا يتبين أن هذه السورة مع «سورة الكافرون» تتضمنان لباب التوحيد والإيمان بالله تعالى، والبراءة من الشرك.

سُورَةُ الفَلَق

*** تسمية السورة:**

لها أسماء عديدة، من أشهرها:

«**سورة الفلق**»، وهكذا هي في المصاحف، وكتب التفسير[1].

وسماها النبيُّ ﷺ في عدد من الأحاديث: «**سورة ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾**».

فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال له: «**ألم ترَ آياتٍ أُنزلت الليلةَ، لم يُرَ مثلُهنَّ قطُّ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**»[2].

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال له: «**لن تقرأَ شيئًا أبلغَ عند الله من: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾**»[3].

وبذلك سمَّاها بعض المفسرين والمحدِّثين والأئمة في كتبهم[4].

وتسمَّى مع ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ بـ«المعوِّذتين».

ورد ذلك في بعض طرق حديث عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المتقدِّم، وعلى لسان بعض

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٦١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤١)، و«المستدرك» (٢/ ٥٤٠)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥١)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) أخرجه أبو عُبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٧١)، وأحمد (١٧٣٤١، ١٧٤٥٥)، وابن الضُّريس في «فضائل القرآن» (٢٨٢)، والنسائي (٢/ ١٥٨)، وابن حبان (٧٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٩٦)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٤٩٩).

(٤) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٦)، و«صحيح البخاري» (٦/ ١٨١)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (٥/ ١٧٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم(١)؛ لأن المسلم يتعوَّذ بهما.

وتُسمَّيان مع ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بـ«المعوِّذات». ورد ذلك في غير حديث، وكان النبيُّ ﷺ إذا اشتكى نَفَثَ على نفسه بالمعوِّذات، وكان إذا مرض أحدٌ من أهله نفثَ عليه بالمعوِّذات(٢).

* **عدد آياتها:** خمس آيات بلا خلاف(٣).

* **توقيت نزولها وسببه:**

الجمهور على أنها نزلت في مكة، وهو الأصح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، كما رواه كُريب وغيره، وهو قول الحسن وعطاء.

وقال قتادة وجماعة- وهو رواية عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: إنها نزلت بالمدينة(٤).

* **وأما سبب نزول السورة:** فالمشهور أنها نزلت بسبب سحر لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي لرسول الله ﷺ، كما جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن لَبِيد بن الأَعْصم سحر النبيَّ ﷺ في مُشْط ومُشَاطة- والـمُشَاطة هي: الشعر المجتمع- فوضعها في جُفِّ طَلْعةِ ذكرٍ- أي: في الغلاف الذي يكون فيه طلع النخل- ثم وضعها في

---

(١) ينظر: «مسند الطيالسي» (٥٤٣، ١٠٩٦)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٩)، و«مسند أحمد» (١٧٢٩٩، ١٧٣٢٢)، و«صحيح البخاري» (٤٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٨١٤)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) ينظر: «مسند أحمد» (١٧٤١٧، ١٧٧٩٢)، و«صحيح البخاري» (٤٤٣٩، ٥٠١٦، ٥٠١٧، ٦٣١٩)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٢)، و«سنن أبي داود» (١٥٢٣)، و«المرض والكفارات» لابن أبي الدنيا (١٨٨)، و«زاد المعاد» (١/ ٢٩٤، ٤٧٧)، و«هدي الساري» (ص١٦١)، و«فتح الباري» (٨/ ٢٣١- ١٣٢)، (٩/ ٦٢).

(٣) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٥٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤).

(٤) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥١٧).

بئر بالمدينة يُقال له: بئر ذَرْوَانَ، أو: ذي أَرْوان، وتأثر النبيُّ ﷺ بهذا السحر تأثرًا ظاهرًا في أشياء معينة كان يلاحظها أزواجه وأهل بيته القريبون منه، دون أن يؤثر ذلك في أمر آخر وراء هذا، ولم يلاحظ الناسُ عليه ﷺ من هذا شيئًا، ثم نزل جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزل معه مَلَكان، فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما به؟ قال: مَطْبُوبٌ. ثم قرأ عليه هذه السورة، فشُفِي النبي ﷺ، ثم بعث عليًّا وأمره أن يردم هذا البئر والقَلِيب الذي وجد فيه السِّحر، فقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أفلا أحرقته؟ يعني: إخراج السحر وإحراقه، فقال: «**لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهتُ أن أُثيرَ على الناس شرًّا**»(١).

وهذا يحتمل أن يكون سببًا لنزول السورة، وعليه تكون السورة مدنية، ويحتمل أَلَّا يكون هو سبب نزولها، وإنما تكون السورة نزلت قبل ذلك بمكة، كما هو في المصاحف وغيرها، وهو قول جمهور المفسرين كما ذكرنا، فنزل الملَكَ بقراءتها على النبي ﷺ لبيان أنها رُقية(٢).

ولذا رُوي أنها نزلت لما ندبت قريش رجلًا منها مشهورًا بالإصابة بالعين؛ ليلحظ النبيَّ ﷺ ويعينه(٣).

* ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ۝١﴾:

الاستفتاح بـ﴿**قُلْ**﴾ سأل عنه أبيُّ بنُ كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ ﷺ- كما في «صحيح البخاري»- فقال النبيُّ ﷺ: «**قيل لي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فقلتُ**»(٤).

وهو خطاب من الله للنبي ﷺ، وللناس أن يقولوا هذا، فبلَّغه النبيُّ ﷺ كما أُنزل عليه؛ لأنه وحي لا يتصرف فيه؛ ولأنها تعويذة من الله تعالى للنبي ﷺ وللمسلمين

(١) أخرجه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٣١)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٠)، والمصادر الآتية.

(٣) ينظر: «الكشاف» (٤/ ٥٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٣٥٤- ٣٥٥)، و«تفسير الرازي» (٣٠/ ٦١٨)، (٣٢/ ٣٦٨)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٥٢٧)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٥٩٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٤)، وينظر أيضًا: «أسباب النزول» للواحدي (ص٤٤٣).

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (٤٩٧٦).

عامة، فإثبات لفظ ﴿قُلْ﴾ واجب لا بد منه من أجل صحة المعنى.

والعَوْذ هو: الاعتصام والالتجاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد أُمر النبيُّ ﷺ بالاستعاذة به تعالى في مواضع عديدة في القرآن بحسب المقام، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، وكقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧- ٩٨].

فإن قيل: ما سر التفريق في الاستعاذة بين ذكر لفظ الجلالة «الله» عند استفتاح القرآن الكريم، وذكر «الرب» في غيرها من المواضع؟

فالجواب: أن «الله» هو الرب سبحانه، **لكن اختيار لفظ الجلالة «الله» له أسرار ومعانٍ فيما يتعلق بافتتاح القرآن الكريم، منها:**

١- أن اسم «الله» هو الاسم العظيم، وهو الاسم العلم، وهو اسم الجلالة، فالبداءة به فيما يتعلق بقراءة كلام الله تعالى هو المناسب.

٢- أن الاستعاذة به أخصر وأقصر من قول: «أعوذ برب الفلق»، أو «أعوذ برب الناس»، أو «أعوذ بربي»، أو ما أشبه ذلك، وأسهل تناولًا وتداولًا في اللسان، فإن لفظ «الله» من أخف الألفاظ على اللسان مع عظمة معناه، وكل حروفه سهلة تنساق على اللسان؛ ولذا يقرأها الصبي الصغير، ويقرأها العجمي، ولا يقع فيها شيء كاللَّثْغة في راء «الرب»، ونحو ذلك، فلحاجة الصغير والكبير إليها عند القراءة كان لفظ الجلالة مما يستعاذ به عند قراءة القرآن الكريم.

٣- قراءة القرآن عبادة لله عَزَّوَجَلَّ، والعبادة يتناسب معها لفظ الجلالة «الله»، أي: المألوه المعبود.

وأما الاستعاذة من ضرر المخلوقات وشرها، فالمناسبة فيها أن تكون باسم «الرب» الذي هو رب المخلوقات وخالقها، إذ معنى «الرب»: الخالق المالك المدبِّر المتصرِّف، فذكر لفظ «الربوبية» هنا أولى من ذكر لفظ «الإلهية»؛ فـ«الإلهية» تُذكر في مقام العبادة، أما «الربوبية» فتُذكر في مقام الاستعاذة من

الخلق ومن شرِّهم.

والفلق هو: الصباح، وبهذا قال كثير من المفسرين(١).

ويشهد لهذا: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ: «كان لا يرى رُؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصُّبح»(٢). فعلى هذا يكون المقصود أن يستعيذ برب الصبح إذا انفلق وانفتح.

وهذا معنى جيد، **والأجود منه أن يقال:** إن المقصود بـ«الفلق»: كل شيء مما يمكن أن ينفلق وينشق وينفتح فيظهر ما بداخله، فيدخل فيه الصباح والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، والرحم إذا انفتق عن المولود، والعدم إذا انفتق عن الموجود، فالاستعاذة على هذا المعنى أوسع من مجرد الاستعاذة برب الإصباح أو رب النهار؛ إذ هي استعاذة برب المخلوقات كلها؛ كما ذكر بعض أهل اللغة، كالزَّجَّاج وغيره أن الخلق يكاد أن يكون كله عبارة عن فلق(٣).

وعبَّر بـ﴿ٱلۡفَلَقِ﴾ دون لفظ «الخلق» للتنويع بين الألفاظ وتجنب تكرارها، حيث ذكر «الخلق» في الآية التي بعدها.

وكذلك في ﴿ٱلۡفَلَقِ﴾ حركة وانتقال، كخروج الأجنة من الأرحام، وخروج النبات من الأرض، وخروج الشمس من أفقها، وفي هذا من البشارة والإيذان بالفتح والفرج من عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وهو معنًى عظيم؛ لأن الفَلْق يشمل كل مخلوق جديد يطرق ناموس هذا الكون بإذن ربه تبارك وتعالى.

فمَن نزل به خوف أو ضيق أو همٌّ أو كرب، فليتذكر «رب الفَلَق» الذي يفلق

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٦١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤٣)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٨)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦١٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٣) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٣٧٩)، والمصادر السابقة.

الإصباح، ويفلق الحب والنَّوَى، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وكل يوم هو في شأن، فيخلق ويرزق ويحيي ويميت.

فكلمة «الفلق» توحي بهذا المعنى العظيم الذي يحيي تفاؤلًا في القلب.

و«رب الفلق» يشفي المريض من مرضه بعدما أيس من العلاج.

و«رب الفلق» يأتي بالغنى واليسار والخير والسعة بعدما ضاقت على الإنسان أسباب الدنيا وأسباب العيش.

وهكذا على المؤمن أن يظل مستحضرًا هذا المعنى العظيم؛ لأنه من جملة ما كان يستعيذ به النبي ﷺ.

وهذه السورة استعاذة بالله وبكلماته، وكلمات الله نوعان:

١- كلمات قدرية.

٢- كلمات شرعية.

والكلمات القدرية هي الكلمات التي بها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويرفع ويخفض.

والكلمات الشرعية هي الأمر والنهي، أي: ما ينزل على الرسل والأنبياء من الكتب والأوامر والنواهي والبلاغ.

والكلمات الشرعية كلها صدق وحق وعدل، كما قال تعالى: ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا**﴾ [الأنعام: ١١٥]، فليس فيها إلا الصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام، فهي خير محض.

وأما الكلمة القدرية، فهي خير في ذاتها، والشر معها يتعلق بالمخلوقات لا بها.

* ﴿**مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴿٢﴾﴾:

﴿**مَا**﴾ موصولة، أي: من شر الذي خلق.

والعموم في الآية ليس مقصودًا، وإنما الاستعاذة هنا من شر المخلوقات التي فيها شر؛ لأن من المخلوقات ما لا شر فيه، كالملائكة والرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،

وكالجنة، فلا يستعيذ الإنسان منها، ولذلك لما تزوج النبيُّ ﷺ الـجَوْنية ودخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. فقال لها النبيُّ ﷺ: «**قد عُذْتِ بمَعَاذٍ**»(١).

وجاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ كلِّ دابة أنت آخذٌ بناصيتها**»(٢).

وكان ﷺ يقول عن الرِّيح: «**اللهمَّ إني أسألُكَ خيرَها، وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسلت به، وأعوذُ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلت به**»(٣).

فيدخل في الآية الاستعاذة من شر الأشرار، وكيد الفجار، وما اختلف به الليل والنهار، وشر الحيوانات، والهوام، والسباع، والجن، والإنس، والمخلوقات الضارة مما يُعلم وما لا يُعلم، بل يدخل فيها الاستعاذة من شر المستعيذ نفسه، فإن النبيَّ ﷺ علَّم أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطان وشِرْكه**»(٤). وعلَّمنا أن نقول: «**نعوذُ بك من شُرور أنفسنا**»(٥).

وبين الآيتين الأولى والثانية تناسب في العموم، فهي استعاذة عامة من شرٍّ عام.

ونسبة الشر إلى الخلق في قوله تعالى ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ إشارة إلى أن الشر ليس في فعل ربنا تبارك وتعالى، وقد كان ﷺ يقول: «**والشَّرُّ ليس إليك**»(٦). فالشر ليس إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذا كانت أسماؤه كلها حسنى؛ ففعله ذاته ليس فيه شر، وإنما الشر في مخلوقاته(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٨٩٩) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه الطيالسي (٩، ٢٧٠٥)، وأحمد (٥١، ٦٣)، وأبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، وابن حبان (٩٦٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٣).

(٥) أخرجه الطيالسي (٣٣٦)، وأحمد (٣٧٢٠)، وأبو داود (١٠٩٧)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢)، والنسائي (٣/ ١٠٤)، والحاكم (٣/ ٨٢) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٧) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف.

* ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③﴾:

الغاسق هو: الليل، وهو قول جماهير المفسرين وأهل اللغة(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقيل: المقصود بغسق الليل: منتصف الليل.

ولهذا قال الفقهاء: إن وقت العشاء الآخرة يمتد إلى نصف الليل، واستدلوا بهذه الآية(٢).

وخصه؛ لأنه يشتد ظلامه ويسوَد، وهذا وقت المكر والكيد.

وفي تكرير لفظ «الشر» إشارة إلى أن الغاسق الذي هو الليل ليس شرًّا محضًا، وإنما فيه الخير وفيه الشر، وهو وقت يمكن أن يكون سببًا للقُربى والزُّلفى إلى الله تعالى، ويمكن أن يكون سببًا في الإضرار بالعباد وبالنفس، فيستعاذ من شره وينتفع بخيره.

وقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ يقرب أن يكون معناه: إذا دخل ظلامه وتسلَّل وغطَّى كل شيء(٣).

وجاء في بعض الروايات: أن «الغاسق إذا وقب» هو القمر، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي، ثم أشار إلى القمر، فقال: **«يا عائشةُ، استعيذى بالله من شرِّ هذا؛ فإن هذا هو الغاسقُ إذا وقب»**(٤). وسند الحديث ليس

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٦١)، و«تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٦)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤٥)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٥)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٣٨)، و«زاد المسير» (٤/ ٥٠٩)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٥٦)، وينظر أيضًا: «غريب الحديث» لأبي عُبيد (٢/ ١٩٤)، و«غريب الحديث» للحربي (٢/ ٧١٥)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص٦٠٦)، و«لسان العرب» (١/ ٨٠١)، و«تاج العروس» (٢٦/ ٢٥١) «غ س ق».

(٢) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (٣/ ٢٥٩)، و«المجموع» (٣/ ٣٩)، و«الشرح الممتع» (٢/ ١١٥)، و«تفسير آيات الأحكام» للسايس (ص٤٨٧)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (٢/ ٧٢).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٤٩)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٤)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢١)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٣)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٢٧).

(٤) أخرجه الطيالسي (١٥٨٩)، وأحمد (٢٤٣٢٣، ٢٥٨٠٢)، والترمذي (٣٣٦٦)، والحاكم (٢/ ٥٤٠). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٧٢).

به بأس.

والجمع بينهما: أن القمر علامة الليل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

فحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لا يعارض القول بأن الغاسق إذا وقب هو الليل، فالقمر من آياته، وهو جزء من المدلول العام لهذه الآية.

وهدوء الليل وسكينته ولباسه وسكنه هو في وقت الظلام، فإذا جاء الظلام وذهب النور نشطت شياطين الإنس والجن وأهل السوء، وأهل الريب والشر والفساد.

فهو لفئات من الأشرار فرصة للمكر والحيلة والغدر والشر، وأكثر ما تقع جرائم السرقة والسلب والنهب والقتل والمؤامرات والغدر والفواحش وغيرها في الليل، وأكثر ما يقع السكر والعُهر وتجمع أرباب الفسوق والغفلة والشهوات هو في الليل، فلذلك استعاذ من شره.

ومع ذلك فإن الليل هو محل العبادة، وأُنس الذاكرين بربهم، ووقت السكن والبحث والعلم والسَّمَر المباح، ولهذا رُوي في الحديث: «**لا سَمَر إلا لمُصلٍّ أو مسافرٍ**»(١). فالمسافر في الليل يقطع طريقه بهدوء، كما قال ﷺ: «**عليكم بالدُّلْجة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل**»(٢).

وقيام المصلِّي فيه مما أثنى الله تعالى عليه، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١- ٢].

ويلحظ هنا التناسب الشديد بين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وبين

---

(١) أخرجه الطيالسي (٣٦٣)، وأحمد (٣٩١٧، ٤٢٤٤)، ومحمد بن المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٠٩)، و«قيام الليل» (١/ ١١٥- مختصره للمقريزي)، والبيهقي (١/ ٤٥٢). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٤٣٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٠٩١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٧٢٥) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وأخرجه أبو داود (٢٥٧١)، وأبو يعلى (١٥٩)، وابن خزيمة (٢٥٥٥)، والحاكم (١/ ٤٤٥)، (٢/ ١١٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٨١).

الآيتين اللتين بعده، فمعناه العام- الذي هو الفتح والشق- يناسب الاستعاذة من شر ما خلق، أي: من شر كل شيء، ومعناه الخاص- الذي هو الإصباح- يناسب الاستعاذة من شر الليل الغاسق إذا وقب، فكأنه قال: أعوذ برب النهار والنور من الظلام والليل.

وفي الآيات إشارة إلى التفاؤل بغلبة الخير على الشر، فقد نُسب الفلق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، في حين نُسب الشر إلى الخلق، والغالب هو الخالق سبحانه.

* ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾:

النفث هو: النفخ مع شيء من الرِّيق[1]، **والنفاثات في العقد فيها أقوال**[2]:

١- قد يراد بها النفوس الشِّرِّيرة التي تنفث وتتعاطى حرفة السحر، فتقوم بعقد بعض الحبال والنفث عليها بتعاويذ شيطانية ورقًى شركية بقصد الإضرار بشخص معين، أو التأثير عليه.

ونسب الله تعالى الشر إلى النفاثات لا إلى النفث؛ لأن النفث نفسه لا يضر، وإنما التي تضر هي النفوس التي تقوم بهذا النفث، وبهذا الكيد والمكر، ولذلك سميت بـ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، وإن كانت تمارس أعمالًا أخرى في إلحاق الضرر بالشخص.

٢- أنها الجماعات، سواء كانوا رجالًا أم نساءً، ففي بعض البلدان تعقد مؤتمرات جماعية للسَّحَرة، وفي اجتماعهم من الضرر والشر ما ليس في عمل الفرد الواحد، فيكون ذلك أبلغ في الشر وإلحاق الأذى.

٣- وأما القائلون بتخصيص النفاثات في العقد بالنساء دون الرجال، فيحتاجون إلى بيان وجه تخصيص النساء دون الرجال في موضوع السحر؛ مع

---

(١) ينظر: «لسان العرب» (١١/ ٧٧)، و«تاج العروس» (٥/ ٣٧٣) «ن ف ث».

(٢) ينظر: «تفسير ابن فورك» (٣/ ٣٠٧)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٦)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٤)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٦٠٢)، و«فتح القدير» (٥/ ٦٤٠)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٧٦).

أنه قد يقع من هؤلاء وهؤلاء.

وقال بعضهم: إن المقصود به بنات لَبِيد بن الأَعْصم؛ لأنهن قُمن بسحر النبي ﷺ.

وقال بعضهم: إن السحر عند النساء أكثر منه عند الرجال، وهذا ليس ببعيد؛ لأن كثيرًا من النساء يلجأن للسحر حتى تؤثِّر على زوجها وتعطِفُه إليها، أو تصرفه عن امرأة أخرى، أو تكيد بالسحر لغيرها، أو تستميل قلب من عشقته إليها، ثم تتعاطاه بعد ذلك.

٤- وذكر أبو مسلم الأصفهاني أن النفاثات في العقد: النساء اللاتي يؤثِّرن في عزائم الرجال، واعتبر أن العُقد هي العزيمة، أي: عزيمة الرجل على أمر، فقد تؤثِّر عليه المرأة، فتحدث له التراجع عما أراد بسبب تأثيرها وكيدها ونفثها وحلو حديثها[(١)].

وهذا القول وإن كان ظاهره لا بأس به، إلا أنه لا يساعده السياق والرواية.

٥- وقيل: المشَّاءات بالنميمة، وهو قول الشيخ محمد عبده، ومَن تابعه وأخذ عنه[(٢)]، ولم أجده منسوبًا إلى أحد من أئمة السلف وعلمائهم، إلا أن يشبه قول أبي مسلم الأصبهاني.

والمختار أن المقصود بالنفاثات في العقد: السَّواحر من النساء، أو السَّحَرة من الرجال والنساء على سبيل العموم، أو النفوس الشريرة التي تتعاطى السحر وتُؤذي به عباد الله تعالى.

و(ال) في ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ جنسية، وهذا من باب التنويع في السياق؛ فقد نكَّر ما قبلها فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾، ثم أدخل (ال) على النفاثات، ثم عاد إلى النكير،

---

(١) ينظر: «تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٤)، و«تفسير النيسابوري» (٦/ ٦٠٢)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ٥٧٦).

(٢) ينظر: «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٦٧)، و«التفسير القرآني للقرآن» (١٦/ ١٧٢٣)، و«التفسير الوسيط» (١٠/ ٢٠٥٧- مجمع البحوث الإسلامية)، و«التفسير الواضح» (٣/ ٩٢٢).

فقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، وإلا فالكل نكرة.

ويحتمل أن التعريف في قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ لبيان أن فعل النفاثات لا يكون إلا شرًّا، فيستعاذ منهن استعاذة مطلقة، بخلاف شر الغاسق إذا وقب؛ إذ فيه الخير والشر، والحاسد إذا حسد قد يضر حسده المحسود وقد لا يضره.

* ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾:

الحسد: ما يقع في قلب الإنسان بسبب النعمة التي أنعم الله تعالى بها على أحد من الخلق.

وإنما أمر تعالى بالاستعاذة من شرِّ الحاسد إذا حسد؛ لأنه ما من نفس إلا وفيها شيء من الحسد، كما قال بعض السلف: «ما خلا جسدٌ من حسد، ولكن اللَّئيم يُبديه، والكريم يُخفيه»(١). وهذا ليس على إطلاقه، وقد قال محمد بن سيرين: «ما حسدتُ أحدًا قطُّ، بَرًّا ولا فاجرًا»(٢).

فالحسد باعتباره شعورًا يقع في القلب ليس بغريب، بل يقل أو يندر أن يسلم منه أحد، كما ذكر ابن رجب الحنبلي وغيره(٣)، خاصة بين الأقران والمشتركين في عمل أو فنٍّ واحد.

فالحاسد إذا حسد يُستعاذ منه، أما الحاسد إذا كتم واستعاذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ولم يؤذ أحدًا، فلا يدخل في هذا؛ لأن هذا من طبع بني آدم.

وحسد الحاسد تقع منه العين، و«**العينُ حقٌّ**»، كما قال النبي ﷺ: «**ولو كان**

---

(١) ينظر: «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص٢١)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥)، و«المقاصد الحسنة» (٩٥٥)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٢١٩).

(٢) أخرجه الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٧)، والدينوري في «المجالسة» (٧/ ٦٧) (٢٩٣١)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص١٣٤، ١٣٥)، وأبو الشيخ في «التوبيخ والتنبيه» (٨٣)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٨٤٥).

(٣) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٠).

شيءٌ سابقَ القَدَرِ سبقَتْه العينُ»[١]. وورد: «**إن العينَ تُدْخِلُ الرجلَ القبرَ، وتُدخِلَ الجملَ القِدْرَ**»[٢].

وقال ﷺ في رقية المريض: «**باسم الله أَرْقِيكَ، من كلِّ شيء يُؤذيكَ، من شرِّ كلِّ نفسٍ أو عينِ حاسد، اللهُ يشفيك، باسم الله أَرْقِيكَ**»[٣]. فإذا رأى الإنسان شيئًا فاستحسنه، ووقع في قلبه نوع من الحسد وتمنِّي زوال هذا الأمر عن هذا الإنسان، فإنه قد يضره.

والشريعة جاءت ببيان حصول هذا الأمر، وأما كيفية حصوله فهذا إلى الله سبحانه، ولا داعي لأن نقحم هذا الكلام في تفسير كلام الله عَزَّوَجَلَّ.

والحسد قد يقع من الأخيار، فقد سُئل الحسن البصري: أيحسدُ المؤمنُ؟ فقال: «لا أبا لك! أنسيت إخوة يوسف؟!»[٤]. أي: أنهم حسدوه وكادوا له، وعملوا ما عملوا وهم أنبياء وأبناء أنبياء.

والحسد كثيرًا ما يؤثِّر في علاقة الناس بعضهم ببعض، وغالبًا ما يكون بين الأقران، بل قد يقع بين المخلصين المنطلقين في طريق واحد من الخير.

فالواجب أن يستعيذ المؤمن منه وأن يجاهد نفسه، ولا يستجيب للخواطر المريضة، ومَن اجتهد وجاهد، فإنه يستطيع أن يتخلص من هذا الداء، وعليه أن يكثر من الدعاء في سجوده لمَن يظن أنه حسده، وأن يثني عليه خيرًا بلسانه في المجالس، وأن يعينه بما يستطيع، حتى يرغم أنف الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٩٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٧) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٢٤٩).

(٣) أخرجه مسلم» (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد الخُدْري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) ينظر: «عيون الأخبار» (٢/ ١٢)، و«نثر الدر» لأبي سعد الآبي (٥/ ١٢٨)، و«التمهيد» (٦/ ١٢٦)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٢٥)، و«بدائع الفوائد» (٢/ ٢٣٦).

سُورَةُ النَّاسِ

*** تسمية السورة:**

لهذه السورة أسماء عديدة:

أشهرها: «**سورة الناس**»[1].

وسمَّاها النبيُّ ﷺ: «**سورة** ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[2].

وهي مع «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾» تسميان بـ«**المعوِّذتين**»، كما تقدم في «سورة الفلق».

وتُسمَّيان مع ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بـ«المعوِّذات»، كما تقدم في «سورة الفلق».

*** عدد آياتها:** ست آيات، **وقيل:** سبع[3].

*** توقيت نزولها:**

الخلاف فيها كالخلاف في «سورة الفلق»، والجمهور على أنها مكية، وهو القول الراجح عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقيل: مدنية؛ باعتبار أنها نزلت بسبب قصة لَبِيد بن الأَعْصم اليهودي وسحره

---

(١) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص٧٦٢)، و«تفسير مقاتل» (٤/ ٩٤١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» للنحاس (٥/ ٣٨١)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥١٠)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣١).

(٢) ورد ذلك في حديث عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ينظر ما تقدم في «سورة الفلق».

(٣) باعتبار قوله: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ رأس آية، واطلعنا على بعض المصاحف كذلك. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص٢٩٨)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٦)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص٣٢٧)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (٢/ ٥٦٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٢).

للنبي ﷺ(١).

وفي هذه السورة جوانب يحسن التنبه إليها مع «سورة الفلق»، ففي «سورة الفَلَق» علَّمنا سبحانه أن نستعيذ بـ«رب الفَلَق»، ولم يذكر إلا هذا الاسم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم ذكر الاستعاذة من أربعة شرور، ومرجعها إلى ثلاثة؛ لأن الأمر الأول منها عام: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، ثم فصَّل ثلاثة أشياء: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

أما في هذه السورة فنلاحظ العكس؛ حيث إنه أمر بالاستعاذة بثلاثة أسماء من أسمائه عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾، ثم ذكر المستعاذ منه، وهو شيء واحد، وهو ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾.

* ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾:

بين «الرب» و«الإله» فرق، فـ«الرب» هو: الخالق المالك المتصرِّف، أما «الإله» فهو المعبود.

أما سر ذكر «الملك» مع «الرب»، مع أن «الرب» يتضمن معنى «الملك»، **فلعل ذلك لمعانٍ، منها:**

١- أن الناس من عادتهم إذا أصابتهم نازلة أن يلجؤوا إلى أكابرهم وملوكهم، فيطلبون منهم الحماية، وأقصى ما يتمناه الإنسان في الدنيا إذا خاف من شيء أن يكون في حماية «المَلِك»؛ لتكون كل قوى الملك في خدمته وحفظه ووقايته.

فكان للتنصيص على اسم «المَلِك» معنًى مباشرًا أن ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ يحميه، وإذا حماه «المَلِك» فلا يضره أن يكون البشر والعبيد والجنود والرعية

---

(١) ينظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٢١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٣)، و«تفسير الماتريدي» (١٠/ ٦٥٩)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٣٤١)، و«تفسير السمعاني» (٦/ ٣٠٨)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٣٣٦)، و«المحرر الوجيز» (٥/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٤/ ٥١٠)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣١).

معه أو ضده، كما يقال:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونُها نَمْ، فالمخاوفُ كلُّهن أمانُ

٢- أن الضرر غالبًا ما يلحق الناس من الأكابر، من الملوك ومَن حولهم من الأعوان والحاشية.

وكانت العرب تخاف من ملوك الجن، ويستعيذون بهم إذا نزلوا واديًا من شرِّ سفهائهم، وكذلك السَّحَرة؛ فإنهم كثيرًا ما يعوِّلون على ملوك الجن الذين يطيعونهم، ويأتمرون بأمرهم، وينصاعون لأقوالهم.

واليوم صار للملوك معنى أوسع لا يختص بذوي السلطة السياسية، بل يتعدَّاها إلى النفوذ العالمي، كالنفوذ الإعلامي أو الاجتماعي.. وأباطرة الإعلام يبثون للناس عبر تقنياتهم كمًّا هائلًا من التأثيرات المثيرة للغرائز والمهيِّجة للعواطف، مما يشكِّل مادة استهلاكية تمنحهم متعة عابرة، وتسرق من جيوبهم دخلهم المحدود.

ومثلهم أباطرة الموضة الذين يتحكَّمون في أذواق الناس، ويتدخلون في أخص خصوصياتهم، ويفرضون عليهم ما يلبسون، حتى يصبح هذا قانونًا عامًّا يصعب على الفرد مخالفته أو الخروج عنه، وهم يملكون المال والدعاية والمصانع والإعلان، ويشتغلون على تحريك وساوس الناس بالشهوات المغرية أو بالشبهات المشكِّكة.

ولهذا جاء التأكيد على معنى «الملك» لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الأمر بيده، والسلطان له، وهذا معنًى مناسب لأن يستعيذ الإنسان من شرِّ أولئك الملوك الذين يسطون سلطتهم على كثيرين، وكأنهم وكلاء عن الشيطان.

وقد ذكر السياق «الناس» ثلاث مرات، ولم يقل: «أعوذ برب الناس وملكهم وإلههم»، وهذا يسمى: إقامة الظاهر مقام المضمر.

وفي الآيات التكرار الحلو العذب على اللسان، فإن الإنسان يقرأ السورة ويستشعر جمال المعنى، ويجد الكلمة في سياقها ملائمة لا ينوب غيرها عنها،

والتكرار فن في لغة العرب وأسلوب القرآن، ومنه تكرار مالكِ بن الرَّيْبِ لبعض الألفاظ في قصيدته المشهورة التي قالها في مرض الموت، وفيها[1]:

فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عَرْضَه   وليت الغضا ماشى الركابَ لياليا
لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا   مزارٌ ولكنَّ الغضا ليس دانيا

فتكرار كلمة ﴿ٱلنَّاسِ﴾ احتفاءٌ بالناس الذين يذكرهم ربهم في آخر سورة في المصحف، وفي نهاية كل آية من السورة.

ويعرِّف نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه: ربهم وملكهم وإلههم، وهو ربُّ كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء.

إن الناس وحدهم هم المتعبَّدون بالأمر والنهي، بخلاف الملائكة والطيور والأشجار والجمادات وغيرها؛ فإنها مسخَّرة بأمر ربها.

والناس من شأنهم أن يطيعوا فيُشكَروا ويجزوا بالجنة، أو يعصوا ويكفروا فيجزوا بالنار، فهي تبعة ومسؤولية يقابلها حساب وجزاء.

والإشادة بالناس معنى يتكرر في القرآن الكريم، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء: ٧٠].

وفي كثير من المواضع يأتي الخطاب المكي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[2]، وأيُّ رفعة للبشر أعظم من أن يخاطبهم ربهم خطابًا مباشرًا في نص قدسي يُتلى إلى يوم الدين!

* ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾﴾:

لم يستعذ من الوسواس، بل من شرِّه؛ لأن الوسواس يعرض للإنسان فيدفعه ولا يضره، كما في الحديث أنهم قالوا: يا رسولَ الله، إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم

---

(١) ينظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٦٠٧)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٣٤٢)، و«أمالي اليزيدي» (ص٣٩).

(٢) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٤٠٩)، و«الكشاف» (١/ ٨٩).

أحدُنا أن يتكلم به؟ فقال ﷺ: «**وقد وجدتموه؟**». قالوا: نعم. قال: «**ذاك صريحُ الإيمان**»(١).

فلم يضرهم، ولم يكن شرًّا بالنسبة لهم؛ لأنه محض الإيمان، وهو كيد الشيطان الذي عجز عن التأثير عليهم به، فرد الله كيده إلى الوسوسة، كما قال ﷺ: «**الحمدُ لله الذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسة**»(٢).

وفي هذا إشارة إلى أن مجرد حصول الوسواس في القلب ينبغي أَلَّا يُقلق الإنسان، وإنما يستعيذ بالله تعالى من شره، وكثير من الناس ليست مشكلتهم المرض ذاته، فقد يكونون في عافية منه، بل مشكلتهم الخوف من المرض، ولذلك كان من أفضل ما يُوصَى به المبتلون بالوسواس هو الإهمال.

والشيطان مثل الكلب إذا التفتَّ إليه لحقك وتحرَّش بك، وإذا أهملته وتركته نبح ثم تركك.

والوسواس مأخوذ من الوسوسة، كالزلزال والزلزلة، وهو الصوت الخفي، كما قال الأَعْشَى(٣):

تَسْمعُ للحَلْي وَسْوَاسًا إذا انصرفتْ ... كما استعان بريح عِشرِقٌ زَجِلُ

فالوسواس هنا: صوت الحَلي الخفيف إذا احتك بعضه ببعض، فهو ليس شيئًا ظاهرًا، ولكنه مؤثِّر في قلب الإنسان، فتسميته بـ«الوسواس» إشارة إلى ضعفه، وأن تأثيره السيئ ناتج عن الاستجابة والإصغاء.

و﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: صيغة مبالغة، فهو يخنس، أي: يرجع، يقال: خنسَ، إذا اختفى، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥- ١٦]، **قيل**: هي النجوم التي تطلع وتغيب، فقوله: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ يعني: أنه كلما ذُكر الله تعالى

(١) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٨٢٧)، وأحمد (٢٠٩٧، ٣١٦١)، وأبو داود (٥١١٢)، وابن حبان (١٤٧).

(٣) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص٥٥).

خنس وهرب[1].

فهو إذًا ضعيف في ذاته، سريع الاندحار كلما قاومه الإنسان واستعاذ بالله منه.

ولذا قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، ونستطيع أن نقرنه مع قوله هنا: ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ وهذا معنًى لطيف[2].

ومن ضعفه أنه يوسوس في الصدور، ولم يقل: «في القلوب»، والقلوب في الصدور، ولكن لو كان الوسواس في القلوب لكانت المشكلة أكبر؛ لأن معنى ذلك أن القلب أصبح سكنًا للشيطان، وإنما الواقع أن الشيطان يوسوس في الصدور، ولا يلزم أن تصل وسوسته إلى القلب ولا أن تستقر فيه.

ولما ذكر تعالى آدم وحواء قال: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ﴾ [طه: ١٢٠]، في حين أنه قال هنا: ﴿يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وسوس إليه؛ لأنه كان في الجنة، وكأنه أرسل إليه الوسواس إرسالًا؛ ولذلك جاءت كلمة: «إلى» التي تدل على أنه كان بعيدًا عنه، وإنما يبعث إليه الوسواس بعثًا، أما هنا فقال: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ للدلالة على أن الشيطان يلازم ابن آدم، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**إن الشيطانَ يجري من الإنسان مجرَى الدم**»[3]. يعني: في العروق.

فبدأت السورة بذكر ما يدل على ضعف الشيطان من كون أمره مجرد وسوسة، وأنها كثيرًا ما تندفع، فلا يكون منها شر على المؤمن، وأنها إن أحدثت أثرًا، فسَرْعان ما تخنس وتختفي، وأن ميدانها الصدر وليس القلب.

وثنَّت بما يدعو إلى الحذر منه، وأن أمره قد يتطور ويعظم بالاستجابة.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٤)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٨)، و«تفسير ابن كثير» (٨/ ٥٤٠)، و«التفسير القيم» (ص٦٧٠)، وما تقدم في «سورة التكوير».

(٢) ينظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ١٠٠٣)، و«التفسير البسيط» للواحدي (٦/ ٦٠٤)، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٧٩)، و«تفسير الرازي» (١٠/ ١٤٢)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٢٨٠)، و«روح المعاني» (٣/ ١٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٣٨، ٣٢٨١، ٧١٧١)، ومسلم (٢١٧٤، ٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

* ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾:

قد يُظن أن في نظم الآية إشكالًا؛ حيث قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فبيَّن تعالى أن الشيطان ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

والجواب: يحتمل أن الناس مأخوذ من النوس، وهي الحركة، وعلى هذا فإن الجن يسمون: ناسًا، ويكون المعنى: يوسوس في صدور الناس من الجن والإنس(١).

هذا معنًى ضعيف، وفيه تكرار وتداخل.

وأجود منه أن يكون قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ ليس متعلِّقًا بقوله: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، بل بقوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ أي: بالموسوِس نفسه، فقد يكون الوسواس من شياطين الجن، وهم إبليس وجنوده، أو من شياطين الإنس، وهذا أمر معروف، كما قال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فالشيطان الجني يوسوس، والشيطان الإنسي- وهو قرين السوء- يوسوس، فكأنه قال: استعذ بالله من الوسواس الخناس، سواءً كان وسواسًا إنسيًّا أو جنيًّا، ممن يوسوس في صدور الناس(٢).

وذكر بعضهم معنًى آخر غريبًا، وإن لم يكن مشهورًا عند المفسرين، وهو: أن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الأخيرة يقصد بها الناسي من النسيان، فحذفت الياء.

والمعنى: أن الشيطان يوسوس في صدور الناسي الذي يغفل؛ لأنه إنما يتسلَّط على مَن ينسى ذكر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٧٥٦)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٣٨- ٦٣٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨٢٤)، و«تفسير الرازي» (٣٢/ ٣٧٧- ٣٧٨)، و«تفسير القرطبي» (٢٠/ ٢٦٣- ٢٦٤)، و«التحرير والتنوير» (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (٣/ ٤٧٨)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ٦٣٨)، و«تفسير الماوردي» (٦/ ٣٧٩)، والمصادر السابقة.

وهذا ما يسميه البلاغيون بالجِناس التام بين «الناس» الذين هم البشر، وبين «الناس» الذي هو الشخص الذي ينسى(١).

وهنا تكون الاستعاذة للجن والإنس؛ لأن النسيان يكون منهما معًا، والشيطان يوسوس في صدور كل مَن ينسى، من الجن والإنس.

وعلى هذا الوجه، فليس في السورة تقديم وتأخير، بل آخر آية فيها هي بيان وتفسير لما قبلها.

ولكن يضعِّف هذا القول: مجيء ﴿صُدُورِ﴾ بالجمع، ولو كان السياق: «في صدر الناس» لكان القول متَّجها، والله تعالى أعلم.

○ ○ ○

(١) ينظر: «خزانة الأدب» لابن حجة الحموي (١/ ٧٤- ٨٥)، و«الطراز لأسرار البلاغة» (٢/ ١٨٥).

فهرس المحتويات

سورة الطارق ٥

سورة الأعلى ٢٥

سورة الغاشية ٥٥

سورة الفجر ٦٩

سورة البلد ٩٥

سورة الشمس ١١١

سورة الليل ١٢٥

سورة الضحى ١٣٩

سورة الشرح ١٥٧

سورة التين ١٧٣

سورة العلق ١٨٥

سورة القدر ٢١٧

سورة البينة ٢٢٧

سورة الزلزلة ٢٤٣

سورة العاديات ٢٥٥

سورة القارعة ٢٧١

سورة التكاثر ٢٨١
سورة العصر ٢٩٧
سورة الهمزة ٣١١
سورة الفيل ٣٢٧
سورة قريش ٣٤٥
سورة الماعون ٣٥٩
سورة الكوثر ٣٧٣
سورة الكافرون ٣٨٩
سورة النصر ٤٠١
سورة المسد ٤١٣
سورة الإخلاص ٤٢٥
سورة الفلق ٤٤٣
سورة الناس ٤٥٧
فهرس المحتويات ٤٦٥